

كلية الآداب

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول
"التبادل الحضارى بين شعوب البحر
المتوسط عبر التاريخ"
(يناير ١٩٩٤)

مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ

(١٥ - ١٩ يناير ١٩٩٤)

بحوث المؤتمر

(الكتاب الأول)

FACULTY OF ARTS ALEXANDRIA UNIVERSITY

ALEXANDRIA FIRST INTERNATIONAL CONFERENCE
ON CULTURAL INTERACTION AMONG
MEDITERRANEAN PEOPLES THROUGH HISTORY
JANUARY 15 - 19, 1994

مقرر عام المؤتمر
أ . د . محمد عبده محجوب
وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

رئيس المؤتمر
أ . د . فتحي محمد أبو عيانة
عميد الكلية





كليـة الآداب

مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التبادل الحضاري
بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ
(١٥ - ١٩ يناير ١٩٩٤)

بحوث المؤتمر

(الكتاب الأول)

مقرر عام المؤتمر
أ . د . محمد عبده محجوب
وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

رئيس المؤتمر
أ . د . فتحي محمد أبو عيانة
عميد الكلية

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد

امين عام جامعة الدول العربية

السيد الأستاذ المستشار محافظ الإسكندرية

السيد الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم رمضان

نائب رئيس الجامعة

السيد الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانة

عميد كلية الاداب

السيد الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث

السيدات والسادة

لم يكن من الممكن أن أتخلف عن هذا الجمع وقد تلقيت مشكوراً دعوة من الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانة عميد كلية الآداب لحضور مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ، وذلك لأسباب كثيرة يكفي أن أقول أننى أعتز أننى نشأت وتربيت وتعلمت في هذه المدينة وجامعة الإسكندرية لها الفضل الأكبر .

وأيضاً إن هذا الموضوع الذي تبحثونه اليوم لأول مرة يتناول جانباً هاماً يخص الإسكندرية في الجانب الحضاري الفعال ، واختيار الإسكندرية كأول مؤتمر دولي لهذا هو اختيار موفق ولكم كل التقدير لهذا ، وأتمنى لكم النجاح والتوفيق . وإن كانت الإسكندرية دائماً هي مهد للحضارات الفينيقية والإغريقية والرومانية والبيزنطية والإسلامية فإننا نشعر اليوم أن ما تساهمون به حضراتكم من دراسات وأبحاث سوف يلقى الضوء من هذه الناحية .

لكم جميعاً الشكر والفضل علي هذه الدعوة الكريمة وعلي هذه المشاركة العظيمة والفعالة ، ويهمنى أن أوضح أن جامعة الدول العربية تولي إهتماماً كبيراً بالحوار العربى الأوروبي وهو حوار يتناول الكثير من الاحتياجات السياسية والإقتصادية والثقافية والفنية . أما الجانب الذى يحظي بإهتمام هو ماتتحدثون عنه اليوم وماأستمع إليه من كلمات تعبر عن الدور الحضاري لشعوب البحر الأبيض المتوسط . ونحن فى جامعة الدول العربية بصدد إنشاء الجامعة العربية الأوروبية في مدينة غرناطة بأسبانيا ، وهذه الجامعة أرجو أن ترى النور في أسرع وقت ممكن وقد بدأت دراسات وإجتماعات هامة بين الجامعة العربية والمجموعة الأوروبية في السنة الماضية .

وقد كان لي الشرف بالتوجه إلي مدينة غرناطة واللقاء بعدد من الشخصيات الأوروبية التي سوف تشارك في إنشاء هذه الجامعة وأنني اليوم وأنا أشارك في هذا المؤتمر الدولي بمدينة الإسكندرية في الحقيقة تكتمل الحلقة ، وقد استمعت بكل إهتمام إلي الكلمات العظيمة التي ألقاها كل من السيد الدكتور عبد العزيز سالم والسيد الدكتور محمد عبده محجوب والسيد الدكتور فتحى محمد أبو عيانة . مرة أخري شكراً جزيلاً علي دعوتكم الكريمة متمنياً لهذا المؤتمر كل نجاح وتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة المستشار السيد اسماعيل الجوسقي

محافظ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام علي سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ،

الأخ الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد

الأمين العام لجامعة الدول العربية وابن

الإسكندرية البار وعمادتها العظيمة

السيد الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم رمضان

نائب رئيس الجامعة

السيد الأستاذ الدكتور فتحي أبو عيانة

عميد كلية الآداب ورئيس المؤتمر

السيد الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

وكيل الكلية وأمين عام المؤتمر

مضيفنا الأستاذ الدكتور مصطفي حسن

عميد معهد الدراسات العليا والبحوث

مضيفنا الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم

مدير معهد دراسات البحر المتوسط

علماء الإسكندرية ضيوفنا الكرام السيدات والسادة

إن مؤتمراً يحمل اسم التبادل الحضاري لحوض المتوسط حري به أن ينتظم عطره علي أرض الإسكندرية مهد الحضارات منذ كانت الحضارة المصرية القديمة تتمثل فى قرية راكوتيس وفي جزيرة فاروس ، كما قدم

الأسكندر الأغـريقي إلي هـذه الشـواطىء وبدأ يخطط بواسطة مـهندسين الإسكندرية عاصمة الحضارة . والإسكندرية التي بنيت سنة ٦٣٢ قبل الميلاد وسبق بناؤها تخطيط عمراني لهذه المدينة جعلها من القلائل الباقية التي سبق تخطيطها قبل أن تبني ونحن السكندريون مازلنا حتى الآن نستعمل أسماء لبعض الشـوارع هى تلك التى كانت على خريطة الأسكندر المقدونى لهـذه المدينة . بهذا الفهم نقول أن مدينة عبرتها كل الحضارات حضارة مصر الفرعونية ومروراً بالعصر الإغريقي الروماني واتصالاً بالحضارة القبطية المصرية القديمة ثم بالحضارة الإسلامية لهى جديرة بكل الاهتمام .

إذن كان منطقياً إن كنا نتيه فخراً بتاريخ هذه المدينة ولكننا أيضاً حريصون على أن يظل تواصل الأجيال التي بنت هذه الحضارات القديمة معطاء لحضارة لاتقل شأناً بمشيئة الله عن تلك التي سجلتها كتب التاريخ . وقد كانت الإسكندرية وستظل بمشيئة الله عروس المتوسط . وإذا كنا في هذا الملتقي نسعد باستضافة علماء جاءوا يحدثوننا عن الحضارة في المتوسط ودور الإسكندرية ومدرسة الإسكندرية القديمة التي كانت وبحق أولي الجامعات ذلك أنها لم تكن خزانة كتب فحسب ولكنها كانت مدرسة تعلم العلوم الشابة وها نحن اليوم ومن خلال فكر نبع من هذا المعهد العظيم كلية آداب جامعة الإسكندرية ومن جامعتنا العملاقة نعيد هذه الجامعة القديمة سيرتها الأولي ليس خدمة لمصر فحسب ولا لمنطقتنا فحسب ولكن خدمة للعلم والتعلم علي مستوى العالم أجمع .

السيدات والسادة .. الإسكندرية تسعد بضيوفها الذين قدموا إليها في هذا المؤتمر العلمي ، وتسعد أيضا أن تؤكد أنها وبكافة أجهزتها شعبية وسياسية وتنفيذية تعمل في منظومة متناغمة مع معهدنا العلمي العملاق ..

جامعة الإسكندرية بيت الخبرة الأول في كل منحى من مناحي الحياة ، ولذا كانت لهذه المنظومة آثارها الطيبة في كل حقل من حقول التطور والبناء والمعرفة . نعدكم أن يتواصل هذا الجيل بعطاء أجيال سبقت ، وأن يقدم الرايات مرفوعة لأجيال قادمة . حسبنا دائماً أن نقول أن منارة العلم والمعرفة الإسكندرية ستظل جديرة بأن تحمل إسم عاصمة العلم والثقافة والحضارة .

شكراً لكم

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأستاذ الدكتور عصام أحمد سالم

رئيس الجامعة

التي ألقاها الأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم رمضان

نائب رئيس الجامعة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور عصمت عبد المجيد

أمين عام جامعة الدول العربية

الأستاذ المستشار السيد اسماعيل الجوسقي

محافظ الإسكندرية

السيد الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانة

عميد كلية الآداب

السيد الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

أمين عام المؤتمر

السيد الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم

مدير معهد دراسات البحر المتوسط

السادة العلماء الأجلاء أعضاء المؤتمر

حضرات السيدات والسادة ، يسعدني باسم جامعة الإسكندرية – أعضاء هيئة التدريس والعاملين والطلاب – أن أرحب بحضراتكم وأن أشارككم افتتاح " مؤتمر الإسكندرية الدولي حول التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ " الذي تنظمه كلية الاداب بالجامعة .

وأود في هذه المناسبة أن أوكد حرص جامعة الإسكندرية علي تأييد ودعم المؤتمرات العلمية ، خاصة تلك التي تتعرض لموضوعات يتسع نطاق الاهتمام بها لتشمل العديد من دول العالم أو الانسانية جمعاء ، وتلك التي تضم المفكرين والعلماء من الدول الشقيقة والدول الصديقة .

إن عقد مؤتمركم هذا حول موضوع التبادل الحضاري بين دول حوض البحر المتوسط يأتي في وقته تماماً . فهو يستعرض التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط في عصور سابقة كما أنه دعوة إلي التعاون في مجالات الثقافة والعلوم والتكنولوجيا في عالم اليوم بعد أن انتهت عصور الاستعمار والاستقطاب .

وبعد أن فتحت مصر باباً للسلام العالمى من خلال التفاهم والحوار أدي إلى توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل عام ١٩٧٩ .

وبعد أن بدأ التفاهم والحوار بين أوروبا والعالم العربي ، وأدي إلي اعلان فنيسيا عام ١٩٨٠ .

وبعد أن تزايدت الجهود المشتركة بين الدول الأوروبية شمال حوض البحر المتوسط والدول العربية في الجنوب وأدت الي عقد مؤتمر أثينا للتضامن والتعاون بين شعوب حوض البحر المتوسط عام ١٩٩٢ ، حيث كان الاجماع علي العمل لدفع عملية السلام بين العرب واسرائيل ، وإزالة أسلحة الدمار الشامل من منطقة الشرق الأوسط باعتبارها خطي أساسية لتحقيق السلام العادل والشامل في الشرق الأوسط والعالم .

ان لقائنا اليوم - في تصورى - هو إحياء لدور جامعة الإسكندرية القديمة ... ملتقي الفكر والعلم وملتقي حضارات العالم .، في دعوة التعاون بين الشعوب وبخاصة شعوب حوض البحر المتوسط في ضوء المتغيرات

المعاصرة التي تجعل من الثقافة والعلوم والتكنولوجيا أساساً للتعاون والتقدم والازدهار .

اليوم يلتقي العلماء والباحثون من الجامعات ومراكز البحوث في الدول العربية الشقيقة والدول الصديقة لاستعراض ومناقشة أكثر من مائة بحث حول التبادل الحضاري لدول حوض البحر المتوسط تتضمن بحوثاً عن دور جامعة الاسكندرية القديمة الحضاري والفكري ، والتأثير الثقافي المتبادل بين مصر ودول جنوب أوربا ، والتبادل الحضاري بين العالم العربي في جنوب الحوض ودول أوربا في شماله .

ويلاحظ في مؤتمركم هذا أنه لم يقتصر علي العلماء من دول حوض البحر المتوسط بل يشارك فيه علماء من الولايات الامريكية والسويد والهند ودول الخليج العربي .. الأمر الذي يوكد أن العلم لا وطن له . وان التبادل الحضاري هو السبيل الوحيد لتنمية الشعوب وازدهارها وتحقيق المحبة والسلام بينها .

حضرات السيدات والسادة ... نشكر لكم تفضلكم بالمشاركة في هذا الموتمر ، وتكرمكم بحضور حفل الافتتاح ، كما أشكر اللجنة المنظمة برئاسة الاستاذ الدكتور فتحي أبو عيانة عميد كلية الآداب . وأعرب عن أطيب تمنياتي للمؤتمر بالتوفيق والسداد في الجمع بين دول وشعوب حوض البحر المتوسط بما يؤهلها لممارسة دور ايجابي في النظام العالمي الجديد .

مع أطيب تمنياتي لسيادتكم باقامة طيبة في رحاب جامعة الاسكندرية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

أ . د عصام أحمد سالم

رئيس جامعة الاسكندرية

كلمة الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب
رئيس المؤتمر

السيد الأستاذ الدكتور عصمت عبد المجيد

أمين عام جامعة الدول العربية

الأستاذ المستشار السيد اسماعيل الجوسقي

محافظ الإسكندرية

السيد الأستاذ الدكتور عصام أحمد سالم

رئيس الجامعة

السادة الضيوف :

سيداتى وسادتى : يسعدني في مستهل أعمال مؤتمر كلية الآداب حول التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ . أن أرحب بكم جميعا وأن أنقل لكم شكر أسرة الكلية علي تفضلكم بالحضور في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر اعترافاً بأهميته ودفعاً لأعماله .

إن إهتمام كلية الآداب بعالم البحر المتوسط . أرضاً وشعوباً وحضارة . ليس أمراً مستحدثاً ، بل إن رسالة الكلية من خلال الاسكندرية وجامعتها قد تجلت منذ نشأتها في نشر العلم والمعرفة ، وفي تأصيل مفهوم التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط كاقليم متميز علي خريطة العالم الحضارية ، واستمدت الكلية هذه الرسالة من تقاليد عريقة وتاريخ طويل ارتبط بموقع الاسكندرية الجغرافي وعطائها الحضاري على امتداد مايقرب

من عشرين قرناً بين صعود وهبوط ، ومد وجزر ، وأخذ وعطاء .

وقد تمثل اهتمام كلية الآداب بعالم البحر المتوسط وحضارته فى مجالات عديدة سواء في مرحلة الليسانس أو في مرحلة الدراسات العليا والبحوث ، فقد أنشأت مبكراً قسماً للدراسات اليونانية والرومانية ، وحظيت دراسات المغرب والأندلس بنصيب وافر من مقررات أقسام التاريخ واللغة العربية والجغرافيا والأنثروبولوجيا والاجتماع والفلسفة ، كما أنشأت الكلية معهداً عالياً لدراسات البحر المتوسط تحددت رسالته منذ انشائه سنة ١٩٨١ في : " دعم وتنمية الدراسات الثقافية والعلمية والحضارية بين مصر ودول البحر المتوسط ، وتطوير الانفتاح المتبادل بينهما في هذه المجالات " . وطُوِّرت لائحته أخيراً لتشمل تخصصات متقدمة في ثلاثة مجالات هي : الدراسات الأندلسية والمغربية ، والدراسات البيئية ، ومجتمعات وثقافات البحر المتوسط .

غير أن إيمان كلية الآداب برسالتها في حوض البحر المتوسط والتبادل الحضاري المتواصل بين شعوبه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، تجلي في حقيقة أذكرها أمام حضراتكم بفخر واعتزاز وهى أن مشروع احياء مكتبة الاسكندرية القديمة نبعت فكرته أصلاً من كلية الآداب ، وبالتحديد من أحد أساتذتها الكبار المتخصصين في الحضارة والتاريخ اليوناني والرومانى وهو الدكتور مصطفي العبادى ، تلك الفكرة التي بدأت ارهاصاتها المبكرة في منتصف الخمسينيات ، وما فتىء يبشر بها ويدعو لها حتى تبنتها جامعة الاسكندرية ثم الدولة ثم العالم كله بعد ذلك من خلال منظمة اليونسكو .

ومن نافلة القول أن التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط ليس وليد العصر الحديث ، بل يضرب بجذوره في أعماق التاريخ ، وأسهمت الاسكندرية بالدور الأكبر من خلال موقعها ووظائفها ومكتبتها القديمة التي كانت أول معهد علمي حقيقي في تاريخ العالم نشأ قبل الميلاد بثلاثمائة عام تقريباً ، واستمر هذا الدور بعد ذلك وبدرجات متفاوتة خاصة في العصر الاسلامي والعصر الحديث والمعاصر ، حتي أصبحت الاسكندرية سفيرة لمصر باكملها لدي شعوب البحر المتوسط ملتقي لحضاراته ، كما انها هبة هذا البحر وعروسه وحاملة لثقافته عبر العصور ، انعكس التبادل الحضاري بينها وبين مدنه وشعوبه علي حياتها ولغتها واقتصادها بل وعلي عادات السكان وأنماط الحياة .

ومن هنا - أيها السادة - تحددت أهداف المؤتمر ومحاوره منذ البداية ليكون تجمعاً علمياً لعرض البحوث والدراسات المتخصصة والتي تعرض مظاهر التأثير والتأثر والأخذ والعطاء في المجالات التاريخية والأثرية والجغرافية والاجتماعية واللغوية والديموغرافية لعالم البحر المتوسط ، وكيف كانت الروابط الحضارية قوية الجذور على مر التاريخ من خلال التحركات السكانية والاختلاط البشري بين شعوب البحر المتوسط الأسيوية والأوروبية والأفريقية ، أو بين العرب والأتراك في الجنوب والشرق والأوروبيين في الشمال .

سيداتي وسادتي :

لقد كان الأمل يحدونا منذ البداية ونحن نعد لهذا المؤتمر أن نصل به

إلي نتائج تفيد في تدعيم أواصر العلاقات بين شعوب البحر المتوسط وفي البحث عن قواسم مشتركة لتنمية تلك العلاقات أملاً في مستقبل مشرق لأبنائه في عالم أخذ يتمحور حول التجمعات الاقليمية والكيانات السياسية ، والتي قد تختلف في لغاتها وثقافتها ولكنها تتفق في مصالحها المشتركة وتسعى إلي الارتقاء بحياة الإنسان وحقوقه وهى تودع هذا القرن وتتطلع إلي القرن الحادي والعشرين بأمل وعزيمة وإصرار .

أيها السادة :

يطيب لي في ختام كلمتي أن أعبر عن شكري الجزيل لكل الزملاء الذين أسهموا في انجاح هذا المؤتمر واثراء بحوثه التي تربو على الستين بحثاً من معظم دول حوض البحر المتوسط ، وأخص بالذكر الاستاذ الدكتور / محمد عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار المصرية الذي أثر علي أن تتحمل الهيئة تكاليف طبع ملخصات بحوث المؤتمر دعماً للمؤتمر وتأكيداً لدور الهيئة في التنوير الأثري والحضاري في مصر .

كما أتوجه بعظيم الشكر للأستاذ الدكتور مصطفي حسن عميد معهد الدراسات العليا والبحوث الذى هيأ لنا هذا المكان المتميز لعقد مؤتمرنا فيه ، ولم يتردد لحظة في الاستجابة لكل ما طُلب منه لانجاح المؤتمر .

وأجد لزاماً عليّ أن أتوجه بالشكر للمستشار السيد اسماعيل الجوسقي محافظ الثغر والذي أسهم في دعم المؤتمر من خلال هيئة تنشيط السياحة ورئيسها النشيط الأستاذ / حازم أبو شليب .

وأخيراً فإن الشكر كل الشكر للاستاذ الدكتور عصام أحمد سالم

رئيس جامعة الاسكندرية والذي تفضل برعاية هذا المؤتمر . وقدم كالعهد به دائماً كل عون مستطاع لانجاحه وذلك من خلال شخصيته المتميزة وانسانيته المتدفقة ، وإيمانه العميق برسالة الجامعة ودورها الخلاق . كما أتوجه بعظيم الشكر لاستاذنا الفاضل الدكتور عصمت عبد المجيد أمين عام جامعة الدول العربية الذي يحمل علي كاهله هموم أمة بأسرها من المحيط الي الخليج ومع ذلك كله فقد آثر أن يشرفنا بحضوره هذا اليوم .

ومرة أخري بأسم كلية الاداب وبأسمى أرحب بكم جميعاً مع أطيب التمنيات بأن يحقق المؤتمر أهدافه ونتائجه المرجوة وعلى الله قصد السبيل .

كلمة الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

أمين عام المؤتمر

سيادة الأستاذ الدكتور عصمت عبد المجيد

أمين عام جامعة الدول العربية

السيد المستشار سيد اسماعيل الجوسقي

محافظ الإسكندرية

السيد الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم رمضان

نائب رئيس الجامعة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

السيد الأستاذ الدكتور فتحي محمد أبو عيانة

عميد الكلية

السيد الاستاذ الدكتور عبد العزيز سالم

مدير معهد دراسات البحر المتوسط

أحييكم تحية طيبة مباركة من عند الله . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأرحب بكم في هذا الصباح المشرق المفعم بالحب والأمل والتواصل علي شاطيء البحر المتوسط وفي مدينة الاسكندرية العريقة الجميلة التي احتضنت منذ فجر التاريخ واحدة من عجائب الدنيا السبع . كما أرحب بكم بيننا في كلية الاداب التي تحيطكم بسعادة أساتذتها وطلابها وجميع العاملين فيها باستقبالكم واجتماعكم في مؤتمرها الأول حول التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط عير التاريخ .

لقد جاءت المبادرة باقتراح اقامة هذا المؤتمر من معهد دراسات البحر المتوسط منذ حوالي عامين ، وتلقت جميع الأقسام العلمية والمعاهد العليا

بالكلية تلك المبادرة بكل ترحيب وتشجيع ، وأعلنت الدعوة لانعقاد المؤتمر واستجاب لها العديد من الاساتذة والباحثين في مجالات الاتصال والتبادل الحضاري الفكرية واللغوية والأثرية والتاريخية والفنية والسكانية والاقتصادية والثقافية في جامعات أسبانيا – الامارات العربية المتحدة – إيطاليا – البحرين – بلغاريا – تونس – سوريا – السويد – فرنسا – قطر – الكويت – الاردن – السعودية – الولايات المتحدة الامريكية – المغرب – الهند ، ومختلف الجامعات المصرية .

وبناء علي تلك الاستجابات الطيبة والمقترحلت التي تلقتها اللجنة التنظيمية للموتمر تمت الصياغة المبدئية لمحاوره وجلساته لتعني بما يلي بوجه خاص :-

- الاتصال الحضاري بين مصر وشعوب البحر المتوسط عبر التاريخ
- الاسكندرية حاضرة عالمية
- البيئة والسكان والثقافة في حوض البحر المتوسط
- تاريخ الرياضة والاتصال الحضاري في حوض البحر المتوسط
- الروابط العلمية بين المسلمين والاوروبين في البحر المتوسط
- مجتمعات وثقافات البحر المتوسط
- حول اللغة والفنون والآداب في مجتمعات البحر المتوسط
- مصر في كتابات الرحالة
- الحضارة الاسلامية في حوض البحر المتوسط

وقد بلغ عدد البحوث التي تلقتها اللجنة التنظيمية للمؤتمر لتكون أوراق

العمل في جلساته نحو خمسة وتسعين بحثاً ، ولكن جدت بعض الاسباب التي تتعلق بتوقيت إقامة المؤتمر ، والتي ترجع الي تعذر توفير المخصصات المالية لتغطية نفقات السفر بالطائرة ، وقد أدت تلك الاسباب الي عدم تمكن عدد من الزملاء الذين رغبوا فى القدوم للمشاركة في مؤتمرنا هذا والذين كانوا بلاشك سيثرون جلساتنا ومناقشاتنا .. ونحن سنعمل كل ما في وسعنا ليتمكنوا من الاطلاع علي وقائع الموتمر وبحوثه التي ستنشر بإذن الله .

أساتذتي وزملائي الافاضل :

يطيب لي في الكلمة الافتتاحية هذه أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير لكل من معالى الدكتور عصمت عبد المجيد والسيد المستشار سيد اسماعيل الجوسقى وسيادة الاستاذ الدكتور محمد ابراهيم رمضان والي جميع الأساتذة الضيوف لتفضلهم بحضور هذه الجلسة الافتتاحية ، وكم نكون سعداء ومحظوظين حين يتيح لهم وقتهم المشاركة في جلسات المؤتمر .

كما أشكر للأخ الدكتور فتحي محمد أبو عيانة عميد الكلية دعمه المادى والمعنوي للمؤتمر وأهنئه وأشاركه وزملائى أعضاء اللجنة التنظيمية للمؤتمر بهجة هذا اللقاء .

وبجانب هذا فانى أشكر للسيد الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار ماقدمته الهيئة من تسهيلات في مجال طباعة برنامج المؤتمر وملخصات أوراقه .

وأشكر أيضاً السيد الأستاذ حازم أبو شليب رئيس هيئة تنشيط السياحة بالاسكندرية لكل ماقدمه من تسهيلات ومازودنا به من نشرات وماتم من اتصالات لانجاح المؤتمر ان شاء الله . كما اتقدم بجزيل الشكر ايضاً

للأستاذ الدكتور مصطفي حسن عميد معهد الدراسات العليا والبحوث لاستجابته الفورية مرحباً بانعقاد المؤتمر في هذه القاعة وتقديم كل التسهيلات التي طلبت من سيادته وأكثر . وأشكر أيضاً السيد الأستاذ محمد زعلوك رئيس مجلس مركز ومدينة رشيد ترحيبه باستقبال أعضاء المؤتمر في يوم سياحي ثقافي يختتم أعمال إجتماعنا العلمى الدولى هذا .

أما أساتذتي وزملائى وتلاميذي من أعضاء اللجنة التنظيمية للمؤتمر وإدارة الكلية الذين لم يبخلوا بالوقت والجهد في الاعداد للمؤتمر والذين يقفون الآن وطوال أيام المؤتمر مرحبين بتنفيذ كل ما من شأنه ان ييسر جلسات المؤتمر ويتيح لأعضائه اقامة سعيدة بالاسكندرية فاني أحييهم وأسجل سعادتي بالعمل والتعاون معهم طوال الفترة الماضية ، مشيراً بوجه خاص الي الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مدير معهد دراسات البحر المتوسط والذي كان من أشد المتحمسين والمتطوعين للعمل في تنظيم هذا المؤتمر .

وأخيراً أختتم كلمتي بالترحيب بكم مرة اخرى متمنياً لكم مؤتمراً موفقاً واقامة سعيدة بالاسكندرية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

كلمة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم

مدير معهد دراسات البحر المتوسط

سعادة الأستاذ الدكتور أمين عام جامعة الدول العربية

السيد المستشار محافظ الإسكندرية

الأستاذ الدكتور نائب رئيس جامعة الإسكندرية

الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب

الأستاذ الدكتور أمين عام المؤتمر

الزميلات والزملاء :

إنه تشريف كبير لي أن ألقى هذه الكلمة باسم معهد دراسات البحر المتوسط الذي اقترح عقد هذا الملتقي العلمي الكبير بالتعاون مع أقسام كلية الآداب المعنية بموضوعه ، وتحت الرعاية السامية للأستاذ الدكتور عصام أحمد سالم رئيس جامعجة الاسكندرية ، وبرئاسة الاستاذ الدكتور فتحي محمد ابو عيانة عميد كلية الاداب ، وأمانة الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب وكيل كلية الاداب لشئون الدراسات العليا والبحوث . فموضوع المؤتمر يتعلق بالتواصل الحضارى في عالم البحر المتوسط ، وهذا التواصل أزلي ، شمل جميع الشعوب المطلة علي حوض هذا البحر الذي يربط بينها منذ أقدم العصور برباط وثيق اقتصادياً بالدرجة الأولي ، واجتماعياً ، وعلمياً ، وفنياً . ففي العصر القديم تمكن الفينيقيون من ربط حضارتهم في شرق البحر المتوسط بالمغرب وشبه جزيرة أيبيريا ، فكانت الصلات التجارية لا تنقطع بين الثغور المطلة علي هذا البحر شرقيّه وغربيّه ، ويكفي للدلالة علي ذلك العثور علي تماثيل فرعونية صغيرة في جزيرة ميورقة من جزر الأندلس

الشرقية ، كما أن التماثيل التي تم العثور عليها في شرق الأندلس لاسيما في بلدتي إلشى Elche وقرطاجنة Cartagena لاتختلف كثيراً عن نظائرها الفينيقية . وكانت الاسكندرية في العصر البطلمي أعظم مراكز الفكر الهلليني ، وكان مجمعها العلمي مناراً ساطعاً يُشع تأثيراته إلي آفاق بعيدة من عالم البحر المتوسط ، وظلت كعبة لطلاب العلم في العصرين البطلمي والروماني ، واحتفظت بهذه المكانة في أعقاب الفتح العربي لمصر ففيها تلقي خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء علي يد راهب سكندرى ، وفيها ظهرت أولي المدارس السنية بمصر في العصر الفاطمي قبل ظهور نظام المدارس السلجوقية في الشرق الأدني الاسلامي بسنوات كثيرة ، وإليها كان يفد طلاب العلم من بلاد المغرب والأندلس للسماع علي شيخيها السلفى والعوفي ، وفيها نزل من شيوخ الأندلس أبو بكر الطرطوشي في العصر الفاطمى ، ومحمد بن سليمان الشاطبى وأبو العباس المرسي في العصر المملوكي ، وأصبحت في هذا العصر من أعظم مراكز العلم فى مصر ، وكانت باباً للمغرب الإسلامى ومعبراً للحجاج الوافدين براً وبحراً من المغرب ، ورباطاً للجهاد ضد اعتداءات الفرنج المتواصلة عليها وكان لذلك أعظم الأثر في رسوخ بعض التقاليد المغربية والأندلسية في هذا الثغر السكندري وانصهارها في مجتمعه . وفي المجال الفنى كان منار الاسكندرية منذ تأسيسه من الانجازات المعمارية المعجزة ، فشاعت حوله القصص والأساطير ، وأصبح منذ القدم مصدر إلهام لعرفاء البناء في عالم البحر المتوسط ، قلد في مناطق مختلفة من حوضه ، ومن أمثلة ذلك منار قادش الروماني الذي كان علي حد قول الجغرافي العربي الزهري صورة مصغرة من منار الاسكندرية من حيث الشكل العام كما اتخذه المغاربة الذين كانوا يكثرون من التردد علي الإسكندرية من حيث الشكل العام

أنموذجاً لمئذنتي المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الجامع بسفاقس في تونس ، ومن حيث المطلع الداخلي الذي يقتصر على طريق صاعد يدور حول النواة الداخلية حتي يصل الي أعلي المئذنة كان مثالاً احتذته مآذن مسجد قلعة بني حماد من العصر الصنهاجى بالجزائر ، وجامع الكتبية بمراكش ، وجامع حسان بالرباط في المغرب ، وجامع القصبة بإشبيلية في الأندلس .

هذا وقد تبادل المغرب والأندلس مع مصر الكثير من العناصر الفنية المعمارية والزخرفية التي تتمثل في عدد كبير من المساجد والأضرحة والمدارس كمئذنة جامع الحاكم بأمر الله ومئذنة مسجد الحيوشي ومئذنة جامع ابن طولون وبعض التفاصيل الزخرفية بمدرسة المنصور قلاوون ومدرسة الحابي اليوسفي . كما أن الفن الفاطمي في المغرب أثر تأثيراً عميقاً في فنون البناء وفي زخارف التحف الخزفية والعاجية والبللورية بصقلية ، ومن صقلية انتقلت بعض التقاليد الفنية المغربية إلي كالابريا بجنوبي ايطاليا .

وبالإضافة إلي هذا المعبر الحضاري هناك معبر آخر للتواصل الحضاري في عالم البحر المتوسط وأعني به الأندلس الذي عن طريقه عرف الغرب الأوروبي نظماً معمارية اشتهرت بها بلنسية ومرسية ومنيشه في شرق الأندلس وأفادت منها الصناعات الخزفية الفرنسية ، وكذلك المنسوجات الموشية التي ذاعت شهرتها في مصر والشام وانتقلت صناعاتها إلى الأندلس ومنها انتقلت إلي أوربا . وفي مجال الأدب تأثر التروبادور والتروڤير بالشعر الغنائي الأندلسي وقلدوه فيما يعرف بالشعر البروڤنسي ، وفي مجال العلوم تولت مدرسة الترجمة بطليطلة في القرن الرابع عشر مهمة نقل أشهر كتب الفلسفة والطب والجراحة والفلك العربية إلي اللغة اللاتينية ومن طليطلة انتقلت

هذه العلوم إلي فرنسا وايطاليا وانجلترا ، وكان ذلك عاملاً من عوامل النهضة الأوروبية .

وهكذا كان عالم البحر المتوسط عبر العصور وحدة في كافة مناحي الحياة أدبية ومادية ، رغم انقسامه إلي كيانات سياسية منفصلة ومتعادية في كثير من أزمنته التاريخية ، لاسيما في العصر الوسيط ، وساعد علي توثيق عرى الترابط بين أقطاره المختلفة الجزر المتناثرة بين سيفيه الشمالي والجنوبي ومنها صقلية وسردانية ومالطة والبليار وكريت وقبرص وردوس ، فكانت هذه الجزر جسوراً تربط بين سواحله ، ومعابر للقيم الحضارية بين عالميه الشرقي والغربي ، كما ساعد علي هذا الترابط الرحلات المتواصلة لطلب العلم بين مراكزه المختلفة أو للتكسب بالتجارة أو لأداء الحج إلي الأراضي المقدسة المسيحية والإسلامية ، وكذلك الهجرات الأندلسية إلي المغرب ومصر والشام والأناضول عندما اشتد سعر الممالك المسيحية في إسبانيا ضد دولة الإسلام في الأندلس حتى سقوط مملكة غرناطة ، وخاصة بسبب سياسة التنصير بالإكراه التي أعقبت ذلك .

سيداتي وسادتي :

إنني على يقين من أن هذا الملتقي الكبير الذي نشهده اليوم سيكون مقدمة للقاءات مقبلة من أهدافها الأساسية توثيق أواصر الوحدة بين شعوب البحر المتوسط ، وإتاحة المجال للتعاون المشترك من أجل حاضر أفضل لهذه الشعوب ومستقبل يسوده التضامن والرخاء والإزدهار والسلام .

وفقكم الله فيما أنتم بسبيله ؛

والسلام عليكم ورحمة الله .

مقـــدمة

جاءت الدعوة إلي عقد مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ متزامنة مع إحتفال كلية الآداب بجامعة الإسكندرية بعيدها الذهبى الأول والإحتفال بمرور خمسين عاماً علي إنشائها وتواصل عطائها في مجالات الفكر والمعرفة .

وقد استجاب لتلك الدعوة علماء وباحثون من جامعات ومراكز بحوث مصرية وعربية وعالمية ، وشارك في أعماله التى امتدت في الفترة من ١٥ إلي ١٩ يناير ١٩٩٤ وفود من أسبانيا ، والإمارات العربية المتحدة ، وإيطاليا ، والبحرين ، وبلغاريا ، وسوريا ، والسويد ، وفرنسا ، وقطر ، والكويت ، والمجر ، والأردن ، والمملكة العربية السعودية ، والمغرب ، والهند ، ومختلف الجامعات المصرية .

وتعددت محاور المؤتمر وموضوعات مناقشاته فشملت مايلى :-

- الاتصال الحضاري بين مصر وشعوب البحر المتوسط عبر التاريخ
- الإسكندرية حاضرة عالمية
- البيئة والسكان والثقافة في حوض البحر المتوسط
- اللغة والفنون والآداب فى مجتمعات البحر المتوسط
- تاريخ الرياضة والاتصال الحضارى في حوض البحر المتوسط
- مصر في كتابات الرحالة
- الحضارة الإسلامية في حوض البحر المتوسط
- الروابط العلمية بين المسلمين والأوربيين في البحر المتوسط

وبجانب هذا كله فقد تضمن المؤتمر برامج ثقافية واجتماعية متنوعة

تمثلت في الجـولات الحـرة ، وزيارة الأمـاكن الأثرية بالإسكندرية ، ورحلة لمشاهدة الآثار الإسلامية والتعرف على التراث الشعبى في رشيد .

ويصدر هذا المجلد الأول الذى يضم جانباً من بحوث الأساتذة أعضاء المؤتمر ليعبر عن التكامل التى تميزت به جلسات العمل والمناقشات التى دارت في جلساته التسع .

والله من وراء القصد ....

الإسكندرية فى أول يناير ١٩٩٥ .

مقرر عام المؤتمر

أ . د . محمد عبده محجوب

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث

جامعة الإسكندرية

الفهرس

رقم الصفحة

الأدب العربى
وحضارة البحر الأبيض المتوسط
فى العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور
عثمان موافى
أستاذ النقد الأدبى ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب ـ جامعة الأسكندرية

سادتى :

لا يخفى على أى باحث فى تاريخ الأمم والشعوب العريقة التى أسهمت إسهاماً كبيراً فى بناء صرح الحضارة والمدنية ـ الصلة الحميمة بين الأدب والحضارة، التى هى فى الحقيقة أشبه بصلة الروح بالجسد.

وتعد الحضارة فى أوضح معانيها مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى، وهذا التطور يشمل جوانب الحياة المادية والمعنوية .

وتبدو مظاهره واضحة فى الرقى العلمى والفنى والأدبى (١) .

ولهذا يعد بعض مؤرخى الحضارات الإنسانية الأدب عنصراً هاماً من عناصر الحضارة (٢) ، يمثل الجانب المعنوى منها؛ لأنه فى واقع الأمر تعبير وجدانى عن أحاسيس الفرد أو الجماعة، ومرآة صادقة ينعكس عليها كل ما يطرأ على الحياة والمجتمع من تغير أو تطور، وتقدم أو تأخر .

ولذا فليس من المعقول التغاضى عن بعض الحقائق العلمية والتاريخية، التى تربط التطور الأدبى بالتطور الحضارى والاجتماعى.

وصحيح أن تطور الأدب، قد يكون أبطء خطىً من تطور بعض مظاهر الحضارة، والمادية منها بنوع خاص، لكنه فى نهاية الأمر، يساير ركب هذا التطور الحضارى. وعلى هذا فليس هناك أدب، حي، يعيش بمعزل عن حضارته أو أي حضارة تجاوره . والمتأمل الفطن فى تاريخ

---

(١) الصحاح للجوهرى ـ مادة « حضر »، ط : بيروت .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ ١ من المجلد الأول، ص ٣.

الآداب العالمية، يدرك هذه الحقيقة إدراكًا واعيًا . والواقع أن أدبنا العربى عبر تاريخه الطويل، لم يعش منعزلا عن حضارته، أو عن الحضارات المجاورة له، بل تفاعل معها تفاعلاً قويًا.

ويبدو هذا بشكل واضح منذ أقدم عصوره، ونعنى بذلك العصر الجاهلى. ويكاد يجمع مؤرخو هذا العصر على أن الجاهلية المغرقة فى القدم والتى ترجع إلى أزمان بعيدة، تتجاوز القرن الخامس الميلادى، أخبارها مضطربة (١) . ويعوزها التوثيق العلمى الدقيق.

أما الجاهلية القريبة عهد بالإسلام، والتى ترجع إلى قرن ونصف قبل ظهور هذا الدين الحنيف، فيمكن الوثوق بصحة بعض أخبارها، وإخضاع ما يشك فى صحته للنقد التاريخى الدقيق.

ويستدل مما صح من أخبار هذا العصر، وتراثه الأدبى أن الشعر، كان يلعب دوراً هاماً فى حياة العرب، فقد كان علمهم (٢) ، ومستودع معارفهم، ولسانهم الناطق باسمهم والمعبر عن أفراحهم وأتراحهم.

وبالرغم من افتقار كثير من القبائل العربية إلى الوحدة السياسية، فإن الشعر كان عنصراً موحداً بين كثير من هذه القبائل، سواء فى لغته، أم فى صياغته الفنية، يضاف إلى ذلك أن هذا الفن اللغوى، وما يتعلق به من أخبار، يصور عادات العرب، وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية، خير تصوير.

كما يكشف عن صلاتهم القوية بالحضارات الأجنبية المجاورة لهم، مثل حضارة فارس، وحضارة الروم.

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ١، ص ١٠.

(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء حـ ١، ص ٢٢، ط : الأولى.

والتى احتلت كل منهما مكاناً فى الجزيرة العربية، واتخذت منها نافذة لها، يطل إشعاعها الحضارى على هذه البيئة وشعرائها .

وقد تمثلت الحضارة الفارسية فى إمارة المناذرة بالعراق، كما تمثلت حضارة الروم فى إمارة الغساسنة بالشام.

وقد كانت كل إمارة، من هاتين الإمارتين تخضع للنفوذ السياسى، للدولة صاحبة الحضارة الأجنبية التى تتبعها، وهى فى الوقت نفسه، تستضىء بحضارتها مقلدة إياها فى كثير من مظاهر هذه الحضارة (١) .

ولم تعش هاتان الإمارتان فى عزلة عن عرب الجزيرة وإنما كان هناك اتصال دائم بينهما عن طريق التجارة بنوع خاص (٢) .

وما أكثر الشعراء الذين وفدوا على هاتين الإمارتين وأعجبوا بألوان الحضارة والترف الأجنبى (٣) الذى لم يروا مثيلا له فى باديتهم، ثم عبروا عن هذا فى أشعارهم .

ويبدو هذا بوضوح عند شاعر كثر تردده على هذه البيئات الحضارية، كالأعشى. ومما يصور ذلك عنده وصفه مجلس شراب حف بالورد والآس والسوسن، وكثير من الزهور المجتلبة من بيئات حضارية .

يطوفُ بها ساقٍ علينا مُتومٌ ... خفيفٌ ذفيفٌ مايــزال مُفَدَّمَا

بكأس وإبريق كأن شــرابه ... إذا صُبَّ فى المِصْحَاةِ خالط بَقَّمَا

---

(1) D., Leary, Aribia before Mohammed, Sectore ward.

(٢) بلاشير : تاريخ الأدب العربى، ص ٦٨ ـ ٦٩، ترجمة إبراهيم الكيلانى.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٣، انظر أخبار حسان بن ثابت جـ ١٥، وأخبار النابغة فى جـ ١١ من الأغانى.

لنا جُلَّسَانٌ عندها وبَنَفْسَــــجٌ وَسِيسَنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَمَا
وآس وخيريٌ ومَرْوٌ وسَوْسَـــنٌ إذا كان هنزمن ورحت مُخَشَّمَا
وَشَاهَسْفَرِمْ والياسمين ونرجس يُصَبِّحُنا في كل دجن تَغَيَّمَــا [١]

ومن الشعراء الذين كثر ترددهم كذلك، على هذه البيئات الحضارية، وظهر أثر ذلك فى أشعارهم ـ المنخل اليشكرى.

ومصداقاً لهذا قوله مصوراً مظاهر الحضارة والترف التى تبدو على بعض النسوة، وصاحبته، متمثلة فى رائحة المسك، التى تفوح منهن، والثياب الحريرية التى ترفل فيها صاحبته.

يَرْفُلْنَ، فى المســـك الذكـ يّ وصــــائك كَدَمِ النَحيرِ
يعكفـن مثل أســـــاود الـ تَّنوم لم تعكف لـــــزور
ولقد دخلـــت على الفـــتا ة الخدرَ فى اليوم المطـــــير
الكاعـــب الحســـناء تــر فُلُ فى الدمقـس وفى الحرير
فدفعتهـــــــا فتدافعـــت مشى القطـــــاة إلى الغدير [٢]

يضاف إلى ذلك أن بعضاً من ألفاظ هذه الحضارات الأجنبية، تسربت إلى الشعر العربى فى هذا العصر [٣] ، إما عن طريق الشعراء أنفسهم الذين كانوا يقيمون إقامات طويلة فى هذه البيئات الحضارية [٤] ،

---

(١) ديوان الأعشى، قصيدة رقم ٥٥، تحقيق الدكتور / محمد حسين .
(٢) الأصمعيات، القصيدرة رقم ١٤.
(٣) التيارات الأجنبية فى الشعر العربى، ص ٢٠ ـ ٢٢، ط : الثانية.
(٤) راجع ما كتبه بلاشير عن الشعر فى بلاط اللخميين بالحيرة، تاريخ الأدب العربى، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٢، ترجمة الكيلانى.

أو عن طريق الاحتكاك الاجتماعي بين عرب الجزيرة وأهل هذه الحضارات.

وقد أشار « الجاحظ » إلى أن بعض الأسر الفارسية قد استقرت فى المدينة منذ زمن بعيد وأثرت فى لغتها .

ومثل لذلك ببعض الألفاظ الفارسية، التى دخلت لغة أهل المدينة عن هذا السبيل (١).

ولا ينبغى أن نغفل فى هذا المجال دور التجارة، فى نقل كثير من الألفاظ التى تحمل أسماء بعض السلع، والأطعمة والملابس، وأدوات الزينة.

وما ترتب على ذلك من نقل لبعض الأفكار والعادات الاجتماعية التى كان لها تأثير لا يستهان به، فى توسيع مدارك الإنسان العربى (٢) ، وتغيير بعض أنماط حياته الاجتماعية، وانعكاس هذا كله على شعر هذا العصر.

وبهذا يتضح لنا أن المؤثرات الحضارية التى مست الحياة العربية قبل الإسلام، امتدت آثارها إلى شعر هذا العصر .

وهذا يؤكد صحة القول بأن الأدب العربى فى العصر الجاهلى، كان على صلة وثيقة بحضارات عصره.

(١) البيان والتبيين، جـ ١ ص ١٩، ط هارون.

(٢) بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ص ٧٠.

أما بعد الإسلام، فقد قويت هذه الصلة، توثقت عراها، وتلاحم الأدب والحضارة الإسلامية تلاحماً قوياً كما سترى . ومرد ذلك، أن هذه الحضارة، لم تكن غريبة عليه، وإنما كانت أقرب إليه من حبل الوريد، وأمس به رحماً من الحضارات السابقة.

وقد انبعث ضوءها من بيئة الجزيرة العربية، ثم ما لبث أن عمّ هذا الضوء أرجاء العالم شرقاً وغرباً . وقد بسطت هذه الحضارة ظلها على البحر الأبيض المتوسط قروناً من الزمن، كانت لها السيادة على شاطئيه (١)، وأثرت تأثيراً كبيراً في بيئة هذا البحر، وشعوبه، سواء الذين يعيشون على شاطئه الشرقي، أم الذي يعيشون على شاطئه الغربي (٢).

وظهر أثرها واضحاً في نشأة الحضارة الأوربية الحديثة (٣) .

والواقع أن هذه الحضارة، قامت على دعائم قوية، منها الوحي الإلهي، واجتهادات العلماء والمفكرين المسلمين في مختلف فروع العلم والمعرفة، وإبداعاتهم في الفنون والآداب . ومع هذا فقد استضاءت بأقباس من حضارات الشرق الأدنى القديم، ومصر الفرعونية، وحضارة اليونان، شأنها في هذا شأن كل الحضارات الإنسانية . فليس هناك حضارة لم تقتبس عن غيرها من الحضارات ، فكل حضارة أبدعت ونقلت وكان لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قط حضارة تفردت

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٣ ـ ٣١٨، وراجع كذلك تراث الإسلام، ص ١ ـ ٧٩، وكذا ص ١٤٩ ـ ـ ص ٢٢١.

(3) Warton, History of English poetry vi p.a.

وراجع جوستاف لوبون،حضارة العرب، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

بالإبداع أو تفردت بالنقل، أو خلت من السمة التى تميزها بين سمات الحضارات »[1].

وفى رأيى أن دعوى نقاء بعض الحضارات دعوى باطلة، فالحضارة اليونانية مثلا، والتى يقال عنها أنها معجزة المعجزات، تأثرت فى نشأتها بالحضارة المصرية القديمة، وبعض حضارات الشرق الأدنى القديم[2].

ومعظم هذه الحضارات ازدهرت فى بيئة البحر الأبيض المتوسط أو تأثرت بحضارات هذه البيئة، وينطبق هذا الحكم على الحضارة الإسلامية، التى تأثرت كما أشرنا بكثير من هذه الحضارات سواء التى ازدهرت فى بيئة البحر الأبيض المتوسط كالحضارة اليونانية، والحضارة المصرية، أم التى تأثرت بحضارات هذه البيئة[3].

وقد امتد هذا التأثر فشمل كثيراً من نواحى الحياة المادية، وتجاوز ذلك إلى الحياة العقلية والفكرية.

فمن المعروف أن أهم مظاهر التأثير الأجنبى فى الحضارة الإسلامية، تتمثل فى نظم الحكم وإدارة الدولة . كما تتمثل فى بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، وبعض المناحى الفكرية والعقلية[4].

وقد نشأ هذا كله، نتجية للاحتكاك الاجتماعى، والاتصال المباشر، بأصحاب هذه الحضارات، الذين دخل كثير منهم فى الإسلام، كما لعبت الترجمة دوراً لا يستهان به فى هذا المجال.

---

(١) العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوربية، ص ٢٨.

(٢) جورج سارتون، تاريخ العلم، ص ٣٥٣.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٧.

(٤) راجع الباب الثانى من كتابنا : التيارات الأجنبية فى الشعر العربى .

ومن الثابت تاريخياً أن حركة الترجمة أو النقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، بدأت بداية رسمية منذ أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر بنى العباس. ومرت بمراحل مختلفة، عنيت كل مرحلة منها بنوع خاص من العلوم والمعارف، وكان الاهتمام فى البداية بكتب الطب والفلك، ثم تحول الاهتمام إلى الفلسفة والمنطق، وسائر العلوم والمعرفة، حتى شملت كتب الأسمار والخرافات، والحكم والأمثال [١].

وباستثناء هذا النوع من الكتب، والتى يغلب عليها الطابع الأدبى، يلاحظ أن معظم الكتب المترجمة إلى العربية كانت فى الطب والفلك والفلسفة.

يضاف إلى ذلك أن المادة العلمية والفلسفية والأدبية، التى دخلت الثقافة العربية عن طريق الترجمة، يرجع معظمها إلى ثلاث حضارات، هى الحضارة اليونانية، والحضارة الفارسية، والحضارة الهندية [٢].

وقد كان لهذا كله أثر كبير، فى ازدهار الحضارة الإسلامية. والواقع أن تأثر الحضارة الإسلامية بالحضارات الأجنبية على النحو الذى أشرنا، لم يطغ على شخصيتها، ويفقدها أصالتها، لأنه لم يمس جوهرها، بل مظاهرها الخارجية، وفضلا عن ذلك فإنه كان مصدر ثراءٍ لها، سواء فى الناحية العقلية، التى بلغت درجة عالية من الرقى الفكرى، أم فى الحياة

---

(١) راجع الفصل الخاص بالترجمة فى كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين، جـ ١.

(٢) راجع كتابنا: التيارات الأجنبية فى الشعر العربى، ص ١١٢ ـ ١٣٧، ط: الثانية، دار المعرفة الجامعية.

الاجتماعية، التى كان يحياها كثير من الأثرياء وعلية القوم، والتى كانت تحفل بالترف المادى، الذى أصبح سمة بارزة من سمات هذه الحضارة (١).

وقد انطبع كثير منه على الشعر فصوره أبدع تصوير وأصدقه، ويبدو هذا بوضوح فى وصف بعض شعراء العصر العباسى الذى يعد العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، قصور الخلفاء، ومظاهر الترف التى تبدو عليها . كوصف علي بن الجهم قصر الخليفة المتوكل، الذى يسمى «الهارونى» على أنه عمل حضارى بديع، يبذ آثار الفرس والروم.

ومن المظاهر التى تدل على ذلك، صحونه الفسيحه، وقبته الفضية التى تبهر من يراها، وشرفاته العالية المزخرفة بزخارف متنوعة، والمتألقة ببديع نظم فسيفسائها :

بدائع لم تــــــرها فارس	ولا الروم فى طول أعمارها
صحون تسافر فيها العــيون	وتحسر عن بعد أقطــارها
وقبة ملك كأنّ النجـــــو	م تفضى إليها بأســـرارها
تخر الوفود لها سجــــداً	إذا ما تجلّت لأنصــــارها
إذا لمعت تستبين العــــيو	ن فيها منابت أشـــفارها
وإن أوقدت نارها بالعــــرا	ق ضاء الحجاز ســنا نارها
لها شرفات كأن الـــربيع	كساها الرياض بأنـــوارها
نظمن الفسيفس نظم الحلي	لعون النساء وأبـــكارها (٢)

(١) ولهذا السبب فهم ابن خلدون الحضارة على أنهاالترف، راجع المقدمة ص ١٥٤، ط : الشعب.

(٢) ديوان علي بن الجهم، ص ٢٨ ـ ٢٩، تحقيق خليل مردم .

ومن ذلك وصف البحترى قصر « الكامل » أحد قصور الخليفة العباسى « المعتز » ، معبراً عن إعجابه بمظاهر الحضارة والترف التى يتحلى بها، كحيطانه المصنوعة من زجاج رائق، كلون المياه الصافية، ورخامه المخطط بخطوط بيض كأنها غمام سحاب، وسقفه الذى سقف بذهب خالص كأنه النور، وبستانه الذى خلعت عليه الطبيعة بروداً من الحرير :

وكأنَّ حيطان الزجاج بِجَـــــوِّهِ ... لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنُوب سَوَاحِلِ

وكأن تفويف الرُّخَـــام إذَا التـقى ... تأليفُهُ بالمنظر المتقابــــــــــلِ

حبُكُ الغمـــام رُصِفْــن بين مُنَمَّرٍ ... ومُسيَّرٍ، ومقاربٍ، ومُشـــاكلِ

ليست من الذهب الصقيل سقُوفُهُ ... نوراً يضيءُ على الظـلام الحَافلِ

فترى العيون يجلن فى ذي رونـق ... متلهب العالي أنيق الســــافلِ

فكأنما نشرت على بســـــتانه ... سِيرَاءُ وَشي اليمنة المتواصــلِ (١)

ويكثر وصف الشعراء فى هذا العصر لمظهر آخر من مظاهر هذا الترف الحضارى، الذى يتمثل فى البرك الصناعية داخل قصور الخلفاء، والأثرياء من الناس، أو فى الحدائق العامة (٢).

من ذلك مثلا وصف البحترى بركة المتوكل، وقد صورها على أنها آية من آيات الفن والجمال البديع، حتى يخيل للناظر إليها أنها ليست من صنع إنسان، ويصف وفود الماء ، وهى تندفع كأنها الخيل التى أفلتت من أزمة سائسها، ويبدو ماؤها كالفضة المذابة. أما أسماكها فبالرغم من أنها سريعة فى العوم، لا تصل إلى نهايتها :

---

(١) ديوان البحترى، جـ ٣، ص ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩ ، تحقيق حسن كامل الصيرفى.

(٢) راجع كتابنا التيارات الأجنبية فى الشعر العربى، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨.

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها
بحسبها أنها من فضل رتبتها تعد واحدة، والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طوراً، وأطوار تُباهيها
كأن جن « سليمانَ » الذين وَلُوا إبداعها فأدقوا في معانيها
تَنْحَطُّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلَةً كالخيل خارجة من حبل مُجْريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماءً رُكِّبَتْ فيها
لا يبلغ السَّمَكُ المحصور غايتها لبعد ما بيَّنَ قاصيها ودانيها
يَعُمْنَ فيها بأوساط مُجَنَّحَةٍ كالطير تَنْفُضُ في جوٍّ خوا فيها
لهن صحن رحيب في أسافلها إذا انحططن وبهو في أعاليها [1].

وشبيه بهذا، وصف علي بن الجهم بركة قصر الهاروني، التي يعدها إحدى العجائب، التي لم يخلق الله مثلها، في مشارق الأرض، أو مغاربها. ويصورها والحدائق المحيطة بها، كأنها عروس تزينت يوم عرسها، كما يصور إعجابه برؤية أمواج المياه وهي تتلاطم داخلها، وحركة المد والجزر.

حفت بما تشتهي النفوس لها وحارت الناس في عجائبها
لم يخلق الله مثلها وطنا في مشرق الأرض أو مغاربها
كأنها والرياض محدقة لها عروس تُجْلى لخاطبها
من أي أقطارها أتيت رأيـ ـت الحسن حيران في جوانبها
للموج فيها تلاطم عجب والجذر والمد في مساربها
قدرها الله للإمام وما قدر فيها عيباً لعائبها

(١) ديوان البحتري، جـ ٤، ص ٢٤١٦ ـ ٢٤١٩.

وينطبق هذا الحكم على الأدب العربي في العصر الإسلامي، فقد تأثر في تطوره الفني، بما طرأ على العرب من تغير وتطور حضاري ؛ وذلك بعد انتقالهم من البادية إلى الحاضرة، حيث الحياة المريحة الناعمة، المفعمة بالترف المادي.

وبتمادي الزمن تغيرت طبائعهم، وترققوا في تعبيراتهم وألفاظهم، التي جاءت ملائمة للحياة الحضارية الجديدة. ومصداقاً لهذا قول الناقد الفطن أبو الحسن الجرجاني :

« فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت مسالك العرب ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدو إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلوب موقعاً، وما للعرب فيه لغات، فاقتصروا على أسلسلها وأشرفها، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل، حتى تسمحوا ببعض اللحن، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة.

وأعانهم على ذلك لين الحضارة، وسهولة طباع الأخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ) [١].

وقد تأثرت لغة الأدب بهذا التطور الحضاري، الذي غير من طباع العرب، وتعبيراتهم اللغوية، فظهر أسلوب في الكتابة الأدبية يعد نمطاً وسطاً من الأساليب الأدبية، ليس بالغريب الوحشي، ولا بالعامي المبتذل [٢]،

---

(١) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ١٨ ـ ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩، وكذا البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١، ص ١٣٦.

ويتسم بالرشاقة والعذوبة، ووضوح الدلالة، بلا إسفاف ولا ابتذال فى التعبير.

وقد أطلق بعض الكتاب على هذا، اسم الأسلوب المولد [1].

وقد تأثرت بنية القصيدة الشعرية بهذا التطور الحضارى، فثار بعض الشعراء على المقدمة الطللية، ونظروا إليها على أنها غير مناسبة للحياة الحضارية التى يحيونها. وقد لاحظ هذا ابن رشيق فقال : « وكانوا قديماً أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر، فذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم، وليست كأبنية الحاضرة، فلا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً » [2].

وعلاوة على ذلك فإن هذه الحياة الحضارية الجديدة قربت المسافة بين الممدوح والمادح، فأصبحا معاً فى مدينة واحدة، لذا لم تكن هناك حاجة إلى وصف الرحلة، أو المطية التى يركبها المادح لكى يصل إلى الممدوح.

وقد عبر أبو نواس عن ذلك فى قوله مخاطباً أحد ممدوحيه :

إليك أبا العباس مِنْ دون مَنْ مَشَى عليها امتطينا الحضرمي الملسـنا [3]

فظروف هذه الحياة الحضارية الجديدة، جعلت الشاعر يذهب إلى ممدوحه، الذى يعيش معه فى مدينة واحدة ممتطياً نعله لا ظهر جواد أو بعير.

(١) راجع كتابنا من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، جـ١، ص ١٣٢ ـ ١٣٣، ط الثالثة، دار المعرفة الجامعية.

(٢) العمدة لابن رشيد، جـ١، ص ٢٢٦.

(٣) ديوان أبى نواس، ص ٦٥٩، ط بيروت.

ولذا وجدنا بعض المجددين من الشعراء ، يضربون صفحاً عن المقدمة الطلية ووصف الرحلة، ويستهلون قصائدهم بالتعبير عن ذواتهم، أو وصف الطبيعة أو الربيع كصنيع أبي تمام في إحدى مدائحه التي استهلها بوصف الربيع وطبيعته المشرقة، والتي مطلعها :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغـدا الثرى في حليه يتكسـرُ [1]

وقد وصل الأمر ببعضهم، إلى تناول موضوع المدح تناولا مباشراً، دون مقدمات [2].

وقد امتد هذا التأثير الحضاري، إلى صور الشعراء وأخيلتهم. ومن المعروف أن الشاعر يستمد صوره من البيئة المحيطة به. ولذا غلبت الصور البدوية على شعر شعراء البادية في الجاهلية والإسلام.

أما الشعراء الذين عاشوا في بيئات حضارية، وتأثروا بمظاهر الحضارة، وترفها المادي بنوع خاص، فقد تأثرت صورهم بهذه الحياة الحضارية [3].

وقد لاحظ، مثلا، بعض من ترجم لابن المعتز من القدماء، أنه يستمد صوره الحضارية، من الحياة الحضارية المترفة التي يحياها [4].

وفضلا عن ذلك، فإن النزعة إلى التصوير بعامة، والتي غلبت على بعض فنون الشعر العربي في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، كانت أثراً من آثار التطور الذي أحدثته هذه الحضارة في طباع الناس، وفي أمزجتهم

---

(١) راجع ديوان أبي تمام جـ ٢، ص ١٩٤، ط دار المعارف.

(٢) راجع الفصل الذي كتبته عن البناء الفني للقصيدة في كتابي : الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم، ص ٢٢٥ ـ ٢٥٥.

(٣) راجع مثلا باب التشبيه في الكامل للمبرد، وكذا أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.

(٤) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، جـ ١٠، ص ٢٧٤، ط دار الكتب المصرية.

الفنية، ودفعتهم إلى الجرى وراء كل جديد مستطرف.

وقد ترتب على هذا تيقظ حواس الشعراء ، ونفاذها إلى بواطن الأشياء ، للكشف عن خصائصها، وكانت وسيلتهم إلى ذلك التصوير.

وهذا شيء لم يألفه العرب، فقد كان الشعر عندهم « فناً لغوياً أداته الألفاظ، وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف عنهم اختلافاً واضحاً فى الثقافة والفكر وكان لكثير منهم فنون غير الفنون الكلامية كالتمثيل والتصوير، ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هي القابضة على زمام الفن الأدبي زاد الشعر التصويرى زيادة كبيرة » (١).

ويتصل بهذه النزعة التصويرية، شيوع التشخيص والتجسيم فى شعر كثير من الشعراء الذين تأثروا فى شعرهم ببعض المظاهر الحضارية، المتأثرة بحضارات أجنبية (٢). والتى شاعت وانتشرت وأصبحت جزءاً من ثقافة العصر، ومن أبرز هؤلاء الشعراء، أبو تمام، وابن الرومى، وابن المعتز، والمعرى.

وبعد : فقد تأكد لنا ؛ أن الأدب العربى لم ينفصل عن حضارة أمته، التى ازدهرت فى بيئة البحر الأبيض المتوسط، بل امتزج بها، وتفاعل معها تفاعلا قوياً، مؤثراً ومتأثراً.

وإذا كانت عظمة الأمم تقاس بما لها من إنجازات حضارية فى شتى فروع العلم والمعرفة، فإن لآدابها نصيباً كبيراً من ذلك، وثراءً وفيراً.

يتضاءل أمامه أى ثراء مادى مهماعظم حجمه أو غلا ثمنه....

---

(١) متز ـ الحضارة الإسلامية، جـ١ ، ص ٤٢١ـ٤٢٢ . ترجمة : محمد عبد الهادى أبى ريدة.

(٢) راجع موضوع « خصوبة الخيال » فى كتابي التيارات الأجنبية فى الشعر العربى، ص ٣٨٣ ـ ٣٩٥، ط : الثانية، الناشر دار المعرفة الجامعية.

القـــيروان

وعلاقتها الفكرية بالحجاز

حتى نهاية النفوذ الفاطمى

بحث مقدم للمشاركة

فـــي

مؤتمر الإسكندرية الأول

١٩٩٤/١/١٥

دكتور /

إبراهيم بن حمود المشيقح

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ

كلية العلوم العربية والإجتماعية

القصيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد .

فهذا بحث بعنوان « القيروان وعلاقتها الفكرية بالحجاز » كان لى الشرف فى تقديمه من خلال مشاركتى فى مؤتمر الاسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ المنعقد فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٤/١/١٥ م .

ولم يكن يدور فى خلدى أن أكتب عن القيروان فكان اتجاهى وكتاباتى عن مصر وعلاقتها الفكرية بالحجاز ، كما اطلعت كثيرا عن العلاقات الفكرية بين الشام والحجاز وبين العراق والحجاز .

وبعد البحث فى بطون المصادر والمراجع استوقفتنى بعض المعلومات عن مدينة القيروان التى تتحدث عن المدينة كمركز علمى وعاصمة دينيه وسياسية لافريقيه قدم اليها عدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدد من التابعين لنشر السنه وغرسها فى تلك البلاد حتى أصبحت مدرسة حديثية تتصل بغيرها من مدارس العلم ومراكزه فى المشرق والمغرب ، كما أن هذه المدينة تختلف عن غيرها من مدن العالم الاسلامى من حيث النشأة والأهمية ، فكانت مركزا دينيا وعسكريا للمسلمين .

وعقدت العزم على متابعة المعلومات من مصادرها محاولا قدر المستطاع ابراز هذا الجانب، من تاريخ القيروان ان شاء الله .

واذ يسعدنى أن أتقدم بالشكر لكلية الآداب جامعة الاسكندرية التى مكنتنى من الاشتراك فى هذا المؤتمر .

كما أتقدم بالشكر لجامعتى الموقرة ممثلة بكلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم ورئيس وأعضاء قسم التاريخ بالكلية لثقتهم الكريمة فى أن أكون ممثلا للقسم وللكلية للمشاركة فى هذا المؤتمر .

كما لا يفوتنى أن أتقدم بالشكر للأخوين الكريمين محمد أبا الخيل وعبد العزيز السنيدى على مساعدتى للحصول على بعض المراجع فجزاهم الله خيرا سائلا المولى سبحانه وتعالى التوفيق والاخلاص فى العمل .

* * * *

القيروان وعلاقتها الفكرية بالحجاز

المقدمة :

ما ان أتم المسلمون فتح مصر حتى سار عمرو بن العاص رضى الله عنه ففتح برقة وطرابلس وترك عقبة بن نافع مع من ترك من الحامية للدفاع عن البلاد المفتوحه .

ففى سنة ٥٠ هـ بدأت افريقيه الاسلامية عهدا جديدا مع القائد عقبة بن نافع .

وافريقيه بكسر الهمزه ، وقيل بفتحها .

وهى الأرض الواقعة بين برقة وطنجه وتشمل المغرب والجزائر وتونس والجزء الأكبر من ليبيا .

يقول صاحب كتاب المؤنس « وعند أهل العلم ان اطلق اسم افريقيه فأنما يعنون به بلد القيروان »[(١)] .

أما القيروان فهو موضع اجتماع الناس والجيش ، وقيل محط أثقال الجيش ، وقيل هى الجيش نفسه[(٢)] .

اذن القيروان اسم للقافلة وللجيش أيضا ، وقيل بفتح الراء الجيش وبضمها القافلة[(٣)] .

---

(١) ص ٢٩ ـ المؤنس فى أخبار افريقيه وتونس .

(٢) معالم الايمان ص ٨ .

(٣) معجم البلدان ٤ / ٤٢٠ ، مراصد الاطلاع ٣ / ٦١٣٩ .

تأسيس القــيروان :

بدأ الفتح الاسلامى الفعلى للمغرب سنة ٥٠ هـ/٦٧٠م فى عهد الصحابى الجليل معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه حيث عقد ولاية افريقية للقائد عقبة بن نافع بن عبد قيس بن كنانه والذى جمع اليه من أسلم من البربر ، بالاضافة الى الجيش الكبير القادم اليه من قبل الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .

يقول ابن عذارى : « فى سنة ٥١ هـ شرع عقبة فى بناء مدينة القيروان واجابة العرب الى ذلك فركب فى وجوه العسكر ومن معه من الصحابة والتابعين فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول يارب اجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر بك »[(١)]. وتسابق المسلمون لبنائها فاستقامت سنة ٥٥ هـ وأصبحت قاعدة افريقية والأندلس ومركزا من مراكز الفكر فى العالم الاسلامى .

وكان المسلمون قبل انشاء القيروان يخرجون لغزو افريقيه وبعد الانتصار يعودون الى مصر وبعد عودتهم الى مقرهم فى مصر ينقض أهل افريقيه العهد المبرم معهم كما يرتد من أهل افريقيه بعض من دخلوا فى الاسلام فقال عقبة لأصحابه : « ان افريقية اذا دخلها امام أجابوه الى الاسلام فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر[(٢)] .

---

(١) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب تحقيق ليفى بروفنسال ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ ١ / ١٩ ـ محمد النيفر : حسن البيان ص ٧٦ ـ محمد المطوى ـ سيرة القيروان ص ١٣ .

من ذلك يبدو ان الهدف من بناء هذه المدينة واضحا وهو جعلها موطنا لنشر كلمة الاسلام وتبليغ دعوة الله ثم الدفاع عن هذه الدعوة ، فالهدف من بنائها دينى وعسكرى . وهذا أمر طبيعى اذ ينبغى على الجيش الفاتح ايجاد مدينة يستقر بها المسلمون وتكون محط رجال الجند منها تنطلق سراياهم وبها يحتمون عن الخطر وتكون المنطلق الطبيعى لنشأة الحياة الاسلامية وتثبيت شعائر الدين واقامة أحكامه فى البلد المفتوح . وقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزو العبادله سنة ٢٧ هـ [١].

ويمكن تلخيص أسباب اختيار هذا المكان « القيروان » :

١ ـ البعد عن الساحل حتى لا تتعرض للاساطيل البيزنطية .

٢ ـ القرب من البادية لنشر الاسلام بين البربر .

٣ ـ تأمين امدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهى الأبل [٢].

القيروان بعد التأسيس :

ولا شك أن هذا الموقع أكسب القيروان بأن تقوم بدور رئيسى فعال فى نشر الاسلام وامتداد نفوذه فى القارة الافريقية وأوربا الغربية والجنوبية وجزر البحر المتوسط وغدت القيروان نقطة ارتكاز وانطلاق فقد سارت الفتوحات فى اتجاهين اثنين ، الأول نحو الغرب سالكا طريق البر ويشمل الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس وجنوب فرنسا .

---

(١) الحسين محمد شواط ـ مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) محمد تميم أبو العرب : طبقات علماء افريقيه وتونس ص ٥٦ .

الاتجاه الثانى نحو الشمال سالكا طريق البحر نحو جزيرة مالطه وصقليه وشبه الجزيرة الايطالية [1] .

وبذلك تم نهائيا فتح افريقيه والمغرب ودان أهل تلك البقاع بالاسلام وشاركوا اخوانهم الفاتحين فى الذود عن حماه .

الا أن هذا الفتح لم ينته فى سنوات قليلة كما اعتاده المسلمون ، فى فتح مدن المشرق انما دام أكثر من ستين سنه بذل فيها المسلمون تضحيات غالية وقدموا اعدادا هائلة من الشهداء من الصحابة والتابعين الذين كانوا بايمانهم وجهادهم واصرارهم بعد توفيق الله تعالى لهم سببا فى اضافة هذا القطر الكبير الهام الى أمة الاسلام [2] .

فكما كانت القيروان منطلق الجيوش الفاتحة كانت كذلك منطلق الدعاة لنشر الاسلام فمن القيروان انتشر الاسلام فى سائر بلاد المغرب ، كما كان لها اسهامات فى الحياة الفكرية ساعد فى ذلك الموقع الجغرافى حيث كانت فى موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبه من أهل المغرب والأندلس فى ذهابهم الى المشرق فيسمعون من علمائها[3] .

ومنذ ذلك العهد أخذت القيروان تدب فى درج التحسين وتزداد اتساعا وانتشارا بتعاقب الولاه والأمراء عليها الى أن انتصبت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م التى تعد أول أسرة مالكة استقلت بأمر افريقيا [4] .

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ١٨ ـ ١٩ .

(٢) الحسين بن محمد شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ / ٤٣ .

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٤) حسن عبد الوهاب : بساط العقيق ص ١١ .

وبولاية ابراهيم بن الأغلب بدأت صفحة جديدة فى حياة القيروان وازدهارها والذى كانت قبل ذلك تعانى من الثورات التى كان يتزعمها قواد من العرب للوصول الى مراكز السلطة . وقد أدرك العباسيون أهمية القيروان وحل مثل هذه الخلافات كما رأت فى القيروان خير مساعد ومساند لها من تلك الأخطار التى تهددها فقد ظهرت فى المغرب الاسلامى عدة دول مناوئة للعاصمة العباسية منها الدولة الأموية بالأندلس والدولة الرستمية فى الجزائر والادريسية فى المغرب الأقصى وكانت كل دولة من هذه الدول تحمل عداوة لبنى العباس لهذا رأى الخليفة هارون الرشيد أن يتخذ سدا منيعا يحول دون تسرب الخطر الشيعى وحط أنظاره صوب القيروان الذى رأى انها قادرة لرد هذه الأخطار فأعطى ابراهيم ابن الأغلب الاستقلال فى النفوذ وتسلسل الامارة فى أعقابه (١) .

استطاع ابراهيم بن الأغلب اعطاء القيروان شبه الاستقلال عن الدولة العباسية مما أدى الى استقرار الأمن وكان ابن الأغلب فقيها أديبا على علم بالحرب وسار بالناس سيرة حسنه . فقد طلب ابن الأغلب العلم فى أول حياته وسمع من الليث بن سعد (٢) .

ففى عهد الأغالبة استقر المذهبان المالكى والحنفى ونشطت الحياة المسجدية وكثر العلماء وتكثفت الرحلة الى المشرق وبدأت المصنفات تدخل القيروان (٣) . وأصبحت القيروان حاضرة المغرب كما أصبحت قرطبة حاضرة الأندلس (٤) .

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) الذهبى ـ سيرة أعلام النبلاء جـ ٩ / ١٢٩ .

(٣) الحسين بن محمد شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ٦٨ .

(٤) ابن خلدون : المقدمه ص ٤٣١ .

استمر حكم الأغالبة فى القيروان قرابة ١١٢ سنه وكانت النهاية سنة ٢٩٦ هـ ، حيث دارة معركة بين زيادة الله بن الأغلب وعبيد الله المهدى الفاطمى التى انهت حكم الأغالبة فى المغرب . وأحلت محلها الدولة العبيدية (الفاطمية) .

وباستيلاء العبيديين على القيروان جمعوا كل بلاد المغرب تحت سيطرتهم . وكان بينهم وبين أهل السنه صراع استمر طوال فترة حكمهم للمغرب . وكان علماء السنه لهم بالمرصاد رغم ضرب البعض وسجن الآخرين وهم صابرون لا يفرون ، وأصبح الموطأ للامام مالك لا يقرأ الا فى البيوت [١] .

وبعد أن توطدت أقدام الفاطميين فى المغرب توجهت أنظار المعز لدين الله الى المشرق لكى يحقق الحلم الذى كان يراود اسلافه منذ أن قامت دولتهم ساعد على تحقيق طموحاته استقرار الأمن فى المغرب واضطراب الأحوال فى مصر عقب وفاة كافور الأخشيدى وسوء الحالة الاقتصادية [٢] .

وعندما انتقل بنو عبيد الى مصر ووصل المعز لدين الله الفاطمى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ لم تفتهم منزلة القيروان وأهميتها فأتخذوها مركزاً لنائبهم فى افريقيه [٣] ، أمراء صنهاجه وكانوا من قبيلة بربرية واستمر المغرب فى وحدته الصنهاجية وتبعيته للفاطميين فى مصر الى أن انقسم البيت الصنهاجى على نفسه فاستقل حماد الصنهاجى عن القيروان مما كان لهذا

---

(١) الحسين بن محمد شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٥ .

(٢) محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٣) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢٦ .

الانقسام نتائجه الأليمة فيما بعد عندما أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن الفاطميين ، فبعث اليه الفاطميون قبائل الاعراب من الهلاليين الذين مزقوا شمل الدولة وقضوا على معالم الحضارة وخربت القيروان ولم تعد العاصمة السياسية القوية أو مركزا تشع منه المعارف والعلوم والآداب (١) .

العلاقات الفكرية :

شهدت القيروان تطورا فكريا لوجود علاقات فكرية وثيقة الصلة بينها وبين غيرها من المراكز الأخرى كمكة المكرمة والمدينة ومصر وكان من نتائجه ظهور عدد من العلماء المسلمين الذين ساعدوا على ارتقاء الحياة الثقافية فى القيروان ، وقد سايرت اللغة العربية الاسلام أينما حل فلا بد للمسلم أن يقرأ القرآن الكريم باللغة العربية ويؤدى صلاته بها وقد دفع ذلك الى تعلمها كما ساعد تعريب الدواوين فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦ هـ الى سرعة تعلم اللغة العربية بين شعوب البلاد المفتوحة فقد أصبحت القيروان مدينة اسلامية تتفاعل مع التفكير الاسلامى وقد تحمس البربر للاسلام واشتركوا فى الجهاد .

وغدت القيروان محط أنظار العلماء وقامت بدور بارز فى نشر الثقافة الاسلامية فى المغرب وكان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد ويعلمون أهلها اللغة العربية وينشرون بينهم الاسلام (٢) .

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) الشيخ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان ص ٢٦ .

الانقسام نتائجه الأليمة فيما بعد عندما أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن الفاطميين ، فبعث اليه الفاطميون قبائل الاعراب من الهلاليين الذين مزقوا شمل الدولة وقضوا على معالم الحضارة وخربت القيروان ولم تعد العاصمة السياسية القوية أو مركزا تشع منه المعارف والعلوم والآداب (١) .

العلاقات الفكرية :

شهدت القيروان تطورا فكريا لوجود علاقات فكرية وثيقة الصلة بينها وبين غيرها من المراكز الأخرى كمكة المكرمة والمدينة ومصر وكان من نتائجه ظهور عدد من العلماء المسلمين الذين ساعدوا على ارتقاء الحياة الثقافية فى القيروان ، وقد سايرت اللغة العربية الاسلام أينما حل فلا بد للمسلم أن يقرأ القرآن الكريم باللغة العربية ويؤدى صلاته بها وقد دفع ذلك الى تعلمها كما ساعد تعريب الدواوين فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦ هـ الى سرعة تعلم اللغة العربية بين شعوب البلاد المفتوحة فقد أصبحت القيروان مدينة اسلامية تتفاعل مع التفكير الاسلامى وقد تحمس البربر للاسلام واشتركوا فى الجهاد .

وغدت القيروان محط أنظار العلماء وقامت بدور بارز فى نشر الثقافة الاسلامية فى المغرب وكان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد ويعلمون أهلها اللغة العربية وينشرون بينهم الاسلام (٢) .

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) الشيخ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان ص ٢٦ .

يتضح من ذلك أن الصلة بين القيروان والحجاز كانت قائمة بكل الطرق الممكنه آنذاك وقد كانت هذه الصلة الوثيقة منذ الأيام الأولى لتأسيس القيروان حيث كان يسكنها عدد من الصحابة والتابعين الذين كانوا قبل مقدمهم الى القيروان يسكنون الحجاز ، ومن هؤلاء الذين قدموا القيروان :

١ ـ المقداد بن عمر البهرانى القضاعى .

٢ ـ كعب بن عمر الأنصارى .

٣ ـ عمر بن عوف المزنى .

٤ ـ سلمه بن عمرو بن الأكوع .

٥ ـ أبو زمعة عبيد بن أرقم البلوى وغيرهم كثير .

ويذكر الدكتور محمد زيتون نقلا عن الدباغ ان اثنا عشر صحابيا يصفهم بأنهم من صغار الصحابة نزلوا القيروان منهم :

١ ـ عاصم بن عمر بن الخطاب .

٢ ـ عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب [(١)]. وان كنت أرى ان عدداً كبيراً من هؤلاء ليسوا صحابه فلم يدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ساعد الخليفة العادل عمر بن عبد العرير فى ازدهار الحياة الفكرية فى القيروان عندما ارسل على رأس القرن الثانى للهجرة من يفقه سكان افريقيه ولا سيما البربر . وكان من بين هؤلاء الفقهاء العشرة من أهل مكة والمدينة بعد ذلك دخلت العلاقة الفكرية بين القيروان والحجاز مرحلة أعمق من خلال الرحلات العلمية التى قام بها بعض مريدى العلم من أبناء

---

(١) محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

القيروان الى مكة والمدينة . وكانت العلوم بمكة المكرمة قد اتسعت فأصبحت تشمل المغازى وأيام العرب والأنساب . وكان الصحابى الجليل عبد الله بن عباس خير مثال نقدمه لغزارة علمه ، يقول عطاء بن رباح :

« ما رأيت مجلسا أكرم من مجلس ابن عباس..ولا أكثر علما .. [1] »

فقد أسهم ابن عباس رضى الله عنهما فى بناء نهضة علمية بمكة المكرمة تمثلت بتلك الصفوة من العلماء الأجلاء عطاء بن أبى رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعبيد الله بن مليكه وطاووس وعكرمة وغيرهم .

كما أن الامام مجاهدا له اسهامات فعاله فى النهوض بالحركة العلمية بمكة المكرمه وتمثل اسهاماته فى تعليمه قراءة القرآن وتفسيره والفقه والحديث .

ويأتى سعيد بن جبير ت ٩٥ هـ الذى كان له جهود مشمره فى نشر العلم فخلف طلابا فى معظم البلدان الاسلامية ، أما الزهرى فيمثل نقله نوعية فى الحركة العلمية فى المدينه .

وكان للرحلات العلمية التى قام بها بعض علماء القيروان الى المدينة أثرها الكبير فى نشر المذهب المالكى فى القيروان ، حيث كان اللقاء المستمر مع امام دار الهجرة مالك بن أنس فى المدينة الذى تتلمذ عليه الكثير من أبناء القيروان ثم يعودون الى ديارهم لنشر هذا المذهب حتى أن اسد بن الفرات الذى ذهب الى العراق وكتب أول الأمر عن أصحاب أبى حنيفه نراه

---

(١) عبد العزيز الهلابى : مقال نشر فى مجلة الداره بعنوان الحركة العلمية بمكة فى العصر الأموى ص ٢٥ .

يعدل عن ذلك فيما بعد ويتصل بابن القاسم أحد أصحاب الآمام مالك كما صحب بعد ذلك الامام مالك ونقل عنه مروياته المجموعة فى تأليفه الاسدية . كما سمع من الامام مالك أبو خارجة الغافقى وحاتم بن عثمان المعافرى وعمر بن الحكم اللخمى وزكريا بن محمد بن الحكم اللخمى وصقلاب بن زيادة الهمدانى [1] .

أما عن انتشار المذهب المالكى فى القيروان فيعود الى على بن زياد (ت ١٨٣ هـ) الذى دخل القيروان ومعه كتاب الموطأ للامام مالك وفسر لهم قول مالك فأقبل اليه أهل القيروان لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين البساطة والاصاله واعتماده على الحديث ، ولأنه مذهب مبنى على حديث أهل الحجاز وهم الكثرة والصفوة من الصحابة والتابعين ، كما أن التقدم الزمنى للمذهب المالكى عن مذهب الامام الشافعى والامام أحمد، حيث لم تكن هذه المذاهب موجوده بعد فكان الخيار بين القرويين محصورا بين المذهبين الحنفى والمالكى فجنبوا الأول ، لاشتهاره بالميل الى الرأى وأقبلوا على الثانى لاعتماده على الحديث وموافقة ذلك ما فى نفوسهم من التعطش الى السنه [2] .

فالحجاز مكه والمدينه مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهاجره ومن الطبيعى أن تكون لها نهضة علمية شرعية كالاهتمام بالفقه والحديث والتفسير والقراءات ، أو بمعنى آخر الاهتمام بالعلوم النقلية وقد أثمر هذا

---

(١) ـ تميم أبو العرب : طبقات علماء افريقيه وتونس ص ١٣٩ .

ـ المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيه ص ١٦٢ .

(٢) الحسين شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ص ٩٤ .

الجو العلمي الديني عن نشوء مذهب الامام ابن أنس ت ١٧٩ هـ كما عرف بمذهب أهل المدينة ويعرف كذلك بمذهب أهل الحجاز تعميما [١].

من هنا كانت رحلات علماء القيروان الى الحجاز ولعل خير ما يوضح لنا احترام المغاربة لمدرسة الحجاز العلمية بكل أوجهها انه قل أن نجد أحد يرتحل الى المشرق فلا يعرج على الحجاز ولعل بعضهم يكتفى بالرحلة الى الحجاز وحده دون غيره [٢].

استمرت هذه الرحلات بعد وفاة الامام مالك حيث قدم من القيروان الى المدينه ومكه أبو يحى حماد بن يحى الذى سمع من علماء المدينة ، كما قدم عوف بن يوسف الخراعى بعد موت مالك بسنه [٣].

أما أبو سعيد سحنون عبد السلام بن سعيد ت ٢٤٠ هـ فقد رحل الى مكة والمدينه فأخذ عن العلماء هناك وحاول أثناء رحلته أن يستقصى مذهب الامام مالك فى كل البلاد التى زارها ، ومن كل العلماء الذين التقى بهم فسمع بمكه من عبد الرحمن بن مهدى ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث وغيرهم ، ومن المدينة عبد الله بن نافع الصائغ وسفيان بن عيينه [٤].

وعاد الى القيروان وقد أحاط بكل المسائل المالكية وألف « المدونه » التى هى استدراك على « الاسديه » وتصحيح لها فمال الناس الى التفقه بكتب سحنون وأقبل علماء القيروان على « مدونة » سحنون بالاختصار والشرح [٥].

---

(١) يوسف أحمد حواله : الحياة العلمية فى افريقيه ـ رسالة دكتوراه ص ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) محمد زيتون : القيروان ودورها الحضارة ص ٤٢١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

وقد اشتغل سحنون منذ عودته الى القيروان بتدريس المدونه ونشر مذهب الامام مالك وقد كثر تلاميذه وأتباعه الذين أخذوا العلم عنه وتأدبوا بأدبه فكان السحنون أثر قوى فى ازدهار الحياة الفكرية ونضوجها لا فى القيروان وحدها بل فى المغرب كله ويكفى أن نشير الى ما ذكره ابن الدباغ ان سليمان بن سالم قال فى مجلسه : دخلت مصر ورأيت العلماء متوافرين فيها والمدينة ،مكه وبها ثلاثة عشر محرابا فما رأيت فيهم مثل سحنون وابنه من بعده [1].

أما محمد بن سحنون ت ٢٥٦ هـ الذى تربى فى كنف والده وكان يناظره ويسمع بعض كتب ابنه ، حيث كانت القيروان مركز اشعاع المذهب المالكى وتبحر ابن سحنون فى علوم الشريعة فبرز واشتهر فأشار عليه والده بأداء فريضة الحج والتزود من علماء مصر والحجاز سنة ٢٣٥ هـ .

ولعل من المفيد أن نشير الى وصية والده له عند سفره : « اذا أردت الحج تقدم طرابلس وكان فيها رجال مدنيون وفيها الرواه وفيها فقه مالك ومصر وفيها الرواه ، والمدينه وفيها عش مالك ومكه فأجهد جهدك » [2].

ارتحل سحنون الى مكه لأداء فريضة الحج وأخذ عن علمائها كما اتجه نحو المدينه فلقى أبا مصعب وسلمه بن شبيب وغيرهم وأخذ عنهم [3]. وكان بداية لقياه الزهرى لما دخل المسجد النبوى فوجد جماعه محلقين على أبي مصعب الزهرى ت ٢٤٢ هـ فنبههم ابن سحنون الى نكته غريبه

---

(١) الدباغ : معالم الايمان جـ ٢ / ٥٣ .

(٣) عبد الرحمن عثمان : المذهب التربوى عند ابن سحنون ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) الخشنى : طبقات علماء افريقيه ص ٩ .

فأستوى أبو مصعب فالتفت الى سحنون وقال من أى البلاد أنت ؟ قال : من افريقيه . قال : من أى بلد ؟ قال : من القيروان . فقال أبو مصعب الزهرى : ينبغى أن تكون أحد رجلين أما محمد بن سحنون ، وأما أحمد بن لبده فعرفه عندئذ واضافة مدة اقامته ، حيث أخذ عن الزهرى ويعقوب بن حميد بن كاسب وسلمه بن شبيب وغيرهم [1].

اقترن انتشار المذهب المالكى فى المغرب الاسلامى باسم ابن سحنون ولا يكاد يذكر ابن سحنون الا ويذكر معه كيفية امتداد المذهب المالكى لقد تابع بن سحنون رسالة والده فى تثبيت المذهب المالكى وتصدى بالفكر والمناظره لجميع التيارات والآراء التى حاولت أن تكون حجر عثره فى وجع انتشاره .

أما الفقيه عبد الله بن عمر بن غانم الرعينى قاضى القيروان ت ١٩٠هـ فقد ارتحل الى المشرق فدخل مصر والحجاز فى طلب العلم وأخذ عن الامام مالك الموطأ وسمع منه أحاديث أخرى وكان الامام مالك به حفيا يجلسه بقربه فى حلقة الدرس ويبالغ فى اكرامه حتى انه عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم فى المدينه فأبى ابن غانم الا أن يسافر وكان بينهما مكاتبات بعد عودة ابن غانم الى القيروان .

كما سمع ابن غانم بمكه من سفيان الثورى ولبث عند سفيان عدة أشهر وسمع من داود بن قيس المدنى واسرائيل بن يونس السبيعى وعثمان ابن الضحاك المدنى وهو من كبار أصحاب مالك . عاد بن غانم الى القيروان بعلم جم وجلس فى جامع عقبة يسمع مروياته فأقبل عليه الطلاب [2].

---

(١) عبد الرحمن حجازى : المذهب التربوى عن ابن سحنون ص ٢٢ .

(٢) الحسينى شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ٢ / ٦٥٠ ـ ٦٥١ .

بعثه عمر بن عبد العزيز :

اهتم الخليفة عمر بن عبد العزيز بأمر السنه وحرص على تدوينها وتعليمها لمن يجهلها من أهل القيروان فأختار بعثته هذه مكونه من عدد من رجال العلم وقد حرص كل عضو فى هذه البعثه على القيام بهذه المهمة فبنى قرب داره مسجدا وقد كان لهؤلاء العشرة آثاراً هامة فى نشر السنه العمليه والاعتقاد به ، ومن هؤلاء :

١ ـ اسماعيل بن عبيد الله أبى المهاجر القرشى . أرسله عمر بن عبد العزيز رئيسا للبعثه العلميه وأميراً على القيروان سنة ٩٩ هـ فسار بالناس بالعدل وأسلم على يديه من بقى من البربر ومكث فى القيروان معلما للناس السنه لمدة ثلاث وثلاثين سنه ، حيث توفى سنة ١٣١ هـ [١] .

٢ ـ بكر بن سواده الجذامى أبو ثمامه ت ١٢٨هـ روى عنه كثير من أهل القيروان .

٣ ـ جعثل بن عاهان الرعينى القتبانى ت ١١٥ هـ تولى قضاء الجند بالقيروان .

٤ ـ حيان بن جبلة القرشى أخذ عنه أهل القيروان عدة أحاديث أخذها عن ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين وبقى يبث العلم فى القيروان أكثر من خمس وعشرين سنه .

٥ ـ سعد بن مسعود التجيبى روى عنه من أهل القيروان مسلم بن يسار الافريقى وعبيد الله بن زخر وعبد الرحمن بن زياد الافريقى .

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢١ .

٦ ـ طلق بن جعبان الفارسي روى عنه من أهل القيروان موسى بن علي وابن أنعم .

٧ ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخي ت ١١٣ هـ . حدث عنه من القرويين عبد الرحمن بن زياد الافريقي وعبد الله بن زحر الكناني وبكر بن سواده الجذامي وغيرهم .

٨ ـ عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني . ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩ هـ .

٩ ـ عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي ت ١٠٠ هـ بالقيروان . أجمع العلماء على توثيقه . شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير ثم عاد الى القيروان وتوفي فيها [١] .

١٠ ـ موهب بن حي المعافري .

ولم يقتصر أمر هذه البعثة على التثقيف الديني فحسب ، بل نجدهم يقومون بمهمات سياسية أخرى فعندما ثار أهل طنجة على حنظله ابن صفوان استنجد حنظله بتلك البعثه وكتبوا له رسالة بعث بها الى الثوار يدعونهم فيها بالتمسك بأمور الدين والى الطاعة والنية الصالحة [٢] .

كما تأثرت الحياة الفكرية بالقيروان بمن قدم اليها من المشرق أمثال الحسن بن سعيد البصري ت ١٧٨ هـ أحد كبار نحاة البصرة الذي استفاد منه شباب القيروان وعامر بن المعمر بن سنان التميمي الذى نقل الى

---

(١) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢١ .

(٢) محمد المطوى : سيرة القيروان ص ٢٢ .

القيروان أيام العرب وأخبارها ووقائعها وعياض بن عوانه الكلبى الكوفى ت ١٧٥هـ الذى تعلم أبناء القيروان على يديه علم النحو والأدب وابراهيم بن محمد الشيباني ت ٢٩٨هـ الذى تولى الكتابة فى نهاية دولة الاغالبة [١].

تأثير أبناء القيروان :

أشرنا فيما سبق عن تأثر القيروان بعلماء الحجاز كما كان لها تأثير على المراكز الأخرى ، حيث تتميز القيروان رغم تأخر تأسيسها انفرادها ببعض الأحاديث التى رويت عن الصحابة رضوان الله عليهم . فنجد أن سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعه وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك يروون بعض الأحاديث عن أبناء القيروان [٢]. من ذلك ما رواه سفيان الثورى قال : جاءنا عبد الرحمن بن زياد الافريقى بستة أحاديث يرفعها الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم أسمع أحد من أهل العلم يرفعها [٣].

وكان الامام مالك لا ترد اليه مسألة فى مجلسه وعبد الله بن فروخ حاضر الا قال أجب يا أبا محمد فيجيب ثم يقول الامام مالك هذا كما قال ثم يلتفت مالك الى أصحابه ويقول : هذا فقيه المغرب [٤].

ويكفى أن نشير الى أن الفاطميين عند رحيلهم الى مصر فى عهد المعز لدين الله أخذ معه العلماء من القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والكتاب والأطباء كما اصطحب معه مكتبة ضخمه من القيروان الى القاهرة

(١) حوليه كلية اللغة العربية بالقاهرة مقال د / محمد زيتون : الحياة الفكرية فى القيروان بين التأثير والتأثير ـ حوليه ص ٣٣٢ .

(٢) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقيه وتونس ص ٩٩ .

(٣) الدباغ : معالم الايمان جـ ١ ص ١٣٦ .

(٤) محمد زيتون : الحياة الفكرية فى القيروان بين التأثر والتأثير حوليه ـ ص ٣٣٤ .

ولا شك ان كل ذلك يعتبر مظهر من مظاهر تأثير القيروان فى المراكز الأخرى [1].

الرســـــائل :

تعنى بالرسائل المكاتبات العلمية بين العلماء فكانت هذه الرسائل أحد الطرق التى تصل القيروان بالحجاز مما تعطى دلالة واضحة على قوة العلاقة الفكرية بين القيروان والحجاز من ذلك ان عبد الله بن فروخ كان يكاتب مالك بن أنس وكان عبد الله بن غانم قاضى القيروان اذا أشكلت عليه مسألة أو قضية أرجأ أمر الخصمين حتى يعود اليه جواب الامام مالك بن أنس [2]. أما سحنون فقد كتب مرارا الى عبد الله بن الماجشون فى المدينه[3].

أما الطريق الثالث الذى كان يصل القيروان بالحجاز عن طريق الوفود حيث وفد بعض العلماء من مكة والمدينة الى القيروان كأساتذه زائرين من هؤلاء عبد العزيز بن يحيى المدنى الهاشمى الذى قدم القيروان سنة ٢٢٥هـ سمع منه محمد بن سحنون وعبد الله بن زيد المقرى الذى قدم القيروان سنة ١٥٦هـ وقد سارع اليه الطلاب يلتقون عنه ويسمعون منه .

وعبد الرحمن بن عبد المؤمن الذى قدم من مكه وسكن القيروان وكان له مناظرات مع عدد من علماء القيروان [4]، كما وفد من القيروان الى مكة المكرمة وأقام بها غلبون بن الحسن الأغلبى وهو من الشعراء الفصحاء والأدباء .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

(٢) تميم أبو العرب : طبقات علماء افريقيه وتونس ص ١٠ .

(٣) محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ص ٤٢٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢٣ .

كما كان للأمراء أثر فى تقدم الحياة العلمية فى القيروان وقد سبق ان أشرنا الى أن الحياة العلمية شهدت فى عهد الاغالبة ازدهارا كبيرا لما كانت تعيشه القيروان من استقرار بالاضافة الى أن مؤسسها قد طلب العلم وكان حافظا للقرآن فكان يعرف حق العلم وأهله .

واستمر هذا الازدهار الثقافى للقيروان طول فترة حكم الأغالبه فكان الأمراء يعقدون المناظرات بين العلماء للوصول الى وجه الصواب ، من ذلك ما يذكره أبو العرب قال :

« ان عبد الله بن أبى حسان قال : دخلت على زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب فأصبت عنده أسد بن الفرات وأبا محرز ت ٢١٤هـ وهما يتناظران فى النبيذ المسكر وأبو محرز يذهب الى تحليله وأسد يذهب الى تحريمه ، فلما قعدت قال لى زيادة الله : ما تقول يا أبا محمد ؟ فقلت له : قد علمت سوء رأيى فيه وقاضياك يتناظران فيه بين يديك فقال لى : ناظرنى أنت ودعها ثم قال لهما اسكتا ، فقال لى : ما تقول . فقلت : أصلح الله الأمير كم دية العقل ؟ قال : وماذا من هذا ؟ فقلت : بجوابك ينتظم سؤالى . فقال لى : دية العقل ألف دينار ، فقلت له : أصلح الله الأمير فيعمد الرجل الى ما فيه ألف دينار فيبيعه بزجيجه تشترى بنصف درهم . فقال لى : يا أبا محمد أنه يزول ويرجع فقلت له : بعد ماذا أصلح الله الأمير؟ بعد أن فات فى لحيته وكشف سوءته الى أهله وسب هذا وقتل هذا وضرب هذا . فقال لى : صدقت والله صدقت »[1].

---

(١) أبو العرب : طبقات علماء افريقيه ص ١٧١ ، ١٧٢ .

المراكز العلمية فى القيروان :

أولا : المساجد :

كانت المساجد أول ما يهتم به المسلمون ببنائه فى البلاد التى يفتحونها أو المدن التى يؤسسونها لذا كان أول عمل قام به عقبه بن نافع هو بناء الجامع الكبير بمشاركة جملة من الصحابة رضوان الله عليهم وهو أول معهد للاسلام بافريقيه [١].

ثم تتابع بناء المساجد حتى كان بالقيروان زهاء ثلاثمائة مسجد يعبد فيها الله [٢].

وقد قامت هذه المساجد بالدور الأكبر فى نشر العلوم بالقيروان على رأسها الفقه والحديث والتفسير وفى رحابها عقدت المجالس العلمية وانتصبت الحلقات الدراسية وكان الحظ الأوفر من ذلك من نصيب جامع عقبة بن نافع .

ومن نماذج هذه الحلقات العلمية حلقة يحيى بن عمر ت ٢٨٩هـ التى كانت حافلة بالطلاب [٣].

أما مسجد السبت فانه قام بدور تربوى تعليمى كبير ، وذلك لاجتماع العلماء فيه كل يوم سبت من أول النهار الى الزوال ويحضره جمع غفير من الناس [٤].

---

(١) الحسين شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ١٣١ .

(٢) حسن عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٧ .

(٣) الحسين شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ١٣١ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٦ .

ثانيا : الكتـاتيب « أو الكتاب » :

وهو موضع التعليم للصبيان وقد وجدت الكتاتيب فى القيروان منذ تأسيسها [1]. وقد لعب عمر بن عبد العزيز دور هام فى تكثيف هذه الكتاتيب ، فقد اختط كل منهم دارا لسكناه ومسجدا لعبادته ومجالسه العلميه وكتابا لتحفيظ القرآن الكريم وتلقين مبادىء العربية لأطفال المسلمين [2].

يقول صاحب كتاب المغرب العربى « ان انتشار الكتاتيب بافريقيه هو السر فى سرعة انتشار التعريب بين البربر وسيره جنبا الى جنب مع الفتح حتى وجد منهم من أجاد نظم الشعر على رأس المائة الأولى للهجرة » [3].

على أن التعليم لم يكن منحصرا فى الكتاتيب والمساجد ، بل غالب الأسر ولا سيما الأمراء ومن يلتحق بهم انما يجلبون لأبنائهم المعلمين فيلقنونهم بمنازلهم وكان الوجهاء يبذلون الأموال الذريعه لاكتساب المعارف[4].

ثالثا : المكتبـــات :

وجد فى القيروان عدد من المكتبات التى ساهمت فى نشر الحياة الفكرية فيها منها :

---

(١) عبد الرحمن حجازى : المذهب التربوى عند ابن سحنون ص ٤١ .

(٢) الحسين شوط : جـ ١ ص ١٤٠ .

(٣) رابح بونار : المغرب العربى تاريخه وثقافته ص ٥١ .

(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : البساط العقيق ص ٥٨ .

أ ـ مكتبة جامع عقبة بن نافع ويعتبر الوقف المورد الأساسى لهذه المكتبة من قبل الأمراء والعلماء والأثرياء .

من ذلك ما تبرعت به إحدى الأميرات الصنهاجية وكانت عالمه أوقفت كتبا جليلة منها مصحف شريف كتبته بيدها (١) .

وقد استمرت المكتبة فى زيادة ونمو وكانت فى متناول طلبة العلم يدرسون فى كتبها وينسخون منها الى أن اجتاحت القيروان فتنة الاعراب الذين خربوا المدينة فلم يبق من الكتب الا نزر قليل (٢) .

ب ـ مكتبة الامام سحنون وكانت تحتوى على جميع كتب عبد الله بن وهب كالجامع والمغازى والزهد والموطأ .

جـ ـ مكتبة على بن حميد التميمى ت ٢٥١ هـ . اعتنى بجمع الكتب ونسخها حتى وصف بكثرة الكتب وسعة الرواية .

د ـ مكتبة محمد بن سحنون ت ٢٥٦ هـ .

هـ ـ مكتبة عيسى بن مسكين ت ٢٩٥ هـ .

و ـ مكتبة حمدون بن مجاهد الكلبى ت ٣٢١هـ وقد اشتملت على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب كلها بخط يده .

ز ـ مكتبة أحمد بن محمد القصرى ت ٣٢٢ هـ .

حـ ـ مكتبة أبى العرب محمد بن أحمد التميمى ت ٣٣٣ هـ . وقد اشتملت على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب .

---

(١) حسن حسنى : البساط العقيق ص ٦٣ .

(٢) الحسين الشوط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ١٤٥ .

بيت الحكمه القيروانى :

الذى اعتنى بالعلوم التجريبيه ولما انتقل العبيديون الى مصر أخذوا معهم ما فيه من المصنفات ووضعوها فى خزائن كتبهم بالقاهرة فقد ورد ان احدى خزائنهم كان بها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الفلك والطب[١] .

* * * * *

(١) الحسين شواط : مدرسة الحديث فى القيروان جـ ١ ص ١٥٣ .

الخاتمـــــه

يتضح من خلال هذا البحث المتواضع ما يلى :

١ ـ ان السبب الرئيسى فى انشاء مدينة القيروان دينى وعسكرى لنشر كلمة الاسـلام وتبليغ الدعـوة والدفـاع عن هذه الدعـوه وتأمين امـدادات الجيوش .

٢ ـ القيروان منطلق الى البلاد المفتوحه لنشر الاسلام وتثبيت شعائر الدين .

٣ ـ نشر الاسلام بين أبناء البربر الذين شاركوا اخوانهم الفاتحين فى الذود عن هذا الدين .

٤ ـ موقع القـيـروان كـان سبب رئيـسى فى ازدهار الحـيـاة الفكرية فـيـهـا لتوسطها بين مصر والمغرب الأوسط والأقصى ، والطريق الموصل الى صقليه والأندلس .

٥ ـ كان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر بارز فى نشر العلوم الدينية فى القيروان ، حيث قدم الى القيروان أكثر من عشرين صحابيا.

٦ ـ استمرار العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مكة والمدينه عامل رئيس فى ازدهار الحركة الفكرية فى القيروان .

٧ ـ قدوم عدد من علماء القيـروان الى الحجاز للحج وللمجاورة أو طلب العلم ساعد على انتشار المذهب المالكى بين الأهالى حيث كان اللقاء مستمرا مع الأمام مالك وتلامذته من بعده ، حيث استطاع الشيخ على بن زياد ت ١٨٣ هـ أن يبسط لهم هذا الكتاب بعد أن وفره بين أيديهم .

٨ ـ اهتمام علماء القيروان بمكة والمدينة والرحلة إليهما طلبا للعلم من ذلك ما قام به أبو سعيد سحنون ومحمد بن سحنون وعبد الله بن عمر الرعينى الذين كان لهم أثر كبير فى تدعيم العلاقة الفكرية بين القيروان والحجاز

٩ ـ تعد بعثة عمر بن عبد العزيز أول بعثه رسميه تصل الى القيروان ، حيث نشأ مع هذه البعثة المدارس المنظمه .

١٠ ـ المكاتبات العلمية بين علماء القيروان وعلماء الحجاز التى أعطت هذه العلاقة قوة واستمرار

١١ ـ المناظرات العلمية التى يعقدها الأمراء مع بعض العلماء .

١٢ ـ كان لأمراء الأغالبة أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى القيروان حيث بدأت صفحة جديدة فى حياة هذه المدينة بدأت صفحة جديدة فى حياة هذه المدينة ، حيث الأمن والاستقرار اللذان ساعدا على ايجاد مناخ علمى كثرت خلالها المساجد والمدارس والمكتبات .

١٣ ـ ان السبب فى اختيار وانتشار المذهب المالكى رغم وجود المذهب الحنفى وجود الامام مالك فى المدينه حيث الاهتمام بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث عنى هذا الكتاب بهذا الجانب كما أن عددا من العلماء قاموا بشرح الموطأ واختصاره مما ساعد على فهمه كما أنه جمع بين الأصاله والبساطه اضافة الى ذلك أن المذهب الحنفى أشتهر عنه الميل الى الرأى .

١٤ـ مما ينبغى ذكره أن علماء القيروان فى بداية تأسيسها حرصو على الاتصال المباشر بالعلماء والرحيل اليهم خاصة علماء مصر والحجاز الأمر الذى أعطى لهذه المدينه حركة علميه متعددة الجوانب حيث تأثرت بعدد من المراكز الاسلامية . وخلال أقل من قرن على تأسيسها تلحظ أن تأثير علماء القيروان على المراكز الأخرى كمصر والحجاز أصبح واضحا من ذلك المكتبه التى جلبها المعز لدين الله الفاطمى من القيروان الى مصر .

وبالختام لا يفوتنى أن أشير الى أن هذه العلاقة الفكرية بين القيروان والحجاز ظلت مستمرة رغم صعوبة الطريق الموصل الى كل منهما ، وهذا يدل على حرص علماء القيروان على تتبع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والاطلاع على المؤلفات العلمية فى الحجاز والحصول على الايجازات العلمية وحضور حلق العلم التى كانت تعتمد فى مكة والمدينة بين الشيخ وتلاميذه ثم يتابع التلميذ المسيرة أثناء تواجده بالحجاز بحثا عن مسألة خفيت أو شيخ يجيزه وثالث يأخذ عنه ورابع يرشده ويعود الى القيروان ليشارك فى النهضة الفكرية فيها من أجل ذلك كله امتزجت الثقافة الاسلامية بين دول المشرق والمغرب الاسلامى ، واستمرت المراسلات العلمية بين العلماء . فما أحوجنا فى هذه الأيام الى مثل هذه اللقاءات الفكرية التى تحدد الهوية لشعوب عالمنا الاسلامى ، ويتم عن طريقها التقارب والامتزاج الثقافى .

ونحن اليوم فى رحاب جامعة الاسكندرية بمناسبة عقد المؤتمر الدولى الأول للتبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ من

١٥ ـ ١٩ يناير ١٩٩٤ م اذ هى خطوة إيجابية محمودة مباركة بل هى رائدة تدل على حرص المسئولين على ايجاد تقارب حضارى بين هذه الشعوب ، فما أحوجنا الى مثل هذه المؤتمرات والندوات المماثلة التى تتبناها الجامعات والمؤسسات العلمية ، وانني ازجى شكرى وتقديرى الشديدين لجامعة الاسكندرية الموقرة على هذه الجهود وهذه الخطوة المباركة بعقد مثل هذا المؤتمر فى صرحها العلمى وأشكر القائمين على هذا المؤتمر ، وأشكر أساتذتى الأفاضل القائمين على هذا المؤتمر سائلا المولى سبحانه وتعالى لهم التوفيق .

* * * * *

جامعة الزقازيق
كلية الاداب

بحث مقدم من
الدكتور/ أحمد الشامى
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة

"تاثر الحضارة الاوربية بحضارة المشرق الاسلامى إجتماعياً وثقافياً "

لعبت الحضارة المشرقية الإسلامية دوراً بارزاً وهاماً فى حضارة الغرب الأوربى ، وكانت من أهم وأبرز الدعائم التي قامت عليها حضارة أوربا ، ولست أبالغ فى الحديث إذا قلت إن البحوث العلمية التى بدأت منذ أكثر من قرن من الزمان ـ سواء فى المشرق الإسلامى أو فى الغرب الأوربى ـ والتى لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا ، تؤكد بكل الصدق أن لحضارة العرب والإسلام فضل كبير، وتأثير عريض علي الحضارة الأوربية منذ بدايتها فى عصر النهضة ، واستمر هذا التأثير - مع كل تطورات وتقدم الحضارة الغربية الأوربية ـ حتى وقت قريب جداً .

فقد انتقلت الحضارة المشرقية الإسلامية إلى بلدان الغرب الأوربى عن طريق معابر متعددة تتمثل فى المدن والبلدان التى فتحها العرب المسلمون واستوطنوهاواستقروا بها « خاصة تلك البلدان الواقعة فى حوض البحر المتوسط والوثيقة الصلة والاتصالات بالدول الأوربية » . فانتشرت الحضارات بها نتيجة لعوامل وأسباب كثيرة ،ومن أمثلة هذه البلدان " قبرص، وكريت، وصقلية (١)وكورسيكا وسردينيا«جزر البحر المتوسط» بالاضافة إلى مدن الشواطىء الغربية لإيطاليا بأكملها، وكذلك شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) وما لعبته من دور

رئيسى وبارز فى إحياء الحضارة المشرقية بها حتى أصبحت فى عصر الأمويين الجدد بدءاً من عبد الرحمن الداخل(١٣٨هـ-٧٥٦م)(٢) مركز إشعاع حضارى فى كل مجالات العلوم والمعرفة والفنون ترسل شعاع هذه العلوم ونورها إلى المدن الأوربية القريبة منها ، ثم إنتقلت من هذه المدن إلى مدن أخرى وهكذا .....

كذلك كان للحجاج المسيحيين القادمين من بلدان أوربا دورهم فى نقل كثير من جوانب الحضارة المشرقية إلى بلادهم (٣) خاصة إذا علمنا أن أعداداً لا تحصى من هؤلاء الحجاج الأوربيين كانوا يتصلون بالتجار العرب المسلمين وبالحجاج المسيحيين القادمين من شمال الأندلس ، وقد أدى هذا الإحتكاك إلي نقل الحضارة المشرقية الإسلامية إلى الغرب الأوربى ، ومن الأدلة على ذلك وجود العملات الإسلامية فى أماكن مختلفة من أوربا ، ووجود كلمات عربية الأصل لا تزال موجودة فى اللغات الأوربية ذات صلة بالتجارة مثل : -

CHEQUE شيك وهى مأخوذة من كلمة (صك) العربية .

MAGASIN وهى مأخوذة من كلمة (مخازن) العربية .

CHIFFON شيفون وهى مأخوذة من كلمة (شفاف) العربية .

RICAMO ركامو وهى مأخوذة من كلمة (رقم) العربية (٤) .

كما كان لليهود " تجاراً وأطباء ومتعلمين " دورهم فى حمل ثقافة وعلوم المشرق إلى بلدان أوربا ، لا سيما وأن كثيراً منهم اشترك فى أعمال الترجمة بمدينة " طليطلة " فنقلوا عن اللغه العربية غير قليل من القصص والأساطير والملاحم .

كما ساهم سيل الفرسان والتجار ورجال الدين المتدفقين سنوياً من أوربا على

أسبانيا فى نقل أسس الحضارة الأندلسية وهى حضارة عربية إسلامية مشرقية (٥) فى أصلها نقلها حكام أسبانيا المسلمون من الشرق .

كذلك لعبت الحروب الصليبية دورها الخطير فى نقل حضارة المشرق الإسلامى إلى دول الغرب الأروبى،خصوصاً بعدما تكونت الإمارات الصليبية الأربع ،وتأثر مستوطنوها من الأوربيين الصليبيين بحضارة العرب المسلمين نتيجة الإختلاط والمعايشة ،فتأثروا بالعادات والتقاليد والنظم المشرقية وطبقوها فى مستوطناتهم أو إماراتهم الصليبية ثم نقلوها معهم إلى بلدانهم فى أوربا حيث نمت وإنتشرت هناك (٦)، وهذا أمر مسلم به من جانب المؤرخين الأوربيين المعتدلين ومن المؤرخين المسلمين، لأنه من الطبيعي وقد عاش الصليبيون فى الشام قرابه قرنين من الزمان (من ١٠٩٧ - ١٢٩١م) أن يتأثرو بما يحيط بهم من نظم إدارية ، و معاملات إقتصادية ،وعادات وتقاليد إجتماعية ، فعملوا على إتخاذها فى حياتهم بإماراتهم فى الشام لأنها كانت أفضل وأرقى بكثير من مثيلاتها فى بلدان أوربا التى جاءوا منها ، خلال فترة العصور الوسطى جميعها (٧) . وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد حوالى (٧٠ سنه)من معايشة الصليبيين للعرب والمسلمين سكان البلاد الأصليين ومن معهم من رعايا مسيحيين شرقيين فقد أبقى الصليبيون على منصب المحتسب وهو من النظم العربية الإسلامية ،وأصبح من ضمن الوظائف فى المملكة اللاتينية ، كما استعملوا معظم النظم العربية الإسلامية التى كانت موجودة فى الشام قبل مجيئهم،حتى الأساليب الحربية المعروفة عند المسلمين مارسوها وجعلوها ضمن نظام الجندية عندهم فاستخدموا النار ليلاً لتعيين وتحديد مواقعهم ،كما استخدموا الحمام الزاجل نهاراً لنقل الأخبار السريعة منهم وإليهم (٨) .

كما كان للتجار الإيطاليين دورهم فى نقل حضارة المشرق الإسلامى إلى بلدان أوربا ، فقد زاول هؤلاء التجار نشاطهم التجارى فى الأسواق التى حصلوا عليها فى المدن الساحلية والموانىء مثل : اللاذقية ، عكا ، يافا ، وأرسوف ، صور، وبيروت، وطرابلس وغيرها .

لقد قام بعضهم بتصدير نوع من أخشاب الغابات يسمى خشب العرعر الذى لا يتطرق إليه الفساد (٩) إلى أوربا لعدم وجود هذا النوع من الأخشاب بها .

كذلك عرف هؤلاء التجار زراعة قصب السكر فى الشام وتعلموا صناعته وشيدوا مصانع لإنتاجة فى صور، وعكا وغيرها ..... وقد ساعدهم وجود هذه الأسواق فى ثغور الشام وسهل عليهم تصدير هذه المنتجات إلى الغرب الأوربى ، بالإضافه إلى ما كان يصل إلى أسواق الشام من تجارات وبضائع الشرق الأقصى (١٠) .

كما اهتم اليهود فى المدن التى احتلها الصليبيون فى الشام وخاصة فى صور ، وأنطاكيا ، ويافا ، وعكا بتصنيع الزجاج وتصديرة إلى بلدان أوربا، ولإعفاء هذه المصنوعات الزجاجية من الرسوم الجمركية عقدوا معاهدة مع جنوا سنه ١٢٢٣ م لذلك ، ومن الغريب أن بعضاً من التجار المغاربة كانوا يتعاملون تجارياً مع التجار اليهود ومع غيرهم من الصليبيين (١١) ومن الطبيعى أن يفيد الصليبيون من حضارة المغرب ، كما يفيد المغاربة من حضارة المشرق عن طريق التبادل التجارى ونقل المظاهر الحضارية من هنا وهناك .

وكان لاحتكاك الصليبيين ومعايشتهم للسكان الأصليين في بلاد الشام أثره الكبير في تحسين سلوكهم وتهذيب أخلاقهم علي الرغم من قسوة ووحشية الكثير منهم (١٢) فأخذوا يتحولون في حياتهم المدنية إلي مشرقيين (١٣) .فعاشوا علي النمط الشرقي في بيوتهم وفي مأكلهم وفي ملبسهم ، فسكنوا البيوت الفسيحة ذات الأفنية الواسعة ،تحيط بها الغرف والقاعات كما لبسواالثياب الشرقية الفضفاضة السابغة ذات الأكمام الواسعة والألوان الزاهية والموشاة بخيوط من الذهب أو من الفضة ...... وتحلي نساؤهم بالمجوهرات الشامية والمصرية واستعملن المساحيق والخضاب لزينتهن (١٤).

كل ذلك تعلمه الصليبيون ومارسوه في حياتهم بالمشرق ، ثم نقلوه إلي بلادهم في أوربا عند سفرهم وترحالهم للزيارة أوالتجارة أو عن طريق الحجاج المسيحين أو عند خروجهم من منطقة الشرق الأدني علي يد البطل صلاح الدين الايوبي (٥٨٣ ه / ١١٨٧ م) (١٥) .

حتي الأسري المسلمين في الحروب كانوا عاملا لنقل الحضارة العربية الإسلامية للأمراء المسيحين سواء كانوا في بلاد الشام أو في شمال أسبانيا، حيث كان هؤلاء الأمراء علي صلة دائمة ببلدان أوربا سياسيا وتجاريا، وعن طريق هؤلاء الأسري المسلمين وجدت الحضارة المشرقية الإسلامية طريقها إلي الغرب الأوربي (١٦). ولم يقتصر نقل هذه الحضارة علي الأسري المسلمين بل شاركهم فيها كذلك الأسري الأوربين الذين عادوا عبر الأندلس إلي بلادهم بعد أن عاشوا في مراكز الثقافة الإسلامية بالأندلس ردحا من الزمن (قرطبة وسرقسطه وغيرها) .كما قام تجار ليون وجنوا والبندقية ونورمبرج بدور الوسيط في نقل الحضارة المشرقية من

مدن الأندلس إلي المدن الأوربية . ومع ما أدتـه هذه المعابر من دور بارز وكبير في نقل حضارة المشرق الإسلامي إلي الغرب الأوربي إلا أن ما قامت به مدن الأنـدلس في هذا المضمار يعتبر - في رأينا - أكبر بكثير من غيرها ، وسوف نعرض بشيء من الإيجاز ما وصلت إليه الأندلس في عصر حكامها المسلمين ، وخاصة منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إليها "١٣٨هـ/٧٥٦م " وما بلغته حضارتها من تقدم وتطور كبير ، حتي أصبحت مقصد الأوربيين علي وجه الخصوص ينهلون من علومها ويتعلمون علي أيدي علمائها ، وينقلون ثقافتها وحضارتها علي مر العصور التاريخية.تلك الحضارة التي قيل عنها إنها كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها ، لأنها لم تكن قائمة علي أسس فارسية أو إغريقية ، بل كانت حضارة عربية إسلامية خالصة أكثر من الحضارة العربية الإسلامية في أي مكان أخر (١٧). ويعبر المقري(١٨) وغيره من المؤرخين عن ذلك فيقول :" ...ولما صارت الاندلس لبني أمية وتوارثوا ملكها ، وانقاد إليهم كل أبيّ ، وأطاعهم كل عصيّ ، عظمت الدولة في الأندلس ، وكبرت الهمم ، وترتبت الأحوال " .

تأثر الحياة في أسبانيا بالفتح العربي الإسلامي :

كان الفتح العربي الإسلامي لأسبانيا بداية عصر جديد ، حيث بدأ تطور كبير في حياة شعوبها وفي نظمهم العامه ، أي أنها دخلت في طور حضاري لم تعرفه من قبل . فأسبانيا كانت ترزخ حتي مجيء الفاتحين المسلمين تحت وطأة العسف والجور وشظف العيش وإستغلال طبقة النبلاء لشعبها ،وكان هؤلاء النبلاء (الحكام) يفرضون علي هذا الشعب بتعدد طبقاته رسوم الرق والعبودية ، ويستبيحون منه كل الحريات والمحرمات .

فلما جاء الإسلام قضي علي هذه الأمور كلها ، وأرسي قواعد الأخوة والحرية والعدالة والمساواة بين الناس جميعا ، فأعطي كل ذي حق حقه ، وبذلك تمكن الفاتحون المسلمون ـ علي الرغم من إنشغالهم بتوطيد أنفسهم في أول الأمر ـ من تنظيم إدارة البلاد التي فتحوها في أسبانيا ، وأن يشيعوا في شبه الجزيرة الأيبيرية كلها روحا جديدة من الأمل والتطلع إلي حياة ومستقبل أفضل ، فنشطت الزراعة ، ونهضت الصناعه ، وراجت التجارة بعد ركودها ، وأخذت نسمات الرخاء والرفاه تهب علي شعوب أسبانيا بسبب النظم التي ساروا عليها ونوجزها فيما يلي :

ـ فرض المسلمون الضرائب علي أسس من العدل والاعتدال والمساواة ، بعد أن كانت قائمة علي الجشع وهوي الحكام ،فأمن الناس علي حياتهم وحرياتهم وأموالهم .

ـ ترك المسلمون لشعب أسبانيا حرية العمل بقوانينهم واتباع تقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم وفي كثير من الأحوال اختاروا حكاماً من بينهم يشرفون علي شئون هذه النظم الجديدة وتنفيذها .

ـ ترك المسلمون الفاتحون للأسبان حرية إعتناق عقائدهم ، لأن القاعدة الأساسية في الدعوة الي الإسلام (لا إكراه في الدين) ومن هنا كانت سياسة المسلمين مبنية علي التسامح الكامل وحرية اختيار العقائد الدينية للأفراد .

ـ طبق الفاتحون المسلمون نظام الجزية علي أهل الذمة ، وكانت مبلغا زهيدا يستطيع الفرد أداؤه في سهوله ويسر ، وهو بمثابة إسهام من أهل الذمة في

بعض تكاليف الجيش الإسلامي المنوط به توفير الحرية والأمان والاستقرارلكل فرد من أفراد الشعب الأسباني .

ونستشهد علي صحة ما ذكرناه بما سجله رجل دين مسيحي في قرطبة سنة ٧٥٤م (١٣٦هـ) وهو إيزيدور الباجي وعنه نقل المستشرق الأسباني Reinhart Dozy(١٩) حيث يقول : " ... إن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحداً في شئون الدين ، ولم تكن الحكومه لتشجع إسلام النصاري ، لأن خزانة الدولة كانت تخسر بإسلامهم كثيرا (٢٠) ولم يغمط النصاري للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم علي حكم الجرمان والفرنج ، وانقضي القرن الثامن الميلادي كله في سكينة، وقلما تشبت فيه ثورة ، ولم يبد رجال الدين في العصور الأولي كثيرا من التذمر " ومما يذكره (٢١) Dozy كذلك قوله : " ... إن الإسلام كان أكثر تعضيدا لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية ، وقد تحسنت أحوال رقيق الأرض فأصبحوا من الزراع تقريبا ، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية ".

ومما يذكره (٢٢) Lane - Poole قوله : " ... أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطي ، بينما كانت أوربا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوي المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية ".

ويقول المستشرق الاسباني P.Gayangos (٢٣) : " ... لقد سطعت في الأندلس أول أشعة لهذه المدنية التي نشرت ضوءها فيما بعد علي

جميع الأمم النصرانية ، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت علي الانطفاء،وحفظت بعناية .وإلي حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها ".

ويؤكد ذلك ماذكره المؤرخ ميخائيل سكوت (٢٤) M . Scott حيث يقول :

" ... فلما استقرت الجماعات المستعمرة (يقصد المسلمين الفاتحين) وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذي نزل بهم ، ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة ، وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب - يقصد المسيحي- أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة، والأحبار يزاولون شئونهم في سلام .أما أقوال الكتاب النصاري التي ينسبون فيها للعرب أفظع المسالب فهي محض مبالغة أو إفتراء ".

وحتي أشد العلماء الأسبان تحاملا علي الإسلام والمسلمين (٢٥) لم يستطيع إنكار ما نعم به المجتمع الأسباني في ظل حكم العرب المسلمين ، وقد تابع هذه الأراء الصريحة أعداد غير قليلة من المستشرقين والمفكرين والمؤرخين سواء من الأسبان أو من غيرهم من الأوربيين (٢٦) . ويكفي ما ذكره المؤرخ الانجليزي جيبون Gibbon عن إمتداد ملك العرب المسلمين في أسبانيا وانتشار نظمهم وحضارتهم حيث يقول : " ... وامتد خط الظفر مدي ألف ميل من صخرة

طارق إلي ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلي حدود بولونيا وربي إسكتلندا ، فليس نهر الراين بأمنع من نهر النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربيا كان يصل إلي مصب التايمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة " . (٢٧) .

ولكي نقف علي مدي صحة ما قاله هؤلاء المؤرخين والمفكرين من عرب مسلمين ومستشرقين غربيين ، ينبغي لنا أن نلقي نظرة سريعة علي قيام الحضارة في الأندلس ، لنعرف ما إذا كانت هذه الحضارة منقولة عن حضارة المشرق الإسلامي أم أنها حضارة جاءت من الغرب الأوربي .ولنبدأ من فترة حكم الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل ١٣٨هـ / ٧٥٦م) الذي نجح في تثبيت دعائم الحكم ، لأنه قضي علي الثورات الداخلية ، وأنهي العصبية القبلية . ثم أقام تنظيماً للجهاز الحكومي في الأندلس علي غرار ما كان موجودا في الدولة العربية بالمشرق الإسلامي ، كما أنه نهج سياسة الاعتدال والحكمة والمهادنة مع رعاياه النصاري المستعربين ، وأعطاهم عهد أمان بكل ما يطمئنهم ويهدئ خاطرهم (٢٨)، ويؤكد ذلك ماذكره مؤرخ الأندلس إبن حيان ومن نقل عنه عند كلامه عن عبد الرحمن الداخل حيث يقول : "... إنه دوّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عزته "(٢٩) . كذلك قام عبد الرحمن الثاني بإنشاء دار السكة

لتسهيل التعامل في التجارات ، وقد أخذت هذه الدار في تحسين ضرب العملات وإتقانها منذ سنه ٢٢٩هـ / ٨٤٤ م (٣٠) .

ففي مجال الزراعة :

جلب الامير عبد الرحمن الداخل من الشام (المشرق الإسلامي) أنواعا جيدة من ثمار الفاكهة ومن الحبوب والبذورالتي لم تكن معروفة في أسبانيا ، وغرسها في منية الرصافة التي بناها في شمال قرطبة ، ومن أهم هذه الثمار الرمان السفري(٣١) ومصدره رصافة الشام، وكانت أول شجرة نخيل تغرس في الأندلس هي التي غرسها عبد الرحمن الداخل في حديقة قصره الذي شيده علي نمط قصور أجداده الأمويين في الشام(٣٢) .وأصبحت تلك الشجرة أمّاً لكل أشجار النخيل في أوربا ، وقد ترجم الأمير عبد الرحمن الداخل عن أحاسيسه في الغربة بقصيدة شعرية تحدث بها إلي هذه الشجرة نقتطف منها هذين البيتين :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوي	وطول ابتعادي عن بنيَّ وعن أهلي

وقد تابعه أمراء الأندلس من بعده ووجهوا عنايتهم بهذه الزراعات ، كما زرع القطن لأول مرة في أسبانيا بعد أن جلب من سوريا وخراسان ، وتم تصنيع هذا القطن وغيره من المواد الأولية علي الطريقة العربية في مدن شمال الأندلس أولا ، ولم يمض قرن من الزمان حتي انتشرت صناعة المنسوجات القطنية والمخملية في كثير من المدن الأوربية (٣٣) بعد ذلك،وقد ترتب علي ازدهار

الزراعة وتقدمها في الأندلس أن انتعشت التجارة، التي لم تكن معروفة من قبل في هذه البلاد ، وازدادالنشاط التجاري وتبادل التجارات بين سواحل الأندلس الشرقية ، وشواطيء أفريقيا لاسيما المغرب الأقصي والأوسط (مراكش و الجزائر).

كما برزت مظاهر الرفاه والترف في حياة الأمراء والخلفاء والطبقة الثرية في المجتمع الأسباني ، وأصبحت الأندلس سوقا تساق إليه بضائع الترف المشرقية النفيسة ، والأشياء النادرة الغريبة من بغداد وغيرها ، لدرجة أن المنهوبات النفيسة من قصر الخلافة في بغداد (٣٤) مثل :عقد زبيدة (زوج الرشيد) المشهور والمعروف باسم (الشفاء) وغيره من حلي وجواهر لم تجد لها سوقا تباع فيها غير الأندلس (٣٥) .

وفي مجال الصناعة :

أنشأ عبدالرحمن الناصر (الثالث)في المرية (داراً لصناعة السفن) والآلات اللازمة لها ، بحيث أصبحت المرية قاعدة أساسية للأسطول الأندلسي (٣٦) وقد بلغ عددقطع الأسطول سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩ م أكثر من أربعمائة سفينة حربية ، كما بلغ عددالسفن التجارية أعداداً كثيرة ، لأن معظم تجارة المرية كانت مع بلدان المشرق ، فمراكب التجارة تأتي إليها من جميع مدن الشام ومن الإسكندرية (٣٧).

وقد أخذ الأوربيون عن العرب مباشرة الإبرة المغناطيسية (البوصلة) في القرن الثالث عشر الميلادي ، نقلها بطرس فون ماريكور Petrus von Maricourt

وأستعملها الأوربيون في الملاحة (٣٨) .كذلك نقل الأوربيون عن عرب الأندلس القذائف النارية (الطوربيد) التي توصل الكيمائيون العرب إلي صناعتها في القرن الثاني عشر الميلادي، وأمدوا بها الصينيين في معركة بين كنج Bien King وكان أول من استعمل هذه القذائف في أوربا لأهداف عسكرية هم عرب الأندلس في القرن ١٤ م ، وتستند المستشرقة الألمانية زجريد هونكه Sigrid Hunke في ذلك علي رسومات لصاروخ دافع وطوربيد مزود بمادة متفجرة من كتاب الحرب لحسن الرماح وهو من النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي (٣٩) . كما لايزال الكثير من الاصطلاحات البحرية العربية يستخدم في السفن الأوربية في البحار مثل Arsenal (دار الصناعة) و Admiral (أمير البحر) و Kalfaten (قلفاط) وغيرها كثير .

ومن أمثلة الصناعة كذلك نذكر صناعة الخزف ، فقد عثر الأثريون في قصر الحمراء تحت قبو في حصن قمارش في القرن السادس عشر الميلادي علي فازة كاملة لا تزال باقية إلي الآن في متحف الحمراء بالقرب من القصر، وتقوم زخارفها علي الأرابيسك النباتية والدوائر المتشابكة ، ويتخللها شريط من الكتابة الزخرفية . . . وكل ذلك باللون الذهبي ذي البريق المعدني .

وقد أثبت النقاش بين علماء الآثار ومؤرخي الفنون أن هذه الفازة من النوع الذي أبتكره الفنان المسلم (في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) في العراق ، ثم جاء إلي الأندلس من الشرق مباشرة أو عن طريق بلاد المغرب ،

وتعلم أهل الأندلس صناعته (٤٠) ثم انتقل إلي بقية دول أوربا وعرف باسم البرلو Albarelo المأخوذ من الكلمة العربية البرنية التي كانت تطلق علي القدور الصغيرة التي تصدر إلي أوربا من الأندلس حاملة في جوفها النباتات الطبية(٤١)

كما اشتهر نوع أخر من الخزف عرف بأسم خزف مدينة الزهراء أو خزف مدينة البيرة ، وقد وجدت منه عدة نماذج بين أطلال هاتين المدينتين ويري البعض(٤٢) أن أصل صناعة الخزف بالطريقة التي وجدوها علي هذه النماذج مصدره بيزنطه، ولكنه تطور وانفرد بميزاته في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري/١١م

ومن الصناعات كذلك صناعة (المنسوجات الحريرية في المرية) ، وكانت أكثر منتجاتها شهرة في عالم العصور الوسطي ، وقد نقلت صناعة الحرير إلي أسبانيا عن طريق جماعات من اللاجئين الإغريق ، ولكنها نمت وتقدمت وارتقت رقيا كبيرا في العصر الإسلامي (٤٣) حتي أصبحت المرية أهم مراكز صناعة الحرير والديباج في الأندلس (٤٤) واحتلت ماكان لقرطبة من شهرة في هذا المجال .

وكان الديباج المشهور يأتي إلي قرطبة من بغداد ، وهي مركز إزدهار صناعة الحرير في العصور الوسطي ، وهناك وثائق عديدة عن أسبانيا النصرانية وردت بها أسماء أقمشة شامية وبيزنطية من أفخر الأنواع جاءت من المشرق الإسلامي إلي أسبانيا .

وقد عرفت الدول الملاصقة لأسبانيا إستعمال هذه الأنواع الفاخرة من الأقمشة في أول الأمر (٤٥) ثم أخذت في تقليد صناعتها الشرقية ، ثم خطت بها خطوات متقدمه حتي وصلت إلي ماهي عليه الأن ومما يؤيد القول

بانتشار الحضارة المشرقية الإسلامية في جميع أنحاء أسبانيا أن أمراء أسبانيا المسيحيين ارتدوا الملابس الشرقية وعليها زخارف وأشكال هندسية من دوائر ونجوم وخطوط متقاطعة يتخللها زخارف نباتية وتزدان بالكتابة العربية المنقوشة بشكل زخرفي ، وتوجد قطعة من ثوب الأمير الأسباني فيليب بن فرديناند الثالث ملك أسبانيا تمثل هذا النوع من الأقمشة (٤٦) .

ومن أبلغ أثار الحضارة الإسلامية التي أثرت في حضارة أوربا تأثيرا ثقافيا وعلميا وإجتماعيا هي دخول صناعة الورق إليها (٤٧) من الأندلس بعدما تعلمها مسلمو الأندلس من المشرق الإسلامي ، وأقاموا مراكز لصناعة الورق في كل من شاطية Jativa وطليطلة (٤٨) ثم انتقلت صناعته إلي إيطاليا في القرن الثالث عشر الميلادي ، وبعدها إلي فرنسا ثم إلي ألمانيا ، وتعلمها الانجليز في القرن السادس عشر (٤٩) ، ولولاصناعة الورق ما تطورت الحياة الثقافية والعلمية في أوربا إلي هذا الحد المذهل الذي نراه ونعيشه الآن .

وحتي في تجليد الكتب تعلمه الأوربيون من المسلمين في الأندلس وساروا لحلي نهجه في تغليف كتبهم (٥٠) .

أما فن البناء [العمارة] :

فقد اهتم الأمراء المسلمون به ، وشجعوا علي الإبداع فيه ، فالسمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ / ٧١٩-٧٢١ م) قام ببناء القنطرة التي تربط ربض شقنده بمدينة قرطبه وكانت هذه القنطرة قد

تهدمت قبل ذلك(٥١). وقد أدي ذلك إلي رفع قرطبة إلي مصاف الحواضر الكبري . ولما تولي عبد الرحمن الداخل واستقرت له الأمور أعاد بناء سورقرطبة الكبير سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٦م ،واستمرالعمل فيه بضع سنين (٥٢) واهتم بعاصمة الدولة الأموية الجديدة فحصنها وزينها بالمنشئات الفخمة مثل قصر الرصافة (٥٣) الذي أحاطه بحدائق غناء زاهرة .

كما بدأ بتشيد المسجد الجامع بقرطبة حوالي سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦ م وأقامه في موضع كنيسة قوطية قديمة ومهدمه ، اشتراها بمائة ألف دينار (٥٤)، وجلب إليه الأعمدة العظيمة من الرخام المنقوش بماء الذهب واللازورد ، ولكنه توفي قبل إتمام بنائه فأتمه ابنه هشام ثم زاد فية من بعده أمراء بني أمية في الأندلس حتي غدا أعظم مساجدها، وقد بلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار أخري (٥٥) .

ويعد جامع قرطبة من الوجهة الفنية أعظم وأروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطي ، ويذكر أحد المؤرخين اللاتين (في القرن الرابع عشر الميلادي) أن أمهر أرباب الحرف متفقون في الرأي علي أن منبر مسجد قرطبة بأسبانيا، ومنبر مسجد الكتيبة (٥٦) في مراكش ، هما من أبدع المنابر علي الإطلاق .

والإدريسي (٥٧) يقررذلك في قوله : (إن منبر المسجد الجامع في قرطبة لانظير له في العالم) وقد صنع في عهد الحكم الثاني ،ويوصف بأنه نموذج لايباري في صنع الأثاث الرفيع المطعم بالعاج والخشب الرقيق .

كما يعد هذا المسجد الجامع من الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغة ، ويفد إليها طلبة العلم من المسلمين والمسيحين علي السواء للدرس والتحصيل (٥٨) كما بنيت العديد من المساجد في قرطبة بلغ تعدادها في بعض المصادر العربية ما بين ١٦٠٠، ٣٨٠٠ مسجد (٥٩)، ولكن لم يتبق منها اليوم سوي ثلاث مآذن هي أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانت ياجو ، ومن المرجح أن هذه المساجد ترجع إلي عصر(٦٠) عبد الرحمن الأوسط ويذكر المتخصصون في علم الهندسة المعمارية أن الطريقة التي تم بها بناء مسجد قرطبة مكنت من إقامة بناء ضخم علي أعمدة رشيقة (رفيعة نسبيا) مع الاستفادة إلي أقصي حد من المساحة الداخلية ، وتحقيق رؤية المصلين للإمام بوضوح وهو يؤمهم في الصلاة (٦١) كما يذكرون أن طريقة البناء بعقود مزدوجة متراكبة أضفي علي مسجد قرطبة جمالا أصيلا، وطابعا فريدا في عمارة العصور الوسطي لانجدها في أي مسجد آخر .

ونتيجة لهذا الإبداع الفني في فنون العمارة الإسلامية بأسبانيا ، استخدم المعماريون الأسبان طريقة العقود التي علي شكل حدوة الفرس في العمارة القوطية بأسبانيا منذ ذلك التاريخ .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثاني شهدت مساجد أخري في البيرة وجيان وغيرهما (٦٢) كما تمت توسعة (قصر الإمارة) ، وزيدت عليه أجنحة جديدة بناها لنفسه ولأبنائه ، وشرفات مزججة ليتطلع إلي منظر قرطبة الجميل وهو واقف خلف هذا الزجاج ، كما عرفت ضواحي العاصمة والقري القريبة بناء

القصــور بهــا للأمراء ، وقـد بنيت علي طراز قصر الإمارة إلا أنهـا كانت أصغر في الحجم ، ويعتـبر ذلك سابقة لـم تـعرف من قـبل في تاريخ الأندلس أو في تاريخ أوربـا كلهــا ، ولــذلك فـلسنا مبــالغين إذا قلنــا إن العرب المسلمين في الأندلس كـانواأسبق مــن إيطاليـا في إبداع وفنون تشـيـيد البنـاء بحوالي خمسـة قـرون علي الأقل ، ودليلنا عــلي ذلك أنــه عندمــا تمت توسعـــة مسجد قـرطبــة العظيــم في آخــر عـهــد عـبد الـرحمن النـاصـر (الثـالث) (٣٠٠ـ ٣٥٠/ ٩١٢ـ٩٦١ م) واكتملت زخرفة القبلة وبعض الحـوائـط الداخليـة بالفسيفساء لـم يكن الغـرب الأوربي يعرف شيئا عن هذا الفن المعماري (٦٣) ، لاسيمـا وأن المسلمين في الأندلس استـعملــوا الأحجــار الصـخريـــة في بناء أسوار مدينة المرية (٦٤).

ونتيجة لهذا التـطـور الحضــاري الكبيـر في الأندلس زاد عــدد السكان فــي قرطبــة فــي أزهـي عصورهــا (عصر عبد الرحمن الناصر) حتي بلغ نصف مليون نسـمة حسب إحصـاءات بعض المستـشرقين الأسبـان (٦٥) .كمـا زادت أبنيـة الحمامات العامة للشعب ، وكذا الخانات والدور (٦٦). ولاننسي في هذا المقام قصر الحمراء (الهمرا) بتكوينه الرشيق ، وأبعـاده الموزونه ، وجـدرانه المنمقـة ، وغرفه الفسيحـة الرائعة ، وقبابة الفخمة العالية ، ومياهه الصافيـة الجارية ، وجنــاته ذات القطوف الدانيـــة (٦٧)، فـانـــه دليـل حي علي مـابلغـــة فـن البناء والزخرفة وهندسـة المعـمار في الأندلس ، حـتي أن مهندســا إنجليزياً يدعي يوحنـا Johns ظـل حـوالي ثمان سنـوات (من ١٨٣٤م) عـاكفـا علي دراسة مافي هذا القصر من فنون إسلامية عظيمة (٦٨).

ومن الأشيـاء التي أخذها الأوربيون عن فن البناء الإسلامي طريقة (الأقواس المدببة العالية)فقـد انتـقل هـذا الفـن المعـماري الإسلامي .إلي أوربا عـن طريق سامراء (مقر الخلافة) ومـن جـامع أحـمد بـن طولون في مصر إلي صقلية أولا، ومنها في عـهد الفاطمين ثم في عهد النورمـان إلي بيزا وإلي كنيـسة " ديزيديريوس Desiderius Church " بمونت كاسينو . كما ساهم في نشر هذه الفنون الحـضـاريـة كـهنة أسـبـانيـا وخـاصـة رئيس الـدير" هـو جو الكلـوني Hugo von Klony "(٦٩) ولم تقتصر هذه الأقواس العالية المدببة في الغرب الأوربي علي مـجرد كونهـا أداة تزين كما كانت عند العرب المسلمين ، بـل صارت في بيزا وكلوني ومـونت كـاسينو فكرة أساسية فـي البنـاء وأصبحت هي الأساس الأصيل للفن القوطي (٧٠) وهذا يـؤكد أن الطراز القـوطي في فنـون العمارة والذي انتشر في أوربا كلها هو طراز مشرقي عربي الأصل تماما (٧١).

بل الأكثر من ذلك أن جوانب متعددة في الحياة العامة تأثرت بـمؤثرات مشرقية إسلامـية عـن طريق عرب الأندلس ، ففي بداية النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي (سنة ٩٥٠م) كـانت شوارع قرطبـة تزدان بثمانين ألـف متجر، وتضاء ليلا بمصابيح مثبتة علي حيطان المنازل وتباشر فيهـا أعمال النظافة عن طريـق عربـات القـمامـة التي تجرهـا الثيـران "، بينمـا لم تعرف باريس (مدينة النور والعلم) اضاءة شوارعها ، ورصف طرقاتها وتنظيفها إلا سنة ١١٨٥م ، بينـمـا بقيت مدينة كولن Köln كذلك في ظلامهـا الـدامس حتي ٢٨ مـارس ١٨١٩م ، وعندما أخـذت الـمدينـة في إضاءة شوارعهـا وتنظيفـهـا انطلقت جريدة المدينة Köln Zeitung تصف ذلك بـأنه " شر مـستطيـر مـن البشـر يـهدد الظلام

الإلـــهي " وهكذا نجد أن الجـوانب الحضـارية حتي فـي الحيـاة العامة انتقلت مـن الأندلس بعـد الفتح العربي الإسـلامي لها ، إلي بعض مـدن أوربا تباعـاً فيـما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميـلادي ، وعندما انتقلت جوانب من هذه الحضارة إلي باريس زحفت منها إلي بقية المدن الأوربية حتي عمت أوربا كلها .

وهكذا نجد تأثير الحضارة العربية الإسلامية في حضارة الغرب الأوربي شملت نـواحي الحـيـاة كلهـا ، وكـان ذلـك عن طريـق المعـابـر التي دخلت منهـا هذه الحضـارة إلي البلدان الأوربيـة وعن طريق مـا نقله الأوربيـون عـن حضـارة ألأندلس الإسلامية ، وهي في أصلها حضارة شرقية عربية إسلامية ـ كما أسلفنا ـ لأنه عندما بلغت الأندلس درجة من الرفاة الاقتصادي والإمكانـات المادية اقتبست الكثير مـن عـادات المشرق الإسلامي ، فتحسنت صورة الملبس وطرق المأكل ، ووسائل الزينة خاصـة في قرطبة *، وحظيت قصـور الأمراء والقواد وطبقـة أصحاب الأمـوال بالجواري والمغنين والموسيقيين مثل زرياب (٧٢) وهو من أصحاب الصوت الطروب وصـاحب مدرسـة شهيرة في الموسيقي والغناء في ذلك العصر ، كان تلميذ إسحق الموصلي مغني هارون الرشيد . وكان زرياب إلي جـانب صوتـه الذهبي في الغناء ضليعـا في سير الخلفاء وأحوال الملوك ونوادر العلمـاء ، وقد أدخل تعديلاً علي آلـة العود وجعلها تلث حجم الآلة المستعملة في أيامه ، كما أضـاف إليه وترا خامسا ، كمـا كـان لـه منهاج خـاص لتعـليم الموسيقي والغناء للمبتدئين (٧٣).وقـد تعـلم الناس في الأندلس مـن زريـاب الأناقـة في المـلبس وتنويعهـا علي حسب فصـول السنـة .

وحتي الآلات الموسيقية التي يعرفها العالم الآن فإن معظمها يرجع أصولـه إلي العرب وقد وردت هذه الآلات إلي الغرب الأوربـي محكمـة الصـنع عبر أسبانيا تحمل معها أسمـاءها مثل العود ، والماندولينا ، والبنـدورا ،والربابه ، والربك ، والنـاي الصـغير ، والنـاي الخـشبي ذو المبسم، والنفير (الترومبيت Trompete) والبـوق Horn ، والطبلـة والصنوج، هذا وقـد صمـم الفـارابـي ـ وكـان مـن علمـاء الموسيقي كذلك ـ القانـون في النصف الأول مـن القـرن الرابـع الهـجري (العـاشر الميـلادي) .

وكان للموسيقي العربية (الشرقية) الفضل الكبير علي عدد ليس بالقليل من الموسيقيين الأوربيين حيث ألهمتـهم أفضـل مـا قدموه من قطع موسيقية ، نـذكر منهم جـوند يسـالفوس Gundisalvus ، يوحنـا أجيـديـوس Johannes Aegidius، روبـرت كيلوردلـي Robert Kilwardly، رامـون صـل Ram-on Sull، روجر بيكون Roger Bacon، آدم الفولدي Adam Von Fulda ، وقـد بقي مـاكتبة الفارابي وإبن سينا مرجعا للموسيقيين الأوربيين حتي القـرن السـابـع عشـر الميلادي (٧٤) .

وفي مجال الثقافة والعلوم :

كان تأثير الحضارة المشرقية الإسلامية علي الغرب الأوربي واضحا وبارزا ، ففي بادىء الأمر اعتمدت الحركة العلميـة في الأندلس علي علوم الإغريق وجهـود علماء بغداد خاصة وعلماء المشرق الإسلامي عامة ، ولـكن ذلك لـم يدم طويلا ،

فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكريا ، ولمعت في سمائها أسماء كبيرة لعلماء فطاحل من أمثال ابن رشد، وابن طفيل ، الذي ترجمت كتبه إلي كثير من اللغات الأوربية ، وابن ماجه ، وابن البيطار ، وعباس بن فرناس ، ولسان الدين الخطيب ، وابن خلدون ، وابن عربي وغيرهم .

فالحكم الثاني زخر بلاطه بالعلماء والأدباء مسلمين ومسيحيين ، وكان من ضمن هؤلاء الأسقف جودمار الجيروني Godmar von Gerona الذي ألف كتابا باللغة العربية عن تاريخ الفرنجة ، كما ألف الاسقف ربيع بن سعيد كتابا عن العلوم الطبيعية بالعربية كذلك ، فترجمه إلي اللاتينية جرهاردالكريموني Gerhard von Cremona (٧٥) ، ولم يكن ربيع بن سعيد هذا إلا أسقف قرطبة " ركيدا موندوس " الذي بعثه عبد الرحمن الثالث سنة ٩٥٥م مندوبا عنه للقيصر أوتو الأكبر Otto the great (٧٦). وهكذا نجد أن مؤرخي الغرب الأوربي تتلمذوا علي مؤرخي المشرق الإسلامي وأخذوا ينقلون عنهم ما دونوه عن فتوحات العرب المسلمين لجزر البحر المتوسط وفتح أسبانيا ، والدليل علي ذلك ما نقله بعض مؤرخي الغرب الأوربي عن الشريف الإدريسي (٧٧) بشأن السفن التي أحرقها طارق بن زياد بعد عبوره المضيق، علما بأن معظم كتب التاريخ التي دونها المؤرخون المسلمون أغفلت هذه الرواية .

ومن الواضح أن أمراء وحكام الغرب الأوربي لم يعرفوا قيمة اقتناء مكتبات في قصورهم أو دواوينهم إلا من العرب المسلمين حكام الأندلس ، فقد أنشأ الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني نواة مكتبة في قصره ، فغدت هذه المكتبة في عهد

الأمير الحكم الثاني(أي بعد قرن من الزمان) من أكبر مكتبات العالم في ذاك العصر

ولم يكن هذا هو كل ما قدمه العرب المسلمون إلي الغرب الأوربي فحسب ، بل قدموا لهم وللإنسانية كلها أسس علم الطب والصيدلة ، فقد ترجمت كتب ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٧) القانون في الطب، الشفاء، الإشارات والتنبيهات ... إلي اللاتينية في إيطاليا أولا ثم إلي اللغات الأوربية جميعها بعد ذلك ، ففي سنة ١٤٧٣م (فبراير) ظهركتاب القانون في الطب في ميلانو باللاتينية، ثم طبع مرة ثانية بعد عامين ، وقام بالتعليق والشرح علي هذا الكتاب إيطالي وضع له عنوانا "روح ابن سينا Anima Avicennas ثم طبعت كتب الحاوي للرازي ، والكليات لابن رشد ، وايساجوجي لحنين بن إسحق وغيرهم وقد ظلت كتب ابن سينا الطبية وكتب الرازي عماد الدراسة في كليات الطب بجامعات أوربا قرونا عديدة (٧٨) .

ومما يقوله المعتدلون في أوربا نذكر قول المستشرق الألماني أجريبا فون نيتسهايم Agribba Von Nitzheim :

(إن كتب ابن سينا والرازي وابن رشد استقبلت بنفس الثقة التي استقبلت بها كتب أبو قراط وجالينوس ، ونالت كتب الطب العربي حظوة قصوي عند الناس لدرجة أنه إذا ما حاول أمرؤ ممارسة الطب دون الاستناد إليها ، أتهم - علي أهون سبيل - بالعمل علي الإضرار بالمصلحة العامة (٧٩). وكان من نتيجة اعتماد المشتغلين بالطب علي هذه الكتب أن طبعاتها وصلت في سنة ١٥٠٠ م ستة عشرة طبعة لقانون الرازي ، مقابل طبعة واحدة لكتاب جالينوس في جزئين . ويرجع

السبب في ذلك إلي أنه حتي أواخر القرن العاشر الميلادي لم يعرف المشتغلون بعلم الطب والصيدلة في مدارس أوربا ما هو مدون من عقاقير طبية في مخطوطات أبو قراط وجالينوس ، ولم يفهموا ما دونه ديوسكوريدس Dioskurides من شرح وإضافة لهذه العقاقير . وقد أرسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع كتاب ديوسكوريدس هذا سنه ٩٤٨م إلي الأمير عبد الرحمن الثالث في الأندلس ليغرية به علي الانضمام إليه في الحرب ضد الخليفة العباسي في بغداد ، ولم يجد عبد الرحمن في الأندلس من يشرح له هذا الكتاب ويحل أحاجيه وألغازه ، فأرسل إلي الامبراطور الذي بعث إليه الراهب نيقولاس سنة ٩٥١م ، وقد تعاون هذا الراهب مع الأطباء العرب في قرطبة حتي ترجموا هذا الكتاب إلي العربية، لأن الأطباء في الأندلس كانوا علي علم بعلوم العقاقير وشئونها منذ زمن بعيد،فطبيب الخليفة هشام الثاني واسمه سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وضع كتابا بعنوان (مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديوسكوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به ومالا يستعمل لكيلا يغفل ذكره) (٨.) .

وقد دفع شغف بعض الأطباء الأوربيين بمعرفة أسرار علوم العرب في الطب أن تعلموا العربية ، نذكر منهم الطبيب الالماني الشهير أندرياس فيتزاليوس Anderias Wizalius وكان يلقب أبو علم التشريح ، وأبو الطب الغربي علي الإطلاق، وكان هدفه أن يترجم بنفسه كتب الرازي إلي لغة لاتينية صحيحة وقد طبع كتاب (الحاوي) خمس مرات باللاتينية فيما بين عامي ١٤٨٦و١٥٤٢م .

كما قدم ابن سينا أدوية جالينوس المعقدة في إطار سهل غير مضر ، وذكر في

كتابة (القانون) ماينيف علي سبعمائة وستين عقاراً دخلت كلها في علم النبات وعلم الصيدلة في الجامعات الأوربية ، وظـل الكثير منهـا بأسمائهـا العربية في اللغات الأوربية مثل العنبر والزعفران والكافور وغيرها (٨١). ومـن المدهش حقا أن مكتبة كلية الطب في باريس لم يكن بها في القرن الرابع عشر الميلادي سوي مؤلف واحد لعربي كبير هو كتاب الحاوي للرازي Rhases (٨٢)، وقد احتوي هذا الكتاب الطبي كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتي سنة ٩٢٥ م وظل المرجع الأساسي في جامعات أوربا لمدة تزيد علي أربعمائة سنة بعد ذلك التاريخ (أي إلي حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) دون أن يزاحمه مزاحم أو تؤثر فيه أو في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي دأب في صياغتها كهنة الأديرة قاطبة.ونظرا للقيمة العلمية الكبيرة لهذا الكتاب فلم يسمح للملك لويس الحادي عشر باستعارته إلا بعد أن دفع تأمينا من الذهب والفضة حتي يتمكن أطباؤه الخصوصيون من الاطلاع عليه ونسخ صورة منه يرجعون إليها عند معالجة الأسرة المالكة (٨٣) .

أما مدارس الطب في مونبلية فقد حاكت بشغف كبير الجامعات العربية ، وحافظت علي حبها للتجارب علي نمط التراث العربـي الأصيل دون أن تقع في أخطاء علمية تؤذيها أو تضر بها ، والدليل علي ذلك أن أرنولد الفيلانوفي Arnoldus Villanueva الأسباني (١٢٣٥ـ ١٣١١ م) (٨٤) قد حالفه التوفيق بفضل احتكاكه المباشر بأطباء العرب ، واعتكافه الطويل علي آثار الفكر العربي ، إلي مضاهاة كل معاصريه علما ومعرفه .

ويقرر المعتدلون من المستشرقين حقيقة انتقال علم الصيدلة من العرب إلي الغربيين الاوربيين . مثل قول بعضهم :

(وعن العرب أيضا أخذنا طريقة الأقراباذين التي يقوم الصيدلي علي أساسها بتحضير الأدوية) . ومن المسلم به أن البلاد الأوربية قد غمرهـا دفق من العقاقير العربية عن طريق البندقية، وصقليـة، وتدفقت كذلك كتب كثيرة في علم الأدويـة والأقراباذين بواسطة رجال من أمثال قسطنطين الأفريقي(٨٥) وصلت حتي بلاد الراين حيث سطع تأثيرها في الآفاق ، فقلدها المقلدون وأفادمنها المبتكرون .

وإذا كنا نري أن ما يقوله المعتدلون من المستشرقين حقيقة واقعة من حيث تأثير ، حضارة المشرق الإسلامي في حضارة الغرب الأوربي، وأنها الأساس الذي بني عليه الأوربيون حضارتهم، فإننا نؤيد ذلك القول بذكر أعظم خمسة من العلماء الأوربيين في العصور الوسطي تتلمذوا علي كتب العرب المسلمين في علوم الطبيعة وهم :

١ـ الفرنسي ڤنسون دي بوڤيه Vincent de Beauvais توفي سنة ١٢٦٤م

٢ـ الأسباني رعوندلالوس Raimundus Lallus ١٢٣٢ـ ١٣١٦م

٣ـ الأسباني أرنولد الڤيلانوڤي Arnoldus Villanueva ١٢٣٥ـ ١٣١١م

٤ـ النبيل الألماني ألبرت بولشتاد (البرتو الكبير) Albert Von Bollstadt "Alberto the Great ١١٩٣ـ ١٢٨٠م

٥ـ الانجليزي روجر بيكون Roger Bacon ١٢١٤ـ ١٢٩٢م

فهؤلاء جميعا درسوا علوم العرب في جامعة باريس فبهرتهم ، فسعوا إلي

التحقق من هذه العلوم وكانت نتائج دراساتهم تأكيد ما وصل إليه العرب المسلمون من نتائج من قبل .

ولم ينته هذا التأثير المشرقي الإسلامي بإنتهاء العصور الوسطي ، بل ظل قويا في علوم أوربا إلي القرن التاسع عشر ، ففي سنة ١٧٥٨م صدرت أجزاء من كتاب ابن البيطار (٨٦) الجامع في الادوية المفردة ، وفي سنة ١٨٣٠م إستعملت مصادر عربية في تصنيف الأقراباذين الأوربي .

وفي سنة ١٨٣٢م صدرت في طبعة جديدة مخطوطة فارسية قديمة بقلم : مختار الأرمني تتعلق بعلم الصيدلة كذلك .

هذه عجالة سريعة عن تأثر الحضارة الأوربية بحضارة المشرق الإسلامي اجتماعياً وثقافياً ، أسهم بها مع زملائي من المشتغلين بعلم التاريخ الإسلامي والحضارة لتوضيح حقيقة ثابته حاول البعض إنكارها أو إلقاء ظلال قاتمة عليها، ولكن الحقيقة لابد وأن تتضح وضوح شعاع الشمس في وسط النهار ، ويكفي أن عددا غير قليل من علماء الأوربيين ممن ذكرناهم في هذا البحث أقروا بهذه الحقيقة العلمية بكل صراحة ووضوح .

والله ولي التوفيق !

تعليمات وحواشـــى

١ ـ دخل العرب صقلية حوالى سنة ٢٧٥ هـ . / ٨٨٣ م ، ومكثوا بها قرابة قرنين ونصف ، كانوا فيها سادة للجزيرة وكانت عاصمتها بالرمو Palermo ، وقد أدخل العرب الفاتحون كثيرا من المزروعات وثمار الفاكهة والنخيل اليها ، وكانت قصورها تعج بالشعراء والمغنين والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة . راجع ابن حوقل : (ابو القاسم محمد) كتاب صورة الأرض ، بيروت (د) .

٢ ـ مجهول : أخبار مجموعة ، ص ٧٩ .

٣ ـ أحمد الشامى (دكتور) : العلاقات بين الشرق والغرب ، ط . ثالثة ، ١٩٩٣ ، ص ٨٨ .

٤ ـ محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) : الفنون الزخرفية الاسلامية، بيروت (د) ص ٢٢٦ .

٥ ـ زجريد هونكه (دكتور) : شمس العرب تسطع على الغرب ، بيروت، ١٩٦٩ ، ٥٣٢ .

٦ ـ أحمد الشامى : العلاقات ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

٧ ـ فيليب حتى (دكتور) : تحفة الشرق للغرب ، ص ١٤٢ وكذلك : Lammens, P. Henni La syrie du Nerd, p. 236

٨ ـ Runciman, Steven : Die Kreuzzuge, B.2. Munchen, 1955, S. 294 . ـ أحمد الشامي : العلاقات ، ص ٢٧١ وما بعدها .

٩ ـ Rey, E.G. : Les Colonies Franques de Syrie aux XI-let XIIJ si. p. 45 .

١٠ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب ، (٣ أجزاء) بيروت ، ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ ، ص ٢١٢ .

١١ ـ ابن جبير : الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ .

١٢ ـ راجع ما وسم به كل من جروسيه ، وجوستاف لوبون الصلبيين من سوء الأخلاق والعادات Grousset, R, : Histoire des Croisades et du Roy Francuis de Jerusalem, paris, 1934, pp. 123 - 209 .

١٣ ـ فيليب حتى : تحفة الشرق ، ص ١٤٧ .

١٤ ـ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٨٨ .

١٥ ـ أحمد الشامى : صلاح الدين والصليبيون ، النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩١ ص ١٣٦ .

١٦ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٥٣١ .

١٧ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٤٧٤ .

١٨ ـ المقرى التلمسانى : شهاب الدين أحمد ـ نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، (٧ أجزاء) تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨، ص ١ ، ص ١٩٨ .

١٩ ـ Dozy, R. : Histoire des Mueulmans d'Espagne, vol. II. p. 40 & pp. 271 - 278 . وكذلك محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٣ .

٢٠ ـ بسبب رفع الجزية عمن أسلم ، فيقل دخل بيت المال ولا يجد الحاكم ما ينفق منه على المنطقة التى يتولى أمرها .

٢١ ـ Dozy, It. : op. cit. p. 278 ff. .

٢٢ ـ Lane Poole, Stanley : The Moors in Spain, London, 1897. ch. I.

٢٣ ـ History of the. Nohammedan Dynasties in Spain, vol. I. pp. 7 - 8 .

٢٤ ـ History of the Inguisition in Spain, vol. I. p. 356 .

٢٥ ـ Simonet, Francisce Javier: Historia des los Mozarabes de Espana, vol. I. p. 106 .

٢٦ ـ Altamira, R.Y. Crevea : Historia de Espana y de la civilization Espanola t. I. p. 217 & Almagro, O.Y Cardenas: La Cultura Arabigo-Sevillana, p. 10 .

٢٧ ـ Gibbon, Edward : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire .

٢٨ ـ ورد هذا النص كاملا عند ابن الخطيب فى كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطه ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ج ١ ، القاهرة ، وقد اورده فى كتاب (دولة الاسلام فى الأندلس) ج ١ ق ١ ، ص ١٩٩ .

٢٩ ـ المقرى التلمسانى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

٣٠ ـ Codera, F.Y. Zidin : Numismatic, Arabigo - Espanola, p. 65 . وكذلك ابن بسام (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القاهرة ٩٤٥ ص ٤١ .

٣١ ـ ينسب الى سفر بن عبد الكلابى أحد قواه عبد الرحمن الداخل الذى زرعه فى كورة (ريا) ومنها انتشرت زراعته فى كل أنحاء الأندلس ، ثم فى أوربا ، المقرى التلمسانى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ وكذلك أحمد بدر (دكتور) : الأندلس وحضارتها ، ج ١ ص ١٤٠ .

٣٢ ـ ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاعى) : كتاب الحلة السيراء ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٥ وكذلك المقرى التلمسانى : المرجع السابق، ج ٢ ص ١٥ ، ٨٤ .

٣٣ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

٣٤ ـ حدث ذلك أيام الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون فى بغداد (١٩٥ ـ ١٩٦ هـ . / ٨١١ ـ ٨١٢ م). راجع أحمد الشامى : الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ .

٣٥ ـ ابن الخطيب (لسان الدين : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٠ .

٣٦ ـ Gosse, Philip : Los Piratas del Norte, pp. 107 - 111.

٣٧ ـ الحميرى (أبو عبد الله محمد) الروض المعطار نشره ليفى بروفنسال ، ص ١٨٤

٣٨ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٤٨

٣٩ ـ زجريد هونكه : نفس المرجع السابق ، ص ٥٠ ـ ٥٢

٤٠ ـ راجع المناقشات المستفيضة فى كتاب المستشرق الفرنسى (ميجون) عن الفن الاسلامى Migeon; Manuel d'Art Nusulman (Art Plastiques et industries) vol. I. pp. 247-248 & islamische Rleinkunst, Berlin. 1925 .

٤١ ـ محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية ، ص ٦٨ هـ ٤ ، ص ٢٢٦ وراجع كذلك الى ما كتبه الأثرى البريطانى كريستى فى كتاب تراث الاسلام : ج ٢ ص ٩٩ (ترجمة زكى محمد حسن)

٤٢ ـ كولان . ج س : الأندلس ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠

٤٣ ـ Heyd, W. : Histoire du Commerce du Lavant du Moyen-Age, t. II. p. 694 .

٤٤ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٩

٤٥ ـ بالباس . ل . تورس : الأندلس ، ص ١٣٨

٤٦ ـ توفى سنة ١٢٧٤م (٦٤٧ هـ .) ودفن فى قرية صغيرة فى مقاطعة بلنسيه ، مرزوق : الفنون الزخرفية ، ص ١٣١

٤٧ ـ من المعلوم أن العرب لم تخترع الورق ، ولكنهم تعلموا صناعته من أسرى الحرب الصينيين الذين جلبوهم الى مدينة سمرقند ، ومنها انتقلت صناعته الى عواصم العالم الاسلامى ثم وصلت الأندلس ومنها الى أوروبا . مرزوق : الفنون الزخرفية ، ص

٤٨ ـ Vernet, Juan · Los Musulmanes Espanples, P. 107 .

٤٩ ـ مرزوق : مرجع سابق ، ص ٢٢٧

٥٠ ـ Kuhnel. E. · Maurische Kunst, Berlin, 1924, s.1.

٥١ ـ مجهول : أخبار مجموعة ، ص ٢٤

٥٢ ـ المقـرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ١٦١ ، وابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٢٣ .

٥٤ ـ يبلغ قيمتها حوالى ثلاثة ملايين دولار أمريكى حاليا ، باعتبار الدينار ١/٢ ٤جم ذهب .

٥٥ ـ المقـرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ١٥٥ ، وابن عـذارى المراكـشى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٦٠ .

٥٦ ـ صنع هذا المنبر فى قرطبه ما بين عامى ٥٣٤ ـ ٥٣٨ هـ. / ١١٣٩ ـ ١١٤٢م. وهو مكسو بزخرفة رقيقة تتكون من أشكال هندسية متشابكة فى الواح مطعمة .

٥٧ ـ الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ص

٥٨ ـ يبدو لى أن هناك بعض المبالغة فى العدد (٣٨٠٠) لهذه المساجد .

٥٩ ـ راجع الوصف القيم لهذا المسجد عند الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٥٣ والمقـرى : نفس المرجع السابق ونفس الصفحة وكذلك السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٦٠ ـ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، ٤٦ وكذلك سالم : المرجع السابق ص ٣١ .

٦١ ـ كولان : الأندلسى ، ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٦٢ ـ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٩ ، ٧١ .

٦٣ ـ كولان : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

٦٤ ـ سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٣٩ معتمدا على العذرى الدلائى : كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الأثار ، ص ٨٦ .

٦٥ ـ Balbas, Leopold Torres : EXtension y demografia de les Ciudades hispano Musulmanas, Studin Islamica, vol. III. p. 53 & Dozy: Histoire des Musulmanas d'Espagne, ed. Levi Provençal, Leyde, 1932 .

٦٦ ـ راجع ما ذكره السيد عبد العزيز سالم (تاريخ المسلمين) ص ٢٩٦ عن عدد هذه الحمامات والخانات والدور .

٦٧ ـ مرزوق : الفنون الزخرفية ، ص ٤٥ .

٦٨ ـ أحمد الشامى : الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ١٤٥ (طبعه ثانية) .

٦٩ ـ تقع كلونى جنوبى البرانس على الطريق المؤدى الى مقبرة سانتياجو فى الجزء المسيحى من أسبانيا . زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .

٧٠ ـ زجريد هونكه : نفس المرجع ونفس الصفحة .

٧١ ـ للوقوف على تفاصيل مسببة عن التأثير الاسلامى فى فنون أوربا راجع ما كتبته السيدة ديفنشير بالفرنسية. وكذلك ما كتبه أحمد فكرى فى الكتابين التاليين :

Devonshire : Queiques influnces islamiques sue les Arts de l'Europe, Le Cairo, 1929 Fikry, Ahmed : L'Art roman du Payes et les influnces islamiques, Paris, 1934

٧٢ ـ هو أبو الحسن على بن نافع الشهير بزرياب .

* ـ خير الله طلفاح : حضارة العرب فى الاندلس ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

٧٣ ـ المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٦ ، ج ٤ ، ص ١١٨ ـ ١٢٨ .

٧٤ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٤٩٢ .

٧٥ ـ قام جيرهارد الكريمونى بترجمة الى اللاتينية لشرح ابن رضوان (أبو الحسن على ابن رضوان بن على بن جعفر ٩٩٨ ـ ١٠٦١م) طبيب الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، على كتاب جالينوس فى كتابه المسمى (شرع الصناعة الصغيرة لجالينوس) .

٧٦ ـ زجريد هونكه : مرجع سابق ، ص ٥٠١ .

٧٧ ـ نزهة المشتاق ، ص ١٧٨ .

٧٨ ـ زجريد هونكه : نفس المرجع ، ص ١٠٨ .

٧٩ ـ زجريد هونكه : نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

٨٠ ـ زجريد هونكه : نفس المرجع ، ص ٣٢٢ .

٨١ ـ زجريد هونكه : المرجع نفسه ، ص ٣٢١ .

٨٢ ـ كان الرازى أول من استحضر حامض الكبريتيك الهام ، وأول من استخرج الكحول من المواد السكرية والنشوية المخمرة ، وهو أول من دفع الكيمياء لخدمة الطب فحقق فتحا علميا آخر ، وقد سار على نهجه فيما بعد عدد من علماء الأوربيين مثل باراسلزوس Paracelsus .

٨٣ ـ زجريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

٨٤ ـ أحد المستشرقين الذين أتقنوا العربية ، وقد اهتم بدراسة الفكر والعقلية العربية ، ومن المستشرقين الحاليين نذكر A. Schall; A,Dietrich; E,Gottschalk .

٨٥ ـ أحد المسلمين التونسيين ، تعلم فى بغداد ثم عاد الى تونس ولكنه تنصر وهرب الى ايطاليا حيث مات بها راهبا سنة ١٠٨٧م، وكان أول من نقل الى اللاتينية مؤلفات العرب الطيبة دون أن يذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين ناسيا اياها لنفسه .

٨٦ ـ ابن البيطار : أعظم عباقرة العرب فى علم النبات ، ضم كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) شرحا لألف وأربعمائة نوع من النباتات الطبية، من حيث ذكر اسمائها وطرق استعمالها والبديل لها . وقد اعتمد فى كتابه هذا على دراسة وتمحيص مائة وخمسين كتابا فى النباتات وفى علوم الطب كتبها سابقوه .

المصادر والمراجع العربية

١) ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى:كتاب الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢) ابن بسام : ابو الحسن على الشنتريني: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٣) ابن البيطار : الجامع فى الأدوية المفردة (٤ مجلدات) القاهرة .

٤) ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى: طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٥٥ .

٥) ابن حزم : أبو محمد على بن احمد بن سعيد جمهره أنساب العرب تحقيق ليفى بروفنسال لمعارف القاهره ١٩٤٨

٦) ابن حوقل : أبو محمد القاسم محمد بن على النصيبى:كتاب صورة الأرض ، بيروت (بدون) .

٧) ابن حيان : أبو مروان بن حيان القرطبى: المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٥ .

٨) ابن الخطيب : لسان الدين .

أ ـ كتاب الأحاطة فى أخبار غرناطه ، ج ١ ، القاهرة ١٩٠١ (عنان)

ب ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٩) ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد:كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ مجلدات) القاهرة .

١٠) ابن سعيد المغربى : على بن موسى: المغرب فى حلى المغرب (مجلدان) المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١١) ابن عذارى المراكشي : أبو عبد الله محمد:كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ج ١ ، تحقيق كولان ، وليفى بروفنسل ، بيروت .

١٢) ابن القوطية : محمد بن عمرو بن عبد العزيز أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٥٧ .

١٣) ابراهيم على طرخان (دكتور) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ .
١٤) أحمد بدر (دكتور) : .الأندلس وحضارتها ، الجزء الأول ، دمشق ، ١٩٦٩ .
١٥) أحمد الشامى (دكتور) .
أ ـ العلاقات بين الشرق والغرب، طبعه ثالثة ، القاهرة ١٩٩٣ .
ب ـ صلاح الدين والصليبيون ، النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩١ .
ج ـ الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول، طبعه ثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٥ .
د ـ الحضارة الاسلامية ، طبعه ثامنة ، مكتبة عباده ، ١٩٩١ .
١٦) أحمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الأسكندرية ١٩٦٨ .
١٧) جورج يعقوب (مستشرق الماضى) : أثر الشرق فى الغرب ، ترجمه بتصرف فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٤٦ .
١٨) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، الحلبى ، القاهرة ١٩٤٥ (ترجمة عادل زعيتر) .
١٩) الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العظيم ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .
٢٠) خير الله طلفاح : حضارة العرب فى الأندلس ، ج ٦ ، بغداد ١٩٧٧ .
٢١) زجريد هونكه (دكتوره) : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة بيضون والدسوقى ، بيروت ١٩٦٩ .
٢٢) السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
أ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٨٢

ب ـ تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، النهضة العربية ، ١٩٦٩ .

ج ـ المرية قاعدة الأسطول الاسلامى فى الأندلس ، مجلة الرابطة ، المركز الثقافى الأسبانى ، القاهرة ١٩٥٨ (العدد ٨ ، ٩) .

٢٣) الشريف الأدريسى : محمد بن عبد الله بن ادريس : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن ، ١٨٩٣ .

٢٤) فيليب حتى :

أ ـ تاريخ العرب ٣ مجلدات ، بيروت ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ .

ب ـ تحفة الشرق للغرب .

٢٥) كولان : ج ـ س : الأندلس ، كتب دائرة المعارف الاسلامية (٢) بيروت ١٩٨٠ .

٢٦) ليفى بروفنسال : الأسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة سالم وحلمى، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٧) مولف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم ، تحقيق ونشر لافونتيه ، مجريط ١٩٦٧ .

٢٨) محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام فى الأندلس ، الجزء الأول ـ القسم الأول (ط . رابعة) الخانجى القاهرة ١٩٦٩ .

٢٩) محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) : الفنون الزخرفية الاسلامية ، بيروت (د) .

٣٠) المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق احسان عباس (٧ أجزاء) بيروت ١٩٦٨ .

٣١) ياقوت الحموى : شهاب الدين : معجم البلدان (٥ مجلدات) بيروت ١٩٦٠ .

٣٢) دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين ، القاهرة ١٩٣٣ .

المراجع الأوربيـة

1- Almagro, o. y Cardenas: La Cultnra Arabigo-Sevillann, Madrid,

2- Al tamira, Hiy Crevea: llistoria de Espana y de la Civilization Espanola, (4 vols.) Parcelona, 1991.

3- Balbas, Leopold Torres: el entercambio artistiec entre Espana y Egipto, al Andalus, 1934.

4- Extension y demografia de les Ciudades hispano Musulmanas Studia Islamicu, vols.3, 1955.

5- Christie, : Islamic Minor Arta and their influnces upon European Work, in Legacy of Islam, London 1931.

6- Codera, F,y Zaidin: Numismatica, Arabigo-Espanela,

7- Devonshire, : quelques influnces islamiques sur les Arts de l-Eurepe, Le caire, 1929.

8- Dozy, Reinhart: Histeire des Nusulmanas d'Espagne, 3 vols., ed, Levi provencal, Leyde, 1932.

9- Fikry, Ahmed: L'Art roman du pays et les influnces islamiques, paris, 1934.

10- Gayangos, Pascual de. : History of the Nonammedan. Dynasties in Spain, London, 1843.

11- Gibben, Kdward: The history of the Decline and Fall of the Reman Empire, 3 vils, London,

12- Gosse, Philip: Los Piratas del Nerte,

13- Grousset, R, : Risteire des Creiandes et du Rey Francais de Derusalem, Paris, 1934.

14- Heyd, W. ; Histoire du Commerce du Lnvant du Noyen Age. Leipzig 1923.

15- Kuhnel, E. : Islamische Kleinkunst, Herlin, 1925 .

16- : Naurische Kunat, Berliu, 1924.

17- Lammens, P. Henri : La Syrie du Rord.

18- Lane-Poole, Stanley : the Moors in Spain, London, 1897.

19- Levi-Prveneal, E. : Histoire de l'Espagne Nusulmane, 3 vols. Leiden, 1950.

20- Nigeon, ; Manuel d'Art Musulman (Art Plastiques et Industries) 2 vols. Paris, 1927.

21- Rey, E.G. : Les Colonies Franques du Syrie aux XII et XIII si., Paris, 1938.

22- Runciman, Steven : Die Rreuzzuge, Munchen 1959.

23- Scott, Mechael: History of the Mooriah Empire, Vol. I. Philadelfia, 1904.

24- Simonet, Franelses Javier: Historia des los Mozarabes de Espana, vol. I. Madrid, 1903.

25- Vernet, Juan : Los Mos Musulmanes Espaneles.

الدكتورة ثريا لهي

شعبة اللغة العربية وآدابها
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الرباط
المملكة المغربية

الموضوع :

الاسكندرية : أعلام ومعالم فى تراث الغرب الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

الاسكندرية : أعلام ومعالم حضارية فى تراث الغرب الاسلامى

للاسكندرية مكانة خاصة عند سكان الغرب الاسلامى (المغرب والاندلس) فهى أول ميناء تحط به البواخر والسفن الآتية من الغرب ، وأول مركز ثقافى وحضارى ينزل به الوافدون ، ولعل الروابط الحضارية تمتد عمقا فى جذور التاريخ الى أول انتشار للبشر فى ربوع الغرب ، فسكانه الأصليون ـ البربر ـ من أصل يمنى كما يقول علماء النسب ـ انتقلوا قديما من اليمن نحو الشمال واستقروا بمصر ومنها انتقلت عناصرهم نحو الشمال الافريقى حتى بلغوا حدود المحيط الاطلسى فاستقروا بهذا البلد وكونو به تاريخا إنسانيا ظل معه سكان هذه المنطقة من العالم مشدودين الى مصر وأرضها ، وزاد هذه الروابط انتشار الفتوحات الاسلامية التى مرت من المشرق الى المغرب عبر تراب مصر ، فشدت بأواصر الأخوة الدينية ما بينهما من صلات وروابط ما نزال نلمسها حتى يومنا هذا .

ولقد شهدت الاسكندرية بالخصوص هجرة كثير من الاجناس إليها ، وأول هجرة كانت من الغرب الاسلامى إليها بهد واقعة الربض فى قرطبة من ديار الاندلس ، والتى تسبب فيها بعض قرابة الحكم بن هشام فثاروا بالربض الغربى من المدينة ، فاضطر الحكم الى محاربتهم ، ولما تمت له الغلبة أباح فيهم القتل ثلاثة أيام ، ولما انقضت الأيام الثلاثة أمر برفع القتل ، وتأمين الفل ، على أن يخرجوا من حضرة قرطبة ، فساروا عن أوطانهم كل بحسب

ما أمكنه ، واستمروا ظاعنين على الصعب والدلول فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر رمضان المؤرخ متفرقين فى قصى الكور وأطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها الحكم ولجأ آخرون الى سواحل بلاد البربر ، وأصعدت منهم طائفة عظيمة نحو الخمسة عشر ألفا فى البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا الى الاسكندرية ، وذلك فى أول ولاية عبد الله المأمون ابن الرشيد » [1] .

وكذلك فعل الحكم المستنصر ببنى ادريس من ملوك الريف بالمغرب لما غلب على أرضهم فأجازهم البحر الى قرطبة ومنها جلاهم من الغرب الاسلامى الى الاسكندرية [2] . وممن هاجر ولجأ إليها لجوءا سياسيا سلطان افريقية بعد خلعه من السلطة وهو زكريا أويحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى ، وأنزله ملك مصر الناصر بدار السلطنة من مدينة الاسكندرية وأجرى عليه رزقا يوميا (100 درهم فى كل يوم) فسكنها وأولاده ، عبد الواحد ، ومصرى ، واسكندرى ـ وهذه أسماء أولاده ـ وصاحبه أبو زكريا ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين ، وعاش هذا الملك المخلوع بالاسكندرية حتى توفى بها ، كما عاش فيها ابنه الاسكندرى حتى توفى أيضا بها ، وبقى بها المصرى ، أما عبد الواحد فعاد الى بلاد الاندلس ومنها الى المغرب وإفريقية حيث توفى بجزيرة جربة [3] .

كانت الاسكندرية « محطة الحجاج من الاندلس والمغرب وملتقى الافواج الجالية عن أوطانها من شرق وغرب ، فالحروب الصليبية دفعت

---

1) الحلة السيراء لابن الابار 45/1 وانظر خبر هذه الهجرة فى نفح الطيب 339/1 .

2) نفح الطيب للمقرى 385/1 .

3) رحلة ابن بطوطة ص 14 .

كثيرين من سكان البلاد المقدسة لاختيار الاسكندرية وطنا لهم واحتلال النورمان لصقلية أخرج الصقليين عن وطنهم فوجدوا الامن فى الاسكندرية ، والهزات المتلاحقة التى أصابت المدن الاندلسية جعلت كثيرا من أهلها يهاجرون الى الاسكندرية ، هذا الى الجوابين من طلاب العلم وأصحاب الأسفار البعيدة من طبقات التجار والمغامرين » [1] .

لقد تردد اسم الاسكندرية كثيرا فى مؤلفات الغرب الاسلامى إذ نجد تصويرا دقيقا لهذه المدينة ووصفا كاملا لمعالمها وأسوارها وقصورها ، ودكاكينها وحوانيتها ، وجوا معها ومساجدها ، ومدراسها وبيوتاتها ومقابرها ، وقد كانت هذه المعالم كلها أماكن للدراسة وتبادل العلم والثقافة فى عهود مختلفة .

المنار : أبرز هذه المعالم وأول ما يبدو منها للزائر الوافد عليها بحرا منارها الذى يرمز للأمل بعد اليأس، والنجاة بعد الهلاك ، والحياة بعد العدم، فقد كانت الرحلة من الأندلس الى الاسكندرية تستغرق ثلاثين يوما [2] فى البحر يعانى منها المسافر المحن العظام ، وفى رحله البلوى تصوير لهذه المعاناة يقول : «فتمكن اليأس ،وعظم البأس ، وسقط فى أيدى الناس ، فضجوا بالدعاء ، ونقص لهم النصف من تلك الجرعه التى كانوا يأخذونها من الماء وأختلفت اليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة جمعت الاصحاب من قراء القرآن ، فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا الا اللجاء الى الله عز وجل والتوسل إليه بكتابه وبرسوله ، فصلينا العشاء الآخرة وقسمت عليه القرآن مجزوءا وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا

1) معجم السلفى تحقيق د . إحسان عباس ص 9 .

2) نفح الطيب 385/2 .

تلك فلم يكن أمرا لايسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ونبيه الكريم ، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الاسكندرية فأعلم الناس بذلك ، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء ، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء ، وكادوا أن يقضي عليهم ذلك الأمل ومن فرح النفس ما يقتل .

خَفَقَتْ قُلُوبُهُم سُرورا بَعْدَما بَاتُو بأَءفئدة يَراع خَوَافِقِ

فما رأيت قبلها بشارة أحلى في النفوس وأوقع في القلوب ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها في تلك الساعة ، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود وأعلمت بالخروج من العدم الى الوجود [1]» وقبل البلوى تحدث عن هذه المعاناة ابن جبير نزيل الاسكندرية [2] الذى اعتبر ظهور المنار على نحو العشرين ميلا من البحر بشرى بالسلامة ، وتحدث عنها أيضا عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك والمعروف بابن سعيد المغربي اذ قال : « ثم نازعتني النفس التواقة الى الديار المصرية ، فكابدت في البحر بالايفي بوصفة الا المشاهدة الى أن أبصرت منار الاسكندرية فيالك من استئناف عمر جديد بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتفكير » [3] ووصفها كذلك أبو عبد الله القرموني ووصف فرحته برؤية المنار الذى كان يبشر بالسلامة والنجاة قال متحدثا عن قدومه على الاسكندرية ومعه ابن عبد ربه الحفيد : « اصطحبت معه في المركب من المغرب الى الاسكندرية ، فلما قربنا منها هاج علينا البحر ، وأشفينا على الغرق فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الاسكندرية فسررنا برؤيته وطمعنا في السلامة [4] ويصف

---

1) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق للبلوى 195/1 ,196 .

2) رحلة ابن جبير ص 7 .

3) نفح الطيب 371/2 .

4) المصدر نفسه 118 .

القلصاوى متاعب رحلة البحر مع العلم أن القلصاوى أبحر إلى الاسكندرية من طرابلس ليبيا فقط : « وبلغنا ثغر الاسكندرية غرة جمادى الثانية 14 أوت 1447 م بعد مشقات عظام ، تحار فى وصفها المحابر والأقلام ، حتى وقع من كل الأمر الله الاستسلام ، وصار الانسان ينادى بلسان الحال : أنا الغريق فما خوفى من البلل » رحلة القلمصاوى الاندلسى ص 124 [1] .

لا غرو إذن أن نجد منار الاسكندرية وهو أحد معالمها الاساسية ـ يمثل رمزا عند المغاربة ، وقفوا عنده طويلا وتأملوه وقاسوا طوله وعرضه وجابوا داخله وتعرفوا على بنائه من الداخل ومن الخارج وخلفوا لنا أوصافا دقيقة اعتمدت على المشاهدة والقياس وذكروا ما طرأ عليه من التغيرات عبر السنين، والظاهر أن شهرة المنار كانت تصل الى بلاد الغرب الاسلامى «فقد كتب الناس فيه وسطروا ما فيه الكفاية » [2] منهم ابن جبير فى رحلته . وبعد ابن جبير نجد ابن رشيد السبتى [3] يتحدث عن المنار قائلا : « ومن عجائب الاسكندرية منارها الذى يعجز عنه الواصف ، ويحار فيه الراصف ، وضخامته من داخله أكثر مما هى من خارجة ، وهو من عجائب المنوعات وغرائب المرئيات ، قاس أحد أصحابنا جانبه البحرى مائه ونيفا على عشرين قدما ، وذكر لى الاصحاب أنه أخذ ارتفاعه بالاسطرلاب فالسفن القاعدة ستين قدما ، والفحل الوسط أربعين ، والفحل الأخير عشرين والله أعلم» [4] والعبدرى يصفه قائلا « دخلته وتأملته وما وصلت الى أعلاه الا بعد جهد ولا يظهر له من خارج فرط علو ، وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة

---

1) تمهيد الطالب ومنتهى الراغب الى أعلى المنازل والمناقب لابى الحسن على القلصادى .

2) رحلة العبدرى ص 91 .

3) كانت رحلته الى الاسكندرية سنة 684 هـ .

4) ملء العيبة رحله ابن رشيد 3 / 94 .

أميال وعلى مرتفع بشمال البلد ، وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى تأكل حجره من الناحيتين فدعم منها ببناء وثيق اتصل الى أعلاه وزيد دعما بدكاكين متسعة وثيقة وضع أساسها فى البحر ورفعت عنه نحو ثلاث قامات وباب المنار مرتفع عن الأرض نحو أربع قامات وبنى إليه بنيان حتى حاذاه ، ولم يتصل به ، ووضعت عليه ألواح يمشى عليها الى الباب فإن أزيلت لم يوصل اليه ، وفوق الباب من داخل مرتفع متسع لحرسة الباب يعقد فيه الحارس وينام وفى داخل المنار بيوت رأيتها مختلفة ، وسعه الممر فيه ستة أشبار وفى غلظ الحائط عشرة أشبار ذرعته من أعلاه ، وسعة المنار من ركن الى ركن مائة وأربعون شبرا وفى أعلاه جامور كبير عليه أخر دونه وفوق الأعلى قبة مليحة يطلع إليها فى درج مشرعة الى النواحى ، ولها محراب للصلاة » [1].

وإذا تتبعنا وصف المنار فى مؤلفات المغاربة نجد أبا القاسم بن يوسف التجيبى يشير الى الزلزال الكبير الذى ضرب مدينة الاسكندرية سنة 702 هـ فخرب الكثير من معالمها يقول أبو القاسم . « ومن أغرب ما بلغنى أنه أتفق بالاسكندرية لما وقعت فيها الزلزلة الشديدة التى خربت كثيرا من أعلامها الشهيرة ، ومبانيها العتيقة واضطرب بها عمودها الشهير ، وأنهد أكثر منارها وهو أشهر ما بقى من آثارها وحسر البحر حسورا شديدا ، ثم عاد ومر حتى بلغ أمدا فى البرية بعيدا ، وقدر لبعض ناسها أن يموت فى ميدانها شريدا وذلك فى شهر ذى الحجة من سنة الثنين وسبعمائه » [2].

ومن المستغرب أن يأتى البلوى فى رحلته [3] بوصفه للمنار ولم يذكر ما طرأ عليه بسبب هذه الأحداث الطبيعية وإنما يصف المنار كما وصفه

---

1) رحلة العبدرى 91 .

2) مستفاد الرحلة والاعتراب ص 11 .

3) رحلة البلوى كانت سنة 737 هـ .

الأولون قائلا : « ومن عجائب الاسكندرية أيضا المنار ، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الأعظم فى عنان السماء أساسه كله معقود بالرصاص ، وبنيانه بالحجر المنجور الجافى يزاحم السماء سمرا وارتفاعا قد وضعه الله تعالى على يد من سخره لذلك آية للمتوسمين ، وهداية للمسافرين يهتدون به فى البحر الى بر الاسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ، عرض أحد جوانبه الاربع ينيف على خمسين باعا ، ويذكر أن طوله أزيد من مائة وخمسين قامة ، وألفيت فى بعض التأليف المعتمدة ما نصه وذكر من عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : عجائب الدنيا أربعة مرأة منار الاسكندرية كان الناس يجلسون تحتها فيرون من بالقسطنطينية » [1].

ويذكر فى مكان آخر وصف المنار والسرطان الذى كان عليه من رخام،كما تحدث من مرأة كبيرة «وضعها الحكماء يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم ، حتى احتيل فى انزالها فلم يستطع أحد على صرفها » [2].

ويزول الاستغراب عندما تعلم أن البلوى لم يكن يدون رحلته معتمدا على المشاهدة فى حينها وإنما ألف رحلته بعد عودته معتمدا على عدد من كتب الرحلات ناقلا ما فيها من أوصاف المدن والمآثر والمناطق التى مر بها ، ونستدل على هذا بما جاء فى النص أعلاه ، اذ استعمل كلمة « ويذكر » فى صيغة المبنى للمجهول ، فهو لم يقس طول المنار ، كما يعتمد على الرواية والنقل من مصادر قديمة كقوله : « وألفيت فى بعض التآليف المعتمدة » وهذا اعتراف واضح منه أنه ألف هذه الرحلة وكتبها معتمدا على ما ألف فى فن الرحلة عند من سبقه ، ويزداد الأمر وضوحا عندما نقارن ما

1) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق للبلوى 1 / 200 .

2) المصدر نفسه ص 198 .

جاء فى وصف مدينة الاسكندرية ـ مثلا ـ عنده بما جاء من وصفها عند ابن جبير فنجده ينقل وصف ابن جبير نقلا حرفيا .

ثم يأتى ابن بطوطه الرحاله المغربى فيقف على منار الاسكندرية ويصفه وصف المشاهد بالعيان قائلا : « قصدت المنار من هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما ، وصفته انه بناء مربع ذاهب فى الهواء وبابه مرتفع على الأرض ، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فإذا أزيلت لم يكن له سبيل ، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض المنار من كل جهة من جهاتة الأربع مائة وأربعون شبرا وهو على كل مرتفع ، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل الى المنار فى البر الا من المدينة ، وهذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية ، وقصدت المنار عند عودتى الى بلاد المغرب عام 750 هـ فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه ، وكان الملك الناصر (رحمه الله) قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه مخافة الموت عن اتمامه » [1].

إن ابن بطوطة يحدد التاريخ الذى عاد فيه الى الاسكندرية ووقوفه على هذه المأثرة العظيمة وشاهد بأم عينيه الخراب الحاصل لها من جراء العوامل الطبيعية ـ الزلزال ـ والعوامل السياسية والبشرية ، فإن إهمال أصحاب الشأن ترميم هذا المنار وإصلاحه بدلا من إقامة منار آخر لم يتم بناؤه أدى الى اندثار رسمه . وعفاء أثره حتى لم يبعد منه فى سنة 1072 هـ الادائرة اذ جرف

1) تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب اسفار ـ لابن بطوطة تحقيق أحمد العرامرى ومحمد أحمد جاد المولى بك ـ القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق 1939 ص 13 .

البحر أكثر المدينة ، وقد وصف أبو سالم العياشي (توفى 1090 هـ) ما شهده بعينه فى هذه المدينة قائلا : « ومن عجائبها المنارة المشهورة الا أنها الأن دائرة لم يبعد منها شيء وقد سألت صاحبنا الشيخ باكر عن محلها فأخبرنى إنه فى البحر وأن البحر استولى على أكثر المدينة ، قال : « وقد شاهدنا الآن رسوما بأيدى الناس فيها شراء دور وحوانيت وفنادق حول المنارة وكل ذلك قد استولى عليه البحر الآن ولم يبق منه بقية ، وقد كنت أتعجب مما ذكر المؤرخون من فخامتها وعظمتها ولم أر بعض البعض ، فلما ذكر صاحبنا ذلك علمت أن البحر هو الذى أزال أكثر رسومها » [1].

أعجب المغاربة بهذا المنار وأحبوه ـ كرمز للسلامة ، ففاضت قرائحهم فى صياغة أشعار فى المنار ، لم أعثر فيما بين يدى من مصادر الا على القليل القليل الذى إن دلت قلته على شيء فإنما تدل على ما جاءت به قريحة أهل المغرب فى وصف المنار فى حالة نفسية لا يعلمها الا الله ، حالة من يتأرجح بين الموت والحياة وبين اليأس والأمل ، وهذا نموذج لابن عبد ربه الحفيد صنعه على البديهية عندما لاح له المنار وقد أشرف هو ومن معه على الغرق :

لله دَر منَارِ اسْكَنـــدَريَّة كَـــمْ * يَسمَو إِليه عَلَى بُعْدِ منَ الحَـــدقِ
وَمنْ شَامخ الأَنف فِى مرنبنه شَمَم * كأَنه بَاهتَ فى دَارةِ الأُفـــــــقِ
يُكَسرُ الْمَوجَ منْهَ جَانبى رَجُـــــل * عُشَمَّرَ الذَّيلِ لا يَخشَى منَ الْغَـرقِ
لاَ يَبَرحَ الدّهرَ مِــنَ وِردِ عَلَى مَضنَي * مَا بَينَ مُصطَبحِ منْهَـــــا ومُغتَبقِ
لِلمُنشآتِ الْجَـــــوارى عنْدَ رُؤيَته * كَمَوقِعِ النَّومِ منَ أَجفَانِ ذى أَرَقِ [2]

---

1) مساء الموائد : أو الرحلة العياشية لابى سالم العياشى الطبعة الثانية 1977 جـ 2 ص 362 .

2) نفح الطيب 2 / 118 .

وقال فيه البلوى :

بُشْرَاكُمَ لاَحَ الْمَـــنَارُ الأَسْــعدَ * وَدَنا عَلَى الْيَأْسِ الْمَرَامُ الأ بْعَـــدُ

وَتَنفّسَ الْكَرْبُ الّذِى كُنَــــا به * فِى حَالَةِ البَلْـــوى نَقُومُ ونَقْعدُ

وافتَرّ من ثَغْر اسْكَنْـــدرِيَّة ثغْرُهَا * الوضّاح فَهو مُنَظَّـــــمٌ ومُنَضّدُ

فرِدُوا زُلاَلَ النّيـــلِ فِيهَـــا مَورداً * قَدْ أَخْصَبَ المرْعَى وَطَابَ الْمَوْرِدُ

وَاسْتَقْبِلُوا النعَـــمَ العظامَ بِشُكْرِهَا * فَبِشُكْرِهَا أَبَـــداً لَكُـــمْ تَتَـزَيّدُ

مَا خَابَ قَصْدُكُمَ وَطِيبَةُ قَصْـدُكُمْ * وَشفِيعُكُمْ خـيْرُ الأنَامِ مُحَمّدُ[1] .

عمــود الســوارى :

إذا كانت الاسكندرية أمل الوافد عليها بحرا فهى أيضا أمل الوارد عليها برا ، وإذا كان المبحر يعانى من قساوة الرياح والعواصف وتلاطم الأمواج فإن القادم عليها برا يعانى من شراسة الموماة ووحشة القفر ، ولا تبدو له الاسكندرية الا بعد عناء ويأس اذ « مما يلى الاسكندرية من هذه الأرض (برقة) العقبة الكبيرة وبينها وبين الاسكندرية عشرة أيام ثم العقبة الصغيرة وبينها وبين الكبيرة ستة أيام ومنها الى الاسكندرية أربعة ، وكلتاهما خلاء لا ساكن بها ولا مسكن ، وأكثر مواضع هذه الأرض هكذا أسام بلا مسميات ، وهى برية واحدة ممتدة الى الاسكندرية وفى أخرها الموماة المضنية المؤذية أوحش المراحل على الراحل قفر لوبية أرض تتوحش منها لنكارتها القلوب ، وينسى مع رؤيتها على المسافر من نوائب الدهر وهى ضروب» [2] .

---

1) تاج المفرق ص 196 .

2) رحلة العبدرى ص 89 .

وإذا كان المنار بالنسبة للقادم بحرا بشرى بالسلامة ، فإن عمود السوارى بالنسبة للقادم برا بشرى بالخروج من الموماة المضنية الى مدينة الاسكندرية ، وهو يبدو من بعيد مرتفعا وسط أشجار النخيل ، وقد استغرب له المغاربة وعبروا عن ذلك بألفاظ منها : ومن أغرب ما رأيت ومن عجائبها ـ ومن غرائب هذه المدينة » الى غير هذه الألفاظ التى تظهر مدى تعجب القادمين عليها لرؤيته اذ أن ارتفاع هذا العمود وطريقة نحته ووضعه شيء كان خارج طاقة البشر آنذاك ، وقد عبر ابن رشيد السبتى عن هذا الشعور بقوله : « ومن عجائبها أيضا التى يحار العقل فى التوصل الى وصفه اويكل الرامق إليه بطرفه ، السارية المعروفة عندهم بعمود السوارى وهى خارج باب البلد ، قائمة ببسيط من الأرض على قاعدة ، وعلى رأسها قاعدة أخرى ، أخذ بعض أصحابنا ارتفاعه بحضرتى ، فألفيناه مائة وثلاثين شبرا ، وشبرت قاعدته بشبرى فكانت تسعة عشر شبرا فى كل وجه من وجوه القاعدة»[1].

وكان العبدرى ممن قدم على الاسكندرية برا فكان عمود السوارى أول ما بدا له وعبر عن تعجبه منه فى قوله : « ومن أغرب ما رأيته بها عمود من رخام بظاهرها يعرف بعمود السوارى وهو حجر واحد مستدير عال جدا على قدر الصومعة المرتفعة وهو يبدو من بعيد بارزا فى غاية النخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ولا يعلم كيف أقيم عليها ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف وهو مما لا يمكن تحريكه البتة فضلا عن إقامته هنالك » [2].

وإذا كان كل من ابن رشيد والعبدرى تحدثا عن عمود السوارى ولم

1) ملء العيبة لابن رشيد 3 / 95 .

2) رحلة العبدرى ص 91 .

يشيرا الى أعمدة أخرى بجانبها ولم يذكرا شيئا عنها وقد وصفاها وصف المشاهد المعاين فإننا نجد البلوى يتحدث عن عمود السوارى ويذكر أعمدة أخرى من رخام وسوارى كثيرة والغريب أن يستعمل لفظ « وعاينت » أى أنه شاهدها فعلا أثناء رحلته مع العلم أننى أشرت سابقا الى أن البلوى عندما كتب رحلته هذه كان يعتمد على مؤلفات سابقيه فى وصف هذه الامصار وإلا كيف يتحدث البلوى عن هذه السوارى ورحلته كانت سنة 737 هـ ولم يذكر العبدرى ولا ابن رشيد عنها شيئا ورحلة العبدرى كانت سنة 698 هـ ورحلة ابن رشيد كانت سنة 684 هـ يقول البلوى : « وَعَايَنْتُ فيهَا مِنْ سَوارِى الرُخَامِ وأَلْواحِه كثْرَةً وَعُلُوّاً واتْسَاعاً وَحُسْنَاماَ لايَتَخَيّلُ بالْوَهْم وَلَقَدْ تَلْقَى فيهَا سَوارِى يَقْصَدُ بهَا الجَوّ بهَا لاَ يُدْرَى مَعْنَاهَا ولاَ لماَ كَانَ أَصْلُ وَضْعهاَ ، ويُذْكَرُ أنّهُ كَانَ عَلَيْهَا فى الـزّمَنِ القَدِيم مبَانٍ للْفَلاَسِفَة وَلأَهْلِ الرِيَاسَة وَاللّهُ أَعْلَم ، وَمِنْ أَعْجَبِهاَ وأَعْظَمِهاَ عَمُودُ السّوارى ، لَهُ قَاعِدَةٌ مربعه هُوَ عَلَيْهَا ، عَدَدْتُ فى أَحَد جَوانِبِهَا نَيّفاً عَلَى أَحَدَ عشرَ شِبْراً ، وَطَالَعْتُ فى بَعْضِ التآليف أنَ أعْظَمَ عَمُودٍ عَلَى وَجْه الأرْضِ وَاقفُ عَلَى كَنْز مِنَ الكُنوز، وأَنّ طَولَهُ تسعُ وأرْبعونَ ذراعاً بالذّراعِ الكَبِيرَةِ الّتى فيهَا ذرَاعَانِ وأنّهُ لاَ يَتزحزحُ عَنْ مَوْضِعه وَلَوْ تَسَاقَطتْ عَلَيْه الجِبَالُ » [(1)].

ولا نجد ذكرا لهذه السوارى عند الرحالة الذين جاءوا بعد البلوى فهذا ابن بطوطة وكانت زيارته للاسكندرية سنة 750 هـ يتحدث عن عمود السوارى ولا يذكر شيئا عن غيره ، يقول : « ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى وهو متوسط فى غابة نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا ، وهو قطعة واحدة

1) تاج المفرق 1 / ص 199 .

محكمة النحت ، وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه [1].

وهذا أبو الحسن القلصادى وكانت رحلته فى حدود 850 هـ لا يذكر شيئا عن هذه السوارى الهم إلا عمودها الشهير الذى اعتبره من العجائب التى فيها السارية خارج باب السدرة اكتلت فى أحد جوانب القاعدة التى هى عليها عشرين شبرا ، وهى مربع متساوى الأضلاع » [2].

أما أبو سالم العياشى فوصف العمود بقوامه : « ومن عجائبها العمود المشهور بعمود السوارى وهو باق الى اليوم مائل فى الهواء تحار الأفكار فى صنعه ، وقد زعموا أنهم كانوا قبل ذلك أربعة وفوقها قبة » [3].

ويعود أبو سالم فى صفحة أخرى للحديث عن هذا العمود بعد أن وقف على ما أصاب مدينة الاسكندرية من خراب ودمار وفناء وموات بعد الوباء القاتل الذى حل بها سنة 1072 هـ ، ويَصِفُ وصف المشاهد ما وصلت إليه الحال بهذه البلدة التى كانت تزهو على باقى بلدان العالم مقررا أنه : « لم يبق من غرائب آثارها الدالة على فخامة ملك عمارها إلا العمود المسمى بعمود السوارى المسالم للسعوادى من آفة الدهر والطوارىء ، وهو عمود واحد من حجر مائل فى الهواء ، لا يمل من أرضه من النواء ، من فوقه حجر مربع مثل الكرسى الذى تحته دورة نحو الثلاثين ذراعا ما رأينا أعجب من طول العمود وفخامته ، ومن وضع ذلك الكرسى فوق هامته ، أى قدرة من قدر البشر تبلغ ذلك وأى حيلة أو سبب يوصله الى هنالك ،

1) تحفة النظار لابن بطوطة ص 13 .

2) رحلة القلصادى ص 125 .

3) ماء الموائد ـ لابى سالم العياشى 2 / 462 .

يرى من أمكنه بعيدة كالنخلة السحوق وقد زاحم بمنكبه الجوزاء والعيون ، وبالجملة فهو من مبانى الدنيا السفوية ومن مآثر هذه المدينة العجيبة » [1].

أعجب المغاربة بمدينة الاسكندرية بجمال بناياتها واتساعها وبياض لونها ورحابة شوارعها ، وهذا ابن جبير أندلسى وافد من بلاد الاندلس المعروف عن جمال بلدانها وكبر مدنها وعظمة أبنيتها وقصورها يصل الى الاسكندرية ينبهر بها ويعجب ويذكر محاسنها : « فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى إنّا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا ، والعجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه من فوقه » [2].

ومن ألطف وأجمل ما كتب المغاربة فى وصف الاسكندرية ما جاء على لسان العبدرى رغم انتقاده الشديد لأهلها ولمعاملتهم للأغراب ، فلم يحل ذلك دون الأشادة بما رأى أمامه من جمال المدينة وما علم من تاريخها الحافل ذاكرا ذلك فى أسلوب أدبى متميز يقول العبدرى : « ثَغْرُ الاسْكَنْدَرِيَة مَدِينَةُ الْحَصَانَةِ وَالوَثَاقَة وَبَلَد الاشْرَاق اللامع والطّلاقة ، وطَلاوَة المَنْظر وحَلاوَة المَذَاقَة ، كَلَّ عَنْهَا ظُفْرَ الزمَانِ وَنَابَه ، وَحَلَّ مِنْهَا جيْشُ الحَدَثَان وأَحزَابُه فلو تَبدَّ عَلَيْها للزّمانِ ضَرَاعَةٌ ، وَلاَ وُكِستْ لَهَا فِى مُعَامَلاتِه سِلْعَةٌ ولاَ بِضَاعَة ، ولاَ وَقَفَتْ لَه مَوْقفَ الــــذّل يَوْمًا ولاَ سَاعَةً ، بَلْ ثُبِتَتْ لِحزبِه ثُبوتَ الْبَطَل ، وَصَارَتْ كَيْدُهُ حَتَّى اضْمَحَلّ سِحْرُه وَبَطَل ، وَلَم يصْغِ أُذْنَا إلى مَا يُوعَدُ به مِنَ الخنَا والخَطَل ، فَهِيَ وَاقِفَةٌ وقُوفَ الأَطْوَاد سَامِيَةً بِطَرْفٍ غَيْرِ كَلِيل ، وَجِيد غَيْرِ مُنَآد ، أخذَة مِنَ الكُفْرِ وأهْلِه بالمُخَنّقِ ، حَتّى

1) مساء الموائد للعياشي 2 / 369 .

2) رحلة ابن جبير ص 9 .

أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق ، فساموا الأسف مسامرة الندى للمحلق ، ودجا عليهم ليل هم إذ لهم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم ألا سى واحتدم ، فحالفوا الندم ، وقالو عضو لا يتفرق ، مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تسفر عن محيا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج أحور ، تبسم عن ثغر الاقحوان أذا نور ، كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر ،بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الاتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الأعلام ومرت به على المهارق الأقلام » [1].

إن قراءة مثل هذا الوصف كافية لتحميس المغاربة على شد الرحال الى مصر لزيارة هذه المدينة خاصة وأن مثل هذا الوصف تكرر عند مغاربة أخرين زاروها ووصفوها وصف معجب مغرم بل وأنشدوا فيها شعرا كما فقل البلوى إذ قال عنها : « فلم أر مدينة أحسن منها وصفا ولا أبدع ربحا ولا أوسع مسالك ولا أعلى مبانى ولا أسمى مراقى ، ولا أجمل مراسم ، ولا أوضح معالم ، ولا أملح أزقة ولا أعجب رونقا ورقة ، ولا أحسن تفصيلا وجملة :

هي القصور البيض لاما حدثوا * عن إرم وغيرها من البنا

تخطف الأبصار من لألائها * والليل قد ألقى القناع الأدكنا

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها

1) رحلة العبدرى ص 90 .

مسك أذفر ، ويومها غذاة ، وليلها سحر ، وكفاها أن ليلها كالنهار فى تصرف العباد وإعادة مسائها كصباحها وهو غير المعتاد وهل هى إلا ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، ذكر المفسرون عن أبى بن كعب فى قوله تعالى : إرم ذات العماد : إنها الاسكندرية فهى من أعجب البلدان ، وفيها بنيان عجيب ، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت فى ثلاثمائة سنة ، وأن أهلها مكفوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار الا معصبين الأعين بخرق سود خوفا على أبصارهم من شدة بياضها »[1].

وتتواتر الأخبار عن هذه المدينة والتغنى جمالها واتساعها وضخامة بنيانها حتى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى حيث نجد ابن بطوطة يتحدث عن الاسكندرية وعن عمرانها ورواج السلع والبضائع فيها ومآثرها الدينية والدنيوية فى أسلوب مسجوع بديع يقول ابن بطوطة : « مدينة الاسكندرية وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصلية البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت معانيها ، ولطفت مغانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها أو الخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة إليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا ، وحسب المشرق الى ذلك ما سطره أبو عبيد فى كتاب المسالك»[2].

وبعد قرن من الزمان نجد وصفا أخر لهذه المدينة ، وصفا يتحدث عن خرابها وقلة العمران فيها وبالضبط فى سنة 853 عندما قام أبو الحسن

1) تاج المفرق ص 198 .

2) تحفة النظار ص 12 .

القلصادى بزيارتها فوجدها مدينة « من أحسن البلاد ترتيبا وبناءا ، وجدرانها بالحجر الابيض المنجور وسككها كلها على نسق ، نافذة متسعة ، يعلم من ذلك أنها من تخطيط حكيم وبناؤها تحت الارض محكم ، والماء يخترق باطنها غير أنها قد خرجت وخلا أكثرها من العمارة » [1].

ولا نعلم ما الذى حدث وسبب فى هذا الخراب أهى عوامل طبيعية ؟ أم بشرية ؟ أم سياسية ؟ فالرحالة لا يذكر السبب فى ذلك وتحليله وإنما يكتفى بالوصف المجرد ، وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على هذه الاسباب فى القرن التاسع الهجرى ، فإننا نستطيع على العكس من ذلك أن نتبينها فى القرن الحادى عشر الهجرى من خلال رحلة ابى سالم العياشى ، وقد ذكر دخوله مع وفد الحجاج المغاربة الى مصر وعدم دخولهم الى الاسكندرية بسبب الوباء الذى كان منتشرا بها [2]ولكن فى طريق عودته من الحج دخل هذه المدينة وطاف بها وبمزارتها ووصفها بقوله : « هى عَقيلَةُ البلاَدِ الحَائِرَة للطَّرِيف منَ المَحَاسنِ وَالتّلاَدِ عقيلةٌ أبْلَى الدّهْرُ شبَابَهَا وَمزّقَ جلْبَابَهَا ، وأَكَلَ لُبَابَهَا وَلَمْ يَتْرُكْ إلاَّ أَسْوَارَهَا وَأَبْوَابَهَا ، فَقَدْ نبتَ الكَلأُ وَالعُشْبُ فى أَفْنيَتِهَا ، وَعَشّشَ البُومُ فى أَبْنيَتِهَا ، تَسيرُ فيهَا نصْفَ المِيلِ أوْ أكْثَرَ مَاشياً ولاَتلْقَى ذَاهباً ولاَ جَائِياً ، فَهِى عِبرَةٌ لمَن اعتبَرَ ، ومزهدةٌ فى الدنْيَا لمَنْ تَدبّر، وأَوْفَى صحّةٍ عَلَى مُفَكْرى الفَنَاءَ الأكْبَر ، تُخْبِرُ أَطْلاَلُهَا البَالِيَة بأَخْبَارِ القُرونِ الْخَالِية » [3]. ويظهر أن ما أصاب المدينة كان فوق طاقة سكانها ، الذين حاولوا مرارا إعادة الحياة والنشاط فيها وتوسلوا الى ملوك العصر للعمل على إعادة الحياة إليها [4].

---

1) رحلة القلصادى ص 125 .

2) ماء الموائد رحلة أبى سالم العياشى 1 / 115 .

3) المصدر نفسه 2 / 368 .

4) ذكر أبو سالم العياشى فى رحلته ماء الموائد 2 / 362 أن أهل الاسكندرية جاءوا الى السلطان سليم فى زيارته اليها وطلبوا منه أن يعيد اليها عمرانها .

تحدث الناس عن بناء هذه المدينة وتخطيطها وكيف أن تحتها أسراب ومبانى ، وأن ماء النيل يخترق جميع ديارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الأرض ويذكر صاحب النفح أن تحت الاسكندرية أسراب يسير فيها القائم من أول البلد الى أخره » [1].

أبوابها: لمدينة الاسكندرية أربعة أبواب: الباب الغربى باب السدرة [2] ومنه يدخل حجاج الغرب الاسلامى الوافدين برا وبه مكان تجمعهم . باب البحر وهو المسمى فى ملء العيبة بباب البلد[3] وهو مدخل الوافدين بحرا عليها ، باب رشيد والباب الأخضر[4] وليس يفتح إلا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور » .

وهذه الأبواب كانت منافذ فى سور البلد منها يخرج أهل الاسكندرية فى الاتجاهات الأربع ، احتفظت المصادر المغربية بوصف دقيق ورائع لهذه الأبواب وكيفية صنعها حتى أعتبر ذلك فى جملة الأشياء الغريبة والعجيبة التى تمتاز بها الاسكندرية فالعبدرى يصف هذه الأبواب قائلا : « ومن جملة إبداعها وإغرابها ما رأيت من اتقان أبوابها ، وذلك أن عضائدها وعتبها مع إفراط طول الأبواب كلها من حجارة منحوتة يتعجب من حسنها واتقانها ، وكل عضادة منها حجر واحد ، وكذلك كل عتبة وأسكفة ، ولا عجب من وصفها هنا لك مع إفراط عظمها ، ولم يغير طول الزمان شيئا من ذلك ، ولا أثر فيه بل بقى بجدته ورونقه ، وأما مصاريعها فهى غاية فى

---

1) النفح 5 / 995 .

2) برنامج التجيبى ص 275 ـ وماء الموائد 2 / 361 .

3) ملء العيبة ص 95 ومعجم أبى الطاهر السلفى 62 .

4) رحلة ابن بطوطة ص 12 ـ النفح 2 / 85 .

الأحكام ملبسة بالحديد ظهرا وبطنا بأدق ما يكون من الصنعة وأحسنه وأتقنه» [1].

إن عظمة هذه المدينة تعود الى عهود قديمة فى التاريخ ، اذ بها آثار لقبة فرعون ، وفيها قصر سليمان الذى تهدم وبقيت فيه آثار دالة عليه حتى القرن الثامن الهجرى [2]، ويحكى المؤرخون عن فتح الاسكندرية أن عمرو بن العاص بعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بحال المدينة وأنه أصاب فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة حلة للملوك ذكر هذا الخبر أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم فى كتابه الاكتفا فى ذكر الفتوحات فى عهد الخلفاء الراشدين [3].

ومن مشهور بنايات الاسكندرية حمامها الكبير وصفه أبو سالم العياشى فى رحلته بقوله : « ومن مبانيها العجيبة التى لاشبيه له فى الدنيا حمامها الكبير ، فقد أثنى عليه الأطباء وذكر المؤرخون أنه انفرد فى سعته وحسن شكله وفخامة بنائه عن غيره من حمامات الدنيا » [4].

كما أنها عرفت مظاهر حضارة عالية جدا ، يحتار العقل فى تفسيرها، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ، ما ذكره المقرى فى نفح الطيب عن أبى طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد مكين الدولة الذى تولى قضاء الاسكندرية ونظرها أيام الآمر (517 هـ) وما وصفه به

1) رحلة العبدرى ص 91 .

2) رحلة البلوى 1 / 198 .

3) نقل هذا الخبر البلوى فى رحلته 1 / 200

4) ماء الموائد 2 / 367

فى علو الهمة والمروءة وما بلغه من تفننه فى ألوان من الحضارة ذاكرا قصة دهن الشمع[1] الذى احتفظ به فى إناء قيمته خمسمائة دينار وعقب المقرى على تلك القصة بقوله : « فانظر رحمك الله تعالى الى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات ؟ وهذا إنما هو حال قاضى الاسكندرية ، ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة الى أعيان الدولة بالحضرة ؟ وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم الى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير » [2].

وتحدث على بن ظافر عن الشاعر بن قلاقس وسرعة بديهية فى الارتجال فوصف حضوره يوما عند بنى خليف بظاهر الاسكندرية فى قصر من قصورهم على شاطىء البحر ، ودعنا نقرأ وصفه هذا لنقف على جانب هام من تأنق بيوتات الاسكندرية الكبرى فى قصورهم وحدائقهم ومنتزهاتهم بقول ابن ظافر[3] « وَحَضَرَ يوْما عنْدَ بَنِى خَلَيف بَظَاهِرِ الاسْكَنْدَرية فَى قَصْرٍ رَسَا بناؤه وسَمَا ، وكَادَ يمزِّقُ بمزَاحمته أثوابَ السَّمَا ، قد ارتدى جلابيب السّحَائب ولاَثَ عمَائمَ الْغمَائم ، وابتسمتْ ثنايا شرفاته واتّسمتْ بالْحسنِ حَنَايَا عرفَانه ، وأشْرَفَ عَلَى سَائرِ نَواحى الدنْيَا وأقْطَارِها ، وَجبَتْهُ الرياضُ بمَا ائْتَمنتْهَا عليْه السحبُ منْ وَدَائع أمْطَارِهـا ، والـرملُ بفنائه قدْ نثر تبْرَه فى زبرجَد كرومه ، والْجوُ قدْ بعَث بذخائِر الطيب لَطيمَةَ نسيمه ، والنّحلُ قدْ أظْهرتْ جواهرَهَا ، ونشرتْ غدَائرَهَا ، والطلُ ينثر لؤْلؤه فى مسَابِ النّسيمِ ومسَاحبه والْبحر يرعدُ غيْظاً منْ عبثِ الرِيَاحِ به » .

1) انظر التفاصيل فى نفح الطيب 2 / 392 و 394 .

2) انظر التفاصيل فى نفح الطيب 2 / 392 و 394 .

3) المصدر نفسه 3 / 257 .

جانب آخر من جوانب حضارة الاسكندرية يتجلى فى الجانب العلمى المزدهر عبر السنين والحقب ، هذا الأزدهار لم يكن مقتصرا على تداول العلم وأنواع الثقافات فى المدارس فقط ولكنه عم حتى شمل المساجد والبيوتات والحوانيت والاسواق والمقابر والمزارات ، فمن المساجد التى ورد ذكرها فى تراث الغرب الاسلامى نجد مسجد أبى الدرداء ، المنسوب لابى الدرداء رضى الله عنه يوجد بالاسكندرية داخل باب السدرة ذكره التجيبى فى برنامجه [1] ، والجامع العتيق جامع عمرو بن العاص قرب سور الاسكندرية[2] ومسجد سوق العجم بالاسكندرية كان الشريف تاج الدين العراقى يجلس فيه للاقراء أخذ عليه فيه التجيبى سنة 696 هـ[3] ومسجد بشارع الروحى ، ويظهر أن هذا الشارع كان يمتلىء بالمساجد اذ ذكر ابن رشيد أنه لقى وجيه الدين أبا محمد بن خير وسمع عليه أحاديث الخلعى « بشارع الروحى بأحد المساجد هناك » [4].

ولهذه المدينة من المدارس والمساجد مالا يستوفيه واصف ذكر الهروى فى بعض تأليفه أن مدينة الاسكندرية احتوت على اثنى عشر ألف مسجد[5] ومن مشهور المدارس نجد فى مرويات المغاربة :

المدرسة العادلية نسبة الى العادل بن سلار الذى كان وليا على الاسكندرية قبل أن يصبح وزيرا وهو الذى بنى هذه المدرسة للحافظ أبى الطاهر السلفى وفوضها إليه [6]. ويظهر أن هذه المدرسة بالاضافة الى قاعات

---

1) برنامجه ص 275 .

2) ملء العينة 3 / 93 .

3) برنامجه ص 157 و 178 .

4) ملء العينة 5 / 381 .

5) تاج المفرق للبلوى 1 / 200 .

6) أزهار الرياض 3 / 167 .

الدرس كان بها محل لأقامة الطلاب ينزل به الأغراب منهم فقد روى أبو عبداللة التجيبى أنه كان نازلا بالمدرسة العادلية بالاسكندرية سنة 573هـ[1].

ومنها المدرسة الصالحية وكان يدرس بها علم الحديث فى القرن السادس الهجرى ، من شيوخ الحديث فيها الحافظ أبو الظاهر السلفى[1] كما كان يدرس بها الفقه الشافعى ومسائل الخلاف ومنها المدرسة الزكوية، بها أخذ أبو عبد الله التونسى عن أبى عبد الله بن الجرج مخمسات ابن مهيب الاشبيلى لشعر أبى زيد الفازازى[2].

ومنها مدرسة ابن الابزارى جلس فيها ابن رشيد السبتى ينقل إجازات شيخه الغرافى فى منتصف جمادى الأخرى من عام 684 هـ[3].

ومنها دار الحديث النبيهيه أخذ بها القاسم بن يوسف التجيبى عن ابى العباس الغرافى بتاريخ 696 هـ[4].

ومنها مدرسة الفقيه ابن المنير وهى على غرار المدرسة العادلية بها الى جانب قاعات الدرس وجناح لاقامة الطلاب المغتربين ذكرها العبدرى فى رحلته فقال : « ثم وصلنا الاسكندرية فأنزلنا شيخنا الفقيه زين الدين بمدرسة اقرائه وأولانا من بره وتأنيسه ما يكافيه الله به » وذكر فى مكان آخر: « وأقمنا بها سبعة أيام ثم سافرنا الى طريقنا الاولى»[5].

ومنها مدرسة ابن حباسة الاسكندرى أخذ بها العبدرى عن : « نور الدين أبى عبد الله بن رزين الدين أبى الحسن يحيى بن الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز ابن حباسة الاسكندرى بمدرسة جده »[5].

---

1) الذيل والتكملة 4 / 228 .

2) معجم السفر لابى الظاهر السلفى ص 8 .

3) ملىء العيبة 3 / 14 .

4) المصدر نفسه 3 / 82 و 91 .

5) مستفاد الرحلة والاغتراب ص 93 و 103 و 121 .

ومنها مدرسة ابن جصاصة كان إمامها هو عبد المحسن بن هبة الله بن أبى المنصور الفوى يدعى زكى الدين وأبا المنصور وأبا محمد [1].

إلى جانب المساجد والمدارس كانت منازل العلماء وبيوتاتهم مفتوحة أمام الطلاب والواقدين من الاسكندرية لطلب العلم ، ذكر البلوى من بين هذه البيوتات :

ـ منزل وجيه الدين أبى زكريا يحيى الصنهاجى ، الذى كان يعلم الناس بمنزله سمع عليه تأليف كثيرة [2].

ـ منزل شرف الدين أبى العباس المشهور بابن المصفى . قال عنة : القيته بمنزله من الاسكندرية فسمعت عليه تصانيف جملة ، وتلقيت منه فوائد جمة » [3].

ـ منزل الامام سديد الدين أبى عبد الله المشهور بابن عطية ، كان يفتح منزله للوافدين للأخذ عنه [4].

ـ منزل أبى عمرو عثمان بن حسن بن على بن محمد بن دحية الكلبى أخذ فيه عن هذا الشيخ كل من العالم الشريف أبى الحسن القرافى ووالده [5].

ولعبت الحوانيت أيضا دورا كبيرا فى نشر رواية العلم بهذه المدينة العظيمة ، أذكر منها :

---

1) رحلة العبدرى ص 235 .

2) المصدر نفسه ص 93 .

3) برنامج الوادى آشى ص 148 .

4) تاج المفرق ، ص . 201 .

5) المصدر نفسه ، ص . 203 .

ـ دكان المكين الاسمر وهو شيخ المقرئين والمجودين ، واسمه الكامل أبو حمد عبد الله بن منصور بن على الملقب بالمكين الاسمر قرأ عليه ابن رشيد بدكان منزله سنة 684 هـ [1].

ـ دكان الشيخ الاديب يوسف بن عبد العالى بن هلال التميمى كان يبيع فيه القمح . ذكره أيضا ابن رشيد فيمن أخذ عنهم بالاسكندرية [2].

ـ حانوت أبى عبد الله بن عبد الرحمن القرشى الاسكندرى ، سمع البلوى عليه وأجازه إجازة تامة مطلقة وقد لقبه بحانوت الوثيقة هذا [3].

الاسكندرية :

ولن أختم الحديث عن معالم حضارية فى تراث الغرب الاسلامى دون أن أقف على أحد أبرز هذه المعالم التى احتفظ المغاربة بأسمائها ، وكانوا حريصين على الوقوف عليها والدعاء عندها والتبرك بمن فيها ، وهى المقابر والمزارات . وأشهر هذه المقابر .

ـ مقبرة وعلة وهى داخل السور عند الباب الأخضر ، وفيها جماعة من الصالحين ، ويقال : إن هذه المقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن بن وعلة السبئى المصرى صاحب ابن عباس رضى الله عنهما[4]، ويكفى هذه المقبرة شهرة أنها ضمت قبور عدد من الصلحاء والعلماء ما لا يعد كثرة [5]،

---

1) المصدر نفسه ، ص . 206 .

2) ملىء العيبة . 3 / 63 .

3) المصدر نفسه ، ص . 27 .

4) المصدر نفسه ، ص . 51 .

5) رحلة العبدرى : 98 .

وفيها قال الحافظ السلفى : « لا أعلم فى البلاد التى تطوفتها تربة جمعت قبور ثلاثة أئمة فى ثلاثة مذاهب إلا التربة التى بمقبرة وعلة بالاسكندرية ، وقبور الائمة الثلاثة فى الثلاثة المذاهب المقبرة المذكورة متلاصقة : قبر ابن الحطاب الشافعى ، وقبر أبى بكر الطرطوشى المالكى ، وقبر أبى بكر محمد بن إبراهيم الحنيفى رحمهم الله[1] » .

ـ مقبرة بين الميناوين ذكرها التجيبى فى رحلته [2] ، ولعلها نفس المقبرة التى أثار إليها العبدرى ووصفها بقوله : « من الاسكندرية إلى المنار بر متصل أحاط به البحر حتى اتصل بسور البلد ، فلا يمكن الوصول إلى المنار فى البحر إلا من البلد وفى هذا البر مقابر الاسكندرية وفيها المزارات وقبور العلماء والصالحين ما لا يعد كثرة [3] » . أو تكون هى مقبرة باب البحر التى دفن بها أبو محمد عبد الله بن حسن بن عشير العبدرى اليابى النحوى سنة 525 هـ [4] .

وعلى أى ، فهذه المقابر من الاماكن التى كان المغاربة يزورنها ويقفون عندها للدعاء والتبرك ، ويعتقدون أن بها تربة بعض الأنبياء عليهم السلام وبعض التابعين رضوان الله عليهم أجمعين [5] .

أما المزارات ، فذكر أبو سالم العياشى عددا منها زارها ووقف عندها ، وهى :

---

1) ملىء العيبة : 3 / 93 .

2) مستفاد الرحلة والاغتراب : 57 .

3) رحلة العبدرى : 92 .

4) معجم السفر للسلفى : 62 .

5) تاج المفرق : 1 / 200

« مزار قبر الامام الطرطوشى .

مزار سيدى على البدوى .

مزار الخزرجى .

قبر الامام الفاكهانى .

قبر الشيخ سيدى عبد الرزاق تلميذ أبى مدين .

قلعة أبى الحسن الشاذلى .

قبر سيدى أحمد المنارى .

مشهد الشيخ أبى العباس المرى .

زاوية أبى محمد صالح : ينزلها المغاربة وكانت لهم فيها أوقاف» [1] .

هذه المزارات كان المغاربة يقصدونها للتربك والدعاء وأحيانا للشفاعة[2] .

الأعــلام :

لا يتسع هذا البحث للاحاطة بعلماء الاسكندرية وإحصائهم ، وفيما خلف المغاربة من مؤلفات فى فن الرحلة والبرنامج والمشيخة والفهارس ، تخليد لذكرهم وتراجم واسعة بمروياتهم وعبر عصور مختلفة أشير فى معرض هذا الحديث إلى بعضها ، فمن كتب الرحلة : رحلة ابن جبير (578 هـ) ، رحلة ابن رشيد (684 هـ) ، رحلة العبدرى (688 هـ) رحلة التجيبى بعد

1) ماء الموائد لابى سالم العياشى : 2 / 363 ، 364 ، 367 .

2) ذكر أبو سالم العياشى أنه فى قدومه للحج سنة   عندما علم بالوباء فى الاسكندرية كتب قصيدة بعث إلى ضريح أبى العباس المرسى وعلقت عليه يتشفع بهذا الولى الصالح ويدعو الله لكشف هذا البلاء .

(702 هـ)، رحلة بن بطوطة (727 هـ)، رحلة البلوى (737 هـ) ، رحلة القلصادى (850 هـ)، رحلة العياش (1069 هـ)، وغيرها . ومن كتب البرامج : برنامج التجيبى ، برنامج الفهرى اللبلى وغيرها . كما نجد فى كتب التراجم من خصص تراجم لعلماء مصر كأبى بكر الزبيدى الاندلسى[1]، وابن سعيد المغربى[2] وغيرهما .

إلا أن ما قصدت إليه فى هذا الجانب من البحث هو ذكر أعلام الغرب الاسلامى الذين نزحوا من ديارهم وفضلوا الاقامة بمدينة الاسكندرية بالخصوص . ولا يخفى على كل باحث أن حصر الاعلام بكل دقة وتحديد يستلزم أعواما من البحث والتنقيب فى بطون الكتب وقد يتسع فيشمل مجلدات ضخمة . وبما أن الموضوع يستلزم التعريف بهذا الجانب فسأقتصر على جملة من الأعلام الذين سكنوا مدينة الاسكندرية وعاشوا بها بقية حياتهم حتى توفوا بها ، منهم :

1. طليب بن كامل اللخمى أبو خالد ويسمى أيضا عبد الله بن كامل سكن الاسكندرية وتوفى بها سنة 173 هـ[3] .
2. ابراهيم بن عبد الله بن مسرة بن نجيح قرطبى أبو اسحاق توفى بالاسكندرية ورثاه أخوه محمد بقوله :

أحقا أيها النائى السميع   أبو اسحاق ليس له رجوع

1) طبقات النحويين واللغويين : ترجم فيها لنحاة مصر من ص 213 إلى ص 292 ، تحقيقه محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارب . الطبعة الثانية .

2) له مؤلفات عديدة منها : المشرق فى حلى المشرق .

3) تاريخ العلماء لابن الفرضى : 208 .

وفيهـا :

على الاسكندرية عـج فسلـم   لتقضى من لبانتهـا الدمـوع

ففـى عرصاتها شـمل شـتيت   تشتت عنـه لى جسـد جميع[1]

3. أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى المعروف بابن أبى الربيع انقطع للعبادة برباط سوار من الاسكندرية بتربة أبى العباس الراسى ، ولد بشاطبة سنة 585 هـ وتوفى بالاسكندرية سنة 672 هـ ودفن بتـربة شيخه المجاورة لزاويته [2].

4. أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الانصارى المرسى ، قدم مع شيخه أبى الحسن الشاذلى ، توفى بالاسكندرية سنة 676 هـ وهو صـاحب الضريح المشهور بهذه المدينة [3].

5. أبو بكر الطرطوشى سـراج الملوك ، عـرف بابن أبى رندقـة ، توفى بالاسكندرية وقبره معروف بمقبرة وعلة ، زاره المقرى [4].

6. عبـد الله بن العـربى المعـافرى ، وهو والد الأمـام الكبيـر أبى بكر ابن العربى، وصل إلى المشرق فى سفارة للمرابطين ، وأقام بالاسكندرية وتوفى بها سنة 493 هـ [5].

7. محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد أبو بكر ابن العربى الاشبيلى الحفيد ـ حفيد القاضى أبى بكر ابن العربى ـ سافر إلى المشرق سنة 612 هـ ، تصوف وتعبد وتوفى بالاسكندرية سنة 617 هـ [6].

---

1) تاريخ العلماء لابن الفرضى : 14 .
2) نفح الطيب : 2 / 140 .
3) المصدر نفسه : 2 / 190 .
4) المصدر نفسه : 2 / 85 .
5) المصدر نفسه : 2 / 92 .
6) المصدر نفسه : 2 / 626 .

8. محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى ، استوطن جيان ثم غرناطة ثم فاس وأخيرا الاسكندرية ، وهو صاحب الرحلة المشهورة ، ولد ببلنسية سنة 539 هـ ، وتوفى بالاسكندرية سنة 614 هـ . ترجم له ابن عبد الملك فى الذيل ترجمة واسعة [1].

9. أبو محمد عبدالله بن حسن بن عشير العبدرى اليابسى النحوى تصدر لاقراء القرآن والنحو فى جامع الاسكندرية ، وكان إلى ذلك شاعرا ، توفى سنة 525 هـ ووصى أن يصلى عليه الحافظ المسلقى ، ويوم دفنه كان الجو باردا فصلى عليه الحافظ حسب وصيته ودفن بمقبرة باب البحر [2].

10. أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، كان أديبا شاعرا جال كثيرا وانتهى به المطاف بالاسكندرية وتوفى بها عام 640 هـ[3].

11. أبو الحسن الخزرجى على بن محمد بن يوسف بن عفيف من أهل غرناطة ، رحل من الاندلس واختار الاسكندرية مقرا له . مولده فى حدود سنة 590 هـ ، أخذ عليه ابن رشيد فى رحلته الى المشرق . كان حيا سنة 684 هـ [4].

12. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى الأديب الفرضى المقرىء . مولده بالاندلس سنة 591 هـ ونشأ ببلنسية واختار الاسكندرية مقرا للإقامته [5].

---

1) الذيل والتكملة : 5 / 2 / 595 - 621 .

2) معجم الصلفى : 62 .

3) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : 2 / 170 .

4) ملء العيبة لابن رشيد : 3 / 43 - 49 .

5) نفح الطيب : 2 / 216 .

13. أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن غالب الحضرمى الاوربى ، حج وسمع بمكة وعاد إلى الاسكندرية وحدث بها . كتب عنه أبو الطاهر السلفى [1].

14. أبو عبد الله محمد بن فرج بن عبد الله الاندلس المعروف بابن أبى سعيد ، شهد بالاسكندرية وانتفع به . توفى بها سنة 538 هـ [2].

15. جمهور بن خلف بن أبى عمر بن قاسم بن ثابت المعافرى أبو الحسن من غرب الاندلس ، سمع بالاسكندرية وبقى بها [3].

16. أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الانصارى المالكى فقيه محدث مدرس وأحد الشهود بالاسكندرية ، ولد بقرطبة سنة 578 هـ، توفى بالاسكندرية سنة 656 هـ [4].

17. محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله البزاز السرقسطى ، رحل حاجا وطاف العراق ومصر واستقر بالاسكندرية فحدث بها وأخذ عنه الناس وتوفى بها [5].

18. أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابونى الاشبيلى ، يلقب أيضا بالصدفى، من أكبر شعراء الاندلس فى القرن السادس الهجرى ، رحل إلى مصر واستقر بالاسكندرية وتوفى بها سنة 634 هـ [6].

---

1) معجم السفر : 152 .

2) معجم السفر : 100 .

3) التكملة لابن الابار : 1 / 11 (طبعة مجريط) .

4) نفح الطيب : 2 / 615 .

5) المصدر نفسه : 2 / 154 .

6) الحلة السيراء لابن الابار : 2 / 309 .

19. يوسف بن عمر بن أيوب بن زكرياء التجيبى الثغرى البريشترى ، أبو عمرو ، رحل الى المشرق وكان يسكن الاسكندرية وبها حدثه [1].

20. أبو نصر الفتح بن خلف بن عبد الله الجزرى الاندلسى سكن الاسكندرية وكان يزاول بها النسخ ، له رحلة طاف فيها العراق والحجاز واليمن وبلاد الهند ثم استوطن الاسكندرية حتى توفى بها [2].

21. أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الانصارى المشهور بابن الجرج التلمسانى ، ولد بتلمسان سنة 564 هـ ، أحد الصلحاء العلماء ، نزل الاسكندرية وتوفى بها سنة 656 هـ [3].

22. الشيخ الفقيه الفرضى العابد الزاهد جمال الدين أبو محمد عبد الله بن أبى بكر بن يحيى بن عبد السلام الجذميوى الصودى المغربى نزيل الاسكندرية [4].

23. أبو عبد الله بن موسى النعمان المزالى الفاسى ، تجول فى البلاد ونزل مصر وتوفى قبل سنة 685 هـ [5].

24. أبو الحسن على بن إبراهيم التجانى ، وفد على الاسكندرية ونال عناية أهلها ، كان يعقد الوثائق بها وأصبح أحد عدولها ، كان مقيما بالاسكندرية حتى سنة 685 هـ [6].

---

1) معجم السفر : 154 .
2) نفسه : 106 - 107 .
3) بغية الآمال : 22 .
4) برنامج التجيبى : 274 .
5) ملء العيبة : 5 / 404 .
6) نفسه : 5 / 395 .

25. عبد المنعم بن يحيى بن خلف بن النفيس الحميرى الغرناطى ، سكن الجزيرة الخضراء ، ثم مراكش ثم الاسكندرية استوطنها بعد حجه وحدث بها [1].

26. وجية الدين أبو زكريا اليزيدى المالكى ، ولد سنة 667 هـ ، رحل قديما للقاء العلماء ، وحج عشر حجج ، سمع عليه البلوى تأليف كثيرة بمنزلة من الاسكندرية [2].

27. أبو القاسم الوجيه عيسى بن عبد العزيز بن عبد الواحد بن سليمان اللخمى شريشى استوطن الاسكندرية [3].

28. الشيخ المصنف نور الدين أبو الحسن على بن يونس بن عبد الله المهداوى التونسى ، ولد سنة 668 هـ ، انتقل من المغرب إلى الاسكندرية ، سمع عليه البلوى بها [4].

---

1) الذيل والتكملة : 5 / 1 / 64 .

2) تاج المفرق : 1 / 200 .

3) الذيل والتكملة : 5 / 2 / 501 .

4) تاج المفرق : 1 / 208 .

التبادل الحضاري بين مصر وفرنسا

زمن الحملة الفرنسية

١٧٩٨ - ١٨٠١ م

بحث مقدم من

دكتور رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

و

عميد معهد الدراسات الآسيوية

جامعة الزقازيق

الى

مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول

حول التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ

مقدمة

حيث ان لكل مجتمع ثقافته، وحيث ان التعريف الحديث للثقافة هي كل العناصر المختلفة التي تكون العلاقات المتنوعة التي يعيش فيها الإنسان من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية، ومن معاني ومسئوليات وحقوق وواجبات فإن العلماء يتفقون على ان اهم ما في الثقافة هو مركزها أو محورها (Core) ، وهو الذي يكون العناصر المشتركة العامة لتشكيل ما تعرف بالعموميات مثل اللغة والدين، وهذه العناصر المشتركة توجد أنماطا عامة من السلوك، وتؤثر علي أكبر عدد من الناس وتعطيهم طابعا عاما.

وبالاضافة الي هذا الجزء المشترك الكبير للثقافة تظهر احيانا عناصر جديدة تؤثر علي هذا المركز العام الذي هو العموميات، وهذهالعناصر الجديدة قد تكون افكارا مستحدثة من الداخل سواء كانت أفكارا دينية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وتكون هذه الافكار مستوردة من الخارج وتبدأ في تأثيرها علي المركز العام - المحور - ويحدث احيانا ان تتحدي هذه العناصر المركز العام وتغير فيه تغييرا جرهريا بحيث تصبح جزءا من العموميات، ويحدث هذا عندما يقبل على هذه العناصر الجديدة اكبر عدد ممكن من أهل البلاد ، واحيانا يقبلونها علي شكل توفيق بينها وبين العناصر القديمة.

وكانت مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما كانت قبل ذلك بقرون سابقة مركز ثقافتها أو عموميتها متأثرة الي حد كبير بالدين أي بالتراث الإسلامي العربي، بمعنى ان الدين الإسلامي بتعاليمه وشرائعه يكون الجزء الاساسي العام والشامل لعناصر كافة المجتمع المصري، أي كان الناس في مصر متأثرين في علاقتهم بالعامل الديني، وكان النظام القضائي يستمد قوانينه وأحكامه من الدين الإسلامي، وكان الحكام أنفسهم يعتبرون ممثلين للدين الإسلامي.

كانت هذه سمات الحضارة العربية الإسلامية للمجتمع المصري قبيل مجئ الحملة الفرنسية تحمل سمات المجتمع الفرنيسي الحضارية، وعلي ارض مصر حدث التقاء الحضارتين الحضارة العربية الإسلامية بسماتها التقليدية في المجتمع المصري وحضارة الثورة الفرنسية الناهضة، فماذا كانت نتيجة هذا اللقاء ؟ هذا ما سوف نسوقه في الصفحات التاليه.

احوال مصر عند قدوم الفرنسيين

كان مركز ثقافة المجتمع المصري في العهد العثماني المملوكي وحتي مجيء الحملة الفرنسية هو الدين - وليس العلم الحديث - فقد ارتبط هذا المركز الثقافي - Core - في مصر بالحركة الديناميكية الكبيرة التي اثرت في اقطار الشرق الاوسط منذ القرن السابع الميلادي، واعني بها ظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب وما يتصل به في انتشاره السريع من عوامل اخري كاللغة العربية، وقد اثرت هذه الحركة الديناميكية في جميع مرافق حياة المسلم.

وقد استندت هذه الحركة في انتشارها وفي اثرها علي وحدة الثقافة، علي عدة عوامل اهمها:

أولاً : الوحدة الروحية التي جمعت شعوب الاقطار المسلمة.

ثانياً : ارتباط السلطة الدينية بالسلطة المدنية منذ بداية الأمر، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسي الي جانب كونه الزعيم الديني للمسلمين، مما ساعد علي ان يكون للدين الإسلامي اثر عميق في كل ميادين الحياة عند المسلمين.

ثالثاً : شيوع مبادئ الاخاء والمساواة التي تحطم الحواجز بين الناس دون النظر الي الجنس أو اللون، وهذه المبادئ تستند الي الشرائع الإسلامية [١].

وقد نجحت المؤسسات التعليمية والدينية في مصر وفي غيرها من الاقطار الاسلامية لعدة قرون في إيجاد حضارة إسلامية عربية مزدهرة مالبثت ان تعرضت للاحباط علي يد الاتراك العثمانيين الذين سيطروا علي مقدرات الأمور في مصر وبقية الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر الميلادي، واستمروا في مصر حوالي ثلاثة قرون حتي جاءت الحملة الفرنسية علي مصر.

كان الجامع الأزهر منذ إنشائه عام ٣٦١هـ/٩٧٢م حتي أوائل القرن التاسع عشر مركز التعليم الديني في مصر بل وفي الأقطار الإسلامية عربية، وغير عربية، وقد اخرج مجموعة من العلماء صارت لهم امتيازات جعلتهم يشكلون طبقة اجتماعية، مميزة من حيث المكانة التي يتمتعون بها بين الناس، ومن حيث الاعمال التي يؤدونها ومن حيث الامتيازات المادية والادبية

---

(١) د. / رأفت غنيمي الشيخ: في تاريخ العرب الحديث طبعة أولي، القاهرة ١٩٧٥م ص١٤.

التي يعملون عليها، وقد اطلق علي هذه الطبقة تعبير «العلماء».

وكان «العلماء» يمثلون في نظام المجتمع المصري التقليدي مكانة خاصة، وذلك اسبغ عليهم التمتع بريع الأوقاف المعروفة باسم «أرزاق العباسية» والتي كانت موقوفة اصلا للصرف علي اغرض دينية، وقد ساعدهم ذلك علي القيام بدور سياسي في المجتمع المصري.[1]

وكان التعليم في مصر آنذاك يشتمل علي قسمين من المعارف هما:

(١) المعارف والعلوم اللغوية والعقلية، التي تضم النحو والصرف والبلاغة.. الخ، وهي العلوم اللغوية، والمنطق والحساب والفلك الخ وهي العلوم العقلية، وهذه المجموعة من العلوم تعطي طالب العلم تعريفا لغويا يساعده علي فهم اصول العلوم الدينية، وتساعده علي التدريب الجدلي، وعلي الحساب وفهم الكون.

(٢) المعارف والعلوم النقلية او الدينية، وتضم القراءات والتجويد والتفسير والحديث والفقه والتوحيد الخ.

تعلم هذه العلوم والمعارف لايتم عن طريق إعمال العقل بل بالحفظ واستيعاب كتب ثابتة وعلوم نهائية، ولهذا كان قليل التأثير في الناس، فلم يساعد علي تقدم المجتمع وتطوره بل ابقاه جامدا محافظا، ونحن لانستطيع أن نغفل موقف الجمود والتخلف والمقاومة في الأزهر لكل ماهو جديد.[2]

مثل محاولة ربط الجامع الأزهر بالمجتمع والحياة وتخليصه من الأفكار القديمة التي تتجه للوراء ولم يكن من السهل إدخال علوم حديثة الي الجامع الأزهر، فقد كانت تلقي مقاومة شديدة من جانب علماء الأزهر أنفسهم ولعل هذا يفسر لنا لماذا ترك محمد علي التعليم الديني كما هو وانشأ تعليما حديثا يجعل العلم محوره.[3]

وكانت أساليب التدريس تتلخص في الإملاء والشرح والمناقشة، فالأستاذ يملي مالديه،

---

(١)

(٢) د. / سعيد إسماعيل: الأزهر علي مسرح السياسة المصرية القاهرة ١٩٧٤ ص ١٦٩-١٦٧.

(٣) د. / محمد منير موسي: تاريخ التربية في الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٣٤.

ويشرح مايصعب علي طلاب العلم فهمه، ويسمح لهم اثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم[١]، وقيمة الطالب تستند الي جملة الكتب والمعارف التي يختزنها في عقله، فإذا أطمأن الأستاذ الي ان الطالب قد حفظ وأختزن كميات من العلم كافية أذن له بالتدريس أو الرواية أو الافتاء.[٢]

كما يجب ملاحظة ان علماء الأزهر رغم علمهم لم يكونوا قادة إصلاح، اي لم تكن لديهم القدرة علي المبادرة أو الإصلاح والتعبير الحر، ولم يبتكروا سياسة جديدة لأنهم لم يكونوا يظهرون في المناسبات الوطنية أو السياسية إلا بدعوة من الأمراء المماليك او من افراد الشعب المصري لرفع ظلم وقع عليهم.

ومما يؤخذ علي علماء الأزهر ايضا ماكان يحدث بينهم من خلافات حول منصب شيخ الجامع الأزهر وحول الحصول على الأوقاف، مما جعل المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي المعاصر لاحداث مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتي اوائل العشرينات من القرن التاسع عشر يصفهم بأنهم «مشايخ الوقف» مما ادي الي زوال هيبتهم ووقارهم من النفوس.[٣]

وهكذا عاش الشعب المصري منذ الفتح العثماني وحتي عام ١٧٩٨م عند غزو الفرنسيين لمصر في حالة خمول خيمت علي حياة الشعب المصري الذي اصبحت حياة كل فرد فيه قاصرة علي تحصيل قوته اليومي تحت عبء الضغوط السياسية والاقتصادية من جانب الحكام غير المصريين سواء كانوا اتراكاً أو مماليك.

وكان هذا ظلما عاديا ارتبط بالجهل الذي ضرب علي المصريين في الوقت الذي كانت فيه اوروبا تعهد تطورات ومبتكرات بلورت افكارا جديدة اسفرت عن وجود نظم سياسية كالنظام الديمقراطي والنظام النيابي، ونظم اقتصادية كالاشتراكية، وبدأت في الظهور المناهج الفلسفية علي يد الفلاسفة الألمان والبريطانيين والفرنسيين، وظهر دارون صاحب نظرية النشؤ والارتقاء المعرفة بنظرية التطور في اوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

---

(١) خطاب عطية : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣٥.

(٢) د. / سعد مرسي : تطور الفكر التربوي ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٢١٥.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، أحداث ربيع الأول ١٢٣٢هـ - فبراير ١٨١٦م.

الفرنسيين في مصر

جاءت حملة بونابرت إلى مصر في إطار الصراع الدولي ضد الثورة الفرنسية حيث ان حكومة الإدارة - أو المديرين الخمسة - اقتنعت بفكرة بونابرت بمحاربة بريطانيا اقتصاديا بغزو الشرق وجعل مصر مركزا لمستعمرة فرنسية تحارب منها بريطانيا في الهند، وكانت الجيوش الفرنسية الغازية للدول الأوروبية مثل بلجيكا والإمارات الألمانية وشبة الجزيرة الإيطالية تحمل معها مكتسبات الثورة الفرنسية مثل الدستور وحقوق الإنسان وشعار الثورة في الحرية والإخاء والمساواة وإلغاء النظام القديم بكل مظاهره....

ولذلك عندما جاءت حملة بونابرت الي مصر حملت معها هذه المبادئ - اضافة الي مظاهر الحضارة الأوروبية المادية القائمة علي فكر جماعة «سان سيمون» الداعية الي احتلال العلم الحديث المكانة الأولي في تنظيم المجتمع بدل الدين، وان التعليم هو اساس بناء المجتمع وأنه يجب ان تنتقل القيادة من رجال الدين الي رجال العلم الحديث، وان الاقتصاد يقوم علي اسس علمية منظمة، وان الدولة يجب ان تمتلك موارد الثروة وتستغل نتائج العلم الحديث لخدمة الناس، وان الامة ماهي إلا مجتمع سياسي، وان السياسة هي علم الإنتاج.

ويجب ان نلاحظ ان حملة بونابرت علي مصر كسرت الحواجز التي عزلت مصر عن الدول الأوروبية فحققت اول احتكاك حضاري بين مصر واوروبا حيث ظهرت جهود علماء الحملة في دراسة اقتصاديات مصر ونواحيها المختلفة الطبيعية والاجتماعية وغيرها، كما احدثت جهود العلماء الفرنسيين هزة في عقول الطبقة المتعلمة في المجتمع المصري آنذاك وهي طبقة العلماء، حتي يمكن القول انه رغم ان الفرنسيين لم يندمجوا في المصريين إلا ان تأثير الحملة العلمي كان بداية لانتفاضة في أفكار المصريين بصفة عامة، حيث عرفوا اوروبا باتجاهاتها وافكارها الجديدة.(١)

ولكي نسجل التبادل الحضاري علي ارض مصر بين الحضارة المصرية العربية الإسلامية والحضارة الفرنسية المادية الناهضة، فاننا نستعرض تأثيرات الحملة الفرنسية علي مصر في المجالات الآتية:

---

(١) د. / سعد مرسي ود. / سعيد إسماعيل : تاريخ التربية والتعليم القاهرة ١٩٧٢ ص ٣٢٤-٣٢٥.

اولاً : التاثيرات في المجال العملي والثقافي:

احضر بونابرت في حملته علي مصر عددا من العلماء الفرنسيين قاموا بالعديد من الابحاث والدراسات، ورسموا الخرائط، وكان بينهم علماء في الرياضيات وفي الهندسة وفي مجال الاختراع والكيمياء مما اتاح لبونابرت ان يشكل عددا من اللجان العلمية نشطت بصفة خاصة في عهد كل من كليبر ومينو.

وكان عدد هذه اللجان عشر هي كما يلي:

١ - لجنة التشريع والديانة والعبادات.

٢ - لجنة الإدارة.

٣ - لجنة لنظام الشرطة.

٤ - لجنة للتاريخ والحكومة.

٥ - لجنة للدراسات العسكرية.

٦ - لجنة للتجارة والصناعة.

٧ - لجنة للزراعة.

٨ - لجنة للتاريخ الطبيعي.

٩ - لجنة للآثار القديمة.

١٠ - لجنة للنيل والفيضان.

وهذه اللجان العشر تعطينا صورة لنوع الدراسات التي قام بها الفرنسيون في مصر وأهميتها، وكل هذه الدراسات التي قاموا بها ضمنوها سفرهم الكبير الذي اسموه «وصف مصر» Description d'Egypte ورسموا خريطة جغرافية دقيقة لمصر، قام برسمها عدد من المهندسين كلفوا بعمل مسح للبلاد وجمع المعلومات اللازمة لهذه الخريطة.

وكان إنشاء المجمع العلمي الفرنسي الذي خصص له بونابرت حارة الناصرية وقصور الأمراء المماليك: قاسم بك، حسن كاشف جركس وبيت أمير الحج المعروف باسم أبو يوسف، من بين

المؤسسات الفريدة التي أنشأها بونابرت في مصر وأنبهر بها علماء ومشايخ الجامع الأزهر وهم الطبقة المتعلمة في المجتمع المصري والذين شجعهم بونابرت علي التردد علي هذه المؤسسات.

ويصف الجبرتي المكتبة التي أنشأها بونابرت وزودها بالمراجع العلمية وكيفية الاستعارة الداخلية لمن يتردد عليها من طلاب العلم أو من العلماء بل ان الجبرتي نفسه كان يتردد علي المكتبة لاحتوائها علي كل جديد ومقابلة المسئولين عنها للمترددين ببشاشة وتواضع، وقد ادهشه عمق ثقافة الفرنسيين ودقة معارفهم وسعة اطلاعهم، وزادت دهشته ان وجد منهم من يحفظ سورا من القرآن الكريم.[1].

ولقد كانت الآلات التي استخدمها الفرنسيون في الارصاد الفلكية وآلات التصوير التي سجلوا بها احداث حملة بونابرت علي مصر ووقائعها مصدر انبهار من المصريين وخاصة حين قام الفرنسيون بتصوير اعضاء الديوان الذي انشأه بونابرت من مشايخ واعيان، هذا الي جانب آلات وأجهزة صناعة الحكمة والطب الكيماوي التي اودعها بونابرت قصر حسن كاشف جركس واقام فيها - كما يذكر الجبرتي - تنانير مهندسة وآلات تقطير عجيبة الوضع [2].

وكان اخراج سفر «وصف مصر» إنجازا ثقافيا وحضاريا للحملة الفرنسية في مصر انجزه المجمع العلمي الفرنسي الذي أنشأه بونابرت وعهد بالإشراف عليه الي العاملين الفرنسيين «مونج» و«برتوليه». وقد تضمن هذا السفر التاريخ الطبيعي وجغرافية مصر، والعصور التاريخية القديمة، وأحوال مصر الراهنة آنذاك، إلي جانب الفنون الجميلة والأدب كل ذلك مزودا بالخرائط والرسوم الجغرافية والتاريخية [3].

ويتكون هذا المؤلف الضخم من النص ومن مجموعات اللوحات ويتكون النص من الدراسات والأوصاف، اما الاطالس فتحتوي علي مايلي:

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي : جـ ٣ حوادث جمادي الثانية ١٢١٣ هـ.

(٢) الجبرتي : نفس المراجع وأحداث نفس الشهر.

(٣) وصف مصر : جـ ١ المصريون المحدثون، تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب بالقاهرة ١٩٨٩ ص ٣٠١.

أ - رسوم عن مصر القديمة.

ب - رسوم تتعلق بمصر الحديثة. مثل المساجد والتصوير والحدائق والاحتفالات السنوية والشخصيات الهامة.

جـ - لوحات الحيوان والنبات والمعادن.

د - الخريطة الجغرافية. التي تتكون من خمسين لوحة خاصة [1].

وقد ركز مؤلفو هذا السفر الكبير علي مايأتي :

(١) المؤسسات والنظم، العادات والتقاليد والآداب والعلوم والفنون ونظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين.

(٢) الجغرافيا القديمة والحديثة، تاريخ مصر، الحكومة الحالية لهذه البلاد، الدين، التقاليد، العادات العامة الأسرية، حالة الفنون والآداب والعلوم، الزراعة والصناعة، والموارد العامة، الملاحة والتجارة.

(٣) طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيقية، الحيوان النبات والمعادن، جيولوجيا مصر.

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة. [2]

ولعل شهادة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي عن التأثيرات الحضارية الفرنسية في عقول المصريين خير دليل علي اللقاء الحضاري الفرنسي المصري، حيث يذكر انه زار المجمع العلمي الفرنسي في القاهرة فرأي مثلا في القسم الخاص بعلماء الفلك وما به آلات فلكية غريبة في شكلها متقنة في صنعها، وكذلك آلات الايقاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن.... وهي تركيب ببراريم مصنوعة وحكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدرا من الفراغ، وبها نظارات وثقوب ينفذ

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤٩ - ٣٥٣.

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٤.

النظر منها إلي المرئي، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظروف صغيرة، وكذلك نظارات للنظر في الكواكب ورصدها، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها، وانواع المكاتبات والساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن.(١)

ولاشك في ان كل هذا كان غريبا بالنسبة لمن يراه من المصريين، خاصة إذا ما شاهد بنفسه بعض التجارب العلمية تجري امامه فيروي الجبرتي انه عند زيارته لبيت حسن كاشف جركس حي بني فيه الفرنسيون مكانا خاصا لصناعة الحكمة والكيمياء ان احدا ممن يعملون هناك اخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا في كأس، ثم صب يملأ شيئا من زجاجة اخري فغلي الماءان وصنع منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصم، فقلبه علي البرجات حجرا يابسا اخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه اخري فجمد حجرا ازرق، وبأخري فجمد حجرا احمرا ياقوتيا، واخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار البيض، ووضع علي السندال وضرب بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منه(٢).

ويضيف الجبرتي الي ماسبق عن انطباعه اثناء زيارته لبيت الحكمة والكيمياء ان الفرنسيين علماء ذلك التخصص، اخذوا مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر، ضيقة الفم، فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح من الداخل بالرصاص، وادخل معها اخري في غير هيئتها وانزلها في الماء واصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في احدهما وآتي آخر بفتيلة مشتعلة وابرز ذلك فم الزجاجة من الماء، وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل ايضا، وغير ذلك أمور كثيرة حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع. (٣)

ويعترف الجبرتي بأن الفرنسيين يأتون بأشياء غريبة «تنتج منها نتائج لاتسعها عقول امثالنا»، ويعني مصر في ذلك الزمان فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لعلماء مصر فما بالنا بالأفراد

---

(١) الجبرتي : نفس المرجع جـ ٣.

(٢) نفس المرجع جـ ٣.

(٣) نفس المرجع جـ ٣.

العادين من الشعب المصري، لا شك ان هذه التأثيرات الثقافية الفرنسية في المصريين احدثت هزة في عقولهم كانت لها نتائجها فيما بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.

وكان بونابرت يخطط لمستقبل مصر كمستعمرة فرنسية وصلاتها بالهند فكلف مجموعة من المهندسين بعمل دراسة لربط البحرين الأحمر والمتوسط بقناة ملاحية تقرب الأقطار الشرقية بتلك التي تقع علي سواحل البحر المتوسط دون تغيير كلية من طرق التجارة المستخدمة آنئاك، إذ ان هذا الاتصال سوف يؤثر علي علاقات أوروبا بالهند وجزيرة العرب وافريقيا وهو انجاز علمي علي مستوى رفيع مهما كانت نتائج الدراسات التي اعدت والتي لم تكن مشجعة لإنجاز ذلك المشروع الضخم. (١)

---

(١) كتاب وصف مصر : نفس المرجع السابق ص ٣١٩ - ٣٢٠.

ثانيا : التأثيرات الاقتصادية :

يمكن القول ان حملة بونابرت علي مصر قد نجحت الي حد بعيد في هدم النظام الاقطاعي الموجود في مصر دون أن تتمكن من اقامة نظام اقتصادي بديل، او ان تقيم مشروعات في المجال الاقتصادي وأن حاولت تدعيم الطبقة الوسطي من التجار والاعيان والعلماء، ومع ذلك فقد ادت عمليات سلب اموال المصريين الي خوف افراد هذه الطبقة بل والفلاحين من اظهار ثرواتهم بل تفننوا في اخفائها ولعل هذا من سلبيات الحملة في المجال الاقتصادي.

لقد حاولت الحملة خاصة بعد تدمير اسطولها في ابي قير الاعتماد علي مايمكن إنتاجه علي ارض مصر بصنعه ليواكب حاجة قوات الحملة وحاجة السوق المصرية إذ انشئت ماكينات هيدروليكية وصنع الصلب والاسلحة والأجواخ والادوات الرياضية والبصرية، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة وجود الحملة في مصر بتهيئة اشياء كثيرة اسهمت في الاحتياجات. ولم يتوان المصريون مطلقا عن الاستفادة من المزايا التي حققتها هذه المنشأت فبدأوا يهتمون بمصانعهم ويطورون الوسائل التي كانوا معتادين علي استخدامها اذ كانوا يفحصون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يقلدونها. (١)

هذا الي جانب ما قامت به الحملة الفرنسية من مشروعات زراعية وتجارية لتنظيم الحياة الاقتصادية تمثلت في وضع أسس لتنظيم عملية الري وإنشاء زراعات جديدة وتشجيع الفلاحين علي زراعة الاشجار النافعة كما أنشأت نظاما جديدا للمالية لتحديد مصادر الدخل العام وحساب الميزانية العامة اللازمة لحكومة الحملة في مصر بالصورة التي لم تشهدها مصر قبل قدوم الحملة. وبالاضافة الي ذلك وضع خبراء الحملة لوائح عادلة من وجهة نظرهم أدت الي تنشيط التجارة الخارجية التي شهدت كسادا في العهد العثماني المملوكي، هذه اللوائح التي نجحت في اقامة علاقات تجارية نافعة مع الارخبيل وسواحل جزيرة العرب وبلاد اواسط افريقيا. (٢)

وفي هذا الاطار من التأثيرات الاقتصادية فقد اتخذت الحملة عدة قرارات لتنظيم الامور الصحية والبلدية، مثل التطعيم ضد الامراض وإقامة حجر صحي في جزيرة بولاق، ومنع الناس من

---

(١) نفس المرجع : ص ٣٤٥.

(٢) الجبرتي : المرجع السابق جـ ٣.

دفن الموتي قريبا من المنازل، وتطبيق الاجراءات الخاصة بتبخير المنازل ونشر الثياب إلي جانب إنارة الشوارع والحارات بالقناديل وإغلاق أبوابها ليلا حماية لسكانها من اللصوص... وقد نظر المصريون الى هذه الاجراءات باعتبارها قيد علي حريتهم في الحركة، الي جانب استنكارهم لمناظر الخلاعة التي رأوها بين الفرنسيين ونسائهم والنساء الساقطات.

وقد أشار الجبرتي إلي دقة الفرنسيين ونزاهتهم في مجال المعاملات اليومية وقارن ذلك بتصرفات بعض اصحاب الحرف والتجار المصريين الذين حاولوا استغلال وجود قوات الحملة فزادوا من أسعار سلعهم، حيث طلب باعة القمح الزيادة في السعر فجمع الفرنسيون كل من له مداخله في تجارة الغلال وزجروهم وخوفوهم وباعوا بالسعر الحاضر. (١)

(١) الجبرتي : المرجع السابق جـ ٣.

ثالثاً : التأثيرات السياسية :

علي الرغم من التأثيرات السلبية في المجال السياسي لحملة بونابرت علي مصر والتي تمثلت في ثورات المصريين ضد والوجود الفرنسي بسبب السياسة المالية من جهة، ثم بسبب تلك التدابير التي اتخذوها لمكافحة وباء الطاعون وإرغام المصريين علي حمل شارة «الجوكار» وما حدث من استعلاء النصاري واليهود علي المسلمين، واستهتارهم بالعادات والتقاليد فضلا عما كان يرتكبه الفرنسيون واعوانهم وطبقات العامة التي جاراها افرادها في المعاصي والمخازي...(١)

علي الرغم من هذه التأثيرات السلبية، فقد وجدت تأثيرات إيجابية لحملة بونابرت في المجال السياسي عل مصر من أهمها:

(١) تشكيل الديوان :

جاء تشكيل الديوان بأمر بونابرت، خطوة حضارية استفاد منها المصريون بلاشك في ممارسة أمور سياسية ليكونوا علي بينة مما تتخذه قيادة الحملة من أمور، وحقيقة لم يطلب بونابرت من اعضاء الديوان الموافقة علي ما يرغب اتخاذه من قرارات اقتصادية أو اجتماعية او سياسية، ولكن مجرد اشتراك قيادات مصرية في اعمال الديوان بحضور جلساته ومناقشة ما يعرض عليهم اكسبهم خبرة سياسية افادتهم في الفترة التي اعقبت خروج الحملة.

وقد اثني الجبرتي علي فكرة الديوان وعلي اعطاء مرتبات مجزية لاعضائه تغنيهم عن الارتقاء، حتي ذكر ان الفرنسيين رتبوا لكل شخص.

كما ان الفرنسيين حاولوا توضيح موقف فرنسا الثورة من الاعتداءات اوالعداوات الاوروبية ضدها، لكي يكسبوا مشايخ الازهر اعضاء الديوان بأن الدول الاوروبية ترفض دعوة فرنسا للحرية والمساواة والإخاء، وان تمسك فرنسا بهذه المبادئ واضح في إشراك العلماء في تسيير امور بلدهم وان يكونوا وسطاء بين الحكم الفرنسي وبين افراد الشعب المصري، ومن ثم فإن امل الفرنسيين استمرار العلماء في إدارة شئون بلدهم بعد خروج الفرنسيين، وكما قال الجبرتي فإنكم ايها العلماء تعرفون جميع ماصدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية وفي عشمي - عشم بونابرت -

---

(١) د. / محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر القاهرة د.ت ص ٥٩٢.

انهم لم ينسوه ابداً. [١]

وهكذا كان الديوان الذي أنشأه بونابرت مدرسة لعلماء واعيان وتجار مصر في الجانب السياسي، حيث كان الديوان يهدف الي تنظيم اتجاهات الرأي العام واستخدامه كدعامة في إقامة سلطة الدولة، كما أريد منه حل مشكلات جماهير العاصمة والربط بين الحاكم والمحكومين، فان تمثيل جميع الطوائف بما فيها علماء الأزهر يمكن الفرنسيين من معرفة آراء الشعب المصري ومطالبهم. [٢]

وقد أدي اشتراك المصريين في الديوان إلي شعورهم بأهميتهم بالنسبة للإدارة المدنية لبلادهم، حتي وإن كان رأيهم استشاريا وستكون هذه التجربة بذورا أولي تلقي قبولا من جانب الأهالي إذ أنها برزت في مجتمع إسلامي ينص دينه علي أن الأمر شوري بين المسلمين كما جاء في القرآن الكريم: وأمرهم شوري بينهم، وشاورهم في الأمر. [٣]

وإن كنا يجب أن نلاحظ ان غرض بونابرت من إنشاء الديوان الإستعانة بأعضائه علي دعم أركان مستعمرته الجديدة؛ ولم يكن هدفه من إنشاء الديوان وتعيين اعضائه من بين المصريين إلي إقامة إدارة وطنية بحتة في البلاد، وذلك باستبعاد العنصر العثماني وشغل الوظائف الهامة بالمصريين فحسب، وكل ذلك لم يكن بعيدا عن إدراك غرض الفرنسيين، حيث أخفق بونابرت وقواده، في جلب مودة المشايخ الذين أكتفوا بمدارات الفرنسيين ومجاراتهم دفعا للأذي والشر. [٤]

وليس أدل علي ذلك من إشراك عناصر غير مصرية في الديوان مثل: من الشوام يوسف فرحات، ومخاييل كحيل، ورواحة الإنكليزي وبودني، وموسي كافر الفرنساوي، عدا الوكلاء والمباشرين من الفرنسيين والمترجمين [٥]. ولم يقبل المصريون ماذكره بونابرت في تعيين قاضي

---

(١) نفس المرجع

(٢) د. حكمت ابو زيد : المجتمع القاهري علي عهد الحملة الفرنسية كما صورها الجبرتي ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره...

(٣) د. / جلال يحيي : في تاريخ مصر الحديثة ص ٢٠٣.

(٤) د. / محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص ٥٩٥.

(٥) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار .. جـ ٣ ص ٢٨.

مصري إذ ذكر الجبرتي أن بونابرت قال: اعلموا أني لا أحب مصر خالية من حاكم شرعي يحكم بين المؤمنين - بعد خروج القاضي العثماني من مصر - فاستحسنت ان يجتمع علماء المسلمين ويختاروا بأتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم بأتباع سبيل المؤمنين. [1]

(٢) الشعور الوطني:

لقد كان الوجود الفرنسي علي الأرض المصرية تحديا للشعور المصري الديني حيث لم تكن الفكرة الوطنية أو الفكرة القومية ذات وجود في أفكار المصريين وسلوكهم، بل كانت الفكرة الإسلامية هي السائدة، ولذلك نجد ان المصريين تقبلوا حكم المماليك والعثمانيين لأنهم مسلمون، وثاروا ضد الفرنسيين لأنهم غير مسلمين، مع أن الفرنسيين والعثمانيين ليسوا مصريين وليسوا عربا.

وقد ساعدت ثورات المصريين ضد حملة بونابرت في إذكاء الروح الوطنية ضد الحكم الاجنبي غير المسلم، إذ كان المصري يشعر بأن أرض مصر هي بلاد الإسلام، وأنه طالما يخضع عموما للسلطان خليفة أجنبي غير مسلم مهما ادعي بحبه للإسلام أو الرغبة في التحول إلي الإسلام. [2]

ولقد اقتنعت مقاومة المصريين للوجود الفرنسي حتي زال هذا الوجود انه لم يعد باستطاعتهم اتخاذ مواقف سلبية في مقاومة ظلم المماليك أو العثمانيين ولم يعد بإمكانهم قبول من يفرض عليهم من حكام يحكمونهم حتي ولو كان بفرمان من السلطان العثماني خليفة المسلمين.

ولعلنا ندرك هنا تدريب من قيادات الحركة الوطنية اثناء فترة بقاء الحملة الفرنسية في مصر ١٧٩٨-١٨٠١م حيث تمرس علماء وأعيان وتجار مصر بمدرسة الإدارة السياسية التي حرض علي وجودها قادة الحملة الفرنسية، حقيقة كانت هذه القيادات ذات هوية دينية وتتطلع الي الرفق بالرعية وإقامة العدل بين العباد، فإن هذه القيادة اختارت محمد علي بناء علي الأسس السابقة وهي العدل والرفق بالرعية. ثم اضافت - أساسا جديدا هو استشارة العلماء والأعيان اي لايحكم حكما مطلقا.

---

(١) نفس المرجع : ص ٧٧

(٢) د. جلال يحيي : المرجع السابق ص ٢٠٤.

وفي اعتقادي ان فكرة الشوري التي اشترطها علماء مصر علي «محمد علي» علي الرغم من أن لها أساس إسلامي إلا ان العلماء لم يطلبوا من العثمانيين ومن المماليك مشورتهم في أمور مصر، وهنا يوحي بأن مشاركة هؤلاء العلماء في الديوان الذي أوجدته الحملة الفرنسية في مصر قد احيا في نفوسهم هذا الأساس الإسلامي وهو الشوري.

خـاتمـة

أكدت حملة بونابرت علي مصر أهمية مصر لدول العالم المتحضر ومستعمراتها في آسيا وافريقيا، فمصر تشغل بموقعها بين أوروبا وآسيا، وبأتصالها الميسور بأوروبا قلب العالم القديم، ولم تنشأ في الشرق أو في آسيا أية قوة كبري لم ترن ببصرها نحو مصر، أو لم تنظر إليها بأعتبارها، علي نحو ما، إقطاعية طبيعية بالنسبة لها كما ان كل الأحداث الكبري التي كان لها تأثير علي تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلي ضفاف النيل. (١)

وكانت مصر عبر تاريخها مطمع القوي الكبري في الشرق - مثل الفرس، واليونان والعرب والعثمانيون - وفي الغرب - مثل الرومان، ثم الحملات الفرنسية: حملة لويس التاسع ثم حملة بونابرت - مما يؤكد - كما ذكر بوسويه Boussuet - عظمة مصر وروعة الأنظمة والمؤسسات التي نشأت بها .. ثم أضاف: ألن يكون أمرا جديرا بهذا الفضول النبيل اثناء حملة بونابرت علي مصر - ان نكتشف ضروب الجمال التي يضمها الصعيد في صحراواته، وأن نثري فن العمارة عندنا - أي في فرنسا - بما سبق ان انجزته مصر في هذا المضمار. (٢)

هذا اعتراف من احد علماء حملة بونابرت علي مصر بفضل مصر علي الحضارة العالمية، وان التبادل الحضاري لم يكن من جانب واحد، بمعني ان هذا التبادل لم يكن مرسلا من جانب فرنسا ومستقبلا من جانب مصر فقد اضاف هذا العالم: بأن مصر نقلت معارفها إلي الكثير من الأمم، وإذا كانت - كما ذكر مبالغا - اليوم غارقة في الهمجية، فإنها بقدر ما تنال من أهتمامنا بفضل موقعها الجغرافي، وبفضل خصوبة أرضها، بقدر ماتكون ماسة بالنسبة لها المكاسب التي تحققها لها القوانين والفنون والصناعات. (٣)

وهكذا تلاقت علي أرض مصر حضارتان عبر البحر المتوسط: حضارة عربية إسلامية تميزت تحت الحكم العثماني المملوكي بالجمود والتحفظ وانعزلت عن التيارات الحضارية العالمية الناهضة باعتبار العثمانيين كانوا أهل حرب وإدارة ولم يكونوا أهل حضارة فصارت حضارة مصر العربية

---

(١) كتاب وصف مصر : المرجع السابق ص ٢٩٦.

(٢) نفس المرجع : ص ٢٩٧.

(٣) نفس المرجع ص ٢٩٨

الإسلامية تقليدية ترفض الاحتكاك الحضاري مع أوروبا في نهضتها الثقافية والاقتصادية والسياسية.

هذه الحضارة العربية الإسلامية اعتمدت علي ثقافة تقليدية فكانت مؤلفات العلماء تلتزم التقليد، وتتسم بسمة التزمت وضيق الافق، إلي جانب العناية باللفظ والاهتمام به اكثر من الاهتمام بالمعني او العلم ذاته، وكان العلم والبحث والتدريس والتقرير كل ذلك يدور حول مافي مضمون الكتب وشروحها وحواشيها وهوامشها ولايمكن ان يتعداه إلي فكرة جديدة أو رأي أو بحث موضوعي.

وكانت الروح العلمي والبيئة الثقافية - كما أسلفنا - من التخلف والجمود بحيث وجد بين العلمء من يقول بتحريم القهوة مثل الشيخ علي السيواسي، وكان من كبار علماء عصره، أذاه أصدقاؤه «قرن بن» - أي زنبيل يسع ثلاثة قناطير ونصف قنطار في زواج ابنه فألقاه في المرحاض. (١)

وجاءت الحضارة الاوروبية المادية يحملها علمء الحملة الفرنسية والمتمثلة في الدعوة للقضاء علي النظام القديم بكل مظاهره كالاقطاع وإتاحة الفرصة لأبناء الطبقة الوسطي للمشاركة في تسيير أمورهم الحياتية اليومية والتخلص من سيطرة الأمراء المماليك والأوجاقات العثمانية.. جاءت هذه الحضارة التي اتخذت من العلم الحديث محورا لها بعكس الحضارة العربية الإسلامية التي اتخذت من الدين محورا لها.

ولاشك انه حدث تبادل حضاري بين الطرفين بدليل ان أمور مصر اصبحت تختلف بعد الحملة الفرنسية عما كانت عليه قبلها فمن الناحية الثقافية اصبح استعداد المصريين اكثر لقبول العلم الحديث وهذا ما اعتمد عليه محمد علي في بناء تعليم حديث وجيش في مصر، ومن الناحية الاقتصادية ساهم ابناء مصر في مشروعات محمد علي الزراعية والصناعية والتجارية الحديثة، وفي المجال السياسي اختار علماء مصر واعيانها محمد علي واليا علي مصر بشروطهم: العدل بين الناس والرفق بالرعية والحكم بالشوري.

---

(١) محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر جـ٢ القاهرة ١٩٥٧ ص ١٦٣ - ١٦٥.

وعلي الجانب الآخر ، فقد تأثرت الحضارة الاوروبية بمقومات الحضارة المصرية القديمة: وآثارها المعمارية وفنونها البديعة التي لاتفني علي مر الدهر، الي جانب اصالة الحضارة العربية الإسلامية بتراثها الثقافي الثابت عي مر الزمن ايضا، وهاتين الحضارتين: الفرعونية القديمة، والعربية الإسلامية المعاصرة ميزت الشخصية المصرية التي واجهت الغزو الفرنسي بالرفض أولا ثم محاولة التعايش مع الجوانب الاجتماعية والسياسية للحملة الفرنسية.

وهذا التبادل الحضاري يؤكد حقيقة ان الحضارة لايقتصر تأثيرها علي الوطن الذي نشأت فيه، بل هي حضارة إنسانية لكل ابناء العالم البشري لأنها نتاج للعقل الإنساني، والحضارة التي تنغلق علي نفسها فإنما تحكم علي نفسها بالموت بعكس الحضارة التي تنفتح علي الحضارات الأخري التي تنمو وتزدهر.

ومن هنا يأتي التبادل الحضاري بين مصر وفرنسا من الحملة الفرنسية ليؤكد عالمية وإنسانية الحضارة، وان الاحتكاك الحضاري بين الحضارات المختلفة المحور أو المركز يؤدي إلي ثراء الحضارات المحتكة فيما بينها.

مصادر البحث

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ٤ أجزاء القاهرة.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ٢ جزء القاهرة.

(٣) بحوث ندوة عبد الرحمن الجبرتي بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على وفاته: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ١٦ - ٢٣ أبريل ١٩٧٤م.

(٤) كتاب وصف مصر ، تأليف علماء الحملة الفرنسية ١٠ أجزاء ترجمة زهير الشايب . القاهرة ١٩٨٩م.

(٥) محمود الشرقاوي ك مصر في القرن الثامن عشر ٣ أجزاء القاهرة ١٩٥٧م.

(٦) دكتور رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث طبعة أولي القاهرة ١٩٧٥م.

(٧) د. سعيد إسماعيل : الأزهر علي مسرح السياسة المصرية، القاهرة ١٩٧٤م.

(٨) د. محمد منصور مرسي : تاريخ التربية في الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٧م.

(٩) د. سعد مرسي : تطور الفكر التربوي القاهرة ١٩٧٥م.

(١٠) د. سعد مرسي ود. سعيد إسماعيل : تاريخ التربية والتعليم القاهرة ١٩٧٢م.

(١١) خطاب عطية : التعليم في مصر في العصر الفاطمي القاهرة ١٩٤٧م.

(١٢) د. محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر القاهرة د.ت

(١٣) د. جلال يحيي : المجمل في تاريخ مصر الحديثة الاسكندرية طبعة ثانية ١٩٨٤م.

(14) Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922. a Political history, New York, 1969.

كتب الفقه فى الأندلس فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى

عامل من عوامل التفاعل الحضارى

١ ـ كان التفاعل الحضارى بين شعوب البحر الأبيض المتوسط محور حديثنا هذه الأيام بفضل مبادرة من جامعة مدينة الاسكندرية وهى المدينة العريقة التى اختارها اندلسيون مرموقون أمثال الشاطبى والطرطوشى والمرسى أبو العباس وغيرهم لتكون مقرهم الدنيوى والابدى .. ولعل كتب الفقه الاسلامى من أوضح مظاهر هذا التبادل الحضارى الذى تم على جميع المستويات .. وسأركز حديثى حول كتب الفقه التى تدوالها مسلموا شبه جزيرة ايبريا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بما اننى أقوم الان بتحقيق ودراسة مخطوطة فقهية من نهاية القرن السادس عشر وهى ـ على الأرجح ـ نسخة من مخطوطة أخرى من القرن الثالث عشر أو الرابع عشر .

٢ ـ وقبل الحديث عن كتب الفقه الى عرفها المسلمون المقيمون فى شبه الجزيرة الايبرية فى القرنين المذكورين يجب أن أشير ـ ولو أشارة وجيزة ـ الى تاريخ المذهب المالكى فى المغرب الأقصى منذ القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

فتح المسلمون العرب ومن صاحبهم من البرابرة الاندلس فى حملات عسكرية متتالية طوال القرن الثامن الميلادى حاملين معهم ـ من بين ما حملوه ـ مذهب الامام الأوزاعي الذى سرعان ما حققت أهميته بعد انتشار المذهب المالكى وخاصة بعد أن أعلنه الأمير هشام بن عبد

الرحمن الداخل الأموى ـ الذى حكم الأمارة فى قرطبة بين عامى ٧٨٨ و ٧٩٦ ـ أعلنه مذهبا رسميا فى البلاد . وبذلك أصبح القطاع الغربى من البحر الأبيض المتوسط أى ما يشمل الأندلس والمغرب وافريقية ومصر حتى القرن العاشر ، يتبع مذهب امام المدينة المنورة

٣ ـ واتجه الى المدينة المنورة من الشرق والغرب كل من اراد التعرف على امامها الفاضل والامام بعلمه الغزير ودراسة كتابه القيم « الموطأ » . وعندما انتقل مركز التعليم المالكى الى مصر ـ فى الفسطاط والاسكندرية ـ بعد أن ترك أصحاب الأمام مالك شبه الجزيزة العربية وفد الى أرض النيل كل راغب فى التعمق فى الدين الاسلامى السنى المالكى حيث اتصل بأئمة المذهب الذين تتلمذوا على يد الامام مالك أمثال أبو عبد الله بن القاسم وأبو أحمد عبد الله بن وهب وأبو عمرو اشهب وأبو محمد عبد الله بن عبد الحكم . وعلى ايديهم تتلمذ فقهاء من افريقية مثل الاسد بن الفرات صاحب كتاب « الاسدية » ومن بعده محمد بن سحنون صاحب كتاب «المدونة» ومن الأندلس التجأ اليهم يحى بن يحى الليثى ثم عيسى بن دينار واضع كتاب « الهادية » ثم بن حبيب صاحب كتاب « الواضحة » .

وتركز الاشعاع المالكى فى أربعة محاور حسبما كتب بن خلدون فى مقدمته : مدرسة قيروان وعلى رأسها الامام سحنون الذى تتلمذ على يد بن القاسم ومدرسة قرطبة وعلى رأسها مؤسسها بن حبيب الذى كان من تلاميذ مالك ومطرف وبن ماجشون واصبغ ومدرسة العراق التى أسسها القاضى اسماعيل بن اسحاق وأبو بكر الأبهرى والمدرسة المصرية وعلى رأسها محمد بن المواز .

وسرعان ما احتلت قيروان المقام الاول بفضل قيم ومعرفة أمامها محمد بن سحنون وطغت المدونة على كل الكتب الفقهية من قبل فأصبح الاندلسيون والأفريقيون يعتبرون هذا الكتاب ـ المدونة ـ كتابا أساسيا مثل الموطأ .. وانتشرت المختصرات عليه وأصبحت من الايجاز يصعب معه الفهم الصحيح للمعنى فأنتشرت الشروحات على المختصرات والحواشي على الشروحات والمختصرات .

فظهرت العتبية « أو المستخرجة عن المدونة » للعتبى و « المختصر عن المدونة » لابن ابى زيد القيروانى « والتهذيب » لابى سعيد البراذعى وغير هذه المؤلفات الكثيرة ..

ورغم اختلاف النهج الذى اتخذته كل من المدارس الفقهية المالكية ـ فمن ناحية المدرسة العراقية ومعها المصرية اتبعا منهج أهل الرأى والقياس ومن ناحية أخرى المدرسة الاندلسية والقروية اللتان اعتمدتا على النقل اسوة بالحجاز ـ الا أننا لا يمكننا أن نفرق بيں ائمة الاندلس وقيروان ولا يمكننا أن نتحدث عن فقهاء الغرب الاسلامى وكأنهم مجموعة منفردة ومنعزلة عاشت بعيدا عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق .. فلم يكن هناك حدود بين الاقطار الاسلامية فى العصور الوسطى وذلك بفضل رحلة الحج للاراضى المقدسة فى مكة والمدينة وبفضل الرحلات العلمية التى كان يقوم بها العلماء والفقهاء من والى الغرب وكانت خير مساعد على التبادل الثقافى و الدينى وكانت المراسلات بين علماء طرفى العالم الاسلامى خير منشط لتبادل الأراء ووجهات النظر فى المسائل الفقهية التى شغلت بال الائمة والفقهاء الراغبين فى اتباع الدين الاسلامى على أكمل وجه وسط

التغيرات الاجتماعية والسياسية التى واجهتها كل بيئة .. فأدت هذه العلاقات الى انتشار الكتب الفقهية التى أخذت تظهر فى انحاء العالم الاسلامى واصبحت خير رابط بين الشعوب الاسلامية التى اختارت كتاب الامام مالك اساسا لحياتها الدينية .

٤ ـ ظلت هذه المؤلفات الفقهية الاساس المتين الذى قامت عليه حياة مسلمى شبه الجزيرة الايبرية فى العديد من المقاطعات منها مقاطعة اراجون وبالنثيا وقشتالية وبالطبع فى غرناطة حتى سقوطها عام١٤٩٢م. وكانت المصباح المضىء الذى انار لهم الطريق للسير على هذ التعاليم الاسلامية السنية حتى القرن الخامس عشر والسادس عشر وبداية السابع عشر ،، وقد وصل الينا فى لغات مختلفة عدد صغير من هذه المؤلفات الفقهية التى عرفها مسلمو اسبانيا فى تلك الفترة :

أ) من بالنثيا لدينا مخطوطة بعنوان « El Libre de la çunna e Xara » أى كتاب السنة والشرع لدى المسلمين حققتها ودرستها الدكتورة كارمن بارثيلو من جامعة اليكنتيه عام ٨٩ وهى المخطوطة الفقهية الاسلامية الوحيدة المكتوبة باللغة القتالانية التى يتحدث بها أهل هذه المقاطعة الشرقية المطلة على البحر الابيض وفى رأى الدكتورة بارثيلو فهى نسخة من ترجمة تمت عام ١٤٠٨ بينما المخطوطة نفسها تمت بين عامى ١٤٦٠ و ١٤٨٥ حسبما تشير اليه الخصائص الخطية.. ومن المعتقد أن هذا المؤلف الفقهى قد كتب بطلب من صاحب قرية سوماكرثل البالنثية ـ حيث وجدت المخطوطة فى مكتبة إحدى العائلات العريقة ـ للتعرف على القوانين التى تنظم حياة المسلمين المدجنين الذين يعيشون على أرضه وبالتالى أخذها فى الاعتبار عند وضع قواعد

التعامل مع الجماعات الاسلامية التى مكثت فى المنطقة . ويرجح هذا الرأى احتواء المخطوطة على الجزء الخاص بالقوانين المدنية فقط ـ ان صح التعبير ـ و لم تحتو على أية شريعة اسلامية مثل الطهارة والصلاة.. وكما تقول الدكتورة بارثيلو فى مقدمة كتابها فإن هناك تأثير اسلامى واضح على القوانين الخاصة بالوراثة والتى سنت وطبقت فى بالنشيا فى العصور الوسطى وهذا يدل على أن السلطات المسيحية التى تولت السلطة فى المقاطعة فى القرن الثالث عشر قد درست عن قرب القوانين الاسلامية قبل وضع القوانين التى عملت بها ...

ب) ومن قشتالة وباللغة القشتالية هناك مخطوطة عنوانها « Leyes de moros » أى قوانين المسلمين . حققها المستعرب الاسبانى المعروف باسكوال جايا نجوس عام ١٨٥٣ ولم يلحقها بدراسة تفصيلية والتى لم تتم حتى الان .. و رأى السيد جايا نجوس ان تاريخ المخطوطة يعود للثلث الأول من القرن الرابع بينما يعيد المتخصصون الحديثون تاريخها للقرن السادس عشر و هذا من الأرجح بالطبع نظرا للخصائص الخطية والورق المستخدم .. وهى مجهولة المؤلف أو الكاتب .. وتشبه المخطوطة القشتالية المخطوطة القتالانية الى حد كبير اذ انها لا تحتوى الا على الجزء الخاص بالقوانين المدنية مثل الزواج والأرث والمعاملات التجارية وما الى ذلك من قواعد تنظيم الحياة المدنية وليست الدينية . لذلك من المعتقد انها كتبت لنفس الهدف وهو أن تتعرف السلطات الجديدة على القوانين التى سيرت حياة المسلمين فى الأراضى الايبرية ..

جـ) مخطوطة قشتالية أخرى معروفة باسم « Vedamientos de la ley de Suma de los Principales mandamientosy » أى قوانين

وواجبات الشريعة والسنة . هذا الكتاب من تأليف الفقيه الأكبر ومفتى جامع شقوبيا عيسى بن جبير الذى قال فى مقدمة مؤلفة أنه كتبه عام ١٤٦٢ نزولا على طلب السلطات المسيحية للتعرف على القوانين الاسلامية ولخدمة المسلمين القشتاليين الذين فقدو اللغة فأصبحوا عاجزين عن القيام بواجباتهم الدينية لعدم فهمهم الكتب الفقهية المكتوبة باللغة الأصلية ..

وهكذا نجد أن هذا الكتاب مختلف الى حد بعيد عن المؤلفين السابقى الذكر : البالنثى «كتاب السنة والشرع» والقشتالى «قوانين المسلمين». فهذان وضعا كترجمة فقهية عربية ولم يحتويا الا على القوانين المدنية وهدفهما الأصلى تعريف السلطات المسيحية بالقوانين الاسلامية بينما الكتاب الأخير ـ كتاب الفقيه عيسى بن جبير ـ فقد كتب باللغة القشتالية وكتبه مسلم مفتى جامع مدينة كبيرة ـ مدينة شقوبيا ـ كان على دراية كاملة بالشريعة الاسلامية ... كتبه أساسا للتعريف بها بتكليف من السلطات وثانيا ليكون هداية للمسلمين الأسبان المتحدثين باللغة القشتالية . نشر هذا المخطوط السيد جايا نجوس ايضا فى نفس عام ١٨٥٣ ولم يلحقه بدراسة تفصيلية ..

د) ومن مقاطعة أراجون الواقعة فى شمال شرق أسبانيا وصلنا نوع آخر من الكتب الفقهية وهى الكتب المدونة باللغة الاعجمية أو الالخميادو وهى تحريف لكلمة أعجمى/أعجمية أى غير العربية ـ كما نعلم جميعنا ـ والالخميادو هى اللغة الرومانسية المنحدرة من اللاتينية التى أدت بعد ذلك الى اللغة الأسبانية الحالية ولكنها مكتوبة بالحروف العربية .. فالحرف العربى يحتفظ فيها بقيمته الصوتية بينما التشكيل هو الذى

يحدد الحروف الصوتية أو « Vowels » . وقد نشرت الدكتورة ماريا خوسيه ثربيرا من جامعة سرقسطة مخطوطة فقهية باللغة الأعجمية معروفة باسم مخطوطة سابنيان وهى المحلة الاراجونية التى وجدت بها ـ وهى احدى النسخ الالخميادو الأربعة المعروفة حتى الأن لترجمة كتاب الامام الفقيه الاندلسى أبو الحسن الطليطلى الذى توفى فى النصف الأول من القرن العاشر كما ورد فى قواميس التراجم والتى جاء فيها ايضا أنه صاحب مؤلفات فقهية عديدة منها المختصر فى المسائل أو المختصر فى الفقه ولم تصلنا أية مؤلفات له باللغة العربية ..

أما مخطوطة سابينيان فتقول الدكتورة ثربيرا أنها من القرن الخامس عشر وهى نسخة غير كاملة للمختصر اذ انها لا تحتوى الا على كتاب الصلاة أما المخطوطات الثلاث الأخرى فتشمل كتبا من الشعائر الاسلامية مثل كتاب الوضوء والزكاة والصلاة بينما تخلو تماما مما أطلقنا عليه صفة القوانين المدنية .. وهذا دليل على أن هذا الكتاب الفقهى بالالخميادو استخدم بين أفراد الجماعات الاسلامية للقيام بالشعائر الدينية فقط ..

هـ) ومن اراجون ايضا لدينا مخطوطتان فقهيتان اخريان اقوم بتحقيقهما ودراستهما الأن وهما نسخة مترجمة من كتاب التفريع الفقهى الى اللغة الالخميادو . وكتاب التفريع من تأليف الأمام ابى القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصرى المتوفى سنة ٩٨٨م . قام بالترجمة الى الالخميادو أحد مسلمى اراجون «موسى بربادو» فى القرن الرابع عشر بينما الـ سخة من عمل « عيس اسكريبانو » أو عيسى الكاتب الذى من الارجح أن يكون معلم كتبة أو صاحب مدرسة كتبة كما اتضح من دراسات سابقة واتضح فى هذه المخطوطة أيضا اذ أن هناك اختلاف واضح في الخط وترد من حين لأخر حروف مختلفة

على هامش الصفحة قد تكون الحرف الأول من أسم الكاتب الذى قام بالتدوين بتكليف من صاحب المدرسة ..

المخطوطة اذن نسخة مترجمة من كتاب التفريغ لابن الجلاب . وقد قام بتحقيق ودراسة هذا الكتاب الفقهى المالكى الدكتور حسين بن سالم الدهمانى فى اطار دراسات الحلقة الثالثة بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس وبه حصل على درجة الدكتوراه ونشرته دار الغرب الاسلامى ببيروت عام ١٩٨٧. ومخطوطتا كتاب التفريغ باللغة الالخميادو محفوظتان بمدريد : النسخة الأولى نسخة كاملة محفوظة فى المجلس الأعلى للبحوث العلمية بمدريد ضمن مجموعة المخطوطات العربية والأعجمية التابعة لمكتبة « لاخونتا » والتى اشرف على جردها وتبويبها عام ١٩١٢ مستعربان اسبانيان قديران هما خوليان ريبرا وميجيل اسين بالاثيوس وتحتوى على ألف وثمنمائة صفحة تقريبا تنقسم الى ثمانية وأربعين كتابا حسبما يتضح من فهرس المخطوطة وحسبما ورد فى قائمة المجموعة الصادرة عام ١٩١٢ ..

أما النسخة الثانية فهى نسخة مختصرة من ترجمة التفريع وهى تحتوى على ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين صفحة .. وحسبما ورد فى القائمة العامة للمؤلفات الالخميادو التى نشرها عام ١٨٧٨ بمدريد مستعرب أسبانى قدير هو السيد ادواردوسا ابدرا فهى تتكون من ستة وثلاثين فصلا و حسب تقديره فهى من القرن الخامس عشر نظرا للخصائص الخطية وهى محفوظة فى المكتبة القومية بمدريد ومن الأرجح أن تكون مختصرا للأولى أو نبذة منها .. وسأحدد هذه العلاقة بالضبط بعد الانتهاء من دراستى للمخطوطتين انشاء الله

ولقد تم الكشف عن عدد كبير من المخطوطات العربية والاعجمية فى مخبىء فى أحد المنازل القديمة أثناء اصلاحه بقرية المونثيذ دى لا سيررا باراجون عام ١٨٧٠ ومن بينها النسخة الأولى من مخطوطة التفريع وأود الاشارة الى أن هذا الكشف ـ وهو أغنى واكثف الكشوفات التى تمت حتى الأن ـ ليس الوحيد من نوعه فى اراجون فخلال هذا القرن وخاصة فى النصف الأخير منه تمت عدة اكتشافات فى محلة سابينياين ومحلة اورِيياس وترتولس واوربا ديل خالون وغيرهم .. وقد تم بالفعل تحقيق ودراسة جزء كبير منها ومازال هناك عدد من المخطوطات من عصر المدجنين والمورسكيين فى انتظار من يدرسها مثل الرسالة للقيروانى بالالخميادو وكتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار لابى الحسن بن عبد الله ..

أما عن المخطوطتين اللتين أقوم بتحقيقهما ودراستهما الأن تحت اشراف الاستاذة القديرة ماريا خيسوس بيجيرا بجامعة مدريد المركزية والتى لم احقق منهما حتى الأن سوى ثلاثة كتب من المخطوطة الكاملة من مجموع الاثنين وأربعين كتابا وهى كتاب الطهارة والصلاة والزكاة يمكننى الاشارة الى الملاحظات الأتية :ـ

ـ ان الترجمة الى اللغة الأعجمية ترجمة حرفية بحتة سواء فيما يخص ترتيب الكتب والفصول والفقرات أو فى ترتيب الكلمات والحروف حتى يصعب فى كثير من الأحيان فهم معنى الجملة باللغة الرومانسية.

ـ ان المترجم كان حريصا على احترام الترتيب ولكنه فى بعض الأحيان أما أن يضيف جملة أو بعض الجمل لتوضيح معنى مصطلح فقهى يبدو له صعب الفهم أو النقل الى اللغة الرومانسية اما أن يضيف توضيحات على هامش الصفحة ..

- ان هناك كثير من العبارات والكلمات الخاصة بالشعائر الاسلامية قد وردت دون ترجمة أى باللغة العربية وتعتبر مصدرا هاما لدراسة اللهجة الأندلسية العربية .
- كما أن هناك كثير من المصطلحات الفقهية التى استخدمت كمصدر لافعال واسماء رومانسية دخلت بعضها بعد ذلك الى اللغة الاسبانية ككلمة مستعربة أو arabismos .
- ان المترجم دائب على احترام ذكر مختلف الروايات حول مسألة ما مشيرا الى صاحب الرواية أو الرأى مثل ابن القاسم وابن عبد الحكم واشهب ومحمد بن مسلمة وبن وهب وهو بالطبع يذكر دائما المصدر الأهم وهو الأمام مالك بن انس ..
- وكملاحظة أخيرة على كتب الفقه باللغة الالخميادو فإن التى حوت الشعائر الاسلامية مثل كتاب التفريع ومختصر الطليطلى وهى مدونة كما ذكرنا بالحروف العربية ، فكانت ذات قيمة ونفع بين المسلمين فقط ولم يكن هدفها التعريف بالدين الاسلامى كما اشرت عند حديثى عن الكتب الفقهية المدونة بالقتالانية و القشتالية .

٥ ـ وخلاصة لكلمتى أود أن أقول أن كتاب المدونة من افريقية والتفريع من العراق والواضحة من شبه الجزيرة الايبرية والعديد من الكتب الفقهية المالكية الأخرى قد ربطت الشعوب الاسلامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وكانت مظهرا من مظاهر التفاعل الثقافى والحضارى بينهما.

سـها عبـود

جامعة مدريـد المركزيـة

مدريد في: ١٣ / ١ / ١٩٩٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

التأثيرات المتبادلة بين مصر والغرب الاسلامى

فى مجال فنون العمارة والزخرفة

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الاسلامى

والحضارة الاسلامية

بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

تعتبر دراسة التأثيرات الفنية المتبادلة بين مصر والمغرب فى العصر الإسلامى سجلا وثائقيا هاما لتاريخ العلاقات الودية المصرية المغربية منذ أن دخلت بلاد المغرب والأندلس فى فلك الدولة العربية الإسلامية . ومن المسلم به أن تبادل التأثيرات الفنية بينهما كان حصيلة الإتصال السلمى المستمر بين أهل المغرب ومصر، رغم الخلافات السياسية التى كانت تطرأ أحيانا بين حكومات البلدين. وكان هذا الإتصال يتم عادة عن طريق الرحلة التى كانت من أهم عوامل الترابط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى شرقيّه وغربيّه ، بهدف التردد على مراكز العلم المختلفة والأخذ على شيوخ العصر ، أو للتجارة بين الأقطار الإسلامية ، أو لأداء فريضة الحج [١] . ومن المعروف أن التأثيرات الفنية المغربية على مصر فاقت بكثير التأثيرات الفنية المصرية على المغرب، ربما لقيام أعداد كبيرة من أهل المغرب والأندلس ، بحكم تطرف موقع بلادهم ، بالرحلة إلى المشرق مركز الحضارة العربية ومهد الإسلام .

بدأت التأثيرات الفنية المغربية الأندلسية تتدفق على مصر منذ أن استولى الفاطميون عليها وأصبحت الإسكندرية بحق باب المغرب [٢] ، والمحط الرئيسى للسفن التجارية المترددة بين شرقىّ البحر المتوسط وغربيّه ، ومنتجع التجار من جميع أقطار العالم ، وملتقى العلماء وطلاب العلم الذين كانوا يلتمسون المزيد من المعرفة على شيوخ مصر والشام ، وإليها كانت تهوى السفن تحمل تجارا وطلاب علم

وشيوخا يسعون إلى أداء فريضة الحج . وأكثر من كان يفد إليها من المغرب والأندلس التجار يميرون منها توابل الهند وطرائف السند والعراق إلى إفريقية والأندلس [٣] وكذلك خزف الصين ولآلىء الخليج العربى [٤]. وفيها توسق السفن بهذه السلع وتبحر إلى المرية أو دانية أو إشبيلية فى الأندلس ، أو طرابلس الغرب وتونس فى المغرب وفى بعض الأحيان كانت الرحلة البحرية تبدأ من المرية وتنتهى بتونس أو القيروان اللتين كانتا تعتبران سوقا عظمى للتجارة العالمية بين الشرق والغرب[٥]، ومستودعاً لتجارة المغرب والمشرق [٦]. وعلى هذا النحو أصبحت الاسكندرية منذ بداية العصر الفاطمى منتجعا للوافدين من أهل المغرب والأندلس ، لا سيما العلماء والتجار أمثال الشيخ أبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى (ت ٥٢٠ هـ) نزيل الإسكندرية فى خلافة الآمر بأحكام الله ، وأبى الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمى الميورقى الشافعى (ت ٥٢٣ هـ) نزيل الإسكندرية . ولا نشك فى أن عدداً من الوافدين من أهل المغرب والأندلس تجارا كانوا أم حجاجا أم علماء كانت له خبرة فى فنون البناء والزخرفة ، فما أكثر العلماء الذين كانوا يجمعون بين أكثر من حرفة كالعلم والخزازة أو التجارة أو صناعة التوريق ، ولا نستبعد أن يكون من بينهم من شارك فى أعمال الزخرفة والبناء وترك بصماته فيما أقامه من منشآت أو شارك به فى الزخرفة ويكفى أن نذكر اسم القاضى محمد بن أحمد بن خاطر الجزيرى الذى ذكر المقرى أنه قدم إلى مصر وسكن قوص وأنه كان عالماً بصناعة التوريق. ولا يجب أن ننسى أن الجيش الفاطمى فى مصر كان يضم عدداً كبيراً من أهل إفريقية والمغرب الأوسط ، وأن بعض هؤلاء الجند المغاربة كان ملما بأصول البناء،عارفاً بفنون الزخرفة، وهذا يفسر كيف أن بعض المظاهر الفنية المغربية تظهر بوضوح فى كثير من المنشآت التى أقامها الفاطميون فى القاهرة من مساجد ومشاهد،وكيف تأثر فن البناء والزخرفة فى مصر الفاطمية بالتقاليد الفنية المغربية التى حملها الفاطميون معهم من المهدية أو المنصورية[٧]، وتتمثل فى عديد من العناصر المعمارية والزخرفية[٨]

واستمرت التقاليد الفنية المغربية تتدفق على مصر فى عصر الدولة الأيوبية نتيجة وفود عدد كبير من المغاربة إلى مصر للمشاركة فى الجهاد ضد قوى الفرنج [٩]، ونزول عدد وفير من علماء الأندلس بمصر فى أعقاب هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ، أمثال الفقيه الزاهد أبو عبدالله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى (ت ٦٧٢ هـ) نزيل الاسكندرية ، وأبو عبد الله محمد بن لب الشاطبى (ت ٦٤٠ هـ) نزيل القاهرة . ويعتبر عصر دولة المماليك فى مصر العصر الذى تسربت فيه التأثيرات المغربية الأندلسية إلى مصر إما عن طريق التجار الذين كانت تربطهم علاقات تجارية عبّرت عنها المعاهدات التجارية المعقودة بين أرغون وقشتالة وبين مصر ، أو عن طريق المهاجرين الأندلسيين الذين خرجوا من ديارهم بالأندلس على أثر استيلاء النصارى على مدنهم [١٠].

وكما تأثرت مصر بالتقاليد المغربية الأندلسية أثرت بدورها فى فنون المغرب والأندلس ، ربما عن طريق المغاربة العلماء أو التجار الذين كانوا يمرون بمصر فى رحلاتهم الى المشرق الإسلامى ، وتأثروا بما عاينوه من آثارها ومعالمها البارزة ، أو عن طريق طوائف من العلماء والتجار وأرباب الحرف من أهل مصر ارتحلوا إلى المغرب والاندلس ، وتركوا بصماتهم واضحة فى شتى المجالات ، ويكفى أن نشير إلى دور طائفة من القبط المصريين المتمرسين فى صناعة السفن ، فى إنشاء دار صناعة تونس وإنتاج أعداد كبيرة من السفن وذلك فى ولاية حسان بن النعمان الغسانى [١١]. ويورد المقرى فى نفح الطيب أسماء بعض علماء مصريين رحلوا إلى الأندلس [١٢]، وأسهموا فى الحركة العلمية بنصيب وافر ، كما يذكر ابن حيان اسم أحد عرفاء البناء بمدينة الزهراء هو على بن جعفر الاسكندرانى ، ولقد أسفر الكشف الأثرى بالمرية عن شاهد قبر لتاجر سكندرى من بنى خليف ، رحل إلى المرية فى تجارة ، وتوفى بها فى سنة ٥١٩[١٣] فى عصر دولة المرابطين [١٤]. ويؤكد هذا النقش

الجنزى أن الإتصال بين مصر والأندلس كان قائما بين مصر الفاطمية والأندلس الخاضعة للمرابطين ، رغم الخلافات المذهبية ، وهذا ينهض فى حد ذاته دليلا على أنه كان بين بعض هؤلاء المصريين الذى ارتحلوا إلى الأندلس سواء بهدف الاشتغال بالتجارة أو للإسهام العلمى من ترك بصماته فى فنون الأندلس

وفيما يلى عرض موجز لمظاهر التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب فى العصر الاسلامى .

أولا : أثر التقاليد المصرية فى فنون العمارة والزخرفة فى المغرب والأندلس:

كانت الإسكندرية كما ذكرنا ـ فى نظر أهل مصر والمشرق الإسلامى باب المغرب ، وإليها كانت تصل سفن أهل المغرب والأندلس الذين لم تنقطع رحلاتهم إلى المشرق عبر الاسكندرية منذ منتصف القرن الثانى للهجرة ، فكانت أول ثغر ينزلون فيه بعد رحلتهم البحرية الطويلة ، وكان منارها أهم المعالم الرئيسية فى الاسكندرية حتى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وكان يعتبر أنذاك من عجائب الدنيا ، ولهذا كان الموضوع الرئيسى فى كتابات الجغرافيين والرحالة العرب وغير العرب فى العصر الوسيط ، ربما بسبب المرآة الحارقة التى كانت منصوبة بأعلاه ، أو لأنه كان يهدى السفن الضالة على مقربة من ساحل الإسكندرية إلى بر الأمان[١٥]، ويبعث الأمل فى النجاة فى قلوب المسافرين بحرا بعد رحلة شاقة مضنية كانت سفنهم تتعرض خلالها للعواصف العاتية والأنواء . كان هذا المنار الشهير أول ما يشاهده الرحالة القادمون بحرا إلى الإسكندرية من معالمها البارزة، بحيث رسخت صورته فى مخيلاتهم ، ولهذا لا نعجب إذ نرى صورة هذا المنار قد نفّذت فى بعض مآذن المغرب الإسلامى ، فمئذنة المسجد الجامع بالقيروان ، وهى أقدم مآذن المغرب والأندلس ، أقامها بشر بن صفوان سنة ١٠٥ هـ فى منتصف الجدار الشمالى للجامع داخل الصحن ، على بئر ونصب أساسها على الماء [١٦] . وتتألف مئذنة جامع القيروان مثل منار الاسكندرية من

ثلاثة طوابق مربعة ومتراجعة ، تعلوها قبة مفصصة ، وتميل جدران هذه الطوابق من جهاتها الأربع ميلا خفيفا كلما ارتفعت ، نحو الداخل ، بحيث يتسع عرضها كلما اقتربت من سطح الأرض على نحو يبرز قوة اتزان بنيانها ورسوخ قواعدها . هذه الصورة تشبه بوجه عام صورة منار الاسكندرية . ويتمثل وجه الإختلاف بينها وبين صورة منار الإسكندرية من حيث الشكل العام فى أن الطابق الأوسط من المئذنة مربع الشكل فى حين يتخذ شكلا مثمنا فى المنار ، وفى أن الطابق الثالث من المئذنة مربع الشكل بينما يتخذ شكلا أسطوانيا فى المنار (١٧). وعلى غرار هذه المئذنة أقيمت مئذنة جامع سفاقس سنة ٣٧٠ هـ ، وربما أقيمت على نسقها مآذن أخرى مماثلة فى العصرين الأغلبى والفاطمى ، لم تصل إلينا ، بدليل أن صداها وصل الى مئذنة مشهد الجيوشى القائم على سفح جبل المقطم بالقاهرة (٤٧٢ هـ) ، فهذه المئذنة رغم صغر حجمها تجمع بين الطوابق الثلاثة المتراجعة بالاضافة إلى ظهور الطابق المثمن لأول مرة فى نظام المآذن ذات الطوابق الثلاثة ، وإن كان هذا الشكل المثمن نفذ فى الطابق العلوى من مئذنة الجيوشى ولم ينفذ فى الطابق الأوسط على نحو ما نشهده فى رسوم منار الاسكندرية . وقد قلدت هذه المئذنة الفاطمية فى مئذنة مسجد دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، وهى أيضا من العصر الفاطمى (١٨).

وإذا كان الشكل العام لمنار الاسكندرية قد احتذاه المعماريون فى المغرب الأدنى لمئذنتى القيروان وسفاقس وتردد صداه فى مئذنة مشهد الجيوشى بالقاهرة ومئذنة دير سانت كاترين ، فإن عمارة المنار الداخلية كانت المصدر الذى استوحى منه مهندسو المنصور الموحدى النظام الداخلى لثلاثة مآذن تـوائم تتفق جميعا فى الضخامة والرسوخ وفى الرشاقة والارتفاع ، هى مئذنة جامع الكتبية بمراكش ، ومئذنة جامع القصبة بإشبيلية ، ومئذنة جامع الرباط . ويؤكد ذلك رواية أوردها عبد الواحد المراكشى جاء فيها . « وبنى فيها (أى فى مدينة الرباط) مسجدا عظيما كبير المساحة واسع الفناء لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له مئذنة فى نهاية

العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد فيه بغير درج » [١٩]. وطبق الموحدون هذا النظام الداخلى لمئذنة جامع الرباط على مئذنة جامع إشبيلية ، ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ؛ فهاتان المئذنتان يصعد إلى أعلاهما بغير درج ، وإنما « فى طريق واسعة للدواب والناس والسدنة » [٢٠]. ويشغل النواة المركزية المربعة التى يدور حولها الطريق الصاعد عدة غرف تعلو الواحدة الأخرى .

والتأثير المصرى واضح أيضا كل الوضوح فى العقود المقرنصة بجامع تلمسان بالجزائر (يرجع تاريخ بنائه الى سنة ٥٣٠ هـ) ، فإن مقرنصات قبة المحراب ببيت الصلاة وهى ذات طابع أندلسى وقرطبى تتكون من حطتين تكونان بأعلاهما عقدا مختلط الخطوط فرضه التخطيط العام لحطتى المقرنصات بالأركان ، ويتشابه هذا التخطيط مع العقود المستخدمة فى واجهة المسجد الأقمر بالقاهرة (٥١٩ هـ) وفى ضريح ست عاتكة بالقاهرة (٤٩٤ ـ ٥١٤ هـ) وفى قبة مسجد السيدة رقية (٥٢٧ هـ) ، ومن الواضح أن استخدام المقرنصات فى أركان القباب بجامع تلمسان والعقد الذى يتكون من حطيتهما إنما يعبر فى حد ذاته عن تأثير مصرى فى عمارة المغرب [٢١].

أما فيما يتعلق بالفنون الزخرفية فإننا نلاحظ أن التأثير المصرى يتمثل فى زخارف بعض المنسوجات الأندلسية من عصر الخلافة الأموية فى الاندلس، من ذلك قطعة من النسيج الكتانى الرقيق تزدان بشريط عريض أبيض اللون ، به بعض الاصفرار، ينقسم الى ثلاثة مناطق : الوسطى منها تشغلها ١٣ جامة مثمنة الشكل أرضيتها مذهبة ، تتصل فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخل الجامات صور أشخاص متربعين أو صور حيوانات . أما المنطقتان العليا والسفلى فتشغلهما كتابة كوفية تتضمن اسم الخليفة الأموى هشام المؤيد بالله ، والنص الكتابى كما يلى [بسم الله الرحمن الرحيم . البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين] [٢٢].

ويتجلى تأثير الفنون المصرية الإسلامية على الفن الأندلسى فى اللوحات والجوائز التى كانت تسقف بيت الصلاة بجامع قرطبة ، فزخارف اللوحات المسطحة (السماوات) تشبه نظائرها فى جامع ابن طولون ، وزخارف التوريقات والتشابكات الهندسية فى الجوائز تذكرنا إلى حد كبير بنظائرها فى المئذنة الغربية بجامع الحاكم بأمر الله فى القاهرة (٢٣).

ثانيا : التأثيرات الفنية المغربية على فنون مصر الإسلامية :

كان للعلاقات الودية القائمة بين المغرب ومصر فى العصر الاسلامى ، والاحتكاك السلمى المباشر بين المغاربة وأهل مصر أعظم الأثر فى نفاذ التأثيرات المغربية والأندلسية فى العمارة المصرية والفنون الزخرفية . ومن بين مظاهر هذه التأثيرات التكوينات النباتية من توشيحات وتوريقات فى الآثار الفاطمية بالقاهرة . أما التوشيحات فقوامها الجمع بين الخطوط الهندسية والأشكال النباتية أو بمعنى أصح صياغة الأشكال النباتية فى تلك الخطوط بحيث تتوزع تموجات الأغصان وانحناءاتها وتقاطعاتها ومداخلها ومخارجها فى الأشكال الهندسية توزيعا توقيعيا مصحوبا بالتناسق الذى يعتمد على التشابك والتداخل ، وحشو الفراغات الناتجة عن هذه التقاطعات الهندسية والتشابكات النباتية بوريقات أو سعف أو براعم أو زهيرات وثمرات (٢٤). ويتمثل هذا النوع من التوشيح فى زخارف إحدى نوافذ جدار القبلة الى يسار المحراب ، وفى إفريز من المئذنة الغربية ، ومن الجدير بالذكر أن زخارف التوشيح ظهرت فى آثار مدينة الزهراء وفى الزيادة الحكمية بالمسجد الجامع بقرطبة . أما زخرفة التوريقات فتتميز بوضوح التشكيلات الزخرفية القائمة على العروق والأغصان والمراوح النخيلية المنبثقة منها ، وباستطالة رؤوس هذه المراوح بحيث أصبحت مدببة وبامتداد استدارة شحماتها المزدوجة أو الثلاثية. وقد شاع هذا التشكيل الزخرفى فى المسجد الجامع بقرطبة فى الزيادة الحكمية وفى زخارف مدينة الزهراء .

وتتمثل التأثيرات المغربية الأندلسية فى فن العمارة بمصر الفاطمية فى تخطيط بيت الصلاة بجامعى الأزهر والحاكم بأمر الله فى القاهرة : فبلاط المحراب فيهما يذكرنا بنظيره فى جامع القيروان حيث ترتفع بمدخله قبة الصحن ، وتتقدم المحراب فى نهايته عند جدار القبلة قبة أخرى ، وقد ظهر هذا النظام فى الزيادة الحكمية بجامع قرطبة سنة ٣٥٤ هـ ، وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث نشهده فى الجامعين الفاطميين المذكورين . كذلك يتمثل التأثير المغربى فى فن العمارة المصرية فى العصر الفاطمى فى مئذنة مشهد الجيوشى بطوابقها الثلاثة التى تذكرنا بمئذنتى جامع القيروان وجامع سفاقس ، وفى البوابة البارزة المفتوحة فى الجدار الشمالى لجامع الحاكم بأمر الله ، وهى أقدم بوابة أقيمت فى عمارة مصر الإسلامية بهذه الصورة ، وهى عبارة عن مكعبين ضخمين من الحجارة المصقولة تبرزان عن سمت الجدار ينفتح بينهما ممر تعلوه قبوة مقوسة أسطوانية ، ويؤدى هذا الممر إلى باب ينتهى إلى ممر ثان [٢٥]. هذا النوع من المداخل اشتق أساساً من جامع المهدية ، ثم تكرر تنفيذه فى الجامع الأقمر من العصر الفاطمى وجامع الظاهر بيبرس من عصر المماليك [٢٦].

أما فى العصر الأيوبى فقد انتشرت التقاليد المغربية الأندلسية فى كثير من العناصر المعمارية والزخرفية بالمنشآت الأيوبية ، وتتمثل هذه التقاليد فى الزخارف النباتية المحفورة فى الجص بواجهات العنق المثمن بقبة مشهد الإمام الشافعى (٦٠٨هـ) ، وقوامها مراوح النخيل المصبعة والمختمة ، والمراوح الملساء ذات الأطراف المدببة المنحنية التى تؤلف العنصر الرئيسى فى زخارف جامع تلمسان وجامع الكتبية بمراكش وجامع تنمال وجامع توزر ، وكذلك فى العقد المقرنص الذى تختلط فيه الخطوط بالمنحنيات فى المئذنة التى تعلو الباب الأخضر بمشهد الحسين (٥٣٤ هـ) ، وفى الزخارف الجصية المنحوتة على الطراز المغربى الأندلسى بالطاقات التى انتظمت

الواجهة الجنوبية من الطابق الأدنى بهذه المئذنة ، ومن الجدير بالذكر أن هذا العقد يظهر أيضا فى التشابكات الخطية للفظ الجلالة بين اللامين فى عبارة « الملك لله » بضريح الإمام الشافعى [٢٧]، كذلك تتمثل معماريا فى نظام المحاريب الثلاثة الذى ظهر فى مصر منذ أواخر عصر الدولة الفاطمية ، ونظن أنه جاء تقليدا للعقود الثلاثة التى تتوج حنية المحراب والمشرع إلى الساباط على يمينه والمخزن الواقع على يساره فى المسجد الجامع بقرطبة ، وقد طبق هذا النظام أيضا فى ضريح الخلفاء العباسيين وفى قبة الإمام الشافعى .

ويعتبر العصر المملوكى العصر الذى تدفقت فيه التأثيرات المغربية الأندلسية بوفرة لا نظير لها إلى مصر ، إما عن طريق التجار الذين كانت تربطهم بمصر صلات تجارية ، أو عن طريق المهاجرين من أهل الأندلس الذين رحلوا عنها بعد استيلاء النصارى على مدنهم فى أعقاب الهزيمة الساحقة التى منى بها الموحدون فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ، وتتمثل هذه التأثيرات معماريا فى العقود المنفوخة المتجاوزة لنصف الدائرة والعقود التوأمية المتجاوزة أيضا لنصف الدائرة فى نوافذ قبة فاطمة خاتون (٦٨٢ هـ) ، وضريح سلار وسنجر الجاولى (٧٠٣) ، وضريح زين الدين يوسف (٦٩٧ هـ) وضريح المنصور قلاوون (٦٨٤) وجامع الجاى اليوسفى (٧٧٤) وجامع السلطان حسن (٧٦٣) ، كما يتجلى فى القبوات المقربصة التى تعلو أسطوان المدخل بجامع الجاى اليوسفى وجامع المؤيد شيخ ، وهو نوع معقد من القبوات قسمت فيه القبوة تقاسيم هندسية متعددة تتشعب خطوطها من كل ركن من أركان القبوة بحيث تترك فراغا فى وسطها يشغله صليب ينتهى فى كل من أذرعه الأربعة بشكل معين ، وهذا الشكل الصليبى يكتظ بالمقرنصات التى لا تترك منه سوى قبيبة قاعدتها مفصصة [٢٨]. ولا نشك فى أن هذا الشكل الصليبى الذى يشغل الجزء المركزى للقبوة يرجع إلى تقاليد أندلسية مغربية ، فقد ظهر فى جامع

قرطبة مع الضلوع البارزة المتقاطعة التى تؤلف الهيكل البنائى للقباب ، كما تطور بعد ذلك إلى صور زخرفية فى طليطلة وسرقسطة وتلمسان بحيث فقدت الضلوع المتقاطعة بقبوات مسجد باب المردوم ومسجد الدباغين بطليطلة وقبة المحراب بجامع تلمسان وظيفتها المعمارية ، ثم ظهرت الضلوع المتقاطعة على استحياء فى القبوات المقربصة بمساجد الموحدين ونشهدها بجلاء فى القبوة المؤدية إلى بهو التمساح بالمسجد الجامع بإشبيلية .

وتظهر التأثيرات الأندلسية المغربية صريحة فى جامع ابن طولون كما لو كانت منقولة نقلاً مباشراً من قرطبة ، وتتمثل فى العقدين المنفوخين اللذين يحملان القنطرة الموصلة بين الجدار الشمالى لمسجد ابن طولون ومئذنته ، وفى عقد المدخل الى المئذنة بطرّته المستطيلة التى تطوقه والافريز البارز الذى يدور حوله ، وكذلك فى العقدين التوأمين اللذين يزينان كل وجه من أوجه المئذنة . وجميع هذه العقود تتفق فى نسبها وفى مواقع مراكزها وفى تشعع سنجاتها مع العقود المتجاوزة لنصف الدائرة من الطراز الخلافى بقرطبة . وتظهر التأثيرات الأندلسية واضحة أيضا فى الكوابيل القائمة بأدنى القنطرة الموصلة بين المسجد المزكور والمئذنة ، وهذه الكوابيل ذات اللفائف تماثل نظائرها فى واجهة صحن المسجد الجامع بقرطبة (٢٩)، هذا بالإضافة إلى ركينة خشبية فى الغرفة الملحقة ببيت الصلاة بجامع ابن طولون . ويذكر الأستاذ جورج مارسيه أن هذه الركينة تماثل ركينة خشبية من طليطلة يرتكز عليها السقف الخشبى بكنيس سانتا ماريه لابلانكا (٣٠). ولكن الأستاذ توريس بلباس يؤكد أن مثل هذه الركينة ظهرت لأول مرة فى الأندلس فى مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة ولكنها شكلت فيه من الجص بدلا من الخشب ، ومنها كانت تنبت الضلوع البارزة للقبوة . واكتشف فى السنوات الأخيرة فى حجرات غرناطة بقصبة مالقة ركائن خشبية مع بقايا أخرى لسقف يرجع تاريخه الى منتصف القرن الخامس الهجرى ،

ربما كانت تتخذ مساند لجوائز السقف . كذلك نشهد هذا النوع من الركائن فى السقف الخشبى للبلاط الأوسط بجامع تلمسان، وغير ذلك من الآثار المعمارية [٣١]

السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الاسلامى والآثار الاسلامية
ومدير معهد دراسات البحر المتوسط
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الحـــــواشى

(١) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص ٢١١ ومايليها .

(٢) الزهرى ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٥٠ ، وانظر السيد عبد العزيز سالم ، التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية ، المجلد ٢١ ، مدريد ، ١٩٨٢.

Elsayed Abdel Aziz Salem, Influencia del arte hispanomusulman sobre el arte islamico de Egipto; En Cuadernos de la Alhambra, No. 15 - 17, 1981 .

وانظر أيضا السيد عبد العزيز سالم ، تجارة الأندلس مع العراق والخليج العربى فى العصر العباسى ، من بحوث ندوة « مكانة الخليج العربى فى العصر العباسى » ، العين ، ١٩٨٨ ، ص ٦٥

(٣) الزهرى ، المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٥١٥ .

(٥) Goetein, A Mediterranean society, vol. I, Berkely, 1967, p. 213 .

(٦) Goetein, La Tunisie du XI e siècle à la lumière de documents de la Geniza du Caire, dans "Etudes dédiées à la memoire de Lèvi-Prevençal", Paris, 1962, p. 571.

(٧) ذكر ابن سعيد أن القاهرة من بناء المعز ، « وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ولا سيما أنه عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية إلى جانب القيروان ، وعاين المهدية مدينة جده عبيد

الله المهدى » (المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٣ ، ص ١٠٨)

(٨) تتمثل التأثيرات الفنية الوافدة على مصر فى العصر الفاطمى من المغرب فى الجوفات المقوسة بقبة الحافظ لدين الله فى الجامع الأزهر ، وفى البلاط الأوسط المؤدى الى المحراب ، وقبة الصحن فى بيت الصلاة بهذا الجامع ، وفى القبة المضلعة بضريح يحيى الشبيه ، وفى الغلاف البنائى المربع لمئذنتى الحاكم بأمر الله ، وفى الجوفات المقوسة بقبة هذا الجامع ، وقبة مشهد أخوة يوسف ، وفى المدخل البارز بجامع الحاكم الذى يذكرنا بمدخل جامع المهدية ، وفى شكل مئذنة الجيوشى التى تشبه مئذنة جامع القيروان ومئذنة جامع سفاقس ، وفى القبة المضلعة من الداخل والخارج بضريح السيدة عاتكة ، وضريح السيدة رقية ، وفى الرواق الأمامى بجامع الصالح طلائع خارج باب زويلة .

(٩) أحمد مختار العبادى ، بعض مظاهر العلاقات التاريخية بين مصر والأندلس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد ٢٣ ، مدريد ، ١٩٨٦/٨٥ ، ص ١٠٨ ، ١١٠ .

(١٠) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ٢ ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٦٢ .

(١١) لما شرع حسان بن النعمان فى تأسيس مدينة تونس اتصل مباشرة بالخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يزوده بجماعة من الأقباط ليستخدمهم فى تأسيس دار صناعة تونس ، فكتب عبد الملك الى أخيه عبد العزيز والى مصر من قبله يأمره أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى تونس . (البكرى، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ ، ص ٣٨) .

(١٢) من هؤلاء العلماء المصريين أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله الطندتائى الذى سكن مرسية ودرس بها إلى أن خرج منها بعد أن تملكها النصارى صلحا سنة ٦٤٢هـ (المقرى ، ج ٤ ، ص ٦٥) ، وأبو المكارم هبة الله بن الحسين المصرى الحافظ ، رحل إلى الأندلس خوفا من صلاح الدين ، واستصحبه المنصور الموحدى فى غزوته الثانية إلى قفصة وتوفى سنة ٥٨٦هـ بتونس (المقرى ، ج٤، ص ٦٨) ومنهم اسماعيل بن عبد الرحمن بن على القرشى المصرى الذى رحل من مصر الى الاندلس فى خلافة الحكم المستنصر بالله سنة ٣٦٠ هـ عندما استولى الفاطميون على مصر فرحب به الحكم ، ولما سيطر العامريون على الخلافة انتقل الى إشبيلية وأوطنها دارا واتخذها قراراً (المقرى ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ٧٠). ومنهم أيضا أبو البركات عبد الرحمن بن داود بن على الواعظ المعروف بالزبزارى ، قدم على الأندلس وتجول فى بلادها واعظا، وسمع الناس منه بقرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية سنة ٦٠٨ هـ. (المقرى ، ج ٤ ، ص ١٣٥). ومنهم أحمد بن أبى عبد الرحمن القرشى الزهرى المصرى الذى وفد على عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٣ ، فأكرم الناصر مثواه (المقرى ، ج ٤ ، ص ١٣٩) . ومنهم أبو الطاهر اسماعيل بن الاسكندرانى وكان فقيها تاجرا دخل مرسية (المقرى ، ج ٤ ، ص ١٣٩) ومنهم أيضا تقى الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن الفرس الحنفى المصرى . (المقرى ، ج ٤ ، ص ١٤٣) .

(١٣) ورد اسمه فى النقش الجنزى على النحو التالى « التاجر ابن خليف الاسكندرانى » أنظر النقش كاملا فى :

Ramòn Revilla Vielva, Patio arabe del Museo Arqueologico nacional, Madrid, 1932, p. 120 - Lèvi-Prevençal, Inscriptions arabes d'Espagne, T.I, Paris, 1931, p. 116 .

(١٤) Elsayed Abdel Aziz Salem, Algunos aspectos del floreci-miento econòmico de Almeria islàmica durante el periodo de los Taifas y de los Almoràvides, Rev. del Instituto egipcio de Estudios islàmicos en Madrid vol. xx, 1979 - 1980 .

Elsayed Abdel Aziz Salem, d'Alexandrie à Almeria, les Banu Khulaif, une famille alexandrine au Moyen âge, Rev, de l'Occident musulman et de la Mediterrannèe, No 46, sur "Alexandrie entre deux mondes", Aix - en - Provence, 1986 .

Elsayed Abdel Aziz Salem, Des Grecs aux Ottomans : grandeur et misère d'un mythe, dans "Miroir égyptien", Marseille, 1984 .

(١٥) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٣٨ ، ٤١ ـ
البلوى ، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(١٦) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٤٣ .

أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١٣ .

السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ،ج ٢ العصر الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٦، ص ٤٢٣ .

(١٧) السيد عبد العزيز سالم ، تأثير منار الاسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس ص ١٨٨ .

(١٨) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الإسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة العلوم ، العدد الأول من السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٦ .

(١٩) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٥٠، ص ٢٦٦ .

(٢٠) ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالإمامة ، تحقيق د . عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٨٢ .

(٢١) Torres Bàlbas (L.), Intercambios artisticos entre Egipto y el Occidente musulman, Rev. al-Andalus, vol. III, 1935, p. 413.

(٢٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, Inscription No 24, p. 192 .

وانظر : السيد عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات فى الأندلس ، كتاب الشعب رقم ٦٤، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٩٠ ـ قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٢٣) Torres Bàlbas (L.) : Intercambios artisticos, p. 412. arte califal, en Historia de España "dirigida" por Ramon Menendez - Pidal, t. I, Madrid, 1957, p. 550 .

(٢٤) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ ، العصر الفاطمى ، القاهرة، ١٩٦٥ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢٥) أحمد فكرى ، نفس المرجع ، ص ٧٣ .

(٢٦) Farid Shafii, West islamic influences on architecture in Egypt, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XVI, part II, 1954, p. 6 .

(٢٧) Farid Shafii, op. cit. p. 24 - 29 . ، أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، ٣٩ .

(٢٨) السيد عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية ، المجلة ، عدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٩٨ .

(٢٩) Torres Bàlbas, intercambios artisticos, p. 411 - 424.

وانظر أيضا السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦ .

(٣٠) Marçais (G.) : les Echanges artistiques entre l'Egypte et les pays musulmans occidentaux, Hesperis, XIX, 1934, pp. 95 - 106 .

(٣١) Torres Bàlbas, op. cit. p. 418 - 422 .

الابجدية الاولى وانتشارها في شرق البحر المتوسط

دكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد
قسم التاريخ - كلية الأداب - جامعة الاسكندرية

من المتفق عليه بين الباحثين في تاريخ الكتابة، أن جميع الابجديات المعاصرة في المناطق المحيطة بالبحرين المتوسط والأحمر وما يتاخمها شمالا في اوروبا وجنوبا حتي اليمن والحبشة، وشرقا حتي الهند، ترجع لأصل واحد مشترك يطلق عليه الابجدية الأم او الابجدية الاولي.

ورغم ان الكتابة الهيروغليفية المصرية تضم اقدم ابجدية في التاريخ وتتكون من اربع وعشرين علامة ابجدية (شكل ١)، الا انها لم تكن هذه الابجدية الام لان المصريين القدماء استخدموها بطريقة اضاعات قيمتها الابجدية، فقد كانت الكتابة الهيروغليفية تضم إلي جانب هذه العلامات الابجدية علامات مقطعية ثنائية وثلاثية (شكل ٢)، وكانوا يستخدمون العلامات الابجدية كمكملات صوتية لهذه العلامات المقطعية، ومثال ذلك العلامة المقطعية الدالة علي المنزل، كانت تنطق «پر» اي بصوتين هما الباء والراء (شكل ٣)، فكان المصريون يضيفون اليها حرف الراء ورغم ذلك كانت تنطق «بر» وليس «برر»، وبذلك ضاعت قيمة الحروف الابجدية الهيروغليفية نتيجة استخدامها مع العلامات المقطعية اي عدم الاقتصار علي استخدامها وحدها كما هو الشأن في الحروف الابجدية.

وقد راجت آراء في وقت ما بأن الابجدية الفينيقية هي هذه الابجدية الأم ولكن ثبت خطأ هذا الرأي لانه لايظهر في حروفها مراحل التطور علي الارض الفينيقية نفسها وانما تدل اشكال حروفها علي انها نهاية سلسلة تطور كما سنوضح بعد.

فما هي هذه الابجدية الام أو الابجدية الاولي؟

انها تلك التي يطلق عليها الابجدية السينائية المبكرة Proto - Sinaitic Alphabet

لانها نشأت في سيناء، وكلمة المبكرة تميزها عن ابجدية سينائية اخري انتشرت في سيناء في عصر متأخر وبالتحديد في القرنين الثالث والرابع الميلادين وترجع في اصلها الي الابجدية النبطية.

نشأت الابجدية السينائية المبكرة في منطقة سيرابيط الخادم بسيناء علي يد شعب سامي بسيط كان افراده يعملون تحت اشراف المصريين في استخراج النحاس والفيروز في العصر الذي بلغ فيه النشاط المصري ذروته في سيناء وهو عصر الاسرة الثانية عشرة الفرعونية اي ما بين القرنين العشرين والثامن عشر قبل الميلاد، اذ بلغ عدد افراد احدي البعثات التي ارسلها الفرعون آمون - محات الثالث احد ملوك هذه الاسرة ٧٣٤ فردا وذلك لتعدين حجر الفيروز نصف الكريم من مناجم منطقة سيرابيط الخادم (الخريطة رقم ١). وقد حدث نوع من التقارب بين المصريين وبين أفراد هذا الشعب السامي البسيط تمثل في اتباع هؤلاء الساميين للعادات الدينية المصرية وفي تقليدهم لمظهر المصريين، وخاصة ان المصريين شيدوا معبدا لآلهتهم «حتحور» داخل كهف كان في الأصل معبدا لآلهة هؤلاء الساميين «عشتارت» التي كانوا يكنونها «بعلات» بمعني الربة أو السيدة مما ادي الي توحيد الالهتين. فوجدت داخل هذا المعبد تماثيل مصرية الطابع مثل تماثيل علي هيئة ابي الهول (شكل٤) والشخص القابع (شكل ٥) كما وجدت رسوم للآلهة المصرية كالآلهة بتاح (شكل٦) وقد نقشت علي هذه التماثيل والرسوم عبارات بالكتابة السينائية المبكرة. اي ان اصحابها الساميين صنعوها علي الطراز المصري بينما نقشوا عليها كتابتهم، كذلك ظهرت بين الرسوم صور لبعض هؤلاء الساميين وهم يرتدون الزي المصري وقد حلقوا لحاهم كالمصريين (شكل ٧ب) (علي عكس عادة الساميين كما تظهرهم الرسوم المصرية الأخري بلحي نامية وبأردية طويلة كاسية (شكل٧أ).

غير ان اهم ما اخذه هؤلاء الساميون عن المصريين علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية التي كانت بمثابة المادة الخام التي استخلص هؤلاء الساميون منها ابجديتهم، اذ يبدو ان الكتابة الهيروغليفية المصرية بعلاماتها التي تبلغ حوالي ..٧ علامة بخصائصها المقطعية المعقدة، والتي لم يكن يستطيع فهمها واستخدامها الا الذين نشأوا في البيئة المصرية وتمرسوا عليها منذ صغرهم - يبدو ان هذه الكتابة استعصت علي هؤلاء الساميين البسطاء، فبسطوا بعض علاماتها بتحويلها من كتابة مقطعية الي حروف ابجدية واتبعوا في ذلك طريقة يطلق عليها الباحثون في تاريخ الكتابة «الطريقة الاكروفونية» Acrophonic Principle وتتلخص في اتخاذ الصوت الاول من نطق الاسم الدال علي شكل العلامة ليكون مدلولا صوتيا مفردا Uniliteral للعلامة اذا دخلت في تركيب الكلمات، ومثال ذلك العلامة المقطعية الدالة علي المنزل التي سبق ان ذكرناها والتي تنطق «بر» (شكل ٣)، فقد اتخذها هؤلاء الساميون مدلولا لحرف الباء لان المنزل يدعي «بيت» في

لغتهم (ويلاحظ ان الكلمة تتفق في نطقها ومعناها مع اللغة العربية لانها لغة سامية الاصل)، ولان أول حرف في هذه الكلمة هو حرف البا ء.

بهذه الطريقة حول هؤلاء الساميون سبعا وعشرين علامة من العلامات الهيروغليفية الي حروف ابجدية واستخدموها وحدها فقط، اي غير مقترنة بعلامات مقطعية كمكل صوتي لها كما فعل المصريون القدماء، فكانت هذه الابجدية المسماة بالسينائية المبكرة هي الأبجدية الأم أو الابجدية الأولى التي اشتقت منها سائر الابجديات وفي مقدمتها ابجديات شرق البحر المتوسط التي اشتقت منها بدورها ابجديات غرب البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي.

وكما ذكرنا، رجع الباحثون وخاصة علماء المصريات، عصر الاسرة الثانية عشرة الفرعونية (١٩٩١-١٧٨٣ق.م) كتاريخ لنشأة هذه الابجدية وفي مقدمتهم العلامة «الان جارنر» الذي حل رموز هذه الابجدية (Gardiner 1916,pp.1-16) وحددوا لذلك عصر الفرعون آمون - محات الثالث بوجه خاص (١٨٤٣-١٧٩٧ق.م) لان منطقة مناجم الفيروز في سيرابيط الخادم شهدت نشاطا مصريا مكثفا لم يحدث في عصر ملك واحد طوال عصور استغلال المصريين القدماء لهذه المناجم، وازدادت مشاركة الساميين في البعثات المصرية في منطقة سيرابيط الخادم (Gardiner 1962,p.47).

غير ان بعض الباحثين في الدراسات السامية وخاصة الاسرائيليون منهم (Cross 1967,p.8,cf. Naveh 1987,p.30) ارجعوا تاريخ اختراع الابجدية السينائية المبكرة الي عصر الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية وخاصة عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث (١٤٨٤-١٤٢٩ق.م) واعتمدوا في ذلك علي رأي قديم يرجع الي اوائل القرن الحالي كان قد تبناه العالم الاثري فلندرز بتري (Petrie 1906,p.131) الذي كان أول من اجري حفائر اثرية في منطقة سيرابيط الخادم وكشف عن معبدها وآثارها، وتتلخص الأدلة التي اعتمد عليها بتري في تحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الاسرة الثامنة عشرة وخاصة عصر تحتمس الثالث وحتشبسوت فيما استخلصه من الآثار التالية:

(١) تمثال لشخص قابع (شكل ٥) عليه كتابة سينائية مبكرة (وقد اعطاه بتري رقم ٣٤٦) عثر عليه عند مدخل مقصورة الإله «سبدو» (أحد آلهة منطقة سيرابيط الخادم) التي شيدتها الملكة حتشبسوت.

(٢) تمثال صغير علي شكل ابي الهول المؤنث (شكل ٤) وعليه كتابة سينائية مبكرة ايضا (وهي التي توصل الي حلها العلامة جاردنر كما سبق القول وامكنه بذلك قراءة النصوص السينائية المبكرة). وهذا التمثال مصنوع من الحجر الرملي الأحمر قال بتري عن هذا الحجر انه استخدم لأول مرة في عصر الملك تحتمس الثالث.

(٣) كسرة من الفخار البرتقالي الاصفر ذو الخطوط الحمراء والسوداء وجدت في احد مناجم سيرابيط الخادم الذي نحتت علي واجهته كتابة سينائية مبكرة، وهذا النوع من الفخار يميز عصر تحتمس الثالث في رأي بتري (Ibid) .

وقد اضاف علماء الدراسات السامية الي ادلة بتري هذه، ادلة اخري من وجهة نظرهم وهي ان تمثال ابي الهول المؤنث (شكل ٤) ظهر فجأة في عصر حتشبسوت (Albright 1948,p.10) وأن التمثال القابع شاع في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أي في عصر الاسرة الثامنة عشرة وان وجود هذا التمثال يعتبر دليل قوي ضد اي تحديد لعصر النقوش قبل هذه الاسرة (Ibid) .

وللرد علي هذه الحجج، فاننا نقول ان آراء بتري كانت تعتبر صحيحة في أوائل القرن العشرين عندما ألف كتابه عن حفائره في سيناء في اوائل القرن الحالي (عام ١٩٠٦)، ولكنها تغيرت خلال هذه المدة الطويلة، فمثلا ثبت ان الحجر الرملي الاحمر استخدم قبل عصر تحتمس الثالث بوقت طويل، بل وقبل عصر الاسرة الثانية عشرة نفسها وبالتحديد في معبد الملك منتوحتب الثاني في الدير البحري بالاقصر (٢٠١٠-١٩٩٨ق.م) الذي يرجع لعصر الاسرة الحادية عشرة (Lucas 1945,p. 72) .

اما عن العثور علي قطعة الفخار من عصر تحتمس الثالث وعلي تمثال من عصر حتشبسوت في اماكن ترجع لعصر هذين الملكين فلايمكن الاعتماد علي ذلك لان هذه الآثار غير ثابتة فيسهل نقلها من مكان لآخر فضلا عن ان معبد سيرابيط الخادم امتد بناء اجزائه من عصر الاسرة الثانية عشرة اي عصر الاسرة العشرين وبذلك شمل آثارا من جميع هذه العصور ومن بينها بطبيعة الحال آثار من الاسرة الثامنة عشرة.

وبالنسبة لآراء علماء الدراسات السامية بأن تمثال ابي الهول المؤنث ظهر فجأة في عصر حتشبسوت، فالواقع غير ذلك لان هذا النوع من التماثيل ظهر منذ عصر الاسرة الرابعة وبالتحديد في منطقة هرم الملك ددفرع في ابي رواش (حوالي ٢٥٤٠ق.م.) (Hassan 1949,p 91) .

كذلك فان رأيهم بأن وجود التمثال المكعب يعتبر دليل قوي ضد تحديد عصر النقوش السينائية قبل عصر الاسرة الثامنة عشرة، هذا الرأي ينقضه العثور علي تماثيل من هذا النوع ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة، ومثال ذلك تمثالين احدهما محفوظ في المتحف البريطاني وهو لشخص يدعي «سا-حتحور» والثاني في المتحف المصري وهو لشخص يدعي «حتب» (Aldred 1956, pp. 43-44,pls. 36-37) .

وعلي ذلك فان رأي علماء المصريات بتحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الاسرة الثانية عشرة هو الارجح ولاسيما انهم الذين نسخوا النقوش السينائية المبكرة والذين درسوها والذين حلوا رموزها فهم اقدر علي تحديد عصرها (Cerny 1955, Vol. I, pl. 82, Vol. I, p. 202, no. 345) .

وقد أكد هذا التحديد نقش وجد في منطقة وادي نصب بسيرابيط الخادم (شكل ٨) بعد حوالي ستين عاما من كشف بتري للنقوش السينائية. ويتميز بخشونة ظاهرة بالنسبة لباقي النقوش مما يدل علي قدمه فضلا عن ان العلامة «الان جاردنر» اثبت انه يرجع الي عصر الملك آمون - محات الثالث احد أواخر ملوك الاسرة الثانية عشرة (Gardiner 1962, p. 46) .

ومن الغريب ان هذا الرأي أي ارجاع عصر النقوش السينائية المبكرة الي عصر الأسرة الثانية عشرة، كان سائدا بين علماء الدراسات السامية وفي مقدمتهم العالم «ألبريت» في بحث نشره عام ١٩٣٥ (Albright 1948,p.15) واعتمد في هذا التأريخ علي وجود ميم التنوين Mimation في لغة النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وكان ميم التنوين هذه -في رأيه- من خصائص اللغات السامية قبل منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ثم اختفت حوالي ذلك التاريخ (Ibid) . ثم عاد البريت وغير رأيه في بحث نشره عام ١٩٤٨ منكرا وجود ميم التنوين في النقوش السنيائية المبكرة (Ibid) وأكد رأيه هذا في دراسة نشرها عام ١٩٦٩ عن قواعد لغة النقوش السينائية المبكرة ومفرداتها وبذلك تبني الرأي القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع الي عصر الأسرة الثامنة عشرة (Albright 1969,p. 6) ولو انه في نفس هذه الدراسة أقر بأنه قد يضطر لقبول الرأي القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع لعصر الاسرة الثانية عشرة عندما واجهته بعض الصعوبات بشأن تفسير نشأة الابجدية السامية الشمالية الغربية (ربما يقصد الفينيقية) ذات المظهر الخطي (op.cit.p. 15) .

هذا التذبذب في الرأي من أكبر علماء النقوش السينائية المبكرة، يضعف رأي علماء

الدراسات السامية بتحديد عصر هذه النقوش بعصر الاسرة الثامنة عشرة وبالتالي يرجع رأي علماء المصريات بارجاع هذا العصر الي عصر الاسرة الثانية عشرة.

لقد كان من اهم اسباب تغيير علماء الدراسات السامية لرأيهم الاقدم بأن النقوش السامية المبكرة ترجع الي عصر الاسرة الثانية عشرة، الي رأيهم الاحدث، بأنها ترجع الي عصر الاسرة الثامنة عشرة -كان من أهم هذه الاسباب- العثور في فلسطين علي عدة قطع اثرية حدد الباحثون عصرها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد وقد نقشت بكتابة اطلقوا عليها الكتابة الكنعانية المبكرة (Proto-Canaanite, Naveh 1987,p.27) وهذه القطع الاثرية هي:

(١) كسرة فخار وجدت في منطقة تل جازر الواقعة شمال غرب اورشليم بثلاثين كيلو مترا (الخريطة رقم ٢) وعليها ثلاثة حروف تقرأ من أعلي لاسفل «ك ل ب» (شكل ٩) .Op.cit) fig. 19) وهو في الغالب اسم علم قد يكون الاسم السامي «كالب».

(٢) نصل خنجر من البرونز عثر عليه في منطقة لكيش القديمة (تل الدوير الحالية الواقعة علي بعد اربعين كيلو مترا جنوب غرب اورشليم) (الخريطة رقم ٢) وقد نقشت عليه اربعة حروف من اعلي الي اسفل تقرأ «ط ر ن ز» (شكل ١٠) (op.cit.fig 20) ويري ألبريت انه من اسماء الحوريين (شعب كان يسكن بين جنوب تركيا وشمال الشام) (Albright 1969,p. 10)

(٣) كسرة وجدت في منطقة «شكيم» القديمة (تل بلاطة الحالية بالقرب من نابلس) وقد نقشت عليها سبعة حروف (شكل ١١) (Naveh, op.cit.fig. 18) قرأها ألبرت من اليسار الي اليمين» (...ت(ب)أ أرغ م م أ ر (ت... » وترجمتها «(سوف) تحدث كلمات (هذه) اللعنة» (Albright 1969 p. 10).

ومن رأي علماء الدراسات السامية ان حروف النقوش السينائية المبكرة لاحقة في التطور لحروف النقوش المذكورة وبهذا ارجعوا النقوش السينائية المبكرة الي القرن الخامس عشر قبل الميلاد لان النقوش المذكورة ترجع الي القرن السابع عشر أو السادس عشر قبل الميلاد.

غير اننا اذا قارنا بين حروف الكتابة الكنعانية المبكرة وبين حروف الكتابة السينائية المبكرة من حيث الصفة الصورية (أو التصويرية) لهذه الحروف، وهو لاشك مقياس قدم احدى الكتابتين عن الاخرى، نجد انها اما متساوية بين حروف الكتابتين او ان الحروف السينائية المبكرة تتفوق علي الكنعانية المبكرة التي اختفت من حروفها هذه الصفة. فمن امثلة الظاهرة الاولي حروف الكاف

والباء في شكل ٩ وفي قائمة الحروف السينائية المبكرة في شكل ١٢ (ارقام ١٣،٢) وايضا حرف الراء في شكل ١١،١٠ بالمقارنة في القائمة شكل ١٢ (رقم ٢٤) اي ان الحروف الكنعانية المبكرة تتقارب في شكلها الصوري مع الحروف السينائية المبكرة ومن أمثلة الظاهرة الثانية اي التي تتفوق فيها الحروف السينائية المبكرة علي الكنعانية المبكرة في الصفة الصورية، حرف الألف (رأس الثور) فمازال رأس الثور واضحا في السينائية المبكرة كما يتضح من القائمة شكل ١٢ (رقم١) بينما اختفي في الكنعانية المبكرة وتحول الي مايشبه شكل المثلث (شكل ١١) اي اخذ الشكل الخطي Linear الذي يشبه الي حد كبير الشكل الذي ظهر به هذا الحرف في المرحلة النهائية للكتابة الكنعانية التي ترجع للقرن الثالث عشر ق.م. (شكل ١٦). وكذلك حرف النون فمازال انحناء رأس الثعبان (نحش) ظاهرا في السينائية (رقم ١٦ في القائمة شكل ١٢) بينما اختفي هذا الانحناء وتحول الي شكل مستطيل (خطي) في الكنعانية المبكرة (شكل ١٠). وايضا حرف الميم الذي تمثله موجة مياه، فمازال شكل موجة المياه ظاهرا في السينائية المبكرة (رقم ١٥ في القائمة شكل ١٢) بينما اختصرت خطوطها في الكنعانية المبكرة (شكل ١١). واخيرا حرف الياء (يد) فان شكل اليد (الذراع) مازال واضحا في السينائية المبكرة (رقم ١٢ في القائمة شكل ١٢) بينما ابتعد عن هذا الشكل في الكنعانية المبكرة (نفس الرقم في نفس القائمة شكل ١٢).

نستنتج من هذه المقارنة ان الصفة الصورية (او التصويرية) قد غلبت في الحروف السينائية المبكرة بالنسبة للحروف الكنعانية المبكرة مما يدل علي اسبقية الابجدية السينائية المبكرة وانها الأصل الذي اشتقت منه الابجدية الكنعانية المبكرة وهو مايخالف رأي علماء الدراسات السامية ويطابق علماء المصريات الذين حددوا تاريخ النقوش السينائية المبكرة بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد وبهذا تسبق اقدم نقوش الكتابة الكنعانية المبكرة التي حدد علماء الدراسات السامية تاريخها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد.

والحقيقة ان الكتابة السينائية المبكرة انتقلت الي فلسطين، وعلي الارض الفلسطينية اخذت الصفة الصورية تختفي بالتدريج بينما غلبت الصفة الخطية علي اشكال الحروف ومثال ذلك مكعب من الطين وجد في لكيش (تل الدوير) وقد نقشت علي وجهين من اوجهه علامات هيروغليفية (شكل ١٣-أ،ب) (Albright 1969, fig,. 2)،بينها اسم الفرعون امنحتب الثاني (الوجه أ) وبذلك تحدد تاريخ المكعب بعصر هذا الفرعون (١٤٣٥-١٤٢٣ق.م.) وعلي الوجهين الآخرين (جـ،د) نقشت كتابة سينائية مبكرة وقد طمست تلك التي علي الوجه (د) بينما يمكن قراءة التي

علي الوجه (جـ) وقد قرأها البريت «(ايل)ذ ج ت» وفسر العبارة بأنها وصف للاله المسمي عند الساميين في سيناء «ذو-جت أو «ذو-جنتي» وانه الاله الحامي لمعصرة العنب وانه كان يعتبر من ضمن حاشية الاله بتاج المرسومة صورته بجوار هذا النقش (Albright 1969, p. 4).

ويلاحظ على حروف هذا النقش ان حرف التاء مازال محتفظا بالشكل الصوري وهو شكل رغيف الخبز بينما اختفي الشكل الصوري في حرفي الذال والجيم وغلب عليهما الشكل الخطي.

ان النقوش علي هذا المكعب تعتبر دليلا قويا علي تطور الابجدية السينائية المبكرة علي الارض الفلسطينية من الصفة الصورية الي الصفة الخطية، وهذه الصفة الاخيرة سوف تتضح في المراحل اللاحقة للكتابة الكنعانية المبكرة الي ان تصل الي آخر مراحل تطورها في الكتابة الفينيقية، ولكن خلال هذا التطور سوف تظهر في كل مرحلة خاصية من الخصائص التي ميزت الكتابة الفينيقية وهي اختفاء الشكل الصوري تماما واتخاذ الحروف كلها الشكل الخطي، ثم ظهور الفواصل الرأسية التي بدأت علي شكل نقط ثم صارت خطا رأسيا في نهاية التطور.

وقبل ان نتتبع هذا التطور، يجدر بنا ان نشير الي الكتابات الاخري التي ظهرت في الشام والتي يحاول بعض الباحثين الربط بينها وبين الابجدية الاولي، وهي كتابة «رأس الشمرا-اوجاريت» في شمال سوريا، والكتابة المسماة بكتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية (Pseudo-hieroglyphic script of Byblos) ورغم ان كتابة رأس شمرا تتكون من ابجدية من ثلاثين حرفا، فان كتابتها بالخط المسماري علي الطين قلل من قيمتها في نظر الفينيقيين التجار الذين كانوا يفضلون ابجدية تصلح للكتابة علي المواد السهلة كالبردي والجلد ففضلوا عليها الابجدية الكنعانية المبكرة (المتطورة عن السينائية المبكرة كما ذكرنا) ولهذا اندثرت ابجدية رأس الشمرا ولم تترك اثرا لدي شعوب الشام. اما الكتابة الثانية المسماة كتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية فرغم ان اغلب علاماتها صورية الشكل الا انها لم تكن كتابة ابجدية بل كانت مقطعية تتكون من عدد كبير من العلامات يبلغ ١١٤ علامة، فاندثرت هي الاخري.

ورغم هذه الحقائق عن هاتين الكتابتين التي اخذ بها العلماء منذ عهد بعيد، فمازال بعض الباحثين يحاول الربط بين هاتين الكتابتين للخروج بآراء مؤداها ان الابجدية الفينيقية ترجع في نشأتها الي هاتين الكتابتين بل ان احد الباحثين في الدراسات العراقية القديمة حاول الربط بين هاتين الكتابتين من ناحية وبين بعض حروف الكتابة الكنعانية المبكرة، وهي المنقوشة علي خنجر

لكيش (شكل ١٠)، وفي سبيل الوصول لهذا الغرض قرأ هذه الحروف قراءة تختلف تماما عن جميع قراءات العلماء الذين قرأوها «ط ر ن ز» كما ذكرنا، اذ قرأها «ل ر ص ي» وفسر الكلمة بانها اسم علم تعني «معاونتي (علي الاله)» (Sauren 1992, p. 218) . ولاشك ان هذه الآراء تخالف تماما ما اتفق عليه العلماء بشأن هاتين الكتابتين

مراحل تطور الابجدية الكنعانية المبكرة وظهور الابجدية الفينيقية:

يطلق الباحثون علي الحروف الكنعانية المبكرة التي ترجع للقرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م. (التي ذكرناها فيما سبق) «المجموعة الاولي من الحروف الكنعانية المبكرة» بينما يطلقون تسمية «المجموعة الثانية» «والمجموعة الثالثة» علي مجموعتين لاحقتين من هذه الحروف (Diringer 1947, p. 208) . وبعضهم يجمعونها تحت تسمية واحدة هي «الكنعانية» أو «الكنعانية المتأخرة». وترجع المجموعة الثانية الي القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد (وبعضها يرجع للقرن الثالث عشر) بينما ترجع المجموعة الثالثة الي القرن الثاني عشر. وتتميز حروف المجموعتين بغلبة الصفة الخطية عليها وهي الصفة التي ستظهر بوضوح فيما بعد في الابجدية الفينيقية.

وقد وجد أحد نقوش المجموعة الثانية في منطقة «تل الحصي» في جنوب فلسطين (بالقرب من تل الدوير)، بينما وجد النقش الآخر في منطقة «بيت شمس» (الواقعة عند منتصف المسافة بين القدس واسدود تقريبا (الخريطة رقم ٢).

ويتكون نقش تل الحصي من ثلاثة حروف منقوشة علي شقفة فخار تقرأ «ب ل ع» (شكل١٤) ويتضح التطور نحو الشكل الخطي في حرف الباء الذين ابتعد عن شكل البيت وفي حرف العين الذي خلا من النقطة التي في وسط الدائرة التي ترمز لانسان العين في الكتابة السينائية المبكرة.

اما نقش بيت شمس أو «بيت الشمس» فقد نقش علي وجهي شقفة فخار ايضا ويتكون من خمسة اسطر علي وجه الشقفة (شكل ١٥أ) ومن اربعة اسطر علي ظهرها (شكل ١٥ب). ويلاحظ ان نظام الكتابة علي وجه الشقفة يتبع الطريقة المعروفة بالطريقة الحلزونية فالسطر الاول يقرأ من اليسار الي اليمين والثاني من اليمين الي اليسار والثالث من اليسار الي اليمين (شكل ١٥ أ)، وهي الطريقة المتبعة في بعض النقوش السينائية المبكرة، كما ذكرنا وان كانت الحروف في هذه

النقوش تكتب ايضا من أعلي الي اسفل ومن اسفل لاعلي (شكل ٨). اما ظهر الشقفة فتقرأ سطوره كلها من اليمين الي اليسار باستثناء السطر الاول فيقرأ من اليسار (شكل ١٥ب) (Jensen 1958, p. 279 and fig. 234) .

وفي هذه المجموعة ايضا تظهر بداية احدي الخصائص التي ميزت الكتابة الفينيقية فيما بعد وهي الفواصل الرأسية بين الكلمات، وكان ظهورها في هذه المرحلة علي هيئة نقط رأسية وذلك في نقش يعرف بنقش ابريق لكيش (شكل ١٦) ويرجع لاواخر القرن الرابع عشر أو اوائل الثالث عشر ق.م. (Naveh 1987, p. 35 & fig. 28) .

أما المجموعة الثالثة فترجع للقرن الثاني عشر قبل الميلاد وفيها يختفي الشكل الصوري تماما من الحروف وتتحول الفواصل من نقط رأسية الي خطوط عمودية وتتضح هذه الخصائص في نقش يعرف بنقش قبور الولايدة (الواقعة شمال غرب بئر سبع في جنوب فلسطين) (شكل ١٧) (Naveh, op. cit. p. 38 & fig. 30) ويتمثل اختفاء الشكل الصوري في هذا النقش في تحول شكل رأس الثور الي ما يشبه المثلث واختفاء النقطة التي تمثل انسان العين من وسط الدائرة التي تمثل حرف العين (وان كانت هذه الظاهرة ترجع الي احد نقوش المجموعة الثانية كما ذكرنا).

ولكن رغم هذه التطورات الهامة نحو خصائص الكتابة الفينيقية، فمازال اتجاه الكتابة مخالف لاتجاه الكتابة الفينيقية، فالنقش يقرأ من اليسار الي اليمين بينما تتجه الكتابة الفينيقية من اليمين الي اليسار.

من كل ماتقدم يتبين ان الشكل الخطي للحروف الابجدية ظهر في فلسطين متطورا عن المراحل الاخيرة للابجدية الكنعانية المبكرة (التي تطورت بدورها عن السينائية المبكرة) أي ان الابجدية ذات الشكل الخطي كانت قد اكتملت قبل انتقالها الي الفينيقيين فيما عدا خاصية واحدة هي اتجاه الكتابة الذي كان من عدة اتجاهات. غير انه بحلول القرن الحادي عشر قبل الميلاد، استقرت الكتابة الكنعانية في آخر مراحل تطورها علي اتجاه واحد هو من اليمين الي اليسار، وكان ذلك ايذانا بظهور الابجدية الفينيقية.

الابجدية الفينيقية وخصائصها

ان هذه الخصائص كما يتضح من الدراسة السابقة هي اتخاذ الحروف الشكل الخطيLinear البحت بعد اختفاء الشكل الصوري تماما، واقتصار اتجاه السطور علي اتجاه واحد هو من اليمين

الي اليسار والفصل بين الكلمات بخطوط عمودية.

واقدم النقوش التي ظهرت فيها هذه الخصائص والتي وجدت علي الارض الفينيقية نفسها، هو نقش تابوت الملك «احيرام» الذي يرجع الي حوالي عام ١٠٠٠ق.م. (شكل ١٨) (Naveh 1987, p. 53) .

والظاهرة التي تلاحظ علي حروف هذا النقش ان اشكالها لاتمت بصلة الي اسمائها (التي وصلتنا عن طريق العبرية واليونانية اللتين اشتقت حروفهما من الفينيقية) وانما ترتبط بالاشكال الاولي لهذه الحروف في السينائية المبكرة (وليس في الكنعانية المبكرة لابتعاد بعض حروفها عن الشكل الصوري كما ذكرنا سابقا)، ولتوضيح هذه الظاهرة رسمنا فوق الحرف شكله كما ظهر في السينائية المبكرة، فحرف الالف اسمه في السينائية «الف» بمعني ثور أو رأس ثور، بينما لايدل شكله في الفينيقية كما هو موضح علي هذا المعني، وحرف الباء اسمه في الفينيقية «بيت» بينما لايدل شكل الحرف في الفينيقية علي ذلك، وكذلك حروف النون (نحش بمعني ثعبان) وحرف الراء (راش بمعني رأس) وحرف اللام (لامد بمعني لجام او مقود الثور)، فهذه الاسماء كلها تدل عليها اشكال هذه الحروف في السينائية المبكرة والمرسومة فوقها.

مراحل اشتقاق الابجديات الاخري في شرق البحر المتوسط

استكمالا لحلقات التطور عن الابجدية الاولي وانتشارها في شرق البحر المتوسط، فمن المناسب تتبع مراحل هذا التطور، وهناك رأيان في هذا الموضوع أولهما أن الابجدية الكنعانية المبكرة (التي يسميها اصحاب هذا الرأي «الابجدية السامية الشمالية») اشتقت منها في الشام -بالاضافة الي الفينيقية- ابجديتان اخريان هما الارامية والعبرية المبكرة (وهي غير العبرية المتأخرة المسماة بالخط المربع) (Jensen 1958, p. 286) والرأي الثاني ان الارامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الفينيقية (Naveh op.cit.p. 53) .

وسواء صح هذا الرأي أو ذاك، فالثابت ان هناك تشابها كبيرا بين حروف الابجديات الثلاث قد يرجع الي الاصل المشترك لها كما يري الفريق الاول او الي اشتقاق العبرية والارامية من الفينيقية كما يري الفريق الثاني.

غير ان الثابت ان حروف العبرية المبكرة بدأت تأخذ شكلها المميز منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وأول نقش تظهر فيه خصائصها المميزة هو نقش «ميشع» ملك موآب (Naveh

. op.cit. p. 65)

أما الارامية فقد بدأت حروفها تأخذ شكلها المميز ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م.، وظهرت هذه الخصائص في نقوش علي قوالب من الطين وجدت في اطلال مدينة حماة (Naveh .op.cit. p. 78 and fig. 74)

وحوالي القرن السادس قبل الميلاد، اختلفت حروف كل من الابجديات الثلاث (الفينيقية والارامية والعبرية المبكرة) عن بعضها كما يتضح من الجدول (شكل ١٩) (Naveh op.cit. fig. . 87)

وقد تميزت من هذه الابجديات الثلاث، الابجدية الارامية باشتقاق العديد من الابجديات منها، بينما توقفت الفينيقية عن التطور فما عدا انتقالها الي بلاد اليونان واشتقاق الابجدية اليونانية منها. كذلك اندثرت العبرية المبكرة وحلت محلها بعد السبي البابلي ابجدية اخري اشتقت من الارامية هي العبرية المتأخرة او ماتسمي بالخط المربع. واقدم نقش معروف من هذه الابجدية هو المعروف بنقش عراق الامير وهو اسم منطقة تقع علي بعد خمسة وعشرين كيلومترا الي الشمال الشرقي من نقطة التقاء نهر الاردن بالبحر الميت، ويرجع هذا النقش الي حوالي عام ١٨٠ ق.م. .(Jensen 1958, p. 305)

ومن الارامية ايضا تفرعت عدة ابجديات أخري هي التدمرية (أو البلميرية Palmyrene) والسريانية والنبطية، ومن هذه الاخيرة اشتقت الابجدية العربية أو الخط العربي.

أما التدمرية والتي تنسب الي مملكة «تدمر» او بلميرا Palmyra التي ازدهرت خلال القرن الثالث الميلادي، ثم سقطت في يد الرومان عام ٢٧٢ق.م. - فأقدم نقش تدمري يرجع الي عام ٩ ق.م. وقد دون علي شاهد قبر شخص يدعي «ع د ن ت ن» بن «ك هـ ي ل و» (Jensen op. cit., p. 315) . وتتميز الكتابة التدمرية بظهور الاربطة وان كانت قليلة في اول الامر وذلك في نقش يرجع الي عام ٢٧١ م علي تمثال للملكة «بت زباي» (المسماة زنوبيا عند الرومان) (Jensen, . op. cit., p. 316 and fig. 281)

أما الابجدية السريانية، فقد ظهرت بوضوح فيما بين القرنين الاول والثاني الميلاديين، واقدم نقش سرياني معروف ورد علي شاهد قبر ملكة تدعي «صدان» ويرجع الي القرن الاول الميلادي (Jensen, op. cit. p. 318 & fig. 281) وحروف هذا النقش مفردة فلم تظهر الاربطة في الحروف

السريانية إلا في القرن الرابع الميلادي وذلك في نقش وجد في مجاورات منطقة الرها (Jensen, op. cit., p. 318 and fig. 286).

وبالنسبة للابجدية النبطية التي تنسب الي الانباط الذين ازدهرت دولتهم في البتراء (شمال شرق خليج العقبة بحوالي ١٤٠ كيلو مترا) خلال القرنين الثاني والاول قبل الميلاد والاول الميلادي، والذي امتد نفوذها جنوبا فشمل الحجاز -بالنسبة لهذه الابجدية، فقد اشتقت من الابجدية الارامية، ويمكن تتبع الاصل الارامي لها في نقش وجد في منطقة حوران (جبل الدروز) يرجع الي القرن الاول قبل الميلاد (شكل ٢٠) (Jensen, op. cit., p. 323 and fig. 292). ويلاحظ ان الاربطة التي ستصبح من مميزات الخط النبطي (ثم الخط العربي الذي اشتق منه) لم تظهر بعد كما يبدو من هذا النقش.

وقد اكتمل الخط النبطي بكل مميزاته في اواخر القرن الاول قبل الميلاد فغلبت الاربطة علي حروفه كما يتضح من نقش علي احد اضرحة مدائن صالح (شكل ٢١) (Jensen, op. cit., p. 323 and fig. 294).

والجدول الموضح في شكل ٢٢ يوضح تطور الخطين التدمري والنبطي من الخط الارامي مع مقارنة بين الحروف النبطية والحروف العربية (رمزي بعلبكي، الكتابة العربية، ١٩٨١ ص ١٦٨ شكل ٤١).

ومن الخط النبطي اشتق الخط العربي كما هو معروف، ولكن هناك رأيان بشأن مكان هذا الاشتقاق، أي مكان نشأة الخط العربي، احدهما رأي قديم تبناه المستشرقون ومؤداه ان هذا الخط نشأ في منطقة حوران في جنوب شرق سوريا حيث وجد النقش النبطي المعروف بنقش «النمارة»، وأن هذا الخط انتقل الي شمال الشام ومنه الي الحيرة التي انتقل الخط العربي المبكر منها الي مكة ويثرب في عصور ماقبل الاسلام. أما الرأي الثاني فيتبناه الباحثون العرب ومؤداه ان الخط العربي نشأ من الخط النبطي في الحجاز حيث يوجد نقش نبطي في منطقة مدائن صالح يعرف باسم نقش «رقوش بنت عبد مناة» وهو اسم صاحبة هذا النقش وقد اتضحت في هذا النقش الخصائص المبكرة للخط العربي، ومن مدائن صالح انتقل هذا الخط الي يثرب ومكة رأسا فكان اصل الخط العربي الذي ظهر في صدر الاسلام ومنهما انتقل الي الكوفة بعد تأسيسها. وقد ناقشنا هذين الرأيين في دراسة سابقة ورجحنا الرأي الثاني (عبد المنعم عبد الحليم، البحر الاحمر وظهيره ١٩٩٣ ص ٢٣٦-٢٤٥).

واخيرا، لايتبقي في موضوع انتشار الابجدية الاولي في شرق البحر المتوسط الا موضوع واحد هو انتشار الابجدية الفينيقية في بلاد الاغريق واشتقاق الابجدية اليونانية منها (شكل ٢٣) حيث ان الابجدية اليونانية كما هو معروف هي اصل الابجدية اللاتينية وبالتالي سائر الابجديات الاوروبية، ولكن لما كان هذا الموضوع يدخل في نطاق الدرسات اليونانية الرومانية، فانه يخرج عن مجال تخصص كاتب هذا البحث، ويمكن لمن يريد الالمام به الرجوع الي المراجع التالية:

1 - Diringer 1947, p. 450 ff.

2 - Jensen 1958, p. 449 ff.

3 - Naveh 1948, p. 175 ff.

المراجع العربية

- رمزي بعلبكي، الكتابة العربية والسامية، بيروت، ١٩٨١.

- عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الاحمر وظهيره في العصور القديمة، الاسكندرية، ١٩٩٣.

المراجع الاجنبية:

ملاحظة اتبع في الاشارات لهذه المراجع النظام المعروف بنظام هارفارد Harvard Reference System ويتلخص في الاشارة الي المرجع في صلب البحث باسم المؤلف وسنة الطبع ورقم الصفحة فقط. ويمتاز هذا النظام بأنه يوفر المساحة الكبيرة التي تشغلها بيانات المراجع في النظام التقليدي المعروف، فضلا عن تركيز انتباه القارئ في متابعة البحث وعدم تشتيت هذا الانتباه لمتابعة الاشارات للمراجع في اسفل الصفحات او في نهاية البحث كما هو الحال في النظام التقليدي.

- Albright, W.F.

 1948, "The early Alphabetic inscriptions from Sinai and their decipherment", Bull. American Schools of Oriental Research, No. 110.

 1969, "The Proto-Sinaitic inscriptions and their decipherment", London.

- Aldred, Cyril,

 1956, Middle Kingdom art in Ancient Egypt, London.

- J. Cerny, A. Gardiner and E. Peet,

 1955, The inscriptions of Sinai, 2 Vols. London.

- Cross, M.F.,

 1967, "The origin and early evolution of the Alphabet", Erez.

- Diringer, David,

 1947, the Alphabet, a key to the history of Mankind, London.

- Gardiner, A.

1916, "The Egyptian origin of the Semitic Alphabet", Journ. Egypt. Arch., vol.3.

1962, "Once again the Proto-Sinaitic inscriptions" Journ. Egypt. Arch., vol.48.

- Hassan, Selim.

1949, The Sphinx, its history in the light of recent excavations Cairo.

- Jensen, Hans,

1958, Sign, Symbol and script, 3rd. ed. Transl. from the German by G. Unwin, London.

- Lucas, A.,

1945, Ancient Egyptian materials and industries, London.

- Naveh, J.,

1987, The early history of the Alphabet, London.

- Petrie, W.M.F.,

1906, Researches in Sinai, London.

- Sauren, Herbert,

1992, "Une Lance pour l'Alphabet, Le Poignard de Lachis" Le Muséon, Tome 105, Fasc.3-4, Louvain.

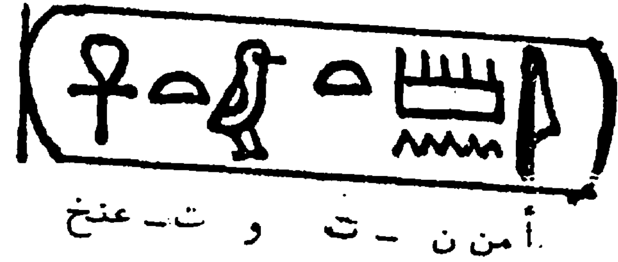
أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد

قسم التاريخ - كلية الآداب

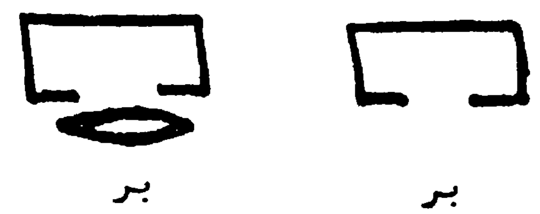
جامعة الاسكندرية

العلامة	الدلالة التصويرية	الدلالة الصوتية بالعربية	الدلالة الصوتية بالاوربية	العلامة	الدلالة التصويرية	الدلالة الصوتية بالعربية	الدلالة الصوتية بالاوربية
	عقاب	أ ، ا	ꜣ		قصبة مزهرة	إ ، ء ، ي	i
	ساعد	ع	ʿ		فرخ سمان	و	w
	ساق	ب	b		مقعد	پ	p
	حية ذات قرنين	ف	f		بومة	م	m
	موجة ماء	ن	n		فم	ر	r
	فناء دار	هـ	h		ضفيرة من الكتان	ح	ḥ
	مشيم "السيدة"	خ	ḫ		بطن حيوان ثديي وذنبه	غ	ẖ
	مزلج (ترباس الباب)	ز	z		منديل مطوى	س	s
	حوض ماء	ش	š		جانب الكثيب (= التومن الرملي)	ق	ḳ
	سلة ذات أذن	ك	k		حمالة زير	ج	g
	رغيف خبز	ت	t		عقال للدواب	ث	ṯ
	يد	د	d		ثعبان	چ	ḏ

(شكل ١) الابجدية المصرية الهيروغليفية وقد اشتقت بعض حروفها بالطريقة الاكروفونية مثل حرف «غ» واصله «غت» بمعنى «بطن» (وشكل الحرف يمثل بطن حيوان) وكذلك حرف «ج» واصله «جن» بمعنى قاعدة اناء (أو حمالة زير) (والشكل نفسه يمثل قاعدة اناء). وقد نقل الساميون سكان سيناء هذه الطريقة عن المصريين واستخدموها فى ابتكار ابجديتهم (السينائية المبكرة) التى اقتبسوها من العلامات الهيروغليفية المصرية. (الرسم من كتاب قواعد اللغة المصرية للدكتور عبد المحسن بكير، القاهرة ١٩٧٧، ص ٥).



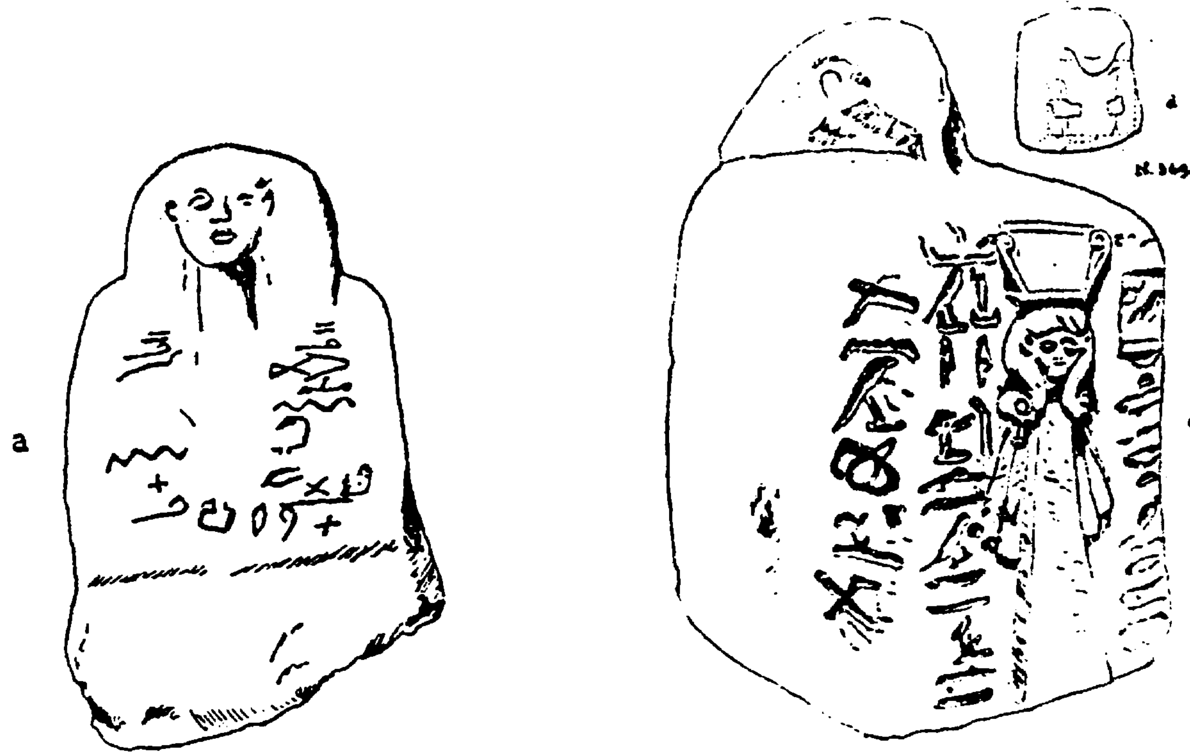
(شكل ٢) خرطوش (اسم) الملك «توت - عنخ - آمون» وهو مثال لتوضيح كيفية الجمع بين الحروف الابجدية (الالف والنون والتاء والواو) وبين العلامات المقطعية الثنائية (من) والثلاثية (عنخ).



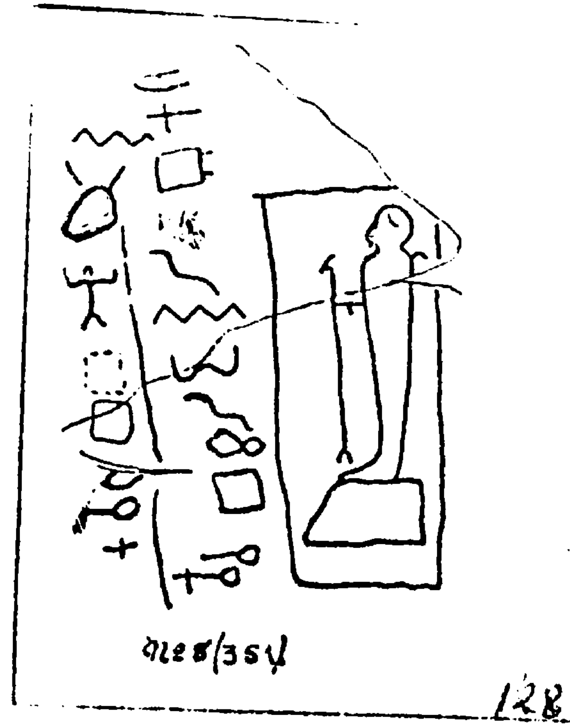
(شكل ٣) العلامة المقطعية الدالة على المنزل وتنطق « بر » رغم اضافة حرف الراء الابجدى.



(شكل ٤) تمثال ابو الهول المؤنث وقد دونت عليه كتابتان احداهما هيروغليفية والاخرى سينائية مبكرة (السطر السفلى) وهى ترجمة للنص الهيروغليفى. ومن الواضح ان احد الساميين كرس التمثال لكل من الالهة المصرية «حتحور» والالهة الساميه «عشتارت» لان ترجمة النص الهيروغليفى «محبوب حتحور ربة الفيروز» والنص السينائى يقرأ «ماه بعلت» اى «محبوب بعلت» وبعلت كان لقبا للالهة السامية «عشتارت» التى عبدها الساميون فى سيناء كمرادفة للالهة المصرية حتحور التى كانت الالهة الحامية لمناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم (عند المصريين). وقد مكنت العبارة المصرية وترجمتها السينائية المبكرة العالم «جاردنر» من حل رموز الكتابة السينائية المبكرة.



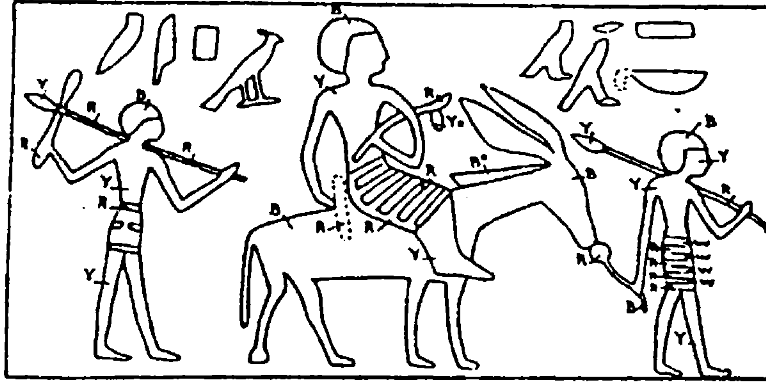
(شكل ٥ أ ، ب) تمثالان على هيئة «الشخص القابع» وجدا فى معبد سيرابيط الخادم وهو طراز مألوف فى التماثيل المصرية القديمة. والتمثال الذى الى اليمين كرس للالهة حتحور ربة الفيروز كما يدل على ذلك النص الهيروغليفى المحفور على واجهته. اما الذى الى اليسار، فقد كرس للالهة «عشتارت» السامية كما يدل على ذلك النص السينائى على واجهة التمثال (السطر السفلى) ويقرأ «ع ل ن ع م ت ل ب ع ل ت» وترجمتها «من أجل نعمة من بعلت».



(شكل ٦) نقش كان محفورا فوق مدخل احد مناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم ويظهر فيه رسم للاله بتاح المصرى وقد عبده الساميون السينائيون فى صورة الههم المسمى «ذو جنتى» وكان اله معصرة العنب عندهم. والنص السينائي المدون يسجل الاهداء المألوف للالهة «بعلت» (السطر الايسر).

وهذا النقش والنقوش الاخرى المذكورة سابقا (شكل ٤ ، ٥) المدونة على آثار مصرية الطابع تؤكد اتباع الساميين فى سيناء للعبادات والعادات الدينية المصرية.

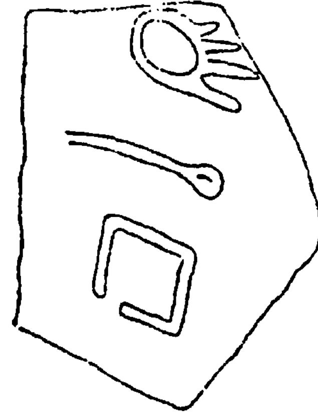




(شكل ٧ أ ، ب) فى الصورة العليا، الساميون - سكان سيناء بملامحهم المميزة كما صورهم المصريون على الآثار المصرية (على جدران مزار مقبرة الامير خنوم - حتب فى بنى حسن بالمنيا من عصر الاسرة الثانية عشرة)، ويتميزون باطلاق لحاهم وبارديتهم الطويلة المزركشة، وهم بذلك يختلفون عن المصريين الذين صوروا امامهم بالهيئة المصرية المألوفة (حلق اللحية والنقبة).

وفى الصور السفلى يظهر هؤلاء الساميون فى رسوم معبد سيرابيط الخادم بسيناء وقد حلقوا لحاهم وارتدوا النقبة المصرية القصيرة، اى اتبعوا العادات المصرية الدنيوية، وباتباعهم هذه العادات والعادات الدينية المصرية ايضا (كما يتضح من الاشكال السابقة ٤ ، ٥ ، ٦) تغلغلت الحضارة المصرية فى ثقافتهم وكان فى مقدمتها الكتابة المصرية الهيروغليفية التى اشتق هؤلاء الساميون ابجديتهم منها فكانت اقدم ابجدية فى التاريخ.

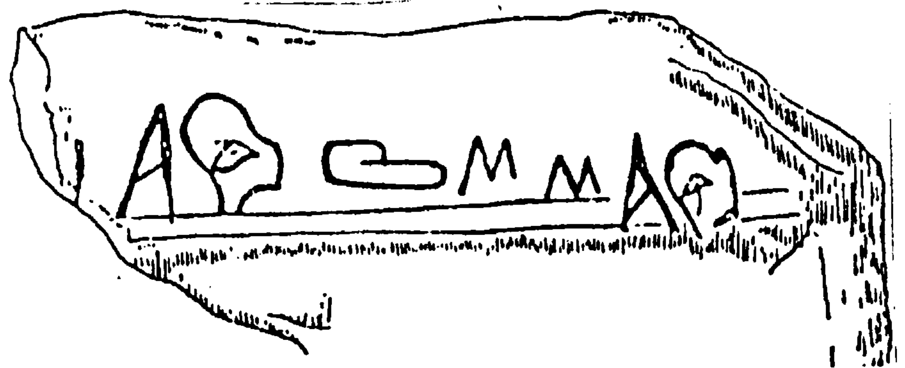
(شكل ٨) النقش السينائي المبكر فى وادى نصب المجاور لاسم الفرعون آمون – محات الثالث وهو مكتوب بالطريقة الحلزونية فالسطر الاول يقرأ من اعلى الى اسفل «ادا» والثانى من اسفل الى اعلى «ربى حوت» والثالث من اعلى الى اسفل «ويعقب» (يعقوب).



(شكل ٩) نقش شقفة جازر وتقرأ حروفه من اعلى لاسفل «ك ل ب» وربما ينطق «كالب» وهو اسم شخص (من المجموعة الاولى من النقوش الكنعانية المبكرة).



(شكل ١٠) نقش نصل خنجر لكيش (تل الدوير) والحروف عليه تقرأ من اعلى الى اسفل «ط ر ن ز» وهو من اسماء الاشخاص عند شعب الحوريين (من المجموعة الاولى من النقوش الكنعانية المبكرة).



(شكل ١١) نقش رقعة شكيم (تل بلاطة) والحروف الظاهرة منه تقرأ من اليسار الى اليمين «أ ر غ م أ ر» وهو من المجموعة الاولى من النقوش الكنعانية المبكرة.

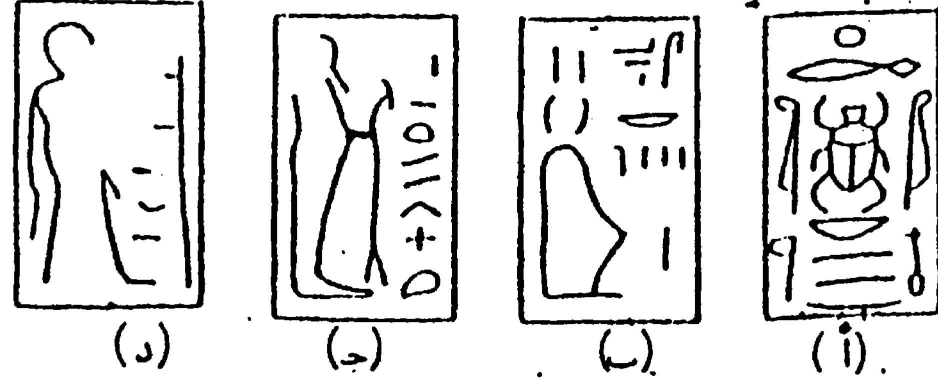
(شكل ١٢) مراحل اشتقاق حروف الابجدية الكنعانية المبكرة

(ثم الكنعانية المتأخرة) من الابجدية السينائية المبكرة.

	رقم مسلسل	الحرف	الابجدية السينائية المبكرة	الكنعانية المبكرة	المتأخرة	الاسماء المبكرة للحروف	معانى هذه الاسماء
×	١	أ		(16th)	(13th)	ʾalp-	ox-head
	٢	ب		(17th)	(13th)	bêt-	house
	٣	ج		(15th)	(12th)	gaml-	throw-stick
	٤	د			(10th)	digg-	fish
	٥	ذ		?		?	?
	٦	هـ			(10th)	hô(?)	man calling
	٧	و			(10th)	wô(waw)	mace
	٨	ز	?	(16th)	(10th)	zê(n-)	?
	٩	ح		(12th)	(10th)	ḥê(t-)	fence (?)
	١٠	خ		?		ḫa( )	hank of yarn
	١١	ط	?	(16th)	(10th)	ṭê(t-)	spindle?
×	١٢	ى		(13th)	(10th)	yad-	arm
	١٣	ك		(7th)	(13th)	kapp-	palm
	١٤	ل		(14th)	(13th)	lamd-	ox-goad
×	١٥	م		(16th)	(13th)	mêm-	water
×	١٦	ن		(16th)	(12th)	nohš-	snake
	١٧	سَ	?		(10th)	(šamk-?)	?
×	١٨	ع		(12th)	(10th)	ʿên-	eye
	١٩	غ		(16th)		ġa( )	?
	٢٠	ف			(10th)	piʾt-(?)	corner?
	٢١	ص			(10th)	ṣa(d-)	plant
	٢٢	ض	?	?		?	?
	٢٣	ق		(14th)	(10th)	qu(p-)	?
	٢٤	ر		(16th-14th)		naʾš-	head of man
	٢٥	ش		(13th)	(10th)	ṯann-	composite bow
	٢٦	س		?		?	?
	٢٧	ت	+	+	× (13th)	tâ(tav)	owner's mark

ملاحظة : هذه القائمة مقتبسة من القائمة المنشورة فى كتاب Albright 1969, fig.1 مع تعديل تواريخ الحروف الكنعانية المبكرة ارقام ١ ، ١٥ ، ١٦ الى القرن السادس عشر ق.م. طبقا لاحدث الدراسات المنشورة فى Naveh 1987, p. 26-27

× هذه العلامة تشير الى الحروف التى تباعدت اشكالها الكنعانية المبكرة عن الصورة الاصلية للحرف الظاهرة فى السينائية المبكرة.



(شكل ١٣)

ختم على شكل منشور وجد فى تل الدوير بفلسطين، وعلى احد اوجهه (أ) اسم الفرعون امنحتب الثانى الذى عاش حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد، على وجه آخر (جـ) كتابة بروتوسينائية، ووجود الكتابة البروتوسينائية الى جانب الكتابة الهيروغليفية، ورسم الشخص الواقف على نمط الشكل المرسوم على اللوحة البروتوسينائية الموضحة فى شكل (٤)، بالاضافة الى وجود هذا الختم فى الشام، يدل على انتقال الكتابة البروتوسينائية الى الشام منذ عصر مبكر قبل معرفة الفينيقيين للحروف الابجدية.

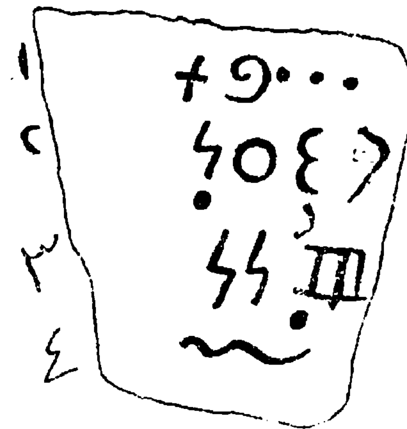
(شكل ١٤) نقش تل الحصى ويقرأ من اليمين الى اليسار « ب ل ع »

(من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة).



(شكل ١٥ أ) نقش وجه شقفة بيت شمس بفلسطين وقد كتب بالطريقة الحلزونية فالسطر الاول يقرأ من اليسار الى اليمين « ل ع ز أ ح ت (ت)» وترجمته « من اجل عزاء حتات» والسطر الثانى يقرأ من اليمين الى اليسار «(ش؟) م ز م هـ ر ا» وترجمته «(شـ) مزا مهرا» والسطر الثالث من اليسار الى اليمين «ا ب ى ن ح» والسطر الرابع به حرف «م» فقط ويكمل السطر الثالث وترجمتها «ابى ناحوم» والسطر الخامس يقرأ من اليمين الى اليسار «ش ف (ط)» وترجمته «شافـ(ط)».

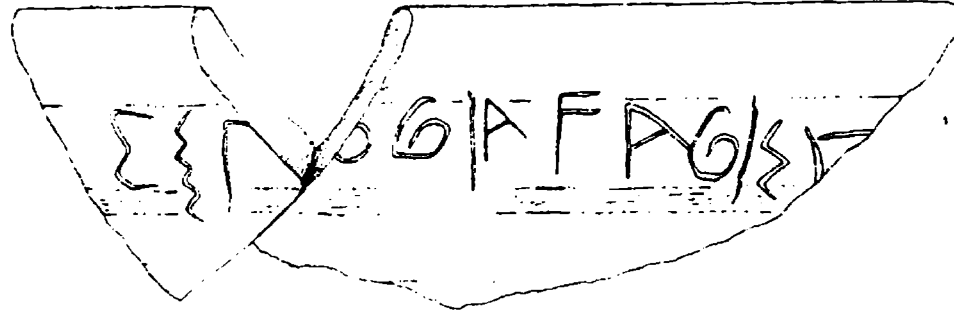
(من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة).



(شكل ١٥ ب) نقش ظهر شقفة بيت شمس ويقرأ بالطريقة الحلزونية ايضا فالسطر الاول يقرأ من اليمين الى اليسار «ل ت» والسطر الثانى يقرأ من اليسار الى اليمين «ن ع م /و» وترجمة السطرين «اعط نعمة و» والسطر الثالث يقرأ من اليمين الى اليسار «ح ن ن » والرابع به حرف واحد هو «م» وترجمة السطرين «وحنانهم»

(من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة).

(شكل ١٦) نقش ابريق لكيش الذى ينتمى الى المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة ويتميز بظهور خاصية ستستمر فى الكتابة الفينيقية فيما بعد وهى الفواصل بين الكلمات وقد اتخذت فى اول الامر شكل نقط رأسية والنقش يقرأ من اليسار «م ت ن / ش ى (ل ر ب) ت ى أ ل ت» وترجمته «متان، قربان لسيدتى ايلات».



(شكل ١٧) نقش اناء منطقة قبور الولايدة (فى جنوب فلسطين) الذى ينتمى الى المجموعة الثالثة من النقوش الكنعانية المبكرة ويتميز باختفاء الصفة الصورية من الحروف وبظهور الفواصل بينها على هيئة خط مستمر والنقش يقرأ من اليسار «ش م ب ع ل / أ ى ا ل / ش ١٠» وترجمته «شمى بعل أبا – ايل ١٠ شيكل»

القراءة: ارن / ذ ب ع ل ت / ب ع ل / ب ن أ ح ر م / م ل ك ج ب ل / ل أ ح ر م /

الترجمة: (هذا) التابوت (عمله) بعل بن احيرام ملك جبيل (ببلوص) لاحيرام

أ ب هـ / ك ش ت هـ / ب ع ل م /

ابيــه فليرقد للابــد

(شكل ١٨) نقش تابوت «احيرام» ملك بيلوص الذى يعتبر اقدم نقش وجد على الارض الفلسطينية وتتمثل فيه خصائص الكتابة الفينيقية التى ميزتها طوال العصور وهى اكتمال الصفة الخطية والاتجاه الافقى من اليمين الى اليسار والفواصل بين الكلمات التى على شكل خطوط رأسية.

وقد وضحت فوق بعض الحروف اصولها الصورية كما ظهرت بوضوح فى الكتابة السينائية المبكرة والتى ظلت اسماؤها مرتبطة بالحروف الفينيقية رغم زوال الشكل الاصلى للحرف نتيجة لاختصاره وابتعاده تماما عن شكله السينائي.

أ ب ج د هـ و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت

الارامية [1]

العبرية المبكرة [2]

الفينيقية [3]

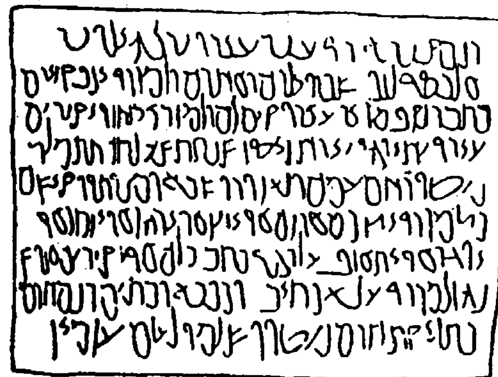
(شكل ١٩) اختلاف حروف الابجديتين العبرية المبكرة والارامية عن الفينيقية فى القرن ٦ ق.م

(شكل ٢٠) النقش الارامى فى حوران الذى يرجع الى القرن الاول قبل الميلاد وفيه يمكن تتبع الاصل الارامى لاشكال الحروف النبطية. ويلاحظ ان الاربطة التى ستصبح من خصائص الخط النبطى لم تظهر بعد فى هذا النقش.

وفيما يلى قراءة وترجمة للنقش كلمة كلمة طبقا لكلمات النقش:

القراءة : ن ب ش هـ د ى ح م ر ت د ى ب ن هـ ل هـ ا د ى ن ت ب ع ل هـ

الترجمة : قبر (او شاهد قبر) ل حمرة الذى بناه لها اذينــة سيدها



(شكل ٢١) نقش نبطى محفور على الواجهة الصخرية لاحد اضرحة مدائن صالح (الحجر المذكورة فى القرآن الكريم) وهو نموذج للنقوش العديدة التى من هذا النوع فى مدائن صالح.

والنقش مؤرخ بما يعادل العام الاول قبل الميلاد، ويتميز بغلبة الاربطة بين حروف كلماته والنقش يقرأ من اليمين الى اليسار.

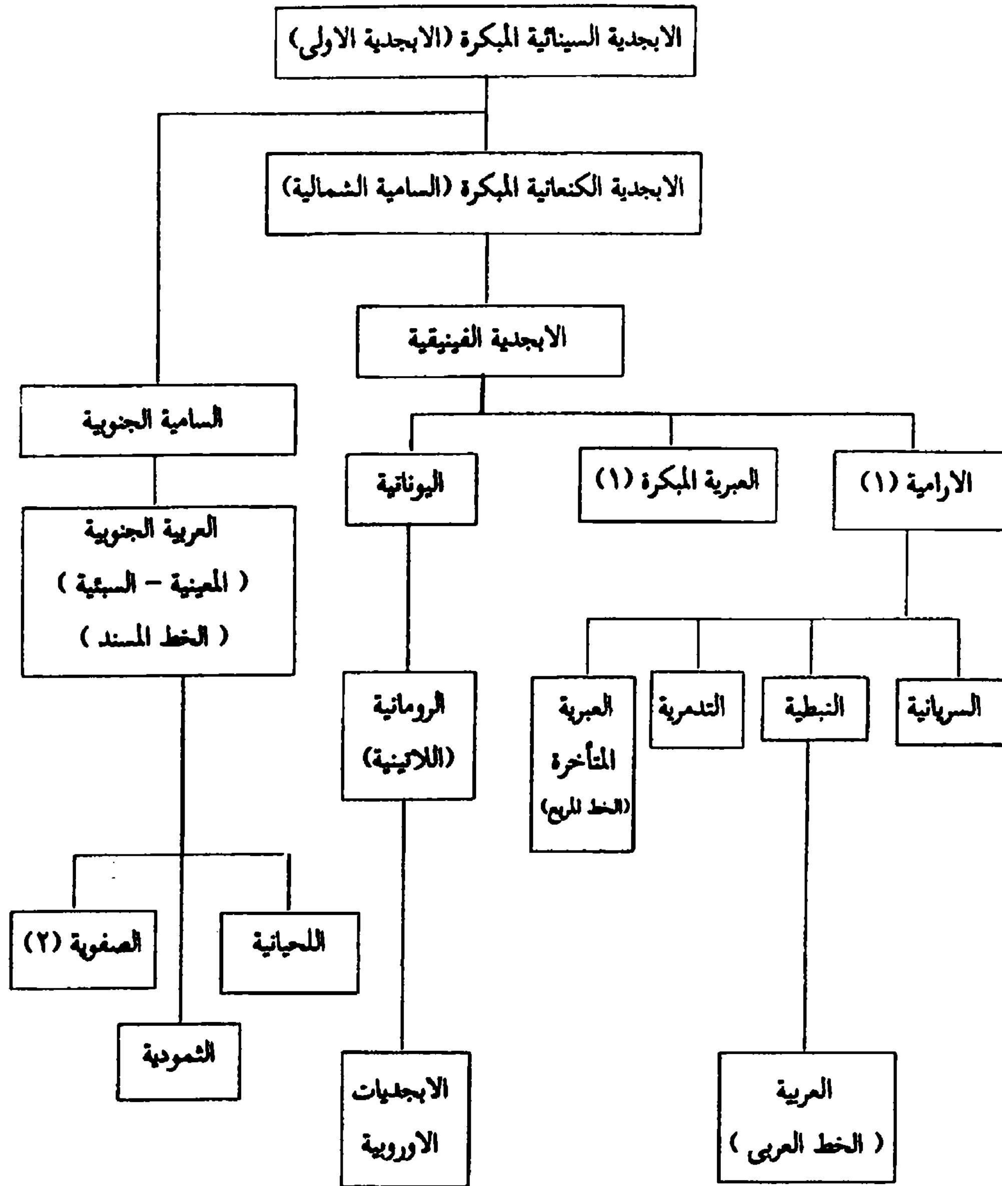
وفيما يلى قراءة وترجمة للسطر الاول من النقش الذى تم تكبيره والفصل بين كلماته لتيسير متابعة اشكال الحروف والاربطة.

القراءة : دنـه قبرا دى عبـد عبـدو بـر كهيلـو بـر

الترجمة : هذا القبـر الذى شيد (ه) عابد بن كهيل بن

الصوت	آرامي (القرن الثامن)	آرامي (القرن السادس)	تدمري	نبطي	نبطي	عربي قديم	كوفي
أ '	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب b	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج g	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د d	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
هـ h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و w	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز z	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ح h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط t	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ى y	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك k	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ل l	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م m	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن n	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س s	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ع '	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
پ/ف p	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص s	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ق q	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ر r	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش š	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت t	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

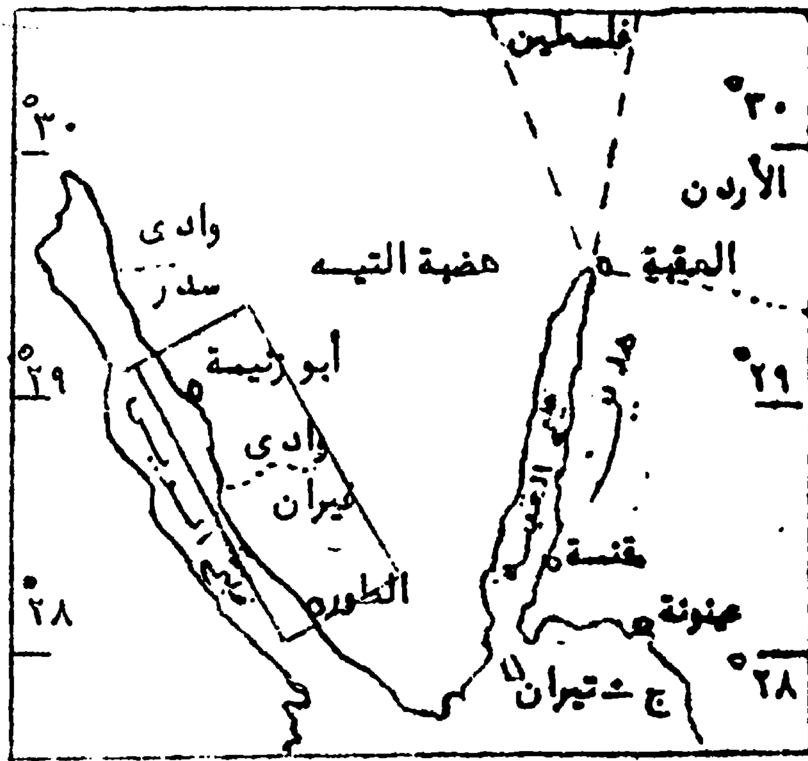
(شكل ٢٢) قائمة تطور الابجدية الارامية في القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد واشتقاق الابجديتين التدمرية والنبطية خلال القرون المسيحية الاولى، ثم تطور النبطية فى مرحلتين متعاقبتين واشتقاق الابجدية العربية القديمة (او المبكرة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين) حتى اشتقاق الابجدية الكوفية او الخط الكوفى منها فى صدر الاسلام.



(١) هناك رأى ساد فيما مضى مؤداه ان الابجديتين الارامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الابجدية السامية الشمالية مباشرة وليس من الفينيقية (Jensen 1958,p. 286) ولكن الرأى الموضح هنا هو الاحدث (Naveh 1987, p. 53)) .

(٢) تجمع الابجديات الثلاث (اللحيانية والثمودية والصفوية) احيانا تحت مسمى واحد هو «الابجديات العربية الشمالية».

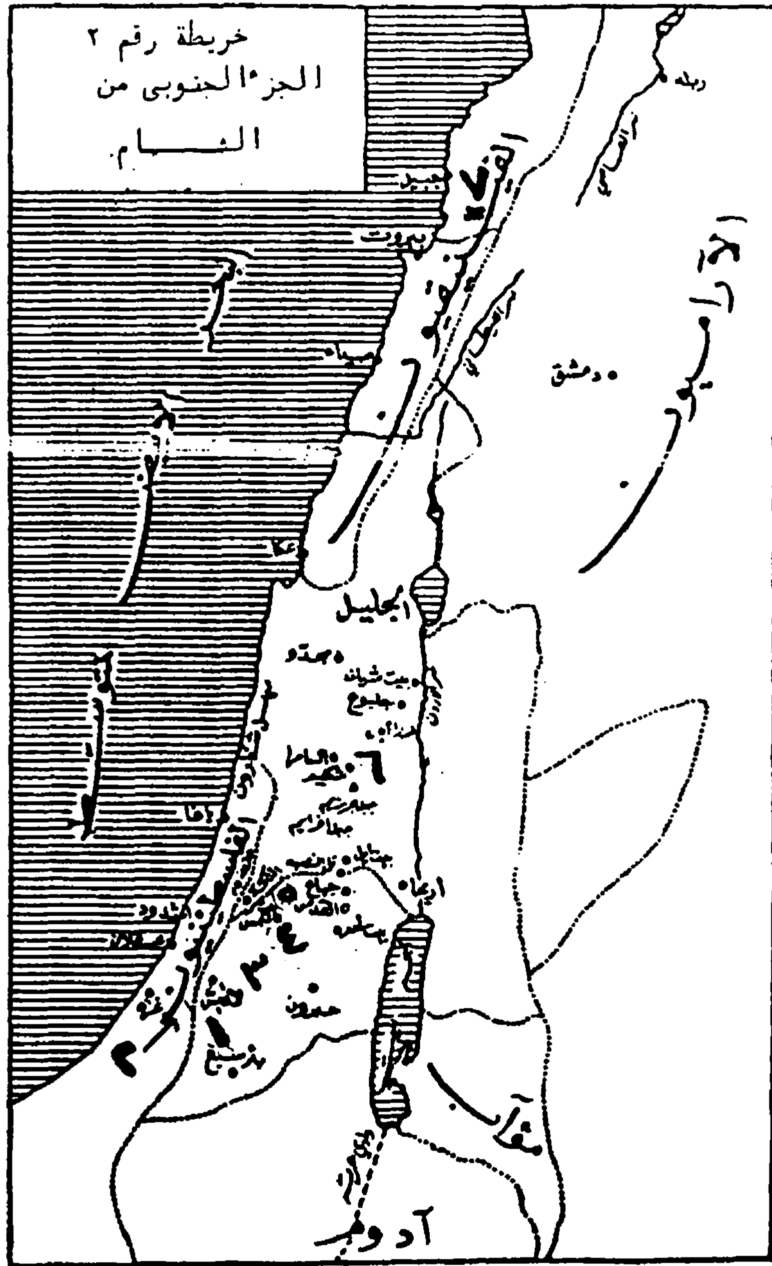
(شكل ٢٣) شجرة الابجديات القديمة والحديثة التى تفرعت فى شرق البحر المتوسط (والجزيرة العربية) من الابجدية الاولى (او الابجدية الام).



(خريطة رقم ١) شبه جزيرة سيناء

(المستطيل يوضح المنطقة التى رسمت لها الخريطة التفصيلية التالية)





لتوضيح مناطق انتشار الابجدية الكنعانية المبكرة ومناطق الابجديات التى تفرعت عنها وهى من الجنوب الى الشمال :

١ - قبور الولايدة
٢ - تل الحصى
٣ - لكيش (تل الدوير)
٤ - بيت شمس (أو الشمس)
٥ - تل جازر
٦ - شكيم (تل بلاطة)
٧ - جبيل أو بيلوص

خريطة رقم ٢
الجزء الجنوبي من
الشام

لتوضيح مناطق انتشار الابجدية الكنعانية المبكرة ومناطق الابجديات التى تفرعت عنها وهى من الجنوب الى الشمال :

١ - قبور الولايدة
٢ - تل الحصى
٣ - لكيش (تل الدوير)
٤ - بيت شمس (أو الشمس)
٥ - تل جازر
٦ - شكيم (تل بلاطة)
٧ - جبيل أو بيلوص

العلاقات الاقتصادية بين الاسكندرية والبندقية
فى سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م)

د. فاروق عثمان أباظه
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

تعتبر مدينتا الاسكندرية والبندقية (فينسيا) فى مقدمة المدن الواقعة على طريق التجارة العالمية بين جنوبى وشمالى حوض البحر المتوسط التى تأثرت ايجابا أو سلبا ، باستمرار تدفق تيار هذه التجارة طوال العصور الوسطى ، أو تعرضه للتوقف على نحو ما حدث فى مطلع العصور الحديثة ، عقب اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى المباشر الموصل بين غرب أوربا والمحيط الهندى خارج نطاق الطريق البحرى القديم . وكان لهذا التحول أبلغ التأثير على النشاط الاقتصادى والحركة التجارية فى مدينتى الاسكندرية والبندقية وخاصة فى سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) عندما انتقلت السلطة فى مصر من أيدى المماليك الى أيدى الأتراك العثمانيين ، الذين وقع على عاتقهم ايجاد الحلول الممكنة لمواجهة هذا الموقف الصعب الذى كانت تعانى منه الاسكندرية ومصر كلها بوجه خاص ، بل والمشرق العربى كله بوجه عام . وكان حجم تلك التجارة العابرة كبير ، وسلعها متعددة ومتنوعة ، وعوائدها كثيرة ومجزية ، والعاملون عليها أعداد كبيرة فى مختلف المجالات ، ومن مختلف العناصر والاجناس، مما يظهر مدى أهميتها لشعوب كثيرة فى مقدمتها سكان مدينتى الاسكندرية والبندقية ، باعتبارهما محطتين هامتين لهذه التجارة ، ومركزين أساسيين فى استقبالها وتسويقها.

والاسكندرية كما هو معروف من أعرق وأقدم مدن العالم ، وجاء القرار الذى اتخذه الاسكندر الأكبر فى عام ٣٣١ ق . م . ببناء هذه المدينة عند موقع « راقودة » فى الشمال الغربى لدلتا وادى النيل العظيم وعلى ساحل مصر الشمالى الغربى المطل

على البحر المتوسط ، ليس فقط نابعا من فكرة مثالية استهوت الاسكندر عند رؤيتة لهذا الموقع الفريد ، وانما فكرة امتزجت فيها المثالية بالنفعية في آن واحد . حيث كان هذا القائد الفاتح يبحث عن عاصمة لمملكته المصرية الجديدة ، تكون على اتصال بمقدونيا ، ولهذا ينبغي أن تكون هذه العاصمة في مدينة ساحلية تطل على البحر المتوسط الذى يربط مصر بأوربا ، وتختص بموقع جميل وجو مثالى تتوفر فيه المياه العذبة والمحاجر الجيرية ، فضلا عن مدخل سهل الى النيل . واكتسبت الاسكندرية شهرتها من جامعتها العريقة ومكتبتها التي تعتبر أول معهد أبحاث حقيقي في التاريخ بحيث أصبحت هذه المدينة قبلة الباحثين [١] . وظلت الاسكندرية قرابة ألف عام أى منذ انشائها حتى الفتح العربى عاصمة لمصر ، حتى اتخذ العرب من مدينة الفسطاط عاصمة للبلاد ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقى للاسكندرية دورها الحضارى المؤثر ، ليس فقط فى تاريخ مصر العام ، وانما فى تاريخ حوض البحر المتوسط بأكمله ، وساعدها حينذاك موقعها المتميز على أداء هذا الدور، كما مكنتها امكانياتها الاقتصادية على مواصلة القيام بدورها بكفاءة واقتدار ، طوال العصور الوسطى وحتى مطلع العصور الحديثة .

أما مدينة البندقية فقد تأسست فى القرن الخامس الميلادى على شواطىء الادرياتى الشمالية ، وأسسها بعض سكان أوربا الفارين أمام غارات الهون أثناء اكتساحهم لوسط القارة الأوربية وشمال شرقى ايطاليا . وأصبحت مدينة البندقية فى القرن الحادى عشر الميلادى تتكون من مائة وسبع عشرة جزيرة تربطها ببعضها الجسور والقناطر ، وأصبح لها أسطول تجارى وحربى ضخم ، وكما اهتمت (جنوة) بتجارة غربى البحر المتوسط اهتمت البندقية بالتجارة الشرقية ، تشاركها فى هذا

1) Mostafa El - Abbadi , The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria , (UNESCO , 1990) , P. 8 .

(جنوة) و (بيزا) . وكان للبندقية مدرستها الفنية الممتازة فى الرسم والتصوير الخاصة بها .

وبدت جمهورية البندقية منذ القرن الحادى عشر الميلادى جمهورية ارستقراطية تركزت السلطة والحكومة فيها فى يد فئة من السكان حرصت على المحافظة على حقوقها حيث تميزت البنية السكانية بنمو الطبقة الوسطى البرجوازية على عكس ما كانت عليه البنية السكانية فى معظم أوربا التى خضعت للنمط الاقطاعى ، بل ان هذه المدينة احتفظت بدستورها الجمهورى قرابة سبعمائة عام من العصور الوسطى ، واستطاعت البندقية اثناءها وهى (ملكة الادرياتى) كما كان يطلق عليها ، أن تشيد عظمتها وقوتها المادية والاقتصادية على التجارة ، وتمتعت بنفوذ عظيم فى حوض البحر المتوسط ، ولها محطاتها التجارية منبثة على شواطئه ، وكانت لها علاقات تجارية ومالية قوية بوسط أوربا حيث تقوم بتسويق تجارتها فى هذا النطاق ، كما توطد فيها نظام البنوك ، وكانت لها علاقاتها المتينة مع مصر وشرقى البحر المتوسط ومع العالم الاسلامى تركزت على تجارة الشرقين الاقصى والادنى ، وكانت مركز اتصال حضارى بعيد المدى بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى الاوربى .

وكان دستور جمهورية البندقية فريدا فى نوعه ، حيث « كانت جمهورية البندقية مثلا لسلطان الجمهورية الرومانية وعظمتها » ، واستطاع دستور هذه المدينه أن يحافظ على سلامها وأمنها الداخلى وأن يرفع ذكرها فى العالم . فهو دستور استطاع فى ظله كل فرد أن يؤدى عمله بنجاح ، فهو دستور نظمت فيه السلطات ، وكانت فيه كل هيئة أو سلطة رقيبة قوية على الاخرى ، ويتكون دستور البندقية من مجلس كبير (٤٨٠ عضوا) من الاشراف ، وينتخب أعضاؤه لمدة عام واحد ، وهذا المجلس هو حاكم البلاد الفعلى ، وبيده السلطة التشريعية ، وله حق

مناقشة أمور الدولة والبلاد ، كما له الحق فى اختيار رجالات الدولة جميعهم من رئيس الدوله وهو (الدوج Doge) الى أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس العشرة والموظفين المدنيين . وبعد انشاء المجلس الكبير ، انشىء مجلس صغير ومحكمة الأربعين ، كما انشئت هيئة سياسية هدفها تحديد سلطة الحاكم ، ووضع أساس مجلس الشيوخ البندقى الذى أخذ شكله النهائى فى القرن الثالث عشر وأصبح عدد أعضائه حوالى ثلاثمائة شخص . ومجلس الشيوخ هو أساس الاطمئنان والاستقرار فى جمهورية البندقية ، فهو يتولى أمور الاشراف على الادارة والضرائب والأمور المالية بصفة عامة ، كما له حق توجيه السياسة الخارجية ، وأما (الدوج) فهو رئيس الجمهورية ورمز الدولة ويرأس جميع المجالس . وقد عاشت جمهورية البندقية ما يزيد على سبعمائة عام ، ولم يزعزع قوتها الا تحول طريق التجارة العالمية عنها وعن حوض البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح عبر المحيط الاطلنطى فى نهاية القرن الخامس عشر على أيدى البرتغاليين (١) .

وكانت التجارة العالمية الآتيه من بلاد الشرق الى أسواق أوربا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحا خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها فى موانى التصدير الآسيوية والافريقية المطلة على المحيط الهندى. وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل الى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانى الأوربية التى تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا . وكانت مدينتا الاسكندرية والبندقية بحكم موقعهما المتميز تشكلان محطتين هامتين على هذا الطريق . وكانت هذه السلع متعددة ومتنوعة ويتشكل قوامها من البخور والعطور والتوابل (٢) ، التى عرفت تجارتها باسم تجارة

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ ، ص ٤ ــ ٥ .

(٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ص ١٩٢ .

الكارم [١] ، والعقاقير ، والبن ، والاقمشة الحريرية ، والسجاجيد ، والعاج ، والأحجار الكريمه، والأخشاب النادرة التى يصنع منها أرقى أنواع الأثاث الفاخر والتحف الثمينة. فالتوابل كان فى مقدمتها القرفه والجنزبيل والفلفل وجوز الطيب، واستخدمت فى اعداد ألوان الطعام وحفظ اللحوم، وأصبح علية القوم من الأوربيين لا يقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية [٢] ، كما أقبلت النساء الأوربيات على المسك والعنبر وماء الورد وأنواع العطور والبخور والمنسوجات الحريرية الراقية ، وكانت تشاركهم فى ذلك أيضا الكنائس فى أوربا ، أما العقاقير المتعددة الأنواع مثل الأفيون والكافور والصمغ وغيرها ، فكان الأوربيون يستخدمونها فى اعداد الدواء ويكتبون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيدا لجودتها [٣] .

وكان البن من أهم السلع الشرقية التى انفردت بلاد اليمن فى العصور الوسطى بانتاجه ، وأقبل عليه الأوربيون اقبالا متزايدا . حتى كان هذا المحصول فى القرون التالية موضع تنافس حاد بين الشركات الاحتكارية الأوربية الهولندية (١٥٩٤) والانجليزية (١٦٠٠) والفرنسية (١٦٦٤) ، وبين شركة الهند الشرقية الانجليزية بوجه خاص وطلائع التجار الأمريكيين الذين حاولوا احتكاره فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مما جعل بريطانيا تعمل على كسر احتكار الأمريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمنى الى ميناء عدن الذى قامت باحتلاله فى ١٩ يناير ١٨٣٩ [٤] .

---

(١) توفيق اسكندر (دكتور) : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٦١ ، ص ١٤٠ .

(٢) Howe , Sonia , In Quest of Spices , PP . 13 . 14 .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٤) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأولى من القرن التاسع عشر ، ندوة « البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة » التى أقامها سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٧٧ .

أما بالنسبة لتجارة الأقمشة الحريرية فقد عرفت فى ديار الشام ومصر منذ القرن الأول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد . وكان الحرير هو المادة الرئيسية فى التجارة بين العالم الرومانى والصين ، اذ كان الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها ، وكان يصل الى موانى صور وصيدا وانطاكية والاسكندرية، وفى الموانى الفينيقية كان يعالج بالأصباغ المختلفة ، وأشهرها الأرجوان ، وعندها يصبح لباس الأباطرة ، وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكان الحجاج البنادقة والجنويين وغيرهم يعودون من الأراضى المقدسة فى فلسطين حاملين معهم النسائج الحريرية التى كان الطلب يتكاثر عليها من قبل مراكب البندقية حيث ينشط طلبها من الشرق نشاطا ملحوظا (١) .

وكانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية فى بلاد الشرق التى يطل معظمها على المحيط الهندى حتى تصل الى الأسواق الأوربية ، وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير فى طريقين أولهما : طريق البحر الأحمر الى السويس ثم الى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن فى فرع رشيد الى قرب مدينة الرحمانية ، ومن هناك الى الاسكندرية اما بالملاحة فى ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية أو على ظهر الدواب (٢) . وثانيهما : طريق الخليج العربى ونهر الفرات ، ثم الى حلب ومنها الى الموانى الواقعة شرقى البحر المتوسط . والى موانى مصر والشام كانت تأتى سفن البنادقة والجنويين وغيرهم فتنقل سلع التجارة الى أوربا ، ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام فى نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كان الطريقان فى قبضتهم ، وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة من

(١) نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت، السنة السادسة ، العددان ٧١ ، ٧٢ ، أكتوبر ١٩٨٤، ص ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

الضرائب [illegible] التى كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالأراضى المصرية والشامية [illegible] احتكارهم الكثير من سلعها المختلفة [1]

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدأ ملوك ارغونه يحرصون على اقامة علاقات ودية قوية مع سلاطين المماليك فى مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكيى الشرق وفتح أسواق جديدة لأرغونه فى مصر . وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية فى علاقات الأوربيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى بحيث كان لكل من البندقية وجنوه وأرغونه تجارة نامية مع مصر ، وساعدتهم علاقاتهم الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين فى أراضى الدولة المملوكية آنذاك [2] .

وكانت مدينة الاسكندرية تحظى بأهميه بالغة على طريق التجارة الدولية عبر مصر وعالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . فقد كانت بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة فى اتصالها بأوربا مباشرة . وكانت المدينة تزدحم طوال العام بالأجانب الوافدين اليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة فى سيناء وفلسطين [3]. وكان لدول أوربا وعالم البحر المتوسط بصفة خاصة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق بالاسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصه فى حرية ، وكان السلاطين المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى بعد دفع رسم سنوى للسلطان . ومن أشهر الفنادق التى كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق أهالى مدينه ناربون ، وفندق البنادقة ، وفندق القطالونيين [4] . وكانت الاسكندرية قد خلفت مدينة دمياط

---

(١) Wilson , A. T., The Persion Gulf , PP . 10 , 13 .

(٢) قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٣) ابن اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٤) Heyd , W. : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age T. 2., PP. 434 , 435 .

كميناء مصر الأول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه، لذا لم يعد فى استطاعه السفن الأوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء [1] .

ولهذا شهدت مدينة الاسكندرية نشاطا تجاريا ملحوظا من النصف الثانى من القرن الخامس عشر وخاصه بعد عام ١٤٥٣ حتى أن ايرادات الحكومة المملوكية كان معظمها من جمرك الاسكندرية التى كانت تتراوح يوميا ما بين ألف و ألفى دينار عدا رسوم السفن والسياح والحجاج . والمدينة لا تقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنوه ومرسيليا ، ولها عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا ، ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقيا ، وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الأول . والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء (أبو قير) عند بحيرة تعرف باسم (رأس المعدية) ويتصل الميناء بقناه تصل للبحيرة ويبعد ميناء (أبو قير) حوالى ثمانية أميال شرقى الاسكندرية ويعد مرفأ للسفن السورية القادمة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة ، أما السفن الكبيرة فتتصل به من البحر بواسطه القوارب [2] .

وكانت الاسكندرية ترتبط فى نشاطها البحرى بحركة الملاحة فى الموانى الأخرى سواء بالبحر المتوسط أو البحر الأحمر ، خصوصا ما كان منها يشكل المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر كميناء الطور فى خليج السويس الذى كان المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين بسيناء ، وللحجاج المسلمين المتوجهين أو العائدين من زيارة الحرمين الشريفين بالحجاز . اذ كان الحجاج المسيحيون يهتمون خاصه بمواعيد وصول سفن التجار الى الطور ، نظرا

(١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .
(٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

لأن البندقية كانت تضع توقيتا لسفنها التجارية بالاسكندرية يتفق مع حساب فرق الوقت والتوزيع عن الطور للقاهرة ثم للاسكندرية ، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوربا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوربا على سفن البندقية التى تنتظر المتاجر فى الاسكندرية [١] .

وتجدر الاشارة الى أن مدينة الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة محطة أساسية لهم[٢] حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة ولهذا فانهم أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التى يجلبونها من الهند والشرق الاقصى وموانى شبه الجزيرة العربية والموانى الواقعة فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط . كما كون المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية فى الاسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم فى بيئتها الحضارية فى العصور الوسطى[٣] والحديثة . وينطبق اهتمام المغاربة بالاسكندرية على موانى مصر الاخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط ، او تلك الواقعة على البحر الأحمر مثل السويس والقصير . بل انهم ربطوا هذه الموانى عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانى التجارية العربية الاخرى والموانى الأوربية التى كان لهم فيها وكالات تجارية ، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانى [٤].

وتجدر الاشارة كذلك الى الجاليات الاجنبية الأخرى التى كان لها نشاطا تجاريا ملحوظا فى الموانى المصرية المطلة على البحر المتوسط والتى لقيت عناية كبيرة من قبل المماليك فى نهاية العصور الوسطى والعثمانيين فى العصور الحديثة وخاصه مدينة الاسكندرية . فقد أنشأت السلطات المملوكية على نفقتها فنادق خصصتها

(١) Hammer , J., Histoire de L'Empire Ottomane , T. 5, PP. 301 - 302.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٥٨ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٥٨ .

للتجار الاجانب وكانت الاسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات أجنبية مختلفة أولاها وأهمها جالية البنادقة ، ولهم فندقان . على حين كان فندق واحد لكل من أهل جنوه ، وبيزا ، وفلورنسا وانكونا ، وبالرمو ، وكان لأهل نابلى فندق بالاشتراك مع آخرين من الايطاليين . أما الفرنجة فكان لهم فنادق خاصة بهم ، ولا سيما أهل مرسيليا وناربون وقطالونيه وراجوزة ، ورغم أن جزيرة كانديا كانت احدى مستعمرات البندقية الا انه وجد لها فندق خاص . وكان لمملكة قبرص قبل غزوة بطرس لوزينان، وليونان الاسكندرية فندق ، وللاتراك فندق ، وكذلك فندق لكل من المغاربة ، والتتار، والمعروف أن التتار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للتجارة فيهم ولذا كان فندقهم عبارة عن سوق للرقيق [1] .

وحرصت السلطات المملوكية كذلك على رعاية الشئون الروحية للجاليات الاجنبية فسمح لهذه الجاليات ببناء الكنائس فى نطاق الفنادق المشار اليها ، فكان لكل فندق كنيسة ، ولكل جالية قساوستها ، بينما كان للجاليات الكبرى كنائس كبرى مثل كنيسة القديس نيقولا لاهل بيزا ، وكنيسة القديسة مارياك للجنويين ، وكنيسة القديس مشيل للبنادقة [2]. وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه فى عهد العثمانيين فى العصور الحديثة .

وكانت سفن البنادقة والجنويين تنقل المتاجر من مصر والشام الى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت سفن البنادقه بصفة خاصة تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية [3]، حيث تعرض فى سوق « ريالتو Rialto » هناك ، لتباع فى المزاد العلنى للتجار الالمان والانجليز وغيرهم . وكان سوق « ريالتو » الكبير

(١) ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٢) Heyd W · Op . Cit ., P. 433 .

(٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) المرجع السابق ، ص ٥٠

فى البندقية من أشهر الاسواق التجارية فى حوض البحر المتوسط ، حيث كانت المتاجر الشرقية توضع فى عربات وتزحف بها من هذا السوق متجهه الى أنحاء أوربا عن طريق سهل لومبارديا وممرات جبال الألب ، وطريق الراين ، لتصل اخيرا الى تجار التجزئة فى شتى البلاد الأوربية ليتلقفها المستهلكون هناك [١]. واستطاعت جمهورية البندقية أن توطد علاقتها مع سلاطين المماليك ـ الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز ـ وان تحتكر معظم المتاجر الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الأحمر أو الواردة الى موانى الشام عن طريق الخليج العربى والعراق [٢] .

وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر ، وعينت لكل منها الموانىء التى يتردد عليها . واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون فى استطاعة قناصلها ووكلائها فى موانى البحر المتوسط امداد السفن بما تحتاج اليه من قطع غيار ذات طراز واحد . وجنت البندقية أرباحا خيالية من نقل التجارة الشرقيه الى أوربا ومن تصريفها هناك . وأصبح الالتحاق بالبحرية مطمحا ترنو اليه أنظار الشباب أهل البندقية الذين رأوا فى البحرية المجال الطبيعى للمال والشهرة والمجد .

ولقيت البندقية منافسه شديدة من جمهورية جنوه فى ميادين التجارة الشرقية ، وتطورت هذه المنافسة التجارية الى صراع سياسى حاد لعب فيه البحر المتوسط دورا حاسما . وتراءت لهاتين الجمهوريتين الضرورة السياسية فى اخضاع البحر المتوسط أو على الأقل الجزء الهام منه بالنسبة لنشاطهما ـ ليسطره أى منهما . وكانت نتيجة ذلك أن طالبت البندقية بتقرير سيادتها على البحر الادرياتيكى ، كما ادعت جنوه بحق السيادة على بحر ليجوريا . وقد قبلت أوربا بادعاءات هاتين الجمهوريتين

(١) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، حـ ١ ، ط ٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، ص ٦٠ .

لحاجتها الملحة الى التجارة الشرقية وبخاصة التوابل والعطور والعقاقير ، وبذلك ظهرت في تاريخ العلاقات السياسية الدولية لأول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار [١]. ولم يقف التنافس السياسى بين البندقية وجنوه عند هذا الحد ، بل قام بينهما صراع حربى بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالى جنوه فى معركة « كيوجا Chioggia » وعلى أثرها عقد صلح « تورينو » سنة ١٣٨١م . ولكن جنوه راحت تفكر فى وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها ، وذلك بايجاد طريق بحرى متصل تأتى منه السلع الشرقية الى أوربا [٢]، وهذا سيفسر التقارب الذى تم بينهم وبين البرتغاليين فى مطلع العصور الحديثة .

وتجدر الاشارة كذلك الى دور فلورنسا فى النشاط التجارى مع مصر والشام . خاصة وأن أسرة « ميدتشى » الحاكمة فى فلورنسا فى نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات المملوكية [٣]. أما بالنسبة لأهالى فرنسا وأسبانيا فقد كانوا يحصلون على حاجتهم من المتاجر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنويين [٤].

ونظرا لاشتغال البنادقة بالحجم الأكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتى النقل أو التسويق فقد شكلوا أكبر جالية فى مدينة الاسكندرية فى نهاية العصور الوسطى ، كما كان لهم حى خاص . وكان يشرف على مصالحهم قنصل معين

---

(١) حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . حـ ١ ، ط ٣ ، ص ١٠٩ .

(٣) نعيم فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، اشار الى الامتيازات التجارية التى منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنتيين (أهالى فلورنسا) فى مصر والشام فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٤٣٩ ـ ٤٨١ .

(٤) نعيم زكى فهمى (دكتور) : نفس المرجع ، ص ٢٠ .

من قبل جمهورية البندقية . وكان حى البنادقة بالاسكندرية يضم فندقين وحماما ومخبزا وكنيسة ، كما كانت حكومة المماليك قد أعفتهم من عدة ضرائب وسمحت لهم بالتجارة فى اللآلىء والاحجار الكريمة والفراء . ولهذا لم يتردد البنادقة فى جلب كل ما تحتاج اليه مصر من السلع الخارجية ، حتى الادوات الحربية التى حرمت البابوية التجارة فيها ، كالاسلحة والحديد والأخشاب والرقيق والكبريت والقار وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت ، وذلك رغم تشدد البابوات وتكليفهم فرسان الاسبتارية والداوية بمراقبة البحار ومنع وصول هذه المواد الى المسلمين (1). وقد زادت نسبة اهتمام البنادقة بالتجارة الشرقية بعد فتح الاتراك العثمانيين لمدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣ م حين أضحت التجارة فى البلقان وموانى البحر الاسود صعبة ومحفوفة بالمخاطر ، ولذلك وجه البنادقة عنايتهم الى حوض البحر المتوسط الشرقى ، ونشطت أعمالهم التجارية فى موانيه ومدنه كالاسكندرية وبيروت وحلب ودمشق (2). وكانت قوافل البندقية التجارية البحرية تصل الى مصر مرتين فى كل عام فى الخريف والشتاء . وكانت تتكون القافله فى العادة ما بين ثمان سفن وثلاث عشرة سفينه . وتقدر حمولتها بمليونى بندقى على أقل تقدير . ولهذا تمتع البنادقة بالمكانه الاولى بين الجاليات الأوربية فى الاسكندرية طوال العصر المملوكى فى نهاية العصور الوسطى وأثناء العهد العثمانى فى مطلع العصور الحديثة (3).

وتجدر الاشارة الى أن العملة الأجنبية كانت متداوله فى اسواق الاسكندرية فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . ومن أمثلة هذه العملة عملة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، وقد اشار الى الاتفاقيات التى عقدها البنادقة مع السلطات المملوكية فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، ص ٣٧٣ ـ ٤٨٠ .

(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

البندقية والتى تعرف باسم «دوكات Ducat» نسبه الى دوك ـ وهو «الدوق Doge» .
وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجه فى فرنسا وايطاليا والاراضى المنخفضه المسماه الافرنتيه ، جمع أفرنتى ، وهى التى تعرف « بالفلورين Florino » وان عرفت العمله الاجنبيه بوجه عام باسم « مشخصة » ، وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجه المنقوشه على وجهيها [1].

وبعد أن تمكن البرتغاليون من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ م . فقد أخذت التجاره الشرقيه التى كانت تصل من المحيط الهندى ـ الذى كان أشبه بوعاء العسل بما فيه من خيرات ـ تتحول الى طريق رأس الرجاء الصالح ، بحيث لم تعد الاسكندرية المركز الرئيسى الذى تتجمع فيه السلع الشرقية ، فيشتريها البنادقة وغيرهم . ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون فى منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندى بعد حركة الكشوف فلم تعد هناك حاجة الى وساطة الاسكندرية أو البندقية تلك الوساطة التى أدت الى ارتفاع أثمانها فى الأسواق الأوربية . اذ كان ثمن قنطار الفلفل على سبيل المثال يتراوح بين ٢٫٥ و ٣ بندقيا فى قاليقوط ، ويصبح ثمنه بعد وصوله الى الاسكندرية ٨٠ بندقيا ، على حين صار يباع فى لشبونه البرتغالية بعد الكشوف الجغرافية بسعر يتراوح بين (٢٠) و (٤٠) بندقيا ، أى أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير . كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الأوربى مشقة الحصول على السلع الشرقية حتى من لشبونه التى أصبحت مركزا لتجميع هذه السلع وتسويقها ، اذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة الى مناطق الاستهلاك مثل انجلترا والأراضى المنخفضة وغيرها من الدول الأوربية [2].

---

(١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، ص ٢٧ .

(٢) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

وهكذا ذبلت مدينة الاسكندرية وغيرها من ثغور الدولة المملوكة فى مصر والشام والحجاز واقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار الأوربيون نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين . ويقول ابن اياس عن مدينة الاسكندرية فى حوادث سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤م) عندما زارها السلطان الغورى أنها أصبحت : « فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض . فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال . فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل ، ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح » [(١)].

وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية فى مدينة الاسكندرية وفى مصر كلها فى نهاية عهد الدولة المملوكة لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينة ، وانما جاء نتيجة أسباب وعوامل عدة تضافرت لتهز قواعد الدولة هزا عنيفا ، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها [(٢)]، وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ من أبرز عوامل التدهور الاقتصادى وفى نهايتها من ناحية التوقيت الزمنى مما جعل هذا الحدث الهام أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير .

ولا شك أن البنادقة بوجه خاص قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة عن مصر وعالم البحر المتوسط الى رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين فى سنة ١٤٩٨ ، والذى أدى الى فقدانهم لمصدر هام من مصادر ثروتهم الناتجة عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك لهذا فان البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين

---

(١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، ص ٨٨ .

وتحركات سفنهم ، ويحاولون من جانبهم اقناع سفراء ملوك الهند فى لشبونه بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية بدون مساعدة مالية من البندقية . كما حرص البنادقة على تكوين تحالف مع المماليك لمواجهة النشاط التجارى البرتغالى الذى سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحول التجارة العالمية اليه . ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة الى بلاط السلطان المملوكى قونصوه الغورى ، وأشهرها سفارة « باندتو سانوتو Benedetto Sanuto » الى الغورى فى سنة ١٥٠٣م ، وأشار هذا السفير على السلطان الغورى أن يبعث برسله الى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين وقفل موانيهم فى وجه السفن البرتغاليه . كذلك طلب السفير من الغورى أن يعمل على تخفيض الأثمان الباهظة التى تباع بها التوابل فى الاسكندرية حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم فى الأسواق الأوربية [١].

غير أن السلطان الغورى رأى أن يبعث برسالة الى بعض الدول الأوربية ، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند ، وهدد باتخاذ اجراءات عنيفه ضد المسيحيين فى بلاده ، ولا سيما بالقدس . بل إنه هدد كذلك بقفل الأماكن المقدسة ، وقام بحمل هذه الرسالة راهب أسبانى فرانسسكانى فى بيت المقدس اسمه الأخ « مورو Mouro » ، وكلفه الغورى بالمرور فى طريقة بالبندقيه ، فقصد هذا الراهب الى روما حيث التقى بالبابا يوليوس الثانى فى ربيع عام ١٥٠٤ واحسن البابا لقاءه ووعده بالكتابه الى ملك البرتغال لوقف ارسال الحملات الحربية الى الهند وقد اتم هذا الراهب جولته فى بلاط كل من اسبانيا والبرتغال دون أن تحقق مهمته الدبلوماسيه أى جدوى . وعندما زاد احساس البندقية بخطورة الموقف ، ارسلت سفارة دبلوماسيه أخرى الى الغورى فى سنة ١٥٠٤ ، وتركزت مهمتها حول

---

(١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظرا لاطراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوربا بالمنتجات الشرقية ، لدرجة أن قام حزب كبير فى البندقية يطالب الحكومة بالشراء من لشبونه وليس من الاسكندرية . ولذا اقترحت من جديد سفارة عام ١٥٠٤ ، أن يغرق السلطان الغورى الأسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال ، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين ، ثم انها اقترحت كذلك شق قناة فى برزخ السويس ، ونظرا لأنها اهملت موالاة المشروع ، فقد ترك دون تنفيذ [١] .

وقد اتجه السلطان قونصوه الغورى الى مواجهة النشاط البرتغالى بالقوة عندما اصدر أمره فى سبتمبر سنة ١٥٠٥ باعداد حملة حربية بقيادة الأمير حسين الكردى نائب جده . وتكونت من خمسين سفينة من نوع « الأغربه » وتحركت الحمله من القاهرة وسارت فى النيل عن طريق القناة (خليج أمير المؤمنين) فى شرق الدلتا الى البحيرات المرة الى السويس ومنها الى ينبع فجده ، ثم غادرت جده واستولت فى طريقها على سواكن عام ١٥٠٦ .

غير أنه يهمنا أن نشير فى هذا الصدد الى أن الغورى قد أرسل سفيره الترجمان تغرى بردى الأسبانى بنداء الى أوربا فى أبريل سنة ١٥٠٦ ، واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهرا ، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك ، وأصطحب منها من ارشده الى رودس حيث استقبله الرئيس « امرى دامبواز Aimery D'Amboise » ثم خرج تغرى بردى من رودس الى البندقية حيث وقع اتفاقية تجارية جديدة معها . ولم تحقق هذه السفارة كسابقتها أى جدوى كما حدث مع سفارة الراهب مورو من قبل ، وعاد تغرى الى مصر فى سبتمبر عام ١٥٠٧ [٢] .

---

(١) Charles , Roux . J . L'Isthme et le Canal de Suez . T. I., P. 45 .

(٢) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

وعندما يئست البندقية من مقدرة المماليك على التغلب على البرتغاليين واستعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم ، فأنها لجأت الى التعاون مع الصفويين علهم ينجحون فيما فشل المماليك فى تحقيقه ، مما أدى الى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية . اذ حدث ان قبض السلطان الغورى على بعض البنادقة ومعهم خطابا من الشاه اسماعيل الصفوى للاستعانه بدولة أوربية للقيام بهجوم بحرى على سواحل مصر ، على حين يقوم الصفوى بمهاجمتها برا ، ولم يذكر ابن اياس اسم هذه الدولة . ولكن المصادر الأوربية اشارت الى أن هذه الدولة هى جمهورية البندقية . وهذا ما جعل السلطان الغورى يقبض على قنصل البندقية فى دمشق ، وجيء به مكبلا الى القاهرة ، كما قبض على زملائه الآخرين فى طرابلس والاسكندرية ، وحقق معهم ، وحينئذ لم يسع الغورى الا أن ينفذ ما سبق أن هدد به وهو قفل الاماكن المقدسة فى القدس ، فقبض على جميع مسيحيى القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها فى يناير سنة ١٥١١ ، وفى نفس الوقت علم بخيانة الترجمان تغرى بردى ، اذ كاتب الدول الأوربية بضعف المماليك الحربى وعدم تحصين السواحل المصرية التحصين الكافى فقبض عليه فى مارس ١٥١١ [١].

وقد توالت احتجاجات الدول الأوربية على تصرف الغورى ، وجاءت الى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا فى مارس سنة ١٥١٢ ، وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجارى مع مصر واطلاق حرية التجارة فى موانى مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الاماكن المقدسة كالمعتاد ، ووعدت السفارة بمساعدة فرنسا ضد بلاد البرتغال ، غير أن السفير الفرنسى لم ينجح الا فى اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين . ولما انتشرت أنباء السفاره ، أسرعت البندقية وأوفدت بعثة دبلوماسية على رأسها «دومينكو تريفزانى Domenico Trevisani » واستطاع هذا

(١) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغورى فى مايو سنة ١٥١٢م ، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محدد فى لين وسلامة مع شىء من العناد والصلابة يحمل على الأعجاب . وكان يظاهر البعثة بعض قطع من الاسطول التجارى البندقى الذى مر بكريت وقبرص والاسكندرية ، فسر السلطان الغورى مما اظهره البنادقة ، أصدقاؤه القدماء ، من اخلاص ، ونجحت مهمة السفير فى اطلاق سراح المسجونين، وأعيدت الصداقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية ، وتعهد البنادقة بتزويد المماليك بالاسلحة والأخشاب لمواصلة نضالهم ضد البرتغاليين ، ثم غادر « تريفزاني» مصر فى أغسطس سنة ١٥١٢[1] . ومن الواضح أن الغورى كان يهدف آنذاك الى تجديد علاقاته مع البنادقة حتى يحصل على مساعداتهم له فى مواجهة النشاط البرتغالى المتزايد فى البحار الشرقية .

وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الأول مدينة القاهرة فى اليوم الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣ هـ الموافق السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧م وإمتدت اقامته فيها ثمانية أشهر ، فقد أدرك العثمانيون أهمية مصر كمعبر للتجارة العالمية ، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادى نتيجة لتحول هذه التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح على ايدى البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ . ولهذا فقد حرص السلطان سليم الأول على انعاش حركة التجارة، التى كان يرد الى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية، ومن المناطق المطلة على البحر الأحمر والخليج العربى الداخليه، أى من النواحى الواقعه شرقى مصر وجنوبها وغربها، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج الى الأراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج يحضرون معهم الكثير من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف رحلتهم، ولممارسة النشاط التجارى عبر الطرق المذكورة .

---

(١) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

ولهذا فقد أراد السلطان سليم أن يضمن تسويق ما يصل الى مصر من هذه التجارة عن طريق البنادقة الذين يقومون بتوزيعها فى أوربا وذلك بعقد معاهدة تجاريه معهم لهذا الغرض . وكان للعثمانيين خبرة سابقة فى هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثانى الفاتح اتفاقية مع الجنويين فى الحادى عشر من مارس عام ١٤٥٤ ، واتفاقية أخرى مع البنادقة فى الثامن عشر من ابريل من نفس السنة أى فى العام الثانى مباشرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية [١] .

وهكذا عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية فى الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣هـ الموافق الرابع عشر من فبراير عام ١٥١٧م لتشجيع البنادقة على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنينية والعدالة والأمن . وقد نشر الاستاذ « اتين كومب Etienne Combe » نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية [٢] ونشرت بعد ذلك مترجمة الى العربية [٣] ، وجاءت فى ديباجتها ملاحظة تفيد بأن التعليمات التى أوردتها موجهة بصفة خاصة الى حاكم مدينة الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضباط الشرطة كى يحاطوا علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها لهم أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم الأول عليها . واشارت المادة الأولى من هذه المعاهدة الى أن جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها ، وان رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع ولا يحق لأى فرد أن يهينهم أو يتكبر عليهم فى الموانى المصرية عامة ، وأن من حقهم البيع

---

(١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٨ .

(٢) Combe . E . : Precis de I Hisotoire d''Egypte T. III . P. 6 ff. (Wiet . G) , La Traite : Veneto _ Turc . De 1517 .

(٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ .

عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، الجزء الثانى ص ٧٠٠ ـ ٧٠٦ .

والأخذ والعطاء ، ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية، وان يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة ، وليس من حق أى فرد الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات المرعيه بدون أى تغيير أو تعديل .

وأوردت المادة الثانية من هذه المعاهدة بين العثمانيين والبنادقة الالتزام بعدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم ، كما لا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها . بينما أشارت المادة الثالثة الى أنه بامكان قنصل البندقية أن يبيع ويشترى بالنقد بدون حدود . وحددت المادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمدا كل أربعة شهور . وأشارت المادة الخامسة الى أن القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت فى الأمور لصالحهم . أما من يرفض الانصياح لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا أو حكما اصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل فى طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك . كما منح القنصل حق إبداء الرأى فى سفر الأفراد على سفن بلاده ، ولا يحق لأى فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهر احدى سفن البندقية ليعود الى وطنه أو يبارحها لأى قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه .

وحددت المادة السادسة من المعاهدة الاجراءات المسموح باتخاذها إزاء سفن البنادقة عند وصولها الى الاسكندرية فأشارت الى أنه اذا وصلت أى سفينة من البندقية الى الاسكندرية أو باسم البنادقة ، فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات ، ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح

لهم بصعود السفينه فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراه السلع التى تحملها السفن « كالعسل والفاكهة » . وحرمت المادة السابعة على أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأى سبب سواء كان قرضا أو شراء . وأشارت المادة الثامنة الى أنه يصير تنفيذ كل التجديدات أو المبانى اللازمة أو الأعمال الضرورية فى فندق البنادقة . واذا رغب القنصل فى بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء ، وممنوع منعا باتا التعرض له أو دفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد مضايقتهم أو التعرض لهم اذا رغبوا فى استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين . ونصت المادة التاسعة على أنه اذا رغب قنصل البندقية فى مقابلة أى فرد من الحكومة فى دواوينهم وامتطى صهوة جواده او رغب فى الخروج الى الحدائق العامة أو أى مكان فى أطراف الاسكندرية فله أن يفعل ما يشاء وليس لأى فرد أن يعترضه .

وقد أشارت المادة العاشرة الى أن السلع الخاصة بالبنادقة والتى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها ، أما السلع التى تقذفها الأمواج الى الشاطىء نتيجة الغرق لأحدى السفن فهى ترد لأصحابها إن عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد لقنصل البندقية ، أما بالنسبة للسفن التى تصل للشاطىء سليمة بعد انقاذها فيجب صيانتها . وجاء فى المادة الحادية عشر أن سفن البنادقة التى تلجأ لميناء الاسكندرية لسؤ الأحوال الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية، واذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها . واذا كانت هذه السفن تحمل سلعا لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها الا فى الاسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر .

أما بالنسبة للعلاقات السياسية فقد اوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الأول عام ١٥١٧ انه ان حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا ، كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبه على الحادث . أما من يكون مديونا لأحد رعايا السلطان فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانى البندقية والبلاد الخاضعة لها . كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء . واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه اذا أصر القراصنه على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانىء السلطان فمحظور على أى فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار . ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه اذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى مواطن عادى أو عضو فى وكالتهم فلا يحق لأى فرد اهانته أو الحاق الضرر به . واشترطت المادة السادسة عشرة أن كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقات بالاجانب أو بالحكم فى مصر . وبموجب المادة السابعة عشرة يكون لقنصل البندقية السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه «قنصل بالنيابة» أو نائب قنصل فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان .

وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذاك كانت تصل بعض السفن من كريت أو اقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن سلطات الاسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكى تبيع ما لديها فى مستودعاتها . هذا الأمر كما أشارت تلك

المادة كان ينبغى أن يتدارك ، فسفن البندقيه كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد . وفى حاله وصول هذه السفن الى بولاق تتبع القواعد المرسومه فى هذا الميناء . وقد اشار قنصل البندقيه فى المادة التاسعة عشره ـ الى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا ، وكان اذا مات أحد العبيد بالفنادق فالقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن يفرض مرتفعا ، وقد اشترطت هذه المادة أن هذا يصير ممنوعا منذ ذلك الحين ، كذلك حظرت المادة العشرون على موظفى الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكة أو سلع أخرى تحملها سفنهم ، وفيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين فقد نصت المادة الحادية والعشرون ، على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملؤة ويحملها الكشاف البحرى ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها . وقررت المادة الثانية والعشرون انقاص وتخفيض الضرائب التى تدفع عمن يموت من الأجانب فى بلاد السلطان . كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الأفرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حله ولا فى ترحاله.واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهدة المعقودة بين السلطان سليم الأول والبندقية عام ١٥١٧ بالاشارة الى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمه ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينه. كما قررت المادة الخامسة والعشرون انه فى حالة نقل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشىء ما ، كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكة المحفوظة والمسكرة والطازجة للمسافرين . هذا بينما حددت المادة السادسة والعشرون انه لا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو

فى أى مكان آخر . وأكدت المادة السابعة والعشرون على حق التجار البنادقة فى شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة . كما سوغت المادة التاسعة والعشرون للكشافين القيام بعملهم فى حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة البنادقة، وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة .

واشترطت المادة الثلاثون ، بأنه لا يتصدى أى فرد للقنصل أو للتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ، ويراعى الا يؤخذ الابن بجريرة الاب ، ولا الاب بجريرة الابن ، الا اذا كان أحدهما ضامنا للاخر شخصيا وماليا ، أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة . كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون كذلك أن جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون الى موانى مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع. وفى خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية فى الاسكندرية قد قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار . ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قونصوه الغورى رسوما جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنويا ويطالب القنصل باعادة تقرير هذا الاعفاء الضريبى وتقرر الاستجابة لهذا الطلب .

كانت هذه هى البنود الثانية والثلاثون للمعاهدة التى عقدت بين السلطان سليم الأول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر فى سنة ١٥١٧ . وهى تشكل دليلا تاريخيا على حرص الاتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية بقدر الامكان الى نشاطها المعهود قبيل تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح . ولا شك أن هذه المعاهدة تعد أبلغ رد على الفرية التى يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوربا . كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود

فارق بينها وبين المعاهدات التى عقدها السلطان سليمان القانونى وخلفاؤة تباعا مع الدول الأوربية فى هذا الصدد . فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الأوربية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام ، فقد كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى مصر والاسكندرية بوجه خاص . كذلك ترجع أهمية معاهدة البندقية الى أن كثيرا من نصوصها ، أو نصوصا على غرارها ، قد ادرجت بعد ذلك فى المعاهدات اللاحقة التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ، اذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها آنذاك ، فكانت كل دولة أوربية تحرص على أن تجىء المعاهدة التى تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة وشاملة لكل الامتيازات التى سبق تقريرها لغيرها (١) .

على أن هذه المعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية مع دول البحر المتوسط والتى بدأت بمعاهدتها مع البندقية فى سنة ١٥١٧ قد أدت الى تنشيط حركة التجارة العالمية التى كان يدعمها فتح العثمانيين للطرق البرية المؤدية الى مصر والشام سواء من ناحية الشرق من المناطق الاسيوية ، أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الأفريقية ، أو من ناحية الغرب من ارجاء المغرب العربى ، والتى كانت تحركها رحلة الحج السنوية الى الأماكن المقدسة فى الحجاز وفلسطين ذهابا وعودة ، أثناء قيام البرتغاليين باحكام حصارهم للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندى أثناء القرن السادس عشر الميلادى . وتوضح الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والتى تخص محكمة الاسكندرية الشرعية والعائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى استمرارية النشاط التجارى النسبى فى مصر بوجه عام وفى الاسكندرية بوجه خاص وامتداده منها الى البندقية وغيرها من مدن

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ص ٧٠٦ _ ٧٠٧ .

البحر المتوسط فى ذلك الحين . وقد شملت هذه التجارة نوعيات عديدة من سلع التجارة الشرقية التى تبادلها سكان مدينة الاسكندرية والمدن الساحلية المصرية الأخرى مع الأوربيين الذين وفدوا اليها آنذاك وخاصة البنادقة بالاضافة الى تأجير وكالات تجارية لهم ومراكب ودواب لنقل التجارة ، مع استخدامهم للعملات المعاصرة فى أوربا وبلاد الشرق ، هذا فضلا عما صاحب ذلك من نمو للعلاقات الاجتماعية المتمثلة فى العديد من عقود الزواج ومختلف المعاملات الأخرى . غير أن هذا القدر من التجارة العالمية ، وهذا النشاط التجارى النسبى الذى تبادلته موانى مصر وخاصة الاسكندرية مع موانى جنوب أوربا المطلة على البحر المتوسط وفى مقدمتها البندقية ، لم يوفر لشعوب البحر المتوسط نفس المستوى من الأزدهار الاقتصادى الذى عاشوا فى ظلاله الوارفة قرونا عديدة قبل تحول التجارة العالمية عن حوض البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح (١) .

(١) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية ، دفتر سجل مبايعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م الى ١٧ شعبان سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م ، ص ٩٢ مادة ٤٣٥ ، ص ٩٦ مادة ٤٥٦ ، ص ١١٤ مادة ٥٤٠ ، ص ٣٢٨ ، مادة ١٣٩٤ ، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الأجنبية بالبحر المتوسط وخاصة البنادقة فى مدينة الاسكندرية فى ذلك الحين .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربية

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية ، سجل مبايعات رقم (١) ، من ٢٤ شعبان ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ من الى شعبان ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م .

- ابن اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة أجزاء ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤

- ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ .

- توفيق اسكندر (دكتور) : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العهد الوسيط ، بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٧ .

- حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، القاهرة ١٩٦٢ .

- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ضمن أبحاث مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ .

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

- .... المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

- .... صور من مجتمع القاهرة فى العصور الوسطى ، محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ .

- .... التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ - ٩٢٣هـ / ١٤٦٨ - ١٥١٧م) فى ضوء كتابات ابن اياس ، الندوة التى نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ١٦ - ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ .

- .... العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ .

- شارل ديل : البندقية جمهورية الارستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ .

- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، دراسة فى تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم المصرية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ١٩٨٢ .

- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، مكتبة الانجلو المصرية الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٧ .

- الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٣ .

- عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، بحوث ألقيت فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

- فاروق عثمان أباظة (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ندوة البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الاسبوع العلمى الثالث ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩ ، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٠ .

- قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

- محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ .

- محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة ، منشأة المعارف ، بالاسكندرية الطبعة الأولى ١٩٥٨ .

- نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

- نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة السادسة ، العددان ٧١ ـ ٧٢ ، سبتمبر ـ أكتوبر، بيروت ١٩٨٤ .

ثانيا : باللغـات الأجنبيـة

- Charles, Roux, F. : Autour d' une route , L' Anglettre , L'Isthme de Suez , T. 1-2, Paris 1901 .
- Combe, E. : Precis de L'Histoire d' Egypte, T. 3, L' Egypte Ottoman de la Conquest par Selim 1. 1517 a l' Arrivee de Bonaparte 1798 .
- El-Abbadi , M. : The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria. (UNESCO 1990 0 .
- Hammer, J. : Histoire di L' Empire Ottoman depuis son Origine Jusqu ' a nos jours, T. 18, Paris 1836 .
- Heyd, W. : Histoire du commerce de Levant au Moyen Age, T. 1, 2, Leipzig 1925 .
- Howe , Sonia , E : In quest of Spices, London 1946 .
- Wilson , A. T. : The Persian Gulf, London 1954 .

القسم الصقلي من كتاب المغرب لابن سعيد
(الألحان المسلية في حلي جزيرة صقلية)

دراسة وتحقيق

دكتور

محمد زكريا عناني

أستاذ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« كلمـــة »

يطيب لى أن أقدم لقراء العربية هذا القسم من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد المغربى ، والذى يحمل عنوان « الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية » وقد بذلنا فيه من الجهد كل ما أعان عليه المولى ، وصحبنا خلال التسفار شرقا وغربا ، الى أن استقام بعد لاى ، على هذا النحو الذى يراه القارىء .

وهذا القسم كان منشورا من قبل سنة ١٩١٠ على يد المستشرق الألمانى موريتز فى زهاء عشر صفحات ، وأوضحنا فى ثنايا التمهيد طبيعة هذه النشرة وما لها وما عليها ، وما اعتمدنا عليه من ركائز لتحقيق النص ومن نهج سعينا فيه إلى إجلاء غوامضه والقاء مزيد من الضوء على مادته .

وقد قدمنا نشرتنا هذه بملمح تاريخى عن صقلية الإسلامية ، وعلى وجه الخصوص عنها فى القرنين الخامس والسادس الهجريين لما لهذا الملمح من وشائج حمية تتصل بالإشارات التاريخية المبثوثة فى « الألحان المسلية » .

كما عرضنا فى إيجاز لكتاب المغرب والجهود التى بذلت فى تحقيق مختلف أجزائه .

وآثرنا أن نلحق بهذا القسم الصقلى ذيلا موجزا للغاية هو الذى اسماه ابن سعيد « كتاب الغاية الأخيرة فى حلى الأرض الكبيرة » ويقع فى صفحة واحدة لم تنشر من قبل .

وأملى أن يكون فى هذا العمل بعض الجدوى وأن يسهم فى التنوية بماضى صقلية الحافل .

ونسأل المولى حسن العاقبة .

حـول النـص

لمحـة تاريخيـة :

تأتى فى النص إشارات شتى إلى العديد من الأحداث البارزة فى تاريخ صقلية ، وحديث عن بعض الشخصيات التى أثرت فى مجريات الأمور ، ومن ثم كان من الضرورى تقديم تحديد تاريخى موجز عنها منذ أن فتحها المسلمون إلى أن آل أمرها إلى الخضوع لسيطرة النورمان .

* لم يعمر الفتح الإسلامى لصقلية طويلا ، إذ لم يمتد إلى أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وقد كانت هناك محاولات مبكرة [١] من أهمها حملة قام بها حبيب ابن أبى عبيدة ـ حفيد عقبة بن نافع فاتح افريقية ـ وكان ذلك سنة ١٢٢ [٢] إلا أن اضطراب الأحوال فى افريقية اضطره للتخلى عن الاستمرار فى الفتح ، وكان من نتيجة ذلك أن اهتمت الدولة البيزنطية ، صاحبة النفوذ على صقلية إذ ذاك ، بتحصين الجزيرة تأهبا لصد غزوات المسلمين .

* وفى أيام زيادة الله بن الأغلب ، والى افريقية ، انعقد العزم على تجديد محاولة الفتح وكان من العوامل التى ساعدت على ذلك ثورة أحد أهل صقلية ، ويدعى فيمى (يوفيمبوس) على قسطنطين بطريك صقلية ولجوؤه إلى المسلمين . أما العامل الرئيسى الفعال فإنه كان يكمن فى قوة

---

(١) بدأت الغزوات الاسلامية على صقلية منذ أن كان معاوية بن أبى سفيان واليا على الشام .

انظر البيان المغرب ٤٨/٣ (ط . بيروت) وابن الأثير ١٤٦/٥ .

(٢) انظر الاستقصاء ١ / ٤٨ والكامل ٥ / ٨٩ .

الإرادة التى تحلى بها أسد بن الفرات ، قائد الحملة على الجزيرة ، ومن معه من المقاتلين[1]» .

وقد تحركت هذه الحملة سنة ٢١٢ ، وارتطمت بعقبات شتى ، بسبب وعورة الجزيرة وضراوة المقاومة ولكن الاستيلاء على العاصمة بلرم سنة ٢١٦ ثبت من أقدام الفتح الإسلامى على أرض صقلية على أن سقوط بلرم فى أيدى المسلمين لم يضع حدا للوجود البيزنطى ، فقد ظلت معاقل كثيرة مستعصية مثل سرقوسة التى لم تستسلم إلا بعد نصف قرن من بدء الفتح ومثل قصريانة التى لم تفتح إلا فى سنة ٢٤١ وطبرمين التى ظلت تقاوم إلى سنة ٢٨٩[2] .

* وقد شهدت افريقية احتدام الصراع بين الخلافة العباسية وبين دولة الفاطميين (العبيديين) وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على صقلية وقد ثار أهلها على الولاة الذين أرسلهم الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى وولوا عليه رجلا منهم يدعى ابن قرهب ، الذى أعلن التبعية للخليفة العباسى المقتدر ولكن أهل الجزيرة لم يلبثوا أن شقواعليه عصا الطاعة وعادت الهيمنة الفاطمية على صقلية مرة أخرى وسط أجواء مشحونة بالثورة والموت والخراب[3] .

* وهدأت الأحوال حين ولى على صقلية الحسن بن على بن أبى الحسين[4] من بنى الكلبيين ، اعتبارا من سنة ٣٣٦ ، وقد حكمها الحسن

---

(١) الكامل ٣٣٥/٦ وانظر امارى ص ٤٢٧ وما بعدها .

وراجع بشأن ولاة صقلية زامباور : معجم الأنساب ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٢) انظر الكامل ٧ / ١٤ .

(٣) راجع فى ذلك : الكامل ٨ / ٢٣ .

(٤) الكامل ٨ / ١٥٢ .

لمدة خمسة أعوام ساد فيها العدل والأمن وتوالى على الحكم ـ بعد وفاته ـ الولاة من سلالته فخلفه ابنه أحمد . ولكن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله لم يلبث أن استدعاه وعلى أثر ذلك اضطربت أحوال الجزيرة فأعيد الأمر إلى واحد من بنى الكلبيين وهو أبو القاسم الحكم ، وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ.

* ومن أبرز ولاة الجزيرة ، من الكلبيين أبو الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ ـ ٣٨٨) الذى تعد فترة ولايته من أفضل عهود الازدهار فى الجزيرة ، ثم أصيب بالفالج فتنازل عن الولاية لجعفر (تاج الدولة) وهنا يدب الوهن والتنازع فى صفوف الكلبيين فيثور على جعفر أخوه على وينتهى الأمر بتولى أخيهما أحمد الأكحل بينما ارتحل يوسف وابنه جعفر إلى مصر .

* وتتابع الأزمات على أرض صقلية ، فإن جعفرا بن الأكحل دأب على إثارة الحزازات[1] مما دفع بأهل الجزيرة إلى الاستنصار بالمعزبن باديس وكان ذلك سنة ٤٣٧ فسير إليهم جيشا بقيادة ابنه عبد الله وهنا نجد أهل صقلية يستشعرون بالندم فينقلبون على جيش عبد الله بن المعز بن باديس ويقتلون جمعا من رجاله مما يضطره إلى الهرب ويولون عليهم حسن الصمصام شقيق الأكحل (الذى كان قد لقى حتفه فى الفتنة) .

* وقد كان الصمصام آخر ولاة الجزيرة من بنى الكلبيين وأفضى به الأمر أن عزله أهل صقلية وتفرقت الكلمة فأصبح فى الجزيرة الصغيرة عشرات الولاة الذين راح يكيد كل منهم لغيره ومن أبرز هؤلاء ابن الحواس صاحب قصريانة وجرجنت وابن الثمنة صاحب سرقوسة وهو الذى بسط

(١) الكامل ١٠ / ١٩٥ .

نفوذه على بلرم أيضا ، ولم تلبث المنازعات أن اندلعت بين ابن الحواس وابن الثمنة ، ولما أحس هذا الأخير بأن الموقف يوشك أن يفلت منه هرول إلى النورمان يستنصر بهم ويستحثهم على بسط نفوذهم على الجزيرة فكان ذلك بداية النهاية التى مهد لها عوامل عديدة من التفكك والصراع وتقلب الأهواء .

* وكان النورمان وأصلهم من بلاد الشمال قد استقر بهم المقام فى جنوب إيطاليا وهناك اتجهت أطماعهم للاستيلاء على صقلية ومن ثم وجدوا فى خيانة ابن الثمنة الفرصة التى طالما تشوفوا إليها ، وهكذا اتجهوا إلى مسينة فاستولوا عليها واستنجد مسلمو الجزيرة بوالى أفريقية تميم بن المعز بن باديس فأرسل لهم حملة بقيادة ولديه عبيد وتمميم إلا أنها لم تحقق غايتها ولم تلبث أن رجعت تاركة صقلية فى مواجهة مصيرها المحتوم.

* وقد سقطت بلرم سنة ٤٦٤ هـ فى يد روجار (الأول) ملك النورمان واستغرق الاستيلاء على باقى الجزيرة نحو عشرين سنة حفلت بصور شتى من المقاومة والأحداث الدامية والمؤامرات ولم ينته الوجود الإسلامى انتهاء تاما بسقوط الجزيرة (سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١م) فإن المسلمين ظلوا ـ لفترة من الزمن ـ يمثلون الأغلبية السكانية وكان الملوك النورمان بصورة عامة يلتزمون بسياسة المهادنة بل والمودة فى بعض الأحيان وأمرهم مع المسلمين يختلف ـ على كل حال ـ عن أمر ملوك الفرنجة فى الأندلس بعد سقوطها فى أيديهم .

وقد تولى ستة من الملوك النورمان على عرش صقلية [1] أولهم مؤسس الدولة روجار الأول .

ثم روجار الثاني

ثم غليالم الأول (المنعوت بالسيء) .

ثم غليالم الثاني (المنعوت بالطيب) .

ثم طانكريت : وهو ابن غير شرعي لروجان الثاني (وفي عهده بدأ النفوذ الألماني يمتد إلى صقلية على يد الأمبراطور هنرى السادس المذكور في النص تحت اسم الانبرطور)

غليالم الثالث : وكان صغير السن عندما اعتلى العرض ومن ثم بقي تحت وصاية أمه (سبيلا) .

وفي تلك الفترة وجد الامبراطور الالماني الفرصة مهيئة لكي يستولى على صقلية فقبض على غليالم الثالث وأخوته وأمه وسمل أعينهم وحبسهم في إحدى القلاع .

* وفي الكتب العربية أخبار كثيرة عن ملوك صقلية وخاصة عن روجار الثاني وعن غليالم الثاني (راجع : رحلة ابن جبير في أكثر من

---

(١) انظر في أمر صقلية النور ماندية ميخاليل أمارى في تاريخ المسلمين في صقلية . ص ١٩ .
ود . إحسان عباس : العرب في صقلية .
وبحث د . أميد توفيق الطيب أحوال المسلمين في صقلية النورمانية ص ٣٧ وما بعده .
د . عبد المنعم رسلان : الحضارة الاسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا ص ٢٠ وما بعدها وجدول ملوك النورمان (١٩١) .

موضع والصفدى : الوافى بالوفيات جـ ١٤ ص ١٠٥ : ترجمة رجار صاحب صقلية ، ووفيات الأعيان جـ ٧ ص ٢١٨ فى ثنايا ترجمة تميم بن المعز) .

ويقول كروانرجوردن كاتب مادة صقلية بدائرة المعارف الاسلامية أن روجار : « لم يكن متحمسا فى مسيحيته ، ثم أنه شجع هؤلاء المسلمين على أن ينموا مواهبهم إن لم يكن شجعهم على أن ينشروا دينهم ، بل لقد أتهم هو نفسه بأنه مسلم ، وإذ رأى بعينيه اللتين لم تظللهما غشاوة التعصب عبقرية العرب العظيمة أبى أن يقتل روح هذه العظمة فمنح المسلمين الحرية التامة فى ممارسة شعائر دينهم .. وأخذ بنظام الادارة الاسلامى بل أبقى على الموظفين المسلمين فظلوا يعملون تحت إمرته .. وكذلك ازدهر علم الطب ولم يكن بلاط روجار مشهوراً ببراعة أطبائه فحسب بل كان مشهوراً بكثرة عددهم أيضا ، وازدهرت اللغة العربية بوصفها وسيلة التفاهم الكبرى كما كانت هى اللغة الرسمية » .

* وأما غليالم الثانى (أو وليم الثانى المعروف باسم الطيب) فإنه تولى الحكم سنة ٥٦٢ هـ ـ ١١٦٦م ـ وفى دائرة المعارف الكبرى (لاجرائد أنسيكلوبيدى حـ ١٩ ص ٥٧٦) أنه كان صغير السن حينما اعتلى العرش (إذ كانت سنه نحو خمسة عشر عاماً) فحكم تحت وصاية أمه ولكنه لم يلبث أن كشف وهو فى شرخ الشباب عن مقدرة سياسية وعسكرية متميزة، واستطاع أن يبسط نفوذه على الجزيرة ويقر فيها العدل ، وعامل المسلمين فى معظم فترات حكمه معاملة جيدة وقد زار الرحالة ابن جبير الجزيرة فى أيام ملكه (الذى دام إلى سنة ٥٨٥هـ «١١٨٩م») ، وفيه يقول :

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب ، وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أعماله ... ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته ـ على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به ـ « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكرا لا نعمه .. » ولا ينبغي ـ مع ذلك ـ إهمال العوامل التي كانت تحيط بالعلاقة بين هؤلاء الملوك وبين المسلمين فهناك الحروب الصليبية وتطلع النورمان لبسط نفوذهم وفرض هيمنتهم وقد كانت هناك حملات نورماندية على الإمارات الاسلامية في شمال افريقية بل وعلى مصر نفسها .

* وفي مجال صلة هؤلاء الملوك النورمان بالعلماء والأدباء المسلمين يذكر اسم روجار الثاني (ت ٥٤٨هـ) صاحب الفضل في حضور الشريف الإدريسي[1] إلى صقلية حيث ألف كتابه الشهير « نزهة المشتاق

---

(١) الشريف الأدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي (٤٩٣ ـ ٥٦٠) مولده في سبتة بالمغرب الأقصى وينسب للشرفاء الأدارسة ، وتلقى العلم بقرطبة حيث نبغ في الجغرافيا والتاريخ والرياضيات ، وهناك إشارات توحي بأنه زار لشبونه وسواحل فرنسا بل وربما الجزر البريطانية وآسيا الصغرى ، على أن شهرته في مجال الجغرافيا تكتمل حين يستقر في صقلية يعكف بتكليف من ملكها روجار الثاني على وضع خريطة للعالم وكتاب شامل في الجغرافيا هو الذي عنونه بـ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وأنجزه سنة ٥١٨هـ (ويعرف أحياناً باسم الكتاب الرجاري نسبة الى ملك صقلية) ثم ألف « روض الانس ونزهة النفس » (مفقود ، ومنه بعض مختصرات) بتكليف من غليوم الأول ورجع بعد ذلك إلى مسقط رأسه تونس ، وكتابه « نزهة المشتاق » يعد أعظم موسوعة في العلوم الجغرافية وقد استعان فيه بكتابات الجغرافيين العرب كالمسعودي وبعلماء الاغريق وخاصة بملاحظات بطليموس وبمعلومات الرحالة والحجاج والرواد الذين أرسلهم روجار إلى اقاصي أوروبا لتدوين ملاحظاتهم الجغرافية وكان من ثمرة هذا أن قسم العالم إلى سبعين قسما بحسب خطوط الطول والعرض وأعد لكل منها خريطة (وترد جميعا في مخطوطات كتابه) هي التي استخلص منها ميلر في سنة ١٩٣١ الخريطة الشاملة للأرض بحسب تصور الأدريسي. =

فى اختراق الافاق ، ويقول الصفدى فى الترجمة التى عقدها لروجار (رجار) : « فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه .. وسأله المقام عنده وكان (الشريف الإدريسى) يجىء إليه راكبا بغله فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معا »

وأورد ابن فضل الله العمرى فى مسالك الابصار جزءا كبيراً من قصيدة لبعض بنى رواحة وكان أسطول روجار الثانى قد أسره فكتب إليه يستعطفه :

بقيت ورقيت الردى وكفيته
وفقت للدنيا ووفقت للأخرى
أيا ملكا جالت أساطيل جيشه
فأعظمت القتلى وأعظمت الاسرى

ثم يصف مادار بينهم وبين أسطول روجار من مقاومة انتهت بوقوعهم أسرى ويبثه ما يحرك فى نفسه اللوعة :

ومابى سوى أم عجوز وصبية
كزغب القطا لا تعرف النفع والضرا

= وقد طبعت « نزهة المشتاق » فى روما سنة ١٥٩٢ وترجم للاتينية سنة ١٦١٩ .
انظر عنه : د . أحمد سوسه : الشريف الأدريسى فى الجغرافيا العربية (جزءان) ط . بغداد
وراجع : الاعلام ٧/٢٥٠ .
فضلا عن : د . عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب دمشق ١٩٨٤ ومادتى الجغرافيا والإدريسى فى دائرة المعارف الاسلامية (وطبعت على حدة بعنوان : الجغرافيا عند المسلمين لكرامرز وغيره بعناية د . جمال الفندى بيروت سنة ١٩٨٢ وفى كتاب د . حسين مؤنس : « تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس » ص ١٦٥ ـ ٢٨٠ عرض دقيق للإدريسى ومؤلفاته .

مفاليس في ضر وشمل مشتت

أشد من الاسرى فياليتهم أسرى

ولو أنهم أسرى لكانوا بغبطة

فأنا لديكم لا نجوع ولا نعرى

وفى بقية الخبر أن روجار « أطلقه ومن عليه ووهبه آلافا وزوده وجهزه فى مركب إلى أهله »[1].

ونقل العماد عن ابن بشرون الصقلى صاحب « المختار فى النظم والنثر لأفاضل العصر » مرثية لأبى الضؤ سراج بن رجاء فى ابن لروجار[2] كما أورد أخبارا عن شاعر يدعى عبد الرحمن بن رمضان المالطى الذى جاء « معظم شعره فى مدح روجار »[3].

وغليالم الثانى : الذى أشرنا إليه قبلا ـ هو الذى ارتحل إليه نصر بن قلاقس الاسكندرى ومدحه بقصيدة أولها :

يقر لغاليالم المليك بن غليالم

سليمان فى ملك داود فى حكم

وتخدمه الافلاك بالسعد فى العدا

فيسطو بسيف البرق أو حربة النجم

---

(١) نقلا عن أمارى ١٥٣ وجعل البيت الأول : « ووقيت الرداء » ولا معنى لها كما جعل البيت الثالث « لا تعرف الصنع والضرا » وفى ظننا أن ـ صوابها على النحو الذى أثبتناه »

(٢) (الطبعة التونسية) ١ / ٢٧٧

(٣) (الطبعة التونسية) ١ / ٢١

فأى هلال ليس كالقوس رأشـــقا

بـــأى شهـــاب ليس ينفـــذ كالســـــهم

وما النصر إلا جنده حيثما مضـى

على جبهـــات الـــبر أو صفحة اليـــــم[1]

والخلاصة أن الفترة النورماندية من حياة صقلية (والتى يتصل بها موضوع كتابنا اتصالا وثيقا) تعد من المراحل الهامة التى ينبغى درسها فى رؤية ، خاصة وأنها لم تحظ من قبل بكبير عناية [2].

---

(١) النص فى ديوانه مخطوطة شتر بيتى رقم ٤٤٢٦ (وقد حققته د . سهام الفريح ، ونشر الجزء الأول بالكويت مؤخرا) وانظره فى كتابنا : النصوص الصقلية ص ٢٥٥ .

(٢) عرض د . إحسان عباس للحياة الأدبية بقدر من الإيجاز فى كتابه « العرب فى صقلية » وتناولها د . فوزى سعد عيسى بقدر من التوسع فى كتابه « الشعر العربى فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى »

وانظر : جابريلليى فى تراث الاسلام حـ ١ ص ١٠١ (تصنيف شاخت) وجب فى « تراث الاسلام » حـ ١ ص ١٧٤ (تقديم جيوم) .

كتاب المغرب فى حلى المغرب

يعد كتاب «المغرب فى حلى المغرب» لعلى بن موسى المغربى (المتوفى سنة ٦٨٥هـ) واحداً من أجل ما وصل إلينا من تراث أهل الأندلس بل لعله أجل ما هنالك وبخاصة فى مضمار الأدب لا فى ذلك الا كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام .

وقد ألف «المغرب» على أيدى ستة من أعلام الأندلس صنفوه بالموارثة على مدى مائة وخمس عشرة سنة ، أولهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحجارى أحد الأدباء الشعراء الذين لا نعرف عنهم إلا قدرا يسيرا من المعلومات ، ـ وكان الحجارى هذا قد وفد على عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد على مقربة من غرناطة ، ومدحه ، وصار من ذوى الخطوة عنده وطلب منه عبد الملك بن سعيد أن يؤلف له كتابا فى أخبار أدباء الأندلس فألف له « المسبب فى غرائب المغرب » .

ويقول على بن سعيد فى مقدمة كتابه «المشرق فى حلى المشرق» أن عبد الملك بن سعيد أعجب بـ « المسهب » أيما إعجاب ، « وصير مطالعته ديدنا ، ثم ثار فى خاطره أن يضيف له ما أغفله الحجارى ، ويختصر ما لم يوافق غرضه وفيه تطويل غير مفيد . وخلفه أبناه أبو جعفر الشاعر ومحمد وأضافا له ما استفاداه ولم يزل لهما خزانة أدب بتزايد عمرهما إلى أن استبد به موسى بن محمد بن عبد الملك ، وكان أعلمهم بهذا الشأن وذكره بالمغرب فى فنون الآداب لا يحتاج إلى تنبيه عليه فاعتنى به أشد اعتناء وأضاف إليه ما طالعه فى الكتب والتقطه من الأفواه » .

وانتهى الكتاب إلى ابنه على ، وهو الذى جمع الكتاب ونقحه ووضعه فى الصورة النهائية .

على أن هذا الكتاب الفريد فى بابه ظل لأمد بعيد محجوبا عن جمهرة القراء ، ولم تصل إلينا منه إلا نسخة وحيدة كتبها ابن سعيد نفسه برسم كمال الدين بن العديم ، وكان ذلك فى حلب ما بين سنة ٦٤٥ هـ وسنة ٦٤٧ هـ ، ثم انتقلت هذه النسخة من حوزة ابن العديم ، وتملكها من بعده عدد من المشاهير ، من بينهم الصلاح الصفدى ، وفيما يبدو أنه هو الذى نقل نسخة الكتاب من حلب إلى القاهرة ، وهذه النسخة الفريدة عليها قراءات لعلماء مثل ابن دقماق صاحب « فضائل مصر » ومثل المقريزى كما دخلت فى حوزة السلطان مؤيد شيخ (سلطان مصر بين سنتى ٨٠٨ ، ٨٢٤) وممن طالع فيها وسجل ملحوظات عليها الشيخ حسن العطار وانتهى الأمر بهذه المخطوطة أن أودعت فى دار الكتب المصرية (تحت رقم ١٠٣ م تاريخ) ولكن بعد أن تهرأت أوراقها وتبعثرت ، مما جعل العلماء يعانون مشقات بالغة فى تحقيقها ويحدثنا د . شوقى ضيف عن عمله فى تحقيق القسم الأندلسى من هذا الكتاب ، بعد أن أشار إلى محاولات بعض المستشرقين الذين نشروا فصولا منه تتصل بالأدب فى عصور الطولونين والدولة الاخشيدية :

« وتظل بقية المغرب مهملة ، ويظل الأمل يراود من يطلعون على النسخة فى نشر قطع منها توصل أوراقها وتعرف مواضع تسلسلها ، ومازال هذا شأن النسخة حين حاولت أن أنشر النص الأندلسى منها ، وقد مكثت أشهراً متعاقبة ـ أبحث فيها وأرد الأوراق إلى مواطنها الأصلية من تتابع

الكلام وكلما نسقت قطعة استهوتني قطعة ثانية حتى أعدت لأوراق هذا النص الأندلسي ترتيبها ونسقها الأصلي . وقد وجدت أكثر ممالك الموسطة مفقودة بل بعبارة أدق وجدتها جميعا مفقودة إلا قطعة عن طليطلة ـ ووجدت مرسية قاعة تدمير مفقودة هي الأخرى غير أوراق سقطت فخلفت في النص خروما مختلفة » .

وانصرف د. شوقي ضيف عن العمل حينا من الدهر الى أن عثرت بعثة لمعهد المخطوطات في الجامعة العربية على قطعة من « المغرب » في بلدة بلصفورة ، تقع في أكثر من مائتي ورقة ، وكانت هذه القطعة من حسن الحظ ـ منزوعة من النسخة السابقة نفسها أي أنها بخط علي ابن سعيد كذلك ، وهذا القسم الجديد الذي عثروا عليه يضم معظم الممالك الوسطى في الأندلس ، مما جعل النص أكثر ترابطا ، وجعل د. شوقي ضيف يعود الى « المغرب » من جديد .

وقد سبقت نشرة د. شوقي ضيف للقسم الأندلسي ، نشرات مختلفة لبعض الأقسام التي تدور حول مصر ، هي « الدر المكنون في حلى دولة ابن طولون » ونشر أول ما نشر على يد كارل فلرز في ويمار ١٨٩٥ وقسم «العيون الدعج في حلى دولة ابن طغج » ويضم تراجم أهل الفسطاط على زمن الاخشيديين ، وهذان القسمان هما اللذان نشرهما د. زكي محمد حسن ود. سيدة الكاشف بالقاهرة سنة ١٩٥٣ نشرة علمية أصلية في منهجها ودقتها .

وأما ثالث الأقسام المتصلة بمصر والتي سلمت من المغرب فهي التي تحمل تسمية «النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة» ونشره د.حسين نصار

سنة ١٩٧٠ وأشار فى مقدمة التحقيق إلى مدى الصعوبات التى اعترضت سبيله، والتى جابهت كل من أوغل فى دوربه الوعرة ، وهناك نشرة أخرى سابقة للقسم الصقلى الذى نقدمه اليوم سنعود إليها تفصيلا بعد قليل . ولا نريد أن تخوض ها هنا فى الحديث عن « المغرب » بعامة وإنما نقصر الحديث على هذا القسم الصقلى وحده ونقول فى البداية إننا لا ينبغى أن نبالغ فى بيان قيمة هذا القسم فإن ابن سعيد لم يبذل - فى واقع الأمر - جهدا كبيرا فى إعداده ، فإنه أعتمد اعتمادا أساسيا على ابن القطاع حتى ليمكن القول بأن هذا القسم الصقلى من « المغرب » لا يعدو أن يكون «مختصرا » * لـ «الدرة الخطيرة» ولولا أن هذا الكتاب الأخير فقد (ولم يبق منه الا بعض مختصرات صغيرة للغاية) لوهن صنيع ابن سعيد إلى أبعد مدى ، على أن عدم العثور على « الدرة الخطيرة » جعل لهذا القسم الصقلى من « المغرب » قيمة كبرى هى التى دفعت إلى الأهتمام به من قبل وهى التى تجعلنا نعكف على دراسته وتحقيقه اليوم

---

* هو كتاب « الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة - يعنى صقلية ومؤلفه أبو القاسم على بن جعفر بن على .. المعروف بابن القطاع السعدى صاحب كتاب « الأفعال » و « أبنية الأسماء» وتوفى سنة ٥١٥ هـ بحسب ما ذكر ابن خلكان جـ ٣ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤ (طبعة أ. عباس) .

وكتاب الدرة الخطيرة مفقود وقد اعتمد عليه العماد فى القسم الصقلى من الخريدة وسماه « «الدورة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة » وفى باريس منتخبات تحمل عنوان « المختصر من الكتاب المنتخل من الدورة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » اختيار الشيخ إسحاق بن أغلب (مخطوطة رقم ٣٤١٨ ضمن مجموعة) .

وقد استعان ابن سعيد فى « منصة » هذا القسم الصقلى بمصادر أخر مثل رحلة ابن عبد ربة [1] وكتاب ابن حوقل [2] وكتاب الشريف الإدريسى [3].

---

(١) ابن عبد ربه : أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد (٢٤٦ هـ) ـ عالم أديب من أهل قرطبة ، اشتهر أكثر ما اشتهر بموسوعته « العقد » ـ وطبعت أكثر من مرة ، أفضلها ط . القاهرة سنة ١٩٤٠ م بتحقيق أحمد أمين ومن معه ـ وكان شاعرا مجيداً ، تذكر المصادر أنه خلف ديواناً ضخما متعدد الأجزاء ، إلا أن هذا الديوان ضائع الآن ، ولم يبق من شعر ابن عبد ربه إلا قرابة ألف وخمسمائة بيت يرد معظمها فى « العقد » (الذى يعرف أكثر ما يعرف باسم : العقد الفريد) .

وقد ذكر ابن سعيد فى منصة هذا القسم الصقلى أنه ينقل عن ابن ربه عبد فى رحلته « ولا يعرف لابن عبد ربه كتاب فى وصف رحلته للمشرق ، بل إن المصادر والمراجع لا تشير إلا لكتاب وحيد له هو « العقد » وإن كان حاجى خليفة فى كشف الظنون « (ط . أوربا) حـ ٥ ص ٣٠٢ يشير الى كتاب آخر هو « اللباب فى معرفة العلم والأداب » .

(٢) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل ، البغدادى الموصلى) توفى بعد سنة ٣٦٧ هـ .

عالم رحالة ، له كتاب « المسالك والممالك » أو « صورة الأرض » وفى كتاب حمد الجاسر : « رحلات : للبحث عن التراث ـ دار اليمامة سنة ١٩٨٠ ص ١٣٣ ملحوظة هامة تقول إن فى « خزانة أحمد الثالث فى أستانبول كتاب « صورة الأرض وصفة أشكالها ومقدارها فى الطول والعرض » ثم بخط حديث : لابن حوقل النصيبى . وقد طبع فى أوربا ثم بيروت ، والطبعة الأوربية تحمل اسم « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » والبيروتية كتاب « صورة الأرض » ونسب فى الطبعتين لابن حوقل ولكن أشك فى أمر هذه النسبة بعد أن طالعت النسخة الخطية الموجودة فى مكتبة أحمد الثالث « وانظر عنه الزركلى : الأعلام ٦ / ٣٤٤ ومادة ابن حوقل فى دائرة المعارف الاسلامية ود. زكى حسين : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٩ وما بعدها .

(٣) الشريف الإدريسى : سبقت الإشارة اليه .

طبعة موريتز :

ليس فى نيتنا ، بأى حال من الأحوال ، الغض من النشرة التى أصدرها المستشرق موريتز من هذا القسم الصقلى ، والتى ظهرت ضمن الكتاب الذى صدر بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد المستشرق الايطالى ميخائيل أمارى :

Centenario Della Nascita di M. Amari

وتقع فى عشر صفحات ، حاملة عنوان :

Ibn Said's Beschreibung Von Sicilie

وكان ذلك سنة ١٩١٠.

وهذه النشرة عبارة عن مقدمة فى صفحة واحدة ثم النص فى سبع صفحات تتلوه تعليقات فى زهاء صفحتين قوامها ملاحظات تاريخية وجغرافية مركزة حول الأسماء والأماكن الواردة فى النص ، ولم ينل الادباء حظا يذكر من هذه الملاحظات ، أما الشعر فقد جاءت فيه أغلاط عديدة ذكرناها فى الهوامش ومن ذلك ، على سبيل المثال :

سر حيث شئت فأنت وحدك عسكر

والناس بعدك فضلة لا تذكر

جعلها : « فعله لا يذكر » ، وليس لها من معنى .

ومثل : واذا ضاقت البلاد بحر

سار منها إلى مكان جديد

قرأها : « وأن أضافت » ، وبها يختل الوزن واللغة معا .

إلى آخر ما اشرنا اليه من مواضع استعصت عليه .

وبحسب موريتز ، على كل حال ، أنه أهتدى لقيمة النص ويسر منه نسخة بين أيدى الناس ، وأن خفى أمرها ولم يهتد إليها كثير من الدارسين لأنها منشورة على هيئة مقالة صغيرة ضمن كتاب كبير مطبوع فى أوربا منذ أكثر من نصف قرن .

نهجنا فى إقامة النص :

* قمنا بنسخ القسم الصقلى من مخطوطة دار الكتب المصرية ، المصورة على ميكروفيلم رقم ٣٥٨ والمنسوخ أصلها عن النسخة التى بخط ابن سعيد المغربى* واعتبرناها أماً، ورمزنا إليها فى الهوامش بكلمة الأصل.

وقابلناها على نشرة مورتيــز .

كما قابلناها على مخطوطة منتخبة من المغرب*، كشفنا عنها النقاب ونوهنا بها لندرتها ولأن أحدا لم يستفد منها من قبل ، وتتضمن معظم مادة القسم الصقلى .

(*) لا تزال النسخة التى بخط ابن سعيد ، والمحفوظة بدار الكتب المصرية محجوبة عن الأيدى منذ أمد بعيد ، وقد ترددنا على الدار لشهور عديدة بقصد الاطلاع عليها إلا أن ذلك لم يكن ممكنا.

(*) نسخة مخطوطة بخزانة مكتبة جامعة أم القرى ، مكة المكرمة وتقع فى ٣٨ ورقة من القطع الصغيرة ، تبدأ بمختارات من كتاب الاستعانة فى حلى قرية منتانة وتنتهى بنهاية أصل المغرب، مما يقابل ما فى الجزء الثانى من المطبوع (قسم الأندلس) من ص ٢٦٢ الى نهاية الكتاب (ص ٤٧٣) .

والنسخة التى بين أيدينا لا تحوى على غلافها إلا الآتى :

المطرب المختار من المغرب .

وذكرناها فى الهوامش تحت اسم : المنتخب . كذلك قابلنا هذا القسم الصقلى على نسخة ـ مختصرة من كتاب الدرة الخطيرة لابن القطاع وفيها تراجم ونصوص متعددة مما فى القسم الصقلى من المغرب واصل هذه المنتخبات محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس ، رقم ٣٤١٨ (ضمن مجموعة) وذكرناها فى الهوامش من تحت اسم : المختصر .

وعرضنا النصوص على ما بين أيدينا من كتب التاريخ والأدب ، مثل خريدة القصر ـ القسم الصقلى ـ والذخيرة ، وعنوان المرقصات ، إلى غير ذلك من مظان صقلية أو أندلسية أو عامة .

---

* نسخة مخطوطة بخزانة مكتبة جامعة أم القرى ، مكة المكرمة وتقع فى ٣٨ ورقة من القطع الصغير، وتبدأ بمختارات من كتاب الاستعانة فى حلى قرية منتأنة وتنتهى بنهاية أصل المغرب ، مما يقابل ما فى الجزء الثانى من المطبوع (قسم الأندلسى من ص ٢٦٢ الى نهاية الكتاب (ص ٤٧٣).

والنسخة التى بين أيدينا لا تحوى على غلافها الا الاتى

المطرب المختار من المغرب .

فى حلى أهل المغرب

لابى اسحاق ابراهيم الحصرى

وخط العنوان مغاير شيئا ما لبقية المخطوطة ، مما يجعلنا نرجح أنه وضع فى فترة لاحقة ، وقد جاء بالعين المعجمة خلافا لما هو معروف من أن كتاب ابن سعيد يحمل عنوان « المغرب » والملاحظ أن الاسم بجيىء فى مقدمة الكتاب وفى نهايته على أنه (المغرب) أيضا ولكن وضعت على العين نقطة بحبر مغاير .

وفى العنوان تغيير يسير عما هو معروف من أن الأصل اسمه المغرب فى حلى المغرب « وننبه أن المقرى فى نفح الطيب استعان بنسخة عنوانها : المغرب فى محاسن المغرب » .

وأما أن صانع المختارات هو أبو إسحاق إبراهيم الحصرى فهذا ولا شك محض هراء لأن الحصرى توفى سنة ٤١٩ أو نحو ذلك فكيف يصنع مختارات من كتاب ألف فى منتصف القرن السابع ؟ ==

== وكانت على الغلاف بعض عبارات ضرب عليها بالسواد فانبهمت معالمها تماما ولم تسلم منها الا عبارة : « دخل فى ملك الراجى (عفوربه) إسماعيل الظهورى المصـ (رى) سنة ١١٨٠». وإسماعيل الظهورى هذا كان من الشعراء المعروفين بالقاهرة وذكره الجبرتى فى عجائب الاثار مقرونا بموشحة مطلعها :

ليت شعرى يا أخلاء الهوى　　　هل درى بدرى بأنى مؤنس

وتقع هذه المختارات فى ٣٨ ورقة من القطع الصغيرة ، كتبت بخط نسخى جميل وهى تبدأ كما ذكرنا بكتاب « الاستعانة » من القسم الأندلسى ، مما جعلنا نرجح أن واضعها لم تكن بين يديه نسخة كاملة من المغرب ولا من كل القسم الأندلسى منه .

ومما يعيب هذه المختارات أن واضعها كان يسوق النصوص دون أن ينسبها لقائليها ، وقد يعرض لذكر شاعر ويذكر له بعضا مما رواه له صاحب المغرب لم يتبع ذلك بنصوص أخرى مسبوقة بـ : وقوله « ولا تكون للشاعر الذى أشار اليه وليس فى هذه المختارات من موشحات أو أزجال ما خلا موشحة ابن حريق : « سل حارسى روضة الجمال » وذكر قطعة منها لم اتبعها بنص شعرى وعاد بعد ذلك الى بقية الموشحة مما قد يوهم بأننا أمام موشحة أخرى .

ولم تمدنا هذه المختارات بشىء يعتد به مما يكمل طبعة د. شوقى ضيف ، ونذكر هنا بعض الاختلافات الطفيفة التى قد تفيد عند إصدار طبعة جديدة من المغرب ، وستكون الإحالة الأولى على الجزء الثانى من طبعة المغرب : ص ٢٦٧ ، مكان الرقمين من الجمار . وفى المختار : من الجفار . وفى الصفحة نفسها نص فيه فحش من شعر أبى بكر اليكى أوله :

ثماني خصال فى الفقيه وعرســه　　　وثنتان والتحقيق بالمرء اليــــق

وترك د. ضيف بعده فراغاً قال أنه فى الأصل بياض وهو فى المختار :

ثنـا .. وتزنى فعلهـا مثل فعلـــه　　　وأن لاطـ يوما فهى لا شـــك تسـحق .

ص ٢٦٨ : شــــأن بنى معيشـة　　　وفى المختـار : شــأن بنى جعيشـــة. ص ٢٦٩ : تزيد مخطوطة المختار قطعتين فى الهجاء لليكى أيضا لا تأتيان فى المطبوع ، ولعل د. ضيف أسقطهما لبذاءتهما . والأولى :

أطمن بـ ..... من تلقى من الناس .. من أرض حفص الى أقصى قرى فأس　قوم يمصون ما فى..... من نطف　مص الخليع زمان الورد للكأس .

والثانية قوله فيهم:

اذا الطفل منهم مس دائرة ســـته　　　درى أنها مخلـــوقة للنياشــــل .

ص ٣٩٠ ذكر لابن موهد الشاطبى . والاسم على نفس الصورة فى المختار .

ويجىء فى القسم الذى نشره د. الاهوانى من « المقتطف من أزاهر الطرف » لابن سعيد ذكر لوشاح اسمه ابن مؤهل (راجع ص٤٨٠) وأشار د. الاهوانى للعلاقة الصوتية بين الاسمين مما يدفع

==

= للتساؤل عما إذا كانا اسما واحد اعتراه في إحدى الحالتين تحريف . والتطابق بين ما في « المغرب» والمختار تجعلنا نرجح أن الاندلس عرفت شاعرين باسمين متقاربين في النطق هما ابن مؤهل وابن موهد (وراجع طبعة د. سيد حنفي ص ٢٥٨) . ص ٤٥١ يأتي بيتان من شعر أبي الحسن على بن خير التطيلي سقطت فيهما الكلمة الأخيرة من كل بيت وأبهما د. شوقي ضيف ، وهما :ـ

اذا غبت عنكم لا يريكم تطاول

لبعد فؤاد زائد الصفو (والبر)

كما عتقت صهباء من طول عهدها

وجاءتك باستجيائها في حلى (التبر)

وفي المختار : بالبعد مكان : والبر ، والخد : (في الأصل بالحاء) مكان : التبر .

وقد نوهنا بهذه المختارات لما لها من وشائج تتصل بموضوعنا ، ولندرتها لأنها ـ فيما نعلم ـ نسخة وحيدة ، ولهذه المختارات مقدمة موجزة تقول بعد البسملة :

« حمدا لله العزيز العلام ، المتفضل على من شاء بوافر الأنعام ، وأشهد أن لا اله الا الله لا شريك له ولا ند له ، الذى جعل شعر العرب عين العين وزين الزين ، وشاهدى واضح في هذا الكلام.

وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله سيد الأنام ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الكرام وأصحابه الفخام ، وسلم وكرم وبعد . فهذه نبذة ظريفة ودرر منيفة التقطتها من كتاب « المغرب » في حلى أهل المغرب «لأبى (كذا) سعيد القيرواني (كذا) جامعة لطائف المعاني يشتاق السامع لمعانيها ويتلذذ الماهر بمطالعتها وترجمتها بـ : المطرب المختار من المعرب (!)

في حلى أهل المغرب   فأقول :

وواضح أن نسبة القيرواني محض خطأ فابن سعيد ينسب عادة للمغرب ومولده بقلعة يحصب قرب غرناطة التي ينسب إليها أحيانا .

وتنتهي المخطوطة بعد القسم الصقلي والصفحة التي تتضمن « الغاية الأخيرة في حلى الأرض الكبيرة » بـ :

، وبها كمل المطرب المختار من
المغرب (!) في حلي أهل المغرب
و صلي الله علي سيدنا محمد
وعلي أله و صحبه وسلم تسليما كثيرا
آمين ،.

والتزمنا بأن نعرف بالاعلام والمواضع الواردة فى الأصل تعريفا مركزا مستغنين عن الإسهاب بما ذكرنا من إحالات .

كما أردفنا ذلك كله بالفهارس المختلفة وبقائمة وافية بالمصادر والمراجع المتصلة بصقلية وخاصة ما تعلق منها بالجوانب الساسية والثقافية .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

وصلى الله على سيدنا محمد

أما بعد حمدا لله ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه (٢٩٣)

فهذا الكتاب الثانى من كتب شمال المغرب وهو :

كتـــاب
الألحـــان المســلية
فى حلـــى جزيـرة صقليـــة

المنصـــة :

من كتاب ابن عبد ربه فى رحلته [١] :

« صقلية [٢] جزيرة منقطعة فى البحر ، شكلها مثلث حاد الزاوية ، زاوية شمالية ، وفيها مدينة مسينى[٣] المهظورة بكثرة العنب والخمر وهناك المجاز الضيق إلى الأرض الكبيرة ، أكثر ما يكون قدر ستة أميال ، وزاوية قبلية

(١) سبق التعريف به فى التقديم .

(٢) قابل هذا على حديث ابن سعيد عن صقلية فى كتابه « الجغرافيا » ص ١٦٨ (منه مختصر مخطوط بعنوان : بسط الأرض فى طولها والعرض اعتمد عليه أمارى فيما أورد عن صقلية فى « المكتبة العربية الصقلية » ص ١٣٤) .

وانظر كذلك مادة صقلية عند ياقوت معجم البلدان ٤١٦/٣ وعند الحميرى : الروض المعطار ص ٣٦٦ وابن حوقل : صورة الأرض ص ١١٣ .

(٣) راجع عنها الروض المعطار ص ٥٥٩ مادة مسينا وتكتب أحيانا : مسينة (فى أكثر من موضع من رحلة ابن جبير) ومسينى فى معجم البلدان لياقوت ، واستشهد ببيت ابن فلاقس .

وأظل أنشـــد حين أنشــد صاحبى

من ذا يمســـينى على مســـينى

ولكنة نسبه لابن حمديس الصقلى .

وفيها باشو [1]، وهو الموضع الذى يلى طرابلس[2] من افريقية وزاوية غربية ، وفيها مدينة طرابنش [3]. والجبل الذى فيه بركان النار[4] فى جزيرة منقطعة فى [ال شمال من صقلية][5] جرد لا ينبت خضراء .

وذكر أن صقلية كثيرة الزلازل، تتهدم منها مبانيها: وذكر الشريف[6] أن فى جزيرة صقلية أزيد من مائة حصن وبها نهران وعيون ، وهى فى الأقليم الرابع ، كثيرة الخيرات ، ودورها سبعة عشر يوما وطولها خمسة أيام وقاعدتها مدينة بلرم[7] وكانت بها مدن كثيرة متجاورة ذكرها ابن حوقل[8] ولما دخلها النصارى تركوا للمسلمين منها مدينة واحدة وهم إلى الآن فيها[9]

(١) باشو : لم نستطع تحديدها بدقة ، وراجع مادة : باشو فى «الروض المعطار» ص ٧٦ . وهى عند موريتز : بلنشو .

(٢) انظر مادة طرابلس فى الروض المعطار ص ٣٨٦ ومعجم البلدان .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٢٨ (مادة أطرابنش) وص ٣٩٠ (مادة طرابنش) وقال أن النصارى يسمونها أطرابنة ، كما تحدث عنها فى مادة حامد ص ١٨٨ .

(٤) بركان النار : فى الروض المعطار ص ٣٦٧ : « وبجزيرة صقلية البركان العظيم الذى لا يعلم فى العالم اشنع منظرا منه ولا أغرب خبرا »

ويرد ذكره فى مواضع أخرى (ص ٣٠ ، ٨٩ ، ٢٢١ ، ٣٦٧) وجاء كذلك عند ياقوت ٣ / ٤١٧ .

(٥) الزيادة من منتخب المغرب .

(٦) هو الشريف الأدريسى وسبق التعريف به فى التقديم .

(٧) انظر عن بلرم : الروض المعطار ص ١٠٢ والمسالك والممالك (نقلا عن امارى ص ٥) ومعجم البلدان .

(٨) سبق التعريف به فى التقديم .

(٩) إشارة إلى مدينة لوجارة (وتكتبها المصادر العربية احيانا : لوشيرة) فى جنوب ايطاليا ، وكان فردريك الثانى قد نقل إليها مسلمى صقلية ليسهل عليه محاصرتهم والاستفادة منهم إذا اقتضت الضرورة ، وراجع الروض المعطار ص ٥١٤ (مادة لوجارة) وتقويم البلدان لابن الفدا (نقلا عن امارى ص ١٥٠ : مادة لوشيرة) .

وأمامهـــا متنزهات ملاح منها جبل الغربال[1] الذى يتنبـــع منه[2] الماء كعيون المنخل .

التـــاج :

أول من فتحها أسد بن الفرات قاضى افريقية فى مدة زيادة الله بن الأغلب ، يوم السبت للنصف[3] من ربيع الآخر سنة اثنتى عشر ومائتين وتوالى عليها ولاة بنى الأغلب إلى أن انقرضت مدتهم فتوالى ولاة خلفاء العبيديين وتوارث دولتها بنو الحسين الكلابيون وأديبهم وفاضلهم ومنفق سوق الأدب منهم :

* تاج الدولة وسيف الملة[4] أبو محمد جعفر بن ثقة الدولة يوسف ابن عبد الله : قال فيه ابن القطاع :

ملك عظيم وجواد كريم . وفد عليه العلماء والشعراء من كل مكان فاعلى منزلتهم وأجزل صلتهم . وكان الشعر أقل مراتبه فمن شعره قوله :

---

(١) ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، واليه أشار ابن قلاقس فى قوله :

ما رأينا مثال ذا اليـــوم يومـــا   صـــح فيه تناقض الأمثـــال

صار فيه الغـــربال يمسك ماء   من رأى المـــاء قط فى غربال ؟

وهو غير الموضع الذى ذكره الحميرى فى الروض المعطار ص ٤٢٧ .

(٢) مورلـــيز : يتنبت .

(٣) موتـــير : النصف .

(٤) هو ابن يوسف الحسينى الكلبى (ثقة الدولة) الذى تنازل عن الحكم سنة ٣٨٨ فتولاه تاج الدولة يوسف بن عبد الله حتى سنة ٤١٠ هـ ثم تنازل هذا بدوره عن العرش لصالح أخيه أحمد الأكحل .

أرى بديــن قـــد طلعــا [1]

علـــى غصـــنين فى نســـــق

لدى ثوبيــــن [2] قد صبغا

صبـــاغ الخـــد [3]والحـــدق

فهذا الشـــمس فى شـــفق

وهــــذا البـــدر فى غســــق

وقولـــه : (الكامــــل)

هيهات يؤلمنى الزمان[4] فأشتكى

وهو الذى من ســطوتى يتــــألم

وعزيمتى ما أن[5] يثلم غربهـا

خطــب على أن الحــديد يثـــلم

---

(1) النصر فى الجريدة (القسم الصقلى) ١٢٧/٢ منسوب للأمير تاج الدولة جعفر ابن الأمير ثقة الدولة ملك صقلية » وأضاف العماد : « وجدت فى تعليق للمصريين وقد كتب سنة سبع وعشرين وخمسمائة أحسن ما سمع لأهل عصرنا من الارتجال (فى المطبوع : من الارتحال قول هذا الأمير وقد رأى غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب ديباج أسود فقال :) وانظر الخبر عند أمارى ص ٦١٠ .

(2) الخريدة : وفى ثوبين .

(3) مورنـــيز : الخد .

(4) مورنـــيز : الزمـــن .

(5) مورنـــيز : مع أن .

إلا أنه أساء التدبير فاختل عليه أمره ، وآل الأمر إلى أن ارسل أهل صقلية إلى المعز بن باديس فى عسكر فأرسله لهم ، ثم ندموا فطردوا العسكر ووقعت الفتنة بينهم .

وثأر فى صقلية من أهلها ابن الثمنة ومكن الأفرنج فى البلاد[1] فتمكنوا قليلا قليلا إلى أن صار لهم مدينة بلرم وانقرضت مدة الحسينيين وعظم ملك أجار الفرنجى ثم ابنه غليم وكان يعربان كلامهما ويتقربان للمسلمين .

وزوج غليم بنته من ملك لمان ، فصار ملك صقلية له بسببها ، ثم مات وماتت زوجته وورث الملك الانبرطور[2] ملك لمان وابنة غليم أمه . وكان أبوه قد تركه صغيرا فرباه قاضى المسلمين . وثار فى أنطله محمد بن عباد[3] وعظم أمره ، واجتمع عليه المسلمون ودام أمره إلى أن كبر الانبرطور فاشتغل بحربه حتى أذعن ابن عباد لما تكاثر عليه الفرنج .

---

(١) مورتـيز : البلدان .

(٢) راجع المقدمة .

(٣) ابن محمد بن عباد هذا شخصية غامضة ويقول د. احسان عباس : « العرب فى صقلية » ص ١٣١ : « هذا هو اسمه عند ملاترا ولا تذكره المصادر العربية ، وقد كان امارى يظن أنه هو ابن بريدة الذى يمدحه ابن حمد يس ثم عدل عن رأيه ومن العجيب أن ابن حمد يس لا يذكره على شدة العلاقة بين قصائده وأعمال البطولة الأخيرة فى سرقوسة » وتمثل إشارة ابن سعيد هذه نقطة هامة فى إجلاء جانب من الغموض الذى يغلف هذه الشخصية البطولية وان كان الحميرى فى « الروض المعطار » قد أتى بتفصيلات كثيرة عن ابن عباد هذا وعن بطولة ابنته فى خبر طويل جاء ضمن مادة « أنطالة » (ص ٤٠ ـ ٤١) التى يصفها بأنها .

« حصن حصين ومعقل منيع من حصون جزيرة صقلية » وحدد تاريخ الاحداث بسنة ٦١٦هـ.

ولما لم ير أحدا من المسلمين ينصره فغدر به الانبراطور وقتله ، وبقيت بعد ابنته فى أنطله وغدرت بثلاثمائه فارس من فرسان الانبرطور أطلعتهم على أن تمكنهم من الحصن وقتلتهم ثم قتلت نفسها .

الملك :

ذوو البيـوت :

أبو القاسم [1]عبد الله[2] بن سليمان (يخلف) الكلبى :

من ذرية الملك ، مـذكـور فى « الدرة الخطيـرة » ، ناظم ناثر ، له مصنفات فى الرد على العلماء وله :

بروحـى عهد الصـبا فى زرود [3].

بـكل مهـاة مـن العيـن رود

اذ الـدار تجمع شـمل السـرو

ر والدهـر يطـلع نجـم السـعود

(1) جاء عنه فى مختصر الدرة : « أحد الأدباء المجندين والشعراء المعدودين من جمع الى شرف المنصب غرائب العلم والأدب ، وتعرف فى أنواع الشعر وأجاد فى التشبيهات ووصف الخمر وأضاف إلى ذلك جودة النثر ، وله تأليفات وكتب مصنفات ، من رد على العلماء وتعليق على الشعراء .. » وذكر له ١٣ بيتا من مختار شعره فى التشبيهات والخمر والغزل ، أولها :

نعيمى أحلى بتلك الديار رواحى الى لذه وابتكار وترجم له الصفدى فى الوافى بالوفيات ٢٠٢/١٧ وسماه « عبد الله بن سليمان بن يخلف المصقلى ، أبو القاسم الكلبى » وذكر له مختارات علق على بعضها بأنه « شعر جيد » .

(2) الزيادة من مختصر الدرة ، ووضع قبل الاسم نعت الأمير .

(3) موريـنو : بروحى فى عهد الصبا فى ذرود .

واذا مـــوردى من رضاب الثغـــور

واذ مرتعـــى من ثمـــار النهود

(البسيط)

وقال :

فقام يمشى الهوينا من روادفـــــه

وقد تحمـــلت منها فوق ما حمـــــلا[1]

أبو الحسن على بن أحمد بن زيادة الله السعدى :

من « الدرة » :

شريف الأصل ، جامع لأدوات الفضل . من شعره قوله :

ان كان يلهو بشىء عنك بشـغله

فـــلا أتيـــح لـه ما منـــك يأمـــله

فى كل حين له ذكـر يـــردده

شـــوقا اليك وتمثـــالا يمثـــــله

لما رأى دونـك الأبـــواب موصدة

حاول فى غيـــرها بـــابا بوصـــــله

ألقى على جسمه الأسقام تنحـله

كيمـــا يخفف لعل الريح تحمـله !

(١) مورتـــيز : وقد تحملت فوق .

الكتاب :

أبو علي الحسن بن محمد الكاتب

أنشد له ابن القطاع ، وكان جوادا :

(الطويل)

ذروني وأموالى التى [قد] جمعتها
أقدم لى نصفا وأرتع فى النصف
اذا كان أموالى على حسابها[1]
فما لى اذا وليت أتركها خلفى

أبو إسحاق إبراهيم محمد بن خفيف :

كثير النوادر ، أنشد له ابن القطاع :

(الهزج)

رأيت اليوم محمولا
وأعجب منه من حمله
جمال الناس تحملهم
وهذا حامل جمله !

الوزير الكاتب أبو الفضل بن أحمد بن دابق :

ذكره بن القطاع ، وأخبر أنه عالم بالهندسة ، وله فى النرجس قوله :

(السريع)

---

(١) مورتيز : ان كان .

كف من الفضـــة مبســـوطة

فـــى وسطهـــا نثــــر مـــن العســـجد

أبو القاسم عبد الرحمن بن حسب الكاتب [1] :

ذكر ابن القطاع أن له تصانيف ومقامات . وأنشد له :

أغرى جفونى بالســـهاد المقـــلق

لمعـــــان هـــذا البـــارق المتـــألق

باتت لوامعـــه تســـل صـــوارماً

بالغــــرب ثـــم يشميمهـــا بالمشـــرق

فكأنهن ســــــهام نـــار مزقـــت

ثـــوب الدجـــى بضرامهـــن المحــــرق

أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن الأنصارى[2]

من « الدرة » :

كاتب مبرز ، وشاعر مفلق ، له :

(الكامل)

(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى البشر الذى كان مؤدبا للتجيبى أبى طاهر ابن أحمد بن زيادة الله ، وله كتاب « المختار من شعر بشار ونبغ من أولاده فى الأدب كل من أبى محمد عبد العزيز وأبى الحسن على وسيأتيان هنا تحت رقمى ٨ ، ٩ ، ولم يشر ابن سعيد إلى أنهما ابنا أبى القاسم هذا .

(٢) انظر الترجمة السابقة ، وهو فى « مختصر الدرة » مضافا إليه نعت : « الكاتب » .

أخـــلو به وأعف عنـه كأننـــى

حــذر الـدنية[1] لست من عشـــاقه

كالمـــاء فى يـد صـائم يلتـذه

ظمـــأ ويصـــدف[2] عن لذيذ مـذاقه

أخوه :

أبو الحسن على بن عبد الرحمن[3]

رحل الى مصر ، وأنشد له ابن القطاع :

(السريع)

---

(١) مورليـــز : حرز الدره .

(٢) مورليـــز : ويصدق . منتخب المغرب : ويصرف .

(٣) أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر البلنوبى الانصارى الصقلى ، ابن أبى القاسم عبد الرحمن (رقم ٧ فى كتابنا هذا) . ينسب إلى بليدة بصقلية تدعى بلنوبة (تحمل الآن اسم فيلانوافا) ، ولم يلبث بعد استيلاء النورمان على الجزيرة أن هاجر إلى الاسكندرية وعمل فيها بالتدريس ومن تتلمذ عليه فيها الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الخريمى . وهو الذى روى ديوانه ـ وعلى بن الحسن بن يوسف الدمراوى وعمر بن عيسى الموسى وديوانه الذى أشرنا إليه سلمت منه قطعة نشرها هلال ناجى فى بغداد سنة ١٩٧٦ وأضاف إليها ما عثر عليه فى المظان المختلفة ، وفى آخر المخطوطة :

« سمع من أول شعر أبى الحسن الصقلى إلى هاهنا على الفقيه أبى محمد بن يحيى بن حمود الخريمى رحمه الله صاحب الكتاب الشريف القاضى أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثمانى .. واسحق بن أحمد المروزى وأحمد بن محمد بن أحمد السلفى الاصبهانى فى جمادى الأخرة سنة ثلاث عشرة وخمس مائه بالإسكندرية فى منزل الاصفهانى وهذا خطه ومنه نسخته نقل الكتاب والتسميع جميعا والحمد لله وحده » .

جاء بكمثرى جنى غـــــدا

منظـــره يـــــدى لنــــا خـــبره

من كل زهــراء خلوقيـــــة

تجمـــع بيـن النهـــد والســـره[1]

العمال

أبو عبد الله الحسن بن القائد :

من أبناء قواد السلطان ، وتصرف فى الأعمال ، وسافر الى مصر ، وأنشد له ابن القطاع :

(الكامل)

واذا رماحك أشرعت فكأنهـــا

من حول أسد كماتك[2] الآجـــام

وكأنما انسلخت هناك أراقـــم

وكأنمـــا فاضت هناك غمـــام[3]

أبو الحسن على بن المعلم ، صاحب ديوان الصناعة فى « الدرة » أنه ولع بالهجاء وذم الزمان ، وأوطن الأندلس . سأله بعض إخوانه أن يجيز :

(الطويل)

---

(١) البيان فى ديوانه ص ٥٢ (من اضافات المحقق ، استنادا إلى الألحان المسلية .

(٢) مورتـــيز : كتـــابك .

(٣) منتخب المغرب وموريتز : وكأنما باضت هناك نعمام والتصويب من الأصل (كلمة غمام مضافة بالهامش) .

وماء كعين الديك يجرى على الحصا

فقال :

إذا ما نهته الريح عن جريه عصـــى

يصفق مرتاحا براحــة موجــه

كنشوان غنته المثانى [فأرقصـــا][1]

العلماء :

أبو عبد الله محمد بن سدوس النحوى

من الدرة :

برع فى النحو ، ومن شعره قوله :

(المتقارب)

تشيع على الذى لم أقــل

وتسمعـه الناس جيــلا فجيــلا

وهبنى قد قلته مخطئــــا

أمــا فى المــــرؤة ألا تقـــولا

وقوله :

لو كان يجهـــل يـــدرى

كـــان لـــله رســـــــولا[2]

---

(١) ناقص من الاصل (وأضيف بالهامش) ومن مورتيز ، ويرد فى منتخب المغرب .

(٢) كذا فى الأصل وعند مورتيز والبيت مضطرب معنى ووزنا ، وحاولنا إصلاحه فلم يتيسر لنا ذلك .

الفقيه القاضى أبو اسحاق بن مالك المعافرى [1] :

من الدرة :

أحد قضاة الجزيرة المشهورين بالعدل والكرم . من شعره قوله :

كتبت لما تمــادى فيــك مصطبرى

أشكو اليك صباباتى وآلامـــــى [2]

مازال يبكى على ما نال [3] من حرقى

عليك مقلة قرطاسى وأقلامــــــى

أبو الحسن على بن محمد بن القطاع [4] : (٢٩٧)

من الدرة :

أحد العلماء المتقدمين ، مدح الحاكم ، وله :

وواصلت أنفاسا أبى [5] طول وصلها

لقلبى إلا أن يكــون مقطعـــــا

---

(١) فى مختصر الدرة :

« القاضى أبو اسحاق ابراهيم بن ملك المعافرى : أحد قضاة الجزيرة المشهورين بالكرم والإنعام ، المذكورين بكثرة الصواب فى الأحكام وله مع ذلك شعر كثير ، وترسيل غزير . من ذلك قوله فى صباه » وأورد له نفس ما اختار ابن سعيد .

وهو فى مورليز : بن ملك المعافرى .

(٢) مختصر الدرة : كتبت لما فنى دمعى ومصطبرى . إليك أشكو ....

(٣) مورليز : ما نلته .

أما فى ح ف : « ما نالته » وكتب فوقها : ما نال .

وفى مختصر الدرة : مازال يبكى على ما نلت .

(٤) فى مختصر الدرة : ورقة ١٠٠ ظ شعر لابى سعيد فى مدح ابى الحسن على بن محمد بن القطاع لما قلد ديوان الخاصه .

(٥) مورلـــيز : إلى .

وأفنيت دمع العين يوم فراقكـــــم

فلم يبق[1] لى دمع يفارق مدمعـا

أبو محمد عبد المعطى بن محمد السرقوسى :

من الدرة :

عالم بالمنطق والحساب ، وله :

(الخفيف)

أطلب الـــرزق حيث كان من الأر

ض فـــإن الفقـــير كالمفقـــود

وإذا ضـــاقت[2] البـــلاد بحـــر

ســـار منها الى مـــكان جـــديد

أبو محمد جعفر بن على بن محمد بن القطاع اللغوى [3]:

من الدرة :

له تصرف فى العربية ، ومن شعره قوله :

(الكامـل)

---

(١) مورنـــيز : يبقى .

(٢) مورنـــيز : وأن أضاقت .

(٣) أبوه : أبو القاسم على بن جعفر بن على السعدى (ابن القطاع) مصنف كتاب « الأفعال » وقد ارتحل الى مصر بعد سقوط صقليه فى أيدى النورمان ، وبها توفى سنه ٥١٥ هـ .

انظر عنه ، فضلا عن المصادر المتداولة : الذهبى : سير أعلام النبلاء حـ ١٩ ص ٥٨ (بيروت ١٩٨٤ بتحقيق شعيب الأرنئوط) ترجمة رقم ٤٧٣ .

لما استقلوا للـــرحيل[1] ضحـــى

وتضـــاعف الزفـــرات والكـــرب

أخفيت شـــخص عن وداعهـــم

حـــذر الرقيب فـــودع القـلب

أبو القاسم هاشم بن يونس

من الدرة :

أخذ من كل علم بنصيب وافر ، وله :

(مجزوء الخفيف)

رب ليـــل ســـواده[2]

كســـواد الـــــذوائب

صـــارمى فيه حاجبـــى

والردينـــــى كاتبـــــى

ســـرت فيه كأننـــــى

بعض زهـــر الكواكـــب

راكبا عـــزمة الهـــوى

أى طـــرف لراكـــــب[3]

الزهـــاد

---

(١) فى الأصل : للريح .

(٢) مورتـــيز : سواه .

(٣) مورتـــيز : الراكب .

أبو محمد عبد الله بن مبارك[1]

من الدرة أنه من أهل الديانه . له :

(الطويل)

تأمل لعـــل الله يعقبك الهـــدى

فشاهد ذاك العقد ان لم يكن نسك[2]

أليس الذى قد نظم العقد بـــدأة[3]

ينظمه عـودا اذا انتشـــر[4] الســـلك

(١) فى الخريده (قسم المغرب ، ط . تونس) ١ / ١١٨ ذكر لشاعر يدعى عبد الوهاب بن عبد الله بن المبارك لا نعرف ان كانت له صلة بصاحب هذه الترجمة ، وأورد له العماد مقطوعتين، الأولى غزلية ، منها :

نفســـى الفـــداء لظبـــى قد جاز فى التيه حـــــده

حـــكى القضيب انعطـافا كما حكى الليث نجـــده

ويقول فى الثانيه :

اذا المرء لم يعرف بجـــد ولا أب

ولـم يشتهر فى الناس الا بأمـــه

فلا تسألن عن حاله فهو ســـاقط

وآن لم يشع فى الناس أسباب ذمـه

(٢) مورتيـــز : فشاهد ذاك العقل ان لم يكن ذ ..

وهو غير واضح فى منتخب المغرب ، وفى الاصل : العقد أن لم يكن .

(٣) مورتـــيز : بـــداءة .

(٤) فى الأصل : اذا انتظم (وبهامشه : اذا انتثر) .

الشـــعراء

أبو الحسن على بن محمد بن على الربعى المعروف بابن الخياط [1]

أطنب فى الثناء عليه من طريقة الشعر والأدب ابن القطاع .

وهو أحد أعلام الشعراء ، ومدح كثيرا من ملوك بنى أبى الحسين ، منهم جعفر بن ثقة الدولة .

وحضر الفتنة ومدح صاحبها ابن الثمنة بقصيده أولها :

(الكامل)

سر حيث شئ فأنت وحدك عسكر

والناس بعـــدك فضلة لا تذكـــر[2]

ومن شعره قوله :

(البسيط)

يا جامع البوس والنعما براحتـــه

كالغيث يجمـــع بين المـاء واللهب

---

(١) أحد الشعراء المعدودين فى صقلية (وهو غير على بن عثمان بن الحسين الربعى الصقلى المذكور فى ذيل المكتبة العربية الصقلية ص ٤٧) . وترجم له د. إحسان عباس ترجمة مطولة فى العرب فى صقلية (ص ٢٠٥ ـ ٢٢٣) ود. فوزى عيسى فى : الشعر العربى فى صقلية (٤١٧ ـ ٤٢٤) .

(٢) مورتـــيز : فعله لا يذكر .

وقوله :

تمتع بالمنـــام[1] على شـــمال

فسوف يطـــول نومـك باليميـــن

ومتع من يحبـك من تـــلاق[2]

فأنت من الفـــراق على يقيـــن

أبو محمد قاسم بن عبد الله التميمى :

أنشد له صاحب الدرة :

(الطويل)

معسكر[3] أرض من جناح وحافر

وليل وصبح جحفل وصـــــوارم

فلا دجن الا أن تثور عجاجـــة

ولا حزن إلا أن تحز[4] جماجـــم

---

(١) البيتان فى « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » لخالد بن عيسى البلوى (تحقيق حسن السائح (الرباط ، لا تاريخ) حـ ١ ص ١٧٣ ، بتصدرها « وأنشدنى (أبو الحسن على ، المشتهر بالمنتصر) لبعضهم » .

(٢) تاج المفرق : بالرقـــــــاد .

تاج المفرق : يحبـك باجتمـــاع .

(٣) الأصل : فعلو أرض (وبهامشه : سماء وأرض) .

مكان الكلمة فراغ فى موريليز ، وقد آثرنا قراءة منتخب المغرب .

(٤) منتخب المغرب :

ولا مـــزن الا أن تخـــف

أبو عبد الله بن الحسن بن الطوبى :[1]

مكثر ، عنوان طبقته قوله ، وهو من شعر الدرة : (البسيط)

إن قلت انك عصن كنت ذا ملق
أو قلت فيك مقال الزور والمذق[2]
اذ كنت تحسن عريانا ومكتسيا [3]
والغصن يقبح فى عينى لا ورق[4]

أخوه :

على بن الحسن [5] :

---

(١) تتضمن الخريدة (قسم المغرب) اسم شاعرين ينسبان الى قصر الطوب بأفريقية أولهما أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبى المذكور هنا (حـ ١ ص ٥٥) وثانيهما أبو الحسن على بن الحسن بن الطوبى (حـ ١ ص ٧٢) .
ويقول العماد ، نقلا عن أبى القطاع أن صاحب الترجمة « كان صاحب ديوان الرسائل والانشاء ومن ذوى الفضائل البلغاء ، طبيبا مترسلا شاعراً » وذكر له مقطوعات عديدة . وفى الوافى بالوفيات ١٧ / ٥٨٤ ، (ترجمة رقم ٤٠٩) ذكر لعبد الله بن محمد بن الحسين الصقلى الطوبى الكاتب جاء فيها أن أمية بن أبى الصلت تحدث عنه فى الحديقة وأورد له بعض مقطوعات .

(٢) فى الأصل : مقال الزور والدزر . وبالهامش : الزور والملق .
وفى مورتيز : مقال والزور (يعقبها فراغ) والاضافة من منتخب المغرب .
والمذق : القول الذى شابته شائبة .

(٣) مورتيز : أو مكتسيا .

(٤) فى الأصل ومورتيز فراغ والتكملة من هامش المخطوطة ومن منتخب المغرب .

(٥) ترجم له العماد فى الخريدة قسم المغرب (بعد أن ترجم قبله لابى عبد الله محمد بن الحسن ابن الطوبى ـ رقم ٢١ فى طبعتنا ـ ولم يشر الى أنهما شقيقان) وقال :
« ذكر (ابن القطاع) أنه إمام البلغاء ، وزمام الشعراء ، مؤلف دفاتر ، ومصنف جواهر ، ومقلد دواوين ، ومعتمد سلاطين ، سافر إلى الشرق ، وحل منه فى الأفق ، وكان فى زمان المعز بن باديس عنفوانه .. » وأوردت له مختارات فى نحو تسع صفحات ، من بينها البيتان المذكوران هنا بدون تغير .

من شعراء الدرة ، له : (المنسرح)

قال العذول التحى فقلت له :

حسن جديد قضى بتجديد

ما ترى عارضيه فوقهما

لام ابتداء ولام توكيد

محمد بن على الصباغ[1]

من شعراء الدرة ، له [2] (المجتث)

لا يخدعنك خب

يطول منه السكوت

فالزند يضمر ناراً

وهو الأصم الصموت

---

(١) لا نعرف عنه معلومات كثيرة ، وفى الذخيرة (المجلد الأول من القسم الرابع ص ٣٠٨) ذكر للاديب الكاتب ابى عبد الله محمد بن الصباغ الصقلى : « أحد أدباء وقتة المشاهير ، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير » وعلق محقق الذخيرة :

« لعله هو محمد بن أحمد بن عبد الله الصقلى الذى وردت ترجمته فى الحمدون ص ٦٨ نقلا عن الدرة الخطيرة لابن القطاع » .

بينما يأتى فى الخريدة (حـ ١ ص ٩٠ ط . تونس) استنادا الى الدرة الخطيرة (وسماه : أبو عبد الله محمد بن على بن الصباغ الكاتب) :

« كان فى عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات ، ذكر أنه ناظم ناثر » وأورد نماذج من هذه المراسلات الشعرية .

ولسنا نتفق مع هامش د. إحسان عباس الذى فى تحقيق الذخيرة ، لاختلاف الاسم .

(٢) يأتى فى الخريدة حـ ١ ص ٨٤ ط تونس وفيها وفى منتخب المغرب : لا يخدعنك حب . الخب : المخادع .

سليمان بن محمد الطرابنشي [1] :

من شعراء الدرة ، له :

ووردية من بنات [2] الكروم

كساها النحول مرور الحقب

رأت أيدي الشرب من فضة

فصاغت أناملهم من ذهب

---

(1) في الخريدة (حـ ١ ص ٩٤) من قسم شعراء المغرب الطبعة التونسية وأورد المحققون الاسم مغلوطا فجعلوه : سليمان بن محمد الطرابلسي ولم يتبينوا أن النسبة الى مدينة طرابنش بصقلية .

ونقل العماد عن « الدرة الخطيرة » :

« ذكر (ابن القطاع) أنه سافر الى أفريقية ، وانتقل الى الأندلس وتوطنها واتخذها لمخالطة ملوكها سكنا » واختار له نماذج قليلة أجملها قوله :

نبهته لما تغنى الحمام	ومزق الفجر قميص الظلام
وقلت قم يا بدر تم أدر	في فلك اللهو شموس المدام
فقام نشوان وشمل الكرى	له ـ يرتمي مقلتيه التثام
ومج في الدن خلو قيسه	عمقها في الدن طول المقام
لاحت تحاكي ذهبا خالصاً	دار من الدر عليها نظام
بنت عناقيد اذا خامرت	شيخاً أعارته مجون الغلام
يأهل لعيشي معه أوبه	تعيد في وجه حياتي ابتسام

والنص جميل ، وفي رواية الشطرة الثانية من البيت الثالث اضطراب .

(2) مورتيز : نبات .

أبو العرب مصعب بن محمد القرشى [1]:

من الدرة :

شاعر دهر وواحد عصره ، ومدحه صاحبها ووفد على المعتمد بن عباد وحظى بصلاته وله : (الطويل)

ولا بد لى أن أسأل العيص حاجـــــة
تشـــق على أخفافهـــا والغـــوارب

على لا مالى أضطـــراب مؤمـــــل
ولكن على الأقـــدار نجـــح المطالـب

---

(1) أحد أعلام الأدب فى صقلية ، ويأتى فى الشهرة والمنزلة بعد ابن حمد يس . ذكره العماد فى الخريدة (نقلا عن امارى ص ٦٩) :

« ولد بصقلية فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وخرج منها لتغلب الروم عليها فى سنة أربع وستين وأربعمائة قاصدا للمعتمد محمد بن عباد . قال أبو القاسم بن منجب فى تعليقه : «وبلغنى فى سنة سبع وخمسمائة أنه حى بالأندلس . قال قصيدة مدح بها المعتمد بن عباد أول ما لقيه سنة خمس وستين وأربعمائة :

إلام اتبـــاعى للامـــانى الكـــواذب   وهذا طريـــق المجـــد بـــادى المذاهـــب

أورد منها تسعة أبيات ، منها الأبيات الثلاثة الواردة هنا .

وفى القسم الرابع من الذخيرة (المجلد الأول ص ٣٠١) أنه كان لسانا بهذا الأفق عن العرب أعرب ، وكوكبا من المشرق غرب » .

وترجم له ابن سعيد فى الرايات ص ١٤٨ (وجعل المحقق وفاته سنة « ٦٠٦ هـ » وهذا محض خطأ فالمتفق عليه أنه مات بميورقة سنة ٥٠٦ قبل ابن اللبانة بسنة واحدة ودفن ابن اللبانة بجانبه، كما ورد ذكره فى الوفيات عرضا لثانيا ترجمة ابن الحسن الحصرى (حـ ٣ص ٣٣٤).

وانظر الرزكلى : الاعلام ٨ / ١٥١ ود . عصام سيسالم : جزر الأندلس المنسية ص ٥٣٣ .

الــدال

الـــراء

الصـــاد

١١ أبو الحسن بن المعلم : يصفى مرتاحا براحـــة موجـــه

كنشوان غنته المثانى فأرقصا

١٤ أبو الحسن بن القطاع : وواصلت أنفاساً ابى طول وصلها

لقلبى ألا أن يـكون مقطعـا

الفـــاء

٤ أبو على الحسن بن محمد : ذرونى وأموالى التى جمعتها

أقدم لى نصفـا وأرتـع فى النصف

القـاف

١ يوسف بن عبد الله : أرى بدريـــن قـــد طلعـــا

عـــلى غصنـــين فى نمنـــق

٧ أبو القاسم الانصارى : أغرى جفونى بالسهاد المقلى

لمعان هذا البـــارق المتألـــــق

٨ أبو محمد الانصارى : أخلو به وأعف عنه كأنـــنى

حذر الدنية لست من عشـــاقه

٢١ أبو عبد الله الطوبى : إن قلت أنك غصن كنت ذا ملق

أو قلت فيك مقال الزور والمذق

٢٩ عبد الله بن جبر : لو رام يحلف أن الشمس ما غربت

فى فيه كذبـه من خده الشفق

٢٩ عبد الله بن جبر وصعدة أيست سروال مشتهـــر

بالحب منغمس فى الدمع والحرق

الـــكاف

١٨ ابن مبـــــارك : تأمل لعل الله يعقبك الهـدى

فشاهد ذاك العقد أن لم يكن نسك

الـــلام

٢ عبد الله بن سليمان : فقام يمشى الهوينا من روادفـه

وقد تحملت منه فوق ما حمــلا

٣ على بن أحمد بن : إن كان يلهو بشىء منك يشغله

زيادة الله فلا أتيــح له مامنــك يشغــله

٤ على الحسن بن محمد : رايت اليـــوم محمــــلا

وأعجب منـــه من حملــــــه

١٢ ابـــن ســـــدوس : تشبع على الـذى لم أقـل

وتسمعه الناس جيــلا فجيـــلا

١٢ ابـــن ســـــدوس : لو كان يجهـل بــــدرى

كـــان للـــه رســـــولا

٢٦ أبو على الطرابنشـــى : أتدرى ما يقول لك العـذول

وتدرى ما يريــد بما يقـــول

الميم

١ يوسف بن عبد الله : هيهات يؤلمنى الزمان فأشتكى

وهو الذى من سطوتى يتألم

١٠ أبو عبد الله الحسن : واذا رماحك أشرعت فكأنها

من حول أسد كماتك الأجام

١٣ أبو اسحاق المعافرى : كتبت لما تمادى فيك مصطبرى

أشكو اليك صباباتى وآلامى

١٠ أبو محمد التميمى : معسكر أرض من جناح وحافر

وليل وصبح جحفل وصوارم

النون

١٩ ابن الخياط : تمتع بالمنام على شمال

فسوف يطول نومك باليمين

اذا كان أصلى من تـراب فكلهــا

بلادى وكل العالميــن أقاربــى[1]

أبو على حسن بن عبيد الله الطرابنشى[2]

من الدرة له : (الوافــد)

أتدرى سا يقــول لــك العــذول

وتــدرى ما يريــد بما يقــول

يريــد بك السلو وهل جميــل ؟

ســلوك عن بثينــة يا جميــل

أبو محمد عبد الجبار بن حمد يس [1] :

---

(١) ذكر العماد أن هذا البيت مأخوذ من قول ابن المعتز :

اذا كنت فى النفــس ذا ثــروة   فأنت المســود فى العالـــم

وحســبك مـن نســب صــورة   تخــبر أنــك مــن آدم

(٢) ترجم له العماد فى الخريدة استناداً الى ابن القطاع ، وانظر الجزء الأول ص ١٠٩ من الطبعة التونسية وفيها :

« أبو الحسن بن عبد الله الطرابلسى (كذا ، ولم يتنبه محققو الكتاب الى أن هذا الاسم إنما هو نسبة الى مدينة طرابنش بصقلية) وأورد له البيتين المذكورين مع مقطوعتين أخريين .

(٣) أشهر شعراء صقلية على مدى العصور ، مولده بسرقوسة نحو سنة ٤٤٧ هـ وفيها تألقت شاعريته ولكنه أضطر للرحيل عنها فى سنة ٤٧١ الى الأندلس وقضى فى صحبة المعتمد بن عباد زهاء ثلاث عشرة سنة وظل فى غربته يستصرخ أمراء الأندلس والمغرب لاسترداد صقلية ولكن صرخاته ضاعت هباء ، ولما سقطت دولة المعتمد ونفاه ابن تاشفين الى أغمات بإفريقية لم يتردد ابن حمد يس فى الذهاب اليه ، وعاش حياته مشردا غريبا الى أن توفى سنة ٥٢٧ هـ وهو صاحب الابيات الشهيرة :

ذكــر صقليــة والاســى   يهيج فى النفس تذكارهــا

ومـنزلة للتصــابى خلــت   وكان بنو الظرف عمارهــا

فان كنت أخرجت من جنــه   فأنى أحــدث أخبارهــا

ولولا ملوحـة مــاء البــكا   ء لخلــت دموعى أنهارهــا

=

أعظم شعراء صقلية ، وأحسنهم معانٍ وأحقهم بالطبقة العالية ، وفد على المعتمد عباد وقد تقدم له هنالك[1] من الشعر ما يعنون عن طبقته

وأبـــدع شعره قوله [2] : (السريع)

باكـــر إلى اللـــذة واركب لهــــا

عـــوادى اللهـــو ذوات المـــــراح

= قال عنه ابن بسام فى الذخيرة (القسم الرابع ص ٣٢٠ من المجلد الأول) .

« أحد من وفد أيضا على المعتمد وهو من جملة من لقيته وشافهته ، وأسمعنى شعره ، وهو شاعر ماهر يقرطس أغراض المعانى البديعية ، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف فى التشبيه ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب » .

وانظر عنه الخريدة ٢ / ١٩٤ والوفيات ٣ / ٢١٢ وله ديوان صممه وقدم له د احسان عباس . وراجع عنه : د. سعد اسماعيل شلبى : ابن حمد يس الصقلى حياته من شعره ومراجع أخرى (ذكرناها فى كتابنا : قراءات نقدية فى المكتبة العربية ١٤٩ وما بعدها) يضاف اليها :

د. عصام سالم سيسالم : جزر الأندلس المنسية ص ٥٣٣ وفيه : « والأرجح أنه غادر جزيرة ميورقة قبل العدوان الصليبى عليها سنة ٥٠٨ هـ ١١١٦ واستقر فى بجاية فى المغرب الأوسط وتوفى هناك » .

(١) يقصد ابن سعيد ما فى « المغرب » عن المعتمد بن عباد ومدائح الشعراء فيه . وقد ضاع ذلك من الأصول التى وصلت من « المغرب » .

(٢) البيتان فى ديوانه ص ٨٩ من قصيدة فى مدح الرشيد عبيد الله بن المعتمد وفى الذخيرة (المجلد الأول من القسم الرابع ص ٣٢٣) والوفيات ٣ / ٢١٣ ومسالك الأبصار (نقلا عن أمارى ص ١٥١) والخريدة (قسم الأندلس ٢ / ٦٦) وحلبة الكميت ٢٤٠ ورواية الديوان والذخيرة والمسالك :

باكـــر الى اللـــذات واركب لهـــا   ســـوابق اللهـــو ذوات المـــراح

ونسبهما صاحب معاهد التنصيص (ط . بولاق) ص ٢٥١ لابن رشيق .

من قبل أن ترشفَ شمسُ الضحى[1]

ريقَ الغوادي من ثغور الأقاح

وقوله (٣):

ومطرد الأحشاء تصقل متنه

صب أعلنت سر الفلى في ضميره[٢]

جريح بأطراف الحصا كلما جرى

عليها شكا أوجاعه بخريره[٣]

كأن حبابا[٤] ريع تحت حبابه[٥]

فأسرع يلقي نفسه في غديره[٦]

---

(١) مورلـيز : الشمس الضحى .

(٢) الأبيات في ديوانه ص ١٨٦ ، وهي في وفيات (ط . إحسان عباس) ٣ / ٢١٣ والرايات ١٤٩ والخريدة (قسم الأندلس) ٢ / ٦٩ مسبوقة بـ : « وانشدت له ببغداد ، ونسبت إلى أبي الصلت وصح أنها لابن حمديس » والأول في الذخيرة (المجلد الأول من القسم الرابع ص ٣٣٩ بعنوان : « وقال في صفة نهر » والأول والثاني في النفح ١ / ٤٩٩ ، مصدرة بـ : « وقال ابن حمديس المغربي يصف نهراً بالصفاء » .

(٣) الديوان : ومطرد الأرجاء يصقل .. أعلنت للعين ما في ضميره .

الخريدة : ومطرد الأرجاء تصقل متنه .. صب أودعت سر الهوى ...

الذخيرة : ومطرد الأرجاء تحسب متنه .. صب أودعت سر القذى ..

نفح : ومطرد الأمواج (وبقية البيت تتفق والذي في الديوان)

الوفيات : ومطرد الأجزاء ....

(٤) منتخب المغرب : بكا أوجاعه .

(٥) الخريدة : ريع فوق .

(٦) الوفيات : فأقبل يلقي

أبو القاسم بن طلحـــة :

كان فى دولة منصور بنى عبد المؤمن . وأحسن ماله قوله [(١)] :

(السريع)

أيتهـــا النفــــس إليـه آذهــــبى

فحبــــه المشـــهور من مذهـــبى

مفضـــض الثغــر لـه شـــامة[(٢)]

مســـكة فى خــده المذهـــــب

أيا ســـنى التوبـة عن[(٣)] حبـــه

طلوعـــه شمســـا [(٤)] من المغرب

عبد الله بن جبر الصقلى :

كان فى مدة مستنصر بنى عبد المؤمن فى المائه السابعة .

أحسن ما سمعت له قوله :

(البسيط)

---

(١) الأبيات فى عنوان المرقصات ص ٩٢ مصدرة بـ : « أبو القاسم بن طلحة الصقلى له فى المرقص قوله :

(٢) عنوان المرقصات : لــه نقطة .

(٣) عنوان المرقصات : من حبــه .

(٤) مورلـــيز : عن المغـــرب .

نورام يحلـــف أن الشمــس ما غربت

فى فيــه كذبـــه من خـده الشـفق

وقوله فى شمعة :

(البسيط)

وصعـــدة لبســت ســـروال مشـــتهر

بالحـب منغمـس فى الشمـع والحرق

مازال يطعـن صـدر الليـل يهزمها [١]

حتى غـدا ســائلا منه دم الشـــفق

---

(١) مورتـــيز : لهزمهـــا .

ملحـــق :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الغايـــة الأخـــيرة
فى حلـــى الأرض الكبـــيرة

أما بعد حمداً لله ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه .
فهذا الكتاب الأخير من الكتب التى يشتمل عليها شمال افريقية وهى :

الأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة ، هى من أول درب الأندلس إلى خليج القسطنطينية ، فيها من المدن العظيمة للمسيحية القسطنطينية بناها قسطنطين ، أول من أظهر دين النصرانية ، وهى من الكبر على ما اشتهر ، وفيها من المنابر والكنائس العجائب .

وأخـبـرنى من دخلهـا فى هذه المدة أنهـا خـربت ولم يبق لسلطان النصارى فيها رونق لتغلب الفرنج على الروم .

وفيـها مدينة رومية التى فيـها البابة خليفة عيسى عند النصارى ، يقـولون أن دورها أربعة وعشرون ميلا ، وفيـها مملكة لمان ، ومملكة فلورية ، ومملكة فرنسا ، ومملكة أفرنجة وأعظم سلطان لهم الآن هو قيـصر المتـوج الانبرون ، لكثرة بلاده ، وما بعد من الأباء فى السلطنة ولهذه الأرض جزائر وممالك كثيرة ، وقد تقدمت صورتها وبها كمل جميع كتاب المغرب فى حلى المغرب . والحـمـد لله وصلواته على خيرة خلقه مـحـمـد وعلى آله وصحبة .

نقلت هذه النسخة من نسخة بخط مكمل تصنيفه على بن سعيد فى مدينة حلب المحروسة بالخزانة الصاحبية الكمالية عمرها الله ، بتاريخ سنة سبع وأربعين وستمائة .

* آثرنا أن نضيف ـ فى ذيل القسم الصقلى ـ تلك النبذه الموجزة التى أسماها ابن سعيد « الغاية الأخيرة فى حلى الأرض الكبيرة » واعتبرها كتابا مستقلا ، وهى تأتى فى أعقاب القسم الصقلى مباشرة

وجاءت أيضا فى مختصر المغرب كاملة ، ولكنها بدأت فيه بالعنوان بلا بسملة أو تقديم ، كما ختم بها هذا المختصر ، وصورة ما جاء فى نهايتها :

وبها كمل المطرب المختار من المغرب

فى حلى المغرب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليما كثيراً آمين .

ثبت بأسماء الأعلام
الذين ترجم لهم ابن سعيد فى القسم الصقلى
من « المغرب »

التاج :

١ ـ أبو محمد جعفر بن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله .

الملك (ذوو البيوت) :

٢ ـ أبو القاسم عبد الله بن سليمان الكلبى .

٣ ـ أبو الحسن على بن أحمد بن زيادة الله السعدى .

الكتاب :

٤ ـ أبو على الحسن بن محمد الكاتب .

٥ ـ أبو اسحاق ابراهيم محمد بن خفيف .

٦ ـ أبو الفضل بن أحمد بن دابق .

٧ ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن حسن الكاتب .

٨ ـ أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن الانصارى .

٩ ـ أحوه : أبو الحسن على بن عبد الرحمن الانصارى .

العمال :

١٠ ـ أبو عبد الله الحسن بن القائد .

١١ ـ أبو الحسن على بن المعلم (صاحب ديوان الصناعة) .

العلمـــاء :

١٢ ـ أبو عبد الله محمد بن سدوس النحوى .

١٣ ـ أبو اسحاق بن مالك المعافرى (الفقيه القاضى) .

١٤ ـ أبو الحسن على بن محمد بن القطاع .

١٥ ـ أبو محمد عبد المعطى بن محمد السرقوسى .

١٦ ـ أبو محمد جعفر بن على بن محمد بن القطاع اللغوى .

١٧ ـ أبو القاسم هاشم بن يونس .

الزهـــاد :

١٨ ـ أبو محمد عبد الله بن مبـــارك .

الشـعراء :

١٩ ـ أبو الحسن على بن محمد بن على الربعى المعروف بابن الخياط .

٢٠ ـ أبو محمد قاسم بن عبد الله التميمى .

٢١ ـ أبو عبد الله بن الحسن بن الطوبى .

٢٢ ـ أخوه : على بن الحسن .

٢٣ ـ محمد بن على الصباغ .

٢٤ ـ سليمان بن محمد الطرابنشى .

٢٥ ـ أبو العرب مصعب بن محمد القرشى .

٢٦ ـ أبو على حسن بن عبيد الله الطرابنشى .

٢٧ ـ أبو محمد عبد الجبار بن حمد يس .

٢٨ ـ أبو القاسم بن طلحة .

٢٩ ـ عبد الله بن جبر الصقلي .

---

* نذكر هنا أسماء الأعلام التي ترد في مختصر الدرة :

أبو سعيد ميمون بن أبي بكر الوراق .

أبو محمد النحوي .

أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التعلبي (التغلبي ؟) .

أبو محمد الحسن بن محمد الطوبي الكاتب .

أبو الحسن بن عبد الله بن الحسين التميمي السعدي .

أبو عبد الله العروضي .

أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالصقلي .

ابن بشرى الكاتب .

أبو الحسن علي بن الحسن بن حبيب النحوي .

الاميرتاج الدولة وسيف الله .

الحسن بن أحمد الكاتب .

الأمير أبو القاسم بن عبد الله بن سليمان يخلف الكلبي .

٩٨ ط أبو محمد ميمون بن الحسن الكلبي .

أخوه الأمير أبو الحسن المقداد بن الحسن الكلبي .

أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي سعيد القاضي سهل بن مهران .

أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن خفيف الكاتب .

القاضي أبو اسحاق ابراهيم بن ملك المعافري .

الأمير أبو عبد الله محمد بن الأمير جعفر بن محمد بن الحسن .

الوزير أبو الفضل عبد العزيز بن أحمد بن رائق .

أبو المصيب عبد الله بن أبي مالك القدسي .

فهرست القصائد

مصر في كتب الرحالة في العصر البيزنطي

د. محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

امتازت مصر بحكم وجودها فى قلب العالم القديم بالآثار والذكريات الدينية الكثيرة بعامة، واليهودية والمسيحية بخاصة ، ومن ذلك ما كان من حياة سيدنا يوسف وسيدنا موسى ، وخروجه من مصر وزيارة السيد المسيح والسيدة مريم لمصر، يضاف إلى ذلك ما كان للرهبانية وما لها من تأثير كبير على الرهبانية فى العالم الخارجي.

وبعد الاعتراف بالمسيحية وفد على مصر الكثير من الزوار الذين رغبوا فى تتبع خطوات الأنبياء ومشاهدة الأماكن التى وقعت فيها المعجزات أو زيارة القديسين أو الشهداء الذين لهم مزارات فى مصر ، بالإضافة إلى زيارة الأديرة ومعايشتها على أرض الواقع ، وقد عرف هؤلاء باسم الحجاج . وقد قام بعض هؤلاء الحجاج بتسجيل بعض مشاهداتهم وذكرياتهم فى مصر ، والحقيقة أن الغرض من قيام هؤلاء بكتابة ما شاهدوه فى رحلاتهم هو وضع دليل للحجاج الذين يزورون المنطقة ليكون مرشداً لهم وهادياً أثناء تجولهم فى الأراضى المقدسة بالشام أو فى مصر . ويلاحظ أيضاً أن بعض كتاب العصور الوسطى سجلوا بعض المعلومات عن بلاد الشام ومصر دون أن يزوروا المنطقة ولعل ذلك مرجعه إلى تشريف مؤلفاتهم بهذه المعلومات التى تتعلق بالأراضى المقدسة التى تتطلع إليها قلوب وعقول المسيحيين فى أوربا خاصة رجال الدين ومن هؤلاء على سبيل المثال المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Tour (٥٣٩ - ٥٩٤م) الذى تحدث عن مخازن سيدنا يوسف ولكنه

أخطأ وأشار إلى الأهرامات كما تحدث عن سيدنا موسى وخروج بنى إسرائيل من مصر[1].

وعلى أية حال فإنه التزاماً بموضوع البحث فقد التزم الباحث بتقديم أربعة من الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر البيزنطى وكتبوا عنها . ومن المالحظ أن هؤلاء الرحالة اهتموا بالدرجة الأولى بتسجيل الجوانب الدينية ولكنهم فى بعض الأحيان يقدمون لنا معلومات حضارية فى غاية الأهمية ، وسوف يقدم الباحث ما قدمه هؤلاء سواء أكان دينياً أم حضارياً . وقد وقع اختيار الباحث على ما سجلته القديسة سلفيا أف أكويتين St. Silvia of Aquitania والقديسة بولا Paula والرحالة ثيودوسيوس Theodosious وأخيراً أنطونيوس الشهيد Antoniaus Martyr ، ويلاحظ أن اثنتان من السيدات واثنان من الرجال وأن كل منهما سجل جانباً لم يسجله الأخرون ، وبذلك تعددت الفوائد التى قدمها لنا هؤلاء الرحالة فى مصر تحت الحكم البيزنطى . وأول هؤلاء الأربعة حسب التسلسل التاريخى هى القديسة سلفيا أف أكويتين .

القديسة سلفيا St. Silvia

هناك جدل كبير حول صاحب أو صاحبة هذه الرحلة ، وحول التاريخ الذى وقعت فيه أيضاً ، ولكن فى البداية يمكن القول أنها من عمل إحدى السيدات ، والدليل على ذلك أنه فى الحديث عن الرحلة فى مرحلة جبل سيناء وردت هذه الجملة « وما أود أن تعوفونه أيها السيدات الموقرات والأخوات أنه فى المكان الذى أقف فيه توجد كنيسة نقف بالقرب من أسوارها ، وهى تقع فى منتصف قمة الجبل»[2] وفى موضع آخر عند الحديث عن القدس وأيام العماد فقد ذكرت «أننى أود أن أشرح لكم يا أخواتى .... »[3] .

أما عن الشخصية التى قامت بالرحلة فإنه من الواضح من سطور الرحالة أن اللغة اللاتينية هى لغتها الأصلية وأنها كانت ملمة باللغة اليونانية [٤] . كما أنها قارنت فى رحلتها بين نهر الفرات وذكرت أنه نهر واسع وكبير وكان عليها أن تعبره بسفينة ، وبين نهر الرون فى فرنسا مما يشير إلى علاقتها بالأخير أو أنها تعيش بالقرب منه [٥] .

أما اللغة اللاتينية التى استعملتها فيرى المتخصصون فى علم اللغة أنها لغة جنوب فرنسا . والواقع أن الرحلة كانت غير عادية ، وأن الشخصية التى قامت بالرحلة كانت غير عادية أيضاً ، لأنها استقبلت أينما ذهبت بالحفاوة وكان لها مقابلات مع كبار رجال الدين وكان لها حرسها الخاص فى الأماكن النائية كما كان الحال فى صحراء سيناء [٦] .

ويرى البعض أنها جالا بلاسيديا Galla Placidia ابنة الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) ، ولكن هذه الأميرة كما هو وارد فى النصوص كانت فى القسطنطينية عام ٤٢٣م ثم اتجهت إلى القدس بعد هذا التاريخ . ويرى البعض الآخر أن الرحلة تخص سلفيا أف أكويتين أخت رفينوس Refnus حاكم الشرق تحت حكم الامبراطور ثيودوسيوس، وهو الأقرب إلى الصواب ، ويحلو للبعض أن يطلق عليها ايثريا Etheria [٧] .

أما عن تاريخ الرحلة فيمكن حصره فى عدة سنوات ، فإنه فى الحديث عن القداس الذى حضرته الرحالة فى بيت المقدس جاء فى حديثها ذكر كنيسة البعث[٨] ، التى بناها الامبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٦ - ٣٣٧م) كما أنها أشارت عند زيارتها للقسطنطينية إلى كنيسة الرسل [٩] ، وهى الكنيسة التى بناها الامبراطور نفسه وأتم عملها فى عام ٣٣٧م . ومن جانب آخر فإن الرحالة لم تشر إلى كنيسة القديس ستيفن St. Stephen أو القديسة ماريا St. Maria وهما

اللتان بنيتا فى القرن الخامس الميلادى، وبين هذين التاريخين علينا أن نبحث عن تاريخ الرحلة .

وبالبحث عن تاريخ الرحلة فقد ورد فى الرحلة ذكر مدينة نصيبين ، وقالت الرحالة أنها تقع فى أرض الفرس وأنه ليس للرومان أى البيزنطيين الحق فى دخول هذه الأراضى لأن الفرس يسيطرون عليها (١٠) ، والواقع أن سيطرة الفرس على هذه المدينة وقع فى عام ٣٦٣ م (١١) ، وأن الرحلة لابد أنها حدثت بعد هذا التاريخ . كما أنها أشارت إلى كنيسة توماس St. Thomas (القرن الأول) فى مدينة الرها ، وقالت عن الكنيسة أنها واسعة وجميلة وقد أعيد بناؤها فى شكل جديد (١٢) . والواقع أنه تم بناء هذه الكنيسة فى عهد الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) عام ٣٧٢م. كما أنها تحدثت عن استشهاد القديس توماس وأشارت أنه مدفون فى مكان قريب من الكنيسة ، ومعنى ذلك أن الزيارة وقعت قبل نقل الرفات إلى الكنيسة التى تم بناؤها عام ٣٩٤م تحت رعاية الأسقف كيروس Cyrus الذى تولى الأسقفية عام ٣٨٩م (١٣) .

كما أنها أشارت إلى بعض الأساقفة ومنهم أسقفى حران والرها على أنهم معترفون، وهذا يدل على الاضطهاد الذى حدث بموجب مرسوم الامبراطور فالنز الذى عزل كل الأساقفة من مناصبهم ، وبما أن يولوجيوس Eulogius أسقف الرها مات عام ٣٨٧ أو ٣٨٨م ، وقد خلفه كيروس Cyrus ، كما أن الامبراطور ثيودوسيوس وأركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٨م) لم يستمرا فى الاضطهاد فعلى ذلك لم يكن فى عهدهما معترفون. وعندما ذكرت أنها قابلت أحد الأساقفة فى الرها فيكون هذا الأسقف هو يولوجيوس (١٤) ، وعلى ذلك تكون الرحلة وقعت من عام ٣٧٩ - ٣٨٨م (١٥) ، ويحدد البعض تاريخ الرحلة بعام ٣٨٢م (١٦) ، بينما حددها البعض بعام ٣٨٦م(١٧) .

بدأت الرحلة بالحديث عن صحراء سيناء وما شاهدته الرحالة من مزارات دينية خاصة مايتعلق بسيدنا موسى والأماكن التى ترتبط بالبعث ، ومن سيناء إلى السويس ثم إلى الصحراء الشرقية حيث الأماكن التى يعتقد البعض أن بنى إسرائيل مروا بها أثناء خروجهم من مصر ، ثم إلى تانيس وأخيراً بلزيوم ومنها إلى فلسطين ثم تكلمت بعد ذلك مباشرة وروت أنها اتخذت طريقها إلى القدس ثم الحديث عن مدن فلسطين خاصة ما يتعلق بذكريات واثار السيد المسيح وذكرت أنها كانت ترغب فى العودة إلى وطنها ولكنها رغبت فى زيارة شمال بلاد الشام فتكلمت عن أنطاكية وبعلبك وأعالى الفرات ومدينة الرها وحران ونصيبين . ثم تحدثت عن العودة إلى أنطاكية وطرسوس وسليوقة .

وبعد طرسوس تكلمت عن بعض مدن آسيا الصغرى وأقاليمها مثل قبادوقيا وجلاتيا وبثينا حتى وصلت إلى خلقدونية ثم عبرت المضيق إلى القسطنطينية حيث زارت بعض الكنائس الهامة ومشاهد الشهداء ثم ذكرت وكان غرضها زيارة آسيا الصغرى خاصة مدينة أفسوس .

وانتقلت بعد ذلك مباشرة بالحديث عن القدس والقداديس اليومية التى تقام بها خاصة فى أيام الصيام والمناسبات والأعياد الدينية . وأفردت لها صفحات طويلة ، وعند هذه المرحلة انتهى ما سجلته سلفيا عن رحلتها .

ومما يلفت النظر أنه أثناء الحديث عن التعليمات الخاصة بعمليات التعميد فى القدس ذكرت أن بعض أهالى المقاطعات الفلسطينية يتحدثون باللغتين اليونانية وهى اللغة الرسمية للبلاد ، والسريانية، ولكن البعض يتحدث إما اللغة اليونانية أو السريانية فقط. ولما كان رجال الدين وهم يعرفون السريانية إلا أنهم يتحدثون اليونانية ،كما أن العظات التى كانت تلقى فى الكنائس تلقى باللغة اليونانية . أما بالنسبة لللاتين الذين لايعرفون السريانية أو اليونانية فإن الترجمات تقدم لهم من الأخوة والأخوات

الحاضرين الذين يفهمون اليونانية واللاتينية [١٨] ولكن مما يلفت النظر ويثير الدهشة أن الدروس والعظات والصلاة كانت تحتوى على عبارات مناسبة للزمان والمكان الذى يقام فيه القداس [١٩] . وانتهت الرحلة بالحديث عن جبل الزيتون فى مدينة القدس

والواضح تماماً أن الرحلة بدأت مبتورة وانتهت كذلك . والواضح أن سلفيا سجلت الرحلة بأكملها ولم يصل إلينا إلا ما هو أمامنا ، وعلى الباحث أن يتعامل مع النص على هذه الصورة . والحقيقة الماثلة أمامنا أن سلفيا زارت مصر - لا سيما صحراء سيناء بما فيها من الأماكن المقدسة وكذلك الصحراء الشرقية حيث يرى البعض أنه المكان الذى خرج منه بنو إسرائيل - وأنها سافرت من مدينة بلزيوم وربما أتت منها كذلك لأنها دخلت صحراء سيناء من الجانب الغربى وليس الجانب الشرقى، كما زارت مدينة الاسكندرية وقد جاءت فى عبارة واحدة عند حديثها عن مدينة تنيس [٢٠] . ولعلها زارت أماكن أخرى لم تذكرها ، كما أنها زارت جانباً من آسيا الصغرى وأعالى الفرات وبعض المدن الساحلية فى أعالى الشام مثل أنطاكية وغيرها ولا شك أنها زارت بلاد فلسطين بأكملها وما بها من مزارات دينية تتعلق بالمسيح والشهداء من آباء الكنيسة الأوائل .

وبعد هذا العرض لصاحبة الرحلة ولغتها وموطنها والأماكن التى ذكرتها فى رحلتها فإنه ما يهمنا فى هذا البحث هو ما سجلته الرحالة عن مصر فى كتابها. والواقع أن ماذكرته يتبلور فى ذكر صحراء سيناء ومزاراتها الدينية لا سيما ما يتعلق ببنى إسرائيل وكذلك الصحراء الشرقية ومدنها القديمة وهو ما يعتقد فيه أنها الأماكن التى هاجر منها سيدنا موسى وقومه إلى صحراء سيناء ، مع ذكر لمدينة الاسكندرية.

بدأت سلفيا حديثها عن مصر بصحراء سيناء ويبدو أنها قدمت من الطريق المؤدى إلى وادى فران وذكرت أنها وصلت إلى وادى كبير واسع وجميل وأطلقت على هذا المكان اسم Graves of Lust قبروت هتأوه [٢١] ، وقد ورد ذلك الاسم فى العهد القديم «فدعى اسم ذلك الموضع قبروت هتأوة لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا» [٢٢] . وفى هذا الموضع طلب المرشدون الذين يصاحبون سلفيا إقامة الصلاة كما هو متبع عادة.

وتحدثت الرحالة عن وادى الراحة وقالت أنه كبير جداً وهو يقع عند سفح جبل الله ، وكان عليها أن تعبر هذا الوادى حتى تصل إلى الجبل وأضافت أنه فى هذا الوادى كان على بنى إسرائيل أن ينتظروا أربعين يوماً وهى المدة التى ذهب فيها سيدنا موسى إلى جبل الله . وذكرت أيضاً أن بنى إسرائيل صنعوا العجل «فى هذا المكان الذى أشاهد فيه اليوم حجر كبير» ، كما أنها أشارت أنه عند رأس هذا الوادى أطعم سيدنا موسى غنم حماه عندما تحدث إليه الرب [٢٣] . وقد جاء فى العهد القديم « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون (شعيب) كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة» [٢٤] .

وذكرت الرحالة أن المرحلة التالية كانت صعود جبل الله من الجانب الذى قدمت منه لأن الصعود من هذا الجانب سهل كما أنه ييسر لها رؤية كل ماترغب فيه وأضافت أنها رأت أشياء كثيرة وردت فى الكتاب المقدس [٢٥] .

وقد ذكرت سلفيا أن جبل الله بدا وكأنه وحيداً فى الصحراء فى شكله الدائرى وأن المنطقة كلها تسمى بهذا الاسم ، ولكن الفرد إذا دخل المنطقة يرى العديد من القمم الجبلية وعلى أحد هذه القمم تجلى الله لسيدنا موسى كما هو مكتوب فى الكتاب المقدس . وتضيف أنه عندما صعدنا إلى الجبل بدت القمم

الأخرى وكأنها تلال وقد أثار ذلك دهشة الرحالة ، وسجلت أن هذه القمة سميت سيناء برعاية الله (٢٦) وصعدت سلفيا ومن معها الجبل وكان مساء يوم السبت حتى وصلت إلى أحد الأديرة ، وقد رحب الرهبان بالزائرين وسمحوا لهم بمشاهدة كل مايرغبون فيه وأضافت أن فى هذا المكان وجدت كنيسة لها قسيسها الخاص بها وقد قضت ليلتها فيها . وعندما لاح الصباح بدأ الصعود مرة أخرى ومعها القسيس والرهبان الذين يعيشون فى هذا المكان ، وذكرت أن عملية الصعود كانت شاقة داخل الممرات الدائرية (٢٧) . وتقول سلفيا أنها وصلت إلى أعلى جبل سيناء حيث نزلت الشرائع على سيدنا موسى عندما تجلى الله ودخن الجبل (٢٨) . وقد ورد فى الكتاب المقدس « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الآتون وارتجف كل الجبل جداً » (٢٩) . وأضافت أنه فى هذا المكان توجد كنيسة وهى ليست كبيرة لأن المكان نفسه قمة الجبل (٣٠) . وذكرت أنه لا أحد يعيش فى هذه القمة بصفة دائمة ولا شئ فى هذا المكان سوى كنيسة واحدة والكهف الذى كان به سيدنا موسى وذكرت سلفيا أنها قرأت جانباً من الكتاب المقدس وأخذت البركة ، وقدم لها القسيس هدايا للتبرك وهى عبارة عن فواكه زرعها الرهبان عند سفوح الجبل لأن الجبل نفسه صخرى ولا يوجد به شجيرة واحدة . وتوجهت سلفيا إلى الكف الذى ذهب إليه سيدنا موسى للمرة الثانية عندما ذهب لتلقى الشرائع . وأضافت أنها شاهدت من أعلى الجبل مصر وفلسطين والبحر الأحمر ومياه البحر المتوسط التى تؤدى إلى الأسكندرية وحدود البلاد العربية (٣١) .

ولعل فى العبارة الأخيرة صيغة مبالغة ولعل ما شاهدته هى الطرق المؤدية إلى هذه الأماكن أو الزوايا التى تقع فيها . وفيما يتعلق بالكهف فقد ورد فى الكتاب المقدس « ويكون متى اجتاز مجدى أن أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز. ثم أرفع يدى فتنظر ورائى أما وجهى فلا يرى » (٣٢)

وفى الحديث عن جبل حوريب ذكرت أنها نزلت من قمة جبل الرب إلى جبل آخر متصل به وهذا المكان يدعى حوريب حيث توجد كنيسة ، وقالت أنه إلى هذا المكان هرب إيليا من الملك آخاب السامرى ، ودخل إيليا المغارة وبات فيها (٣٣) . وجاء فى العهد القديم « فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ودخل هناك فى المغارة وبات فيها » (٣٤) وأمام هذا الموقع توجد كنيسة بها مذبح حجرى بناه إيليا (٣٥) .

كما تحدثت الرحَّالة عن المكان الذى وقف فيه سيدنا هارون مع سبعين من شيوخ بنى إسرائيل عندما صعد سيدنا موسى الجبل لتلقى الشرائع وذكرت أن هذا المكان عبارة عن صخرة دائرية مسطحة ، وفى وسطها يوجد مذبح حجرى ، وفى هذا المكان قرأ الحاضرون بعضاً من صفحات الكتاب المقدس (٣٦) . وفى الحديث عن العليقة The Bush وهى تعنى كلمة شجيرة ، قالت سلفيا أنه من الضرورى مشاهدة هذه الأماكن المقدسة وذكرت أنه بالمكان الذى توجد به العليقة الكثير من الكنائس والقلايات ، وأن العليقة لا زالت ناضرة ومن العليقة تكلم الرب إلى سيدنا موسى(٣٧) ، وجاء فى العهد القديم « وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تحترق » (٣٨) . وأضافت أنه فى هذا المكان العديد من القلايات والكنائس وبستان جميل ووفرة من المياه العذبة. ولعل فى ذلك إشارة بئر سيدنا موسى . وفى هذا المكان أيضاً يوجد الموضع الذى خلع فيه نعليه (٣٩) ، وفى العهد القديم « اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » (٤٠) .

وعن المكان الذى عسكر فيه بنو إسرائيل ذكرت أنه خارج منطقة العليقة حيث يوجد المكان الذى أقام فيه بنو إسرائيل ورأينا المكان الذى صنعوا فيه العجل Calf ، وفى هذا المكان يوجد حجر كبير وهو المكان الذى رقص فيه بنو إسرائيل

بعد ما صنعوا العجل [٤١] . وذكرت سلفيا أنها شاهدت الصخرة الكبيرة التى نزل من عندها سيدنا موسى مع خادمه يوشع بن نون وهى الصخرة التى كسر عليها سيدنا موسى الشرائع التى كانت معه ، وأضافت أنها رأت أماكن فى الوادى كان يسكنها بنو إسرائيل، وأن أساس هذه المنازل قائم فى شكل دائرى مصنوع من الحجارة. وذكرت أماكن أخرى مثل التبعيرة باعتبارها جزء من معسكر بنى إسرائيل ، وتحدثت عن قيام نبى الله موسى بأخذ العجل وحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وألقاه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل بالإضافة إلى المكان الذى سقط فيه المن والسلوى[٤٢] .

وتكلمت سلفيا عن فران التى وصلت إليها فى طريق العودة إلى مصر وقد بقيت بالمدينة لمدة يومين للراحة . وفى هذه المنطقة تجولت فيها الرحالة بين الجبال، وذكرت أن أهل فران اعتادوا السفر بالجمال عبر الصحراء الرملية . وأضافت أن فى هذا المكان علامات على جانبى الطريق وعلى المسافرين أن يسيروا بين هذه العلامات، وأن الناس يسافرون بالليل فى طرق أخرى باعتبارها أسرع من الطريق العام[٤٣] . ويدل وضع العلامات على الطريق على اهتمام الحكومة بأمر المسافرين فى هذه الطرق .

وانتقلت الرحالة من فران إلى البحر الأحمر التى وصلت إليه وخاضت فيه حتى وصلت المياه إلى أقدام الدواب ، وقالت أنها خرجت من الجبال من النقطة التى دخلت منها فى البداية ، وهذا يدل على أنها دخلت صحراء سيناء عن طريق مصر، وأضافت أنها سارت حول البحر مثلما سار بنو إسرائيل وكما هو مدون فى الكتاب المقدس فارتحل بنو إسرائيل من برية سيناء تحت السحابة فى برية فاران[٤٤] . وعادت سلفيا إلى القلزم Selsma ومن نفس الطريق التى أتت منه ، وعندما وصلت إلى هذه المدينة تجولت لبعض الوقت فى التربة الرملية ، وذكرت أن المكان سمى القلزم نسبة إلى اسم القلعة الموجودة بالمكان [٤٥] .

ومن القلزم سارت سلفيا إلى أرض جوشن Goshen ، وقالت أنها رأت هذه المنطقة عندما كانت فى أرض مصر للمرة الأولى ، ولكنها رغبت أن تراها مرة أخرى لترى الأرض التى خرج منها بنو إسرائيل من مدينة رعمسيس فى رحلتهم حتى وصلوا البحر الأحمر . وفى ذلك دليل آخر على أن سلفيا دخلت صحراء سيناء عن طريق مصر . والمهم أنها ذكرت أنه من القلزم حتى مدينة أرابيا Arabia (فاقوس حاليا) توجد أربع محطات صحراوية ، ولما كانت الصحراء واسعة فقد أقيمت فى هذه المحطات استراحات للجنود والضباط ، وقد تعودوا إرشادنا من قلعة إلى أخرى . وهذا يدل على أن المحطة كانت قلعة محصنة أو ثكنة تضم رجال الحراسة للطريق. وقد صاحبنا كالعادة بعض الرهبان ورجال الدين الذين أوضحوا لنا الأماكن التى وددت أن أراها كما ذكرت فى الكتاب المقدس ، وكانت بعض هذه الأماكن على اليمين والآخر على اليسار، وكان هدف سلفيا من ذلك تتبع رحلة بنى إسرائيل حتى وصولهم البحر الأحمر (٤٦) .

وأكملت سلفيا حديثها عن أرض جوشن والمدن التى بها خاصة ما يتعلق بالطريق الذى سلكه بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر . ويلاحظ أن المدن التى تحدثت عنها ورد ذكرها فى العهد القديم فقد روت أنها رأت فم الحيروث Epauleum أو Pi-hahtoth ، كما شاهدت مجدل Migdol وأضافت أن فى هذا المكان قلعة ولعلها تريد ثكنة ، وفيها ضباط يعاملون الجند طبقاً للقانون والتقاليد الرومانية وقد قادنا هؤلاء الجند إلى قلعة أخرى (٤٧) .

وسجلت الرحالة سلفيا أنها شاهدت بعل صفون Baal - Zephon واتجهت إليها ، ووصفتها بأنها سهل ، وأضافت أن فى هذا المكان صاح بنو إسرائيل عندما رأوا المصريين قادمين خلفهم وشاهدت أيضاً ايثام Othon-Etham وقالت أنها قريبة

من التيه كما هو مكتوب فى الكتب المقدسة . كما حدثتنا عن سكوت Saccoth وقالت أنها تلة منخفضة فى وسط الوادى ، وبالقرب منها أقام بنو إسرائيل مخيمهم . ومن هذا المكان تقدمت حتى وصلت إلى فيثوم Phithom وهى المدينة التى بناها بنو إسرائيل . ومن الغريب أن سلفيا ذكرت فى هذا الموضع أنه عند هذه النقطة وصلنا إلى حدود مصر وأصبحت الحدود الغربية خلفنا ، وأنه لايوجد فى فيثوم غير قلعة أو ثكنة (٤٨) .

وواصلت سلفيا حديثها وذكرت مدينة جاسان Heroopolis وقالت أنها المدينة التى قابل فيها سيدنا يوسف أباه سيدنا يعقوب عندما قدم إلى أرض مصر كما هو وارد فى الكتاب المقدس « نشر يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان » (٤٩) ، وأضافت أن المكان يعتبر قرية كبيرة وبها كنيسة وذكريات شهداء وبها قلايات ورهبان ، وأن هذا الموقع يسمى الآن هيرو Hero ، وأنه بالقرب منها يسير فرع من فروع النيل وهو الفرع البلوزى (٥٠) . وتحدثت سلفيا عن أرابيا Arabia وهى فاقوس حالياً وسجلت أنها اتجهت من هيرو أو جاسان إلى أرابيا وهى تقع فى أرض جوشن، وكما هو مكتوب فى الكتاب المقدس أن فرعون قال لسيدنا يوسف « فى أحسن أراضى مصر تقطن أباك وأخوتك فى أرض أرابيا » والواقع أن الكتاب المقدس ذكر حول هذا الموضوع « أرض مصر قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان » وفى موضع آخر « فأسكن يوسف أباه وأخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر فى أفضل الأرض أرض رعمسيس كما أمر فرعون » (٥١) .

والواقع أن هناك خلطاً بين الأماكن يرجع سببه إلى المرشدين الذين صاحبوا سلفيا فى الرحلة أو منها عند كتابة الرحلة ، أو من الكتاب الذى نسخوا رحلتها.

وذكرت سلفيا مدينة رعمسيس وهى (قرية قنتير حالياً) وقالت أنها كانت مدينة كبيرة تقع على بعد أربعة أميال من أرابيا ، وذكرت أن المدينة خربة وأصبحت أرضها بور ، وهى تقع فى سهل بعد أن كانت مدينة دائرية ، وكان بها مبانى كثيرة ولايوجد بها غير قطعة حجرية نحت عليها تمثالان كبيران وهم يقولون أن التمثالين لرجلين مقدسين هما سيدنا موسى وسيدنا هارون ، وقد أقامهما بنو إسرائيل تخليداً لهما. وأضافت أن فرعون حرق مدينة رعمسيس بعدما علم بهروب بنى إسرائيل ثم سار خلفهم (٥٢) .

وتكلمت سلفيا عن شجرة من الجميز وقالت أن البطاركة زرعوها وهى شجرة قديمة صغيرة ولكنها لازالت مثمرة ، وأضافت أن هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الحقيقة وقد قطفت بعض ثمارها ، وروت أن الأسقف الذى صاحبها فى هذه المنطقة كان مسناً وعليماً بالكتب المقدسة . وبعد ذلك اتخذت سلفيا طريقها للعودة، بعدما أعد لها المسؤولون الجنود لحمايتها فى الطرق غير الآمنة ، ولكنها رأت أنها سوف تسير فى الطريق العام إلى بلزيوم (الفرما) وقد رأت أنه لا داعى لجنود الحراسة بعدما أصبح الطريق آمناً ، وسارت سلفيا وسط الكروم والمزارع التى كانت لبنى إسرائيل ، وأضافت أنها لم تر فى حياتها أجمل من أرض جوشن ، وبعد يومين وصلت إلى مدينة تانيس (صان الحجر) وهى المدينة التى قالت عنها سلفيا أن سيدنا موسى ولد بها وكانت يوماً عاصمة لفرعون ، وأكملت سلفيا سيرها حتى وصلت إلى بلزيوم من خلال عدة محطات ومنها اتجهت إلى بيت المقدس عبر الطريق البرى بحذاء الساحل إلى حدود فلسطين وهو الطريق الذى أتت منه إلى مصر (٥٣) .

والحقيقة أن الرحالة سلفيا أتت من فلسطين بحذاء الساحل إلى بلزيوم ثم تجولت فى دلتا مصر حتى وصلت إلى الأسكندرية . كما أنها زارت صحراء سيناء فى محاولة للتعرف على الأماكن التى سار أو عاش فيها بنو إسرائيل وتكلمت عن

سيدنا موسى وبعض الأحداث التى دارت فى عصره . وبعد زيارتها لصحراء سيناء عادت من حيث أتت وزارت الصحراء الشرقية وشاهدت بعض المدن التى تتعلق بخروج بنى إسرائيل من مصر .

ومن الواضح أن سلفيا لم تتبع الطريق الذى سار فيه بنو إسرائيل بالترتيب بل أنها ذكرت الأماكن حسب خط سيرها هى . ومن الواضح أيضاً أن هناك بعض الخلط فى المعلومات التى قدمتها إلينا ولعل ذلك يرجع إليها أو إلى المرشدين الذين صاحبوها أو إلى النساخ الذين تناولوا كتابة الرحلة بعدها . وليس معنى ذلك إلقاء اللوم على أحد ولكنه اجتهاد منها فى تدوين هذه الأماكن وانطباعاتها عنها فى مثل هذه الرحلة السياحية وليس الرحلة العلمية التى قامت بها .

والحقيقة أن سلفيا وإن قدمت لنا بعض المعلومات عن الأماكن التاريخية التى تحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها لتحقيقها ، كما أنها قدمت لنا معلومات أخرى تتعلق بالنظام فى مصر فى هذه الحقبة التى تعرف بمصر فى العصر البيزنطى . فقد تكلمت عن نظام المحطات المشحونة بالجند لحماية الطريق وإرشاد المسافرين ، كما أنها تحدثت عن وضع علامات على الطريق ليسير المسافرون خلالها حتى لايضلوا الطريق، وإن دل ذلك على شئ فإنه يدل على اهتمام الدولة بأمر المسافرين وراحتهم وتوفير الحماية لهم . كما أوضحت أنه كان هناك طريق من بلزيوم (الفرما) إلى فلسطين يمتد بحذاء الساحل .

ويتضح أيضاً من كتابات سلفيا أن عدداً كبيراً من الرهبان ورجال الدين كانوا يعيشون فى صحراء سيناء ، وأنها شاهدت العليقة التى لاتزال موجودة حتى الآن ، وأن الطقوس اتى تقام فى عيد القديس إيبفانى Epihany (٣١٥ - ٤٠٣م) هى نفس الطقوس التى تقام فى مصر والشام كما أنها أوضحت لنا اهتمام المسئولين بمصر بأمر كبار الزوار والسهر على راحتهم والعناية بهم وحراستهم .

القديسة بولا St. Paula

أما الرحلة الثانية فهى القديسة بولا ، والحقيقة أن بولا لم تسجل هذه الرحلة بنفسها ، إنما سجلها عنها القديس جيروم St. Jerome (٣٤٢ - ٤٢٠م) الذى قام مع القديس أمبروز St. Ambrose (٣٣٤ - ٣٩٧م) بدور كبير فى روما فى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى فى التأثير على العقلية المسيحية فالتف حولهما العديد من جميع الطبقات من الرجال والنساء ، حتى أنكر العديد من النساء النبيلات ترف المجتمع وكرسن أنفسهن للعمل الدينى ، وتبرعن بثرواتهن للأعمال الخيرية، كما قام بعضهن بالدخول فى الرهبانية وأخيراً فضل البعض منهن التجوال فى الأماكن التى عاش فيها السيد المسيح (٥٤) .

ومن بين ممن تأثروا بوعظ القديس جيروم سيدتان من الرعيل الأول هما القديسة بولا Paula وابنتها يوستوخيوم Eustochium . والقديسة بولا سيدة رومانية ولدت فى مدينة روما عام ٣٤٧م من أسرة عريقة عظيمة الثراء ومستوى اجتماعى راقى، وقد تزوجت من توكسوتيوس أحد أعضاء مجلس السناتو ولكنه توفى وزوجته فى الثلاثين من عمرها وترك لها خمسة أولاد، ولقد تعلمت بولا اللغة اليونانية من والدها ثم تعلمت بنفسها اللغة العبرية حتى تتمكن من قراءة المزامير بلغتها الأصلية، وقد انتهى بها المطاف عندما سلكت الرهبانية وفضلت الحياة فى مدينة بيت لحم بعد رحلتها إلى الشرق حيث ماتت فى عام ٤٠٤ م ودفنت بالقرب من المكان الذى ولد فيه المسيح (٥٥) .

وعندما اجتمع المجمع الدينى فى مدينة روما عام ٣٧٧م تحت زعامة البابا دماسوس الأول Damasus I (٣٦٦ - ٣٨٤م) استضافت القديسة بولا القديس ابيفانوس Epiphanius (إيفانى) أسقف مدينة سلاميس Salamis فى قبرص منذ عام ٣٦٧م حتى وفاته، كما أنها استقبلت فى منزلها بولينوس Paulinus أسقف

مدينة أنطاكية . والمهم هنا أن لقاء بولا مع أساقفة الشرق جعلها تطلع على أخبار الأراضى المقدسة فتحول فكرها تماماً إلى الشرق ومابه من آثار دينية (٥٦) .

وكانت القديسة بولا فى هذه المرحلة ضعيفة الجسم رقيقة تعودت حياة الترف ولكنها قررت مواجهة الأخطار والترحال بعد أن تأثرت بما سمعته عن الشرق . وبعد أن انفض المؤتمر دعاها زائروها لزيارة الشرق فلبت الدعوة ، ووزعت جانباً من ثروتها على عائلتها وأخذت معها ابنتها يوستوخيوم فى عام ٣٨٢م فى رحلة دامت لمدة عامين استقر بعدها المقام بها فى مدينة بيت لحم حتى نهاية حياتها (٥٧) .

ويتضح من الرحلة أن القديس جيروم قد صاحب القديسة بولا فى جانب من رحلتها فى بلاد الشام وعلى الأخص فى مدينة يافا أو فى مدينة قيصرية فى فلسطين عند عودتها من مصر إلى بلاد الشام (٥٨) .

بدأت الرحلة فى ربيع عام ٣٨٢م من مدينة روما إلى ميناء أوستيا Ostia ، حيث ودعت أولادها وأقاربها ثم اتجهت إلى جزيرة رودس ومنها إلى قبرص حيث توقفت لبعض الوقت لزيارة بعض الأديرة . ومن قبرص أبحرت القديسة بولا إلى مدينة سليوقية التى تقع فى الجزء الشمالى لنهر العاصى ، ثم تقدمت جنوباً إلى أنطاكية حيث قضت بعض الوقت للراحة ثم اتجهت بعد ذلك إلى مدينة بيروت فى طريقها إلى مدينة عكا . ومن عكا انحرفت عن الساحل إلى مدينة اللد ثم عادت إلى الساحل حيث يوجد مدينة يافا ومنها إلى عمواس وأخيراً إلى القدس ودخلتها من بوابة دمشق (٥٩) . وفى مدينة القدس كان الحاكم الإدارى للمدينة صديقاً لعائلة بولا فأولاها عناية خاصة، وبعد أن قامت بزيارة بعض الأماكن المقدسة فى بلاد الشام قررت الترحال إلى مصر ، وهو ما يعنينا فى هذا البحث .

خرجت القديسة بولا من بيت المقدس إلى أم القيس الواقعة بالقرب من مدينة

غزة ثم سارت شمال صحراء سيناء وعبرتها حتى وصلت إلى الفرع الشرقى للنيل التى أطلقت عليه اسم Sior وهى كلمة تعنى الطينى ثم مرت بمدن مصر الخمسة التى تتحدث اللغة الكنعانية (٦٠) . وهنا يكتنف الغموض خط سير الرحلة ، فلم توضح لنا الرحالة أسماء هذه المدن أو مواقعها ، ويبدو أنها نقلت ما ورد فى سفر أشعيا، وقد ورد به « فى ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها مدينة الشمس » (٦١) وسجلت الرحالة بولا أن بمصر أرض جوشن Gessen ، ثم ذكرت أيضاً اسم مدينة تانيس ، وهى مدينة صان الحجر ، ولكن الرحالة لم تقدم لنا شيئاً كثيراً واكتفت بذكر أن الله أقام المعجزات فى هذه الأرض ، كما ذكرت مدينة أسمتها نو No ، وهى التى سميت بعد ذلك باسم الأسكندرية . وتلى ذلك الحديث عن وادى النطرون وذكرت أنها مدينة الله التى تغسل فيها الذنوب يومياً بالفضيلة (٦٢) .

وتقابلت القديسة بولا فى وادى النطرون مع الأسقف الموقر ايزدور المعترف Esidours the Confessor ، وعدد كبير من الرهبان والقديسين والشمامسة ، وذكرت أن زيارتها لهذه الأماكن هو شرف كبير لا تستحقه ، وأنها ليست فى حاجة لتشير إلى أسماء مثل مكاريوس وأرسينوس وسيرابيون Macarius, Aresnius, Serapion وآخرين يعادلون منزلة السيد المسيح ، وأضافت أنها لم تدخل قلاياتهم ولم تسجد عند أقدامهم ، وذكرت الرحالة أنها رأت السيد المسيح فى شخص هؤلاء ولكنها انحنت أمامهم وابتهجت لذلك ، وكان حماسها خلال الرحلة يثير الدهشة وهى السيدة التى تناست أنها امرأة ضعيفة (٦٣) . وكانت القديسة بولا ترغب فى الإقامة مع الراهبات فى هذه المنطقة حيث دعاها العديد منهن للإقامة ، ولكن الأماكن المقدسة فى بلاد الشام كانت أكثر إغراء من البقاء فى وادى النطرون . وبعد أن أقامت فى وادى النطرون لبعض الوقت تقدمت إلى ميناء بلزيوم (شرق

بورسعيد حالياً) عبر الدلتا ومنها اتخذت طريقها عبر البحر إلى مدينة غزة . وبعدما وصلت إلى بلاد الشام انتهى بها المطاف فى مدينة بيت لحم حيث أقامت العديد من الأديرة (٦٤) .

ومن الملاحظ أن ما ذكرته القديسة بولا عن مصر يعتبر أقل بكثير عما ذكرته سلفيا ، وأن بولا تكلمت بصفة عامة عن مصر وصحراء سيناء والصحراء الشرقية، ولكن الجديد فى رحلتها عما قدمته لنا سلفيا هو حديثها عن وادى النطرون بأديرته ورهبانه والإشارة إلى بعض الشخصيات الهامة فى عالم الرهبانية .

الرحالة ثيودوسيوس Theodosious

وثالث هؤلاء الرحالة هو ثيودوسيوس والواقع أننا لا نعرف الكثير عن مؤلف هذه الرحلة، وقد أشير إليه فى بعض المخطوطات أنه كان يشغل وظيفة رئيس شمامسة، وفى مخطوط آخر أنه كان شماساً . ولما كانت الرحلة الموجودة تحت أيدينا قد بدأت فى بيت المقدس وتخللها زيارته إلى آسيا الصغرى وانتهت فى أعالى الفرات فقد تعذر علينا معرفة الجهة التى قدم منها أو انتهى إليها . ويرى البعض أنه ربما يرجع أصله إلى شمال افريقية لإشارته إلى الوندال فى معرض حديثه عن مصر (٦٥) .

وهناك جدل كبير حول تاريخ الرحلة ، ولكنه يمكن البحث عن ذلك من خلال نصوص الرحلة ذاتها . فقد أورد المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Tour (٥٣٨ - ٥٩٤م) بعض العبارات فى مؤلفاته تطابق العبارات والأوصاف التى ذكرها مؤلف الرحلة ثيودوسيوس ومن ذلك ما ذكره جريجورى التورى عن قبور سيدنا يعقوب وزكريا ، وسيمون على جبل الزيتون فى القدس ، وبذلك تكون الرحلة سابقة لفترة النضج التى بدأ فيها جريجورى التورى الكتابة (٦٦) .

فى شمال أفريقيا فى عام ٣١١م وقد اتسمت هذه الطائفة بالتزمت والتعصب ، وقد اعتنق الوندال هذا المذهب بعدما سيطروا على شمال أفريقيا ، وكان البيزنطيون الحاكمون يعارضون هذا المذهب ويعتبرونه من الهرطقات [٧٠] . ومعنى ذلك أن الحكام البيزنطيين كانوا لا يرضون عن إقامة مثل هذا النوع من الأديرة . ولعل الرحالة يقصد أن هذا الدير كان يتبع أحد المذاهب التى لا تتفق مع مذهبه . أ و أن هذا الرحالة خلط بين ما كان فى مصر وقرطاج ، والأخيرة تؤدى إلى نتيجة فى غاية الأهمية وهى أنه لم يزر مصر حتى يخلط بين مصر وقرطاج ، أو أن الرحالة كان وندالى الأصل ولم يزر مصر أو زارها وأنه أقحم اسم الوندال فى النص .

الرحالة أنطونيوس الشهيد

ويأتى الحديث الآن عن أنطونيوس الشهيد . والواقع أن معلوماتنا عنه قليلة للغاية، وقد تعرفنا عليه من خلال نص رحلته ، فقد أورد أنه من مدينة بياكنزا Placentia (Piacenza) التى تقع إلى الجنوب من نهر البو Po فى شمال إيطاليا ، وأنه عرف باسم أنطونيوس الشهيد ، واتضح من الرحلة أنه من رجال الدين [٧١] .

ويرى البعض أن أنطونيوس لم يقم بهذه الرحلة ، إنما قام بكتابتها أحد الرهبان الإيطاليين وأنها نسبت إلى أنطونيوس ، ويعلل هؤلاء وجهة نظرهم بالأخطاء الواردة فى مسميات الأماكن التى وردت بالرحلة . ورأى البعض الآخر أن أنطونيوس قام برحلته وأنه لم يكتبها بنفسه إنما كتبها أحد الكتاب قليلى المعرفة ، وأنها كتبت بعد عودته بفترة ليست بقصيرة وأن الأمر اختلط عليه لتشابه الأماكن التى زارها، ويؤيد وجهة النظر الثانية أن أنطونيوس عندما تحدث عن كنيسة ودير صهيون فى مدينة القدس أشار إلى بعض المخلفات المقدسة ثم قال وهناك مخلفات أخرى مقدسة لم أتذكرها [٧٢] .

ويلاحظ أيضاً أن ثيودوسيوس تكلم عن الكنيسة التى بناها الامبراطور انستاس (٤٩١ - ٥١٨م) فى نواحى الأردن فى المكان الذى عمد فيه السيد المسيح، ولكنه لم يشر إلى أعمال الامبراطور جستنيان Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥م) مما يوضح أن الرحلة تمت فى رحلة تقع بعد وفاة الامبراطور انستاس عام ٥١٨م وقبل عام ٥٣٤م وهى المرحلة التى بدأ بعدها الامبراطور جستنيان مرحلة البناء . وقد وجد البعض أن الرحلة ربما تمت فى عام ٥٣٠م [٦٧] ، وسواء تمت الرحلة قبل هذا التاريخ أو بعده بقليل فإن ذلك لم يؤثر كثيراً على هذا البحث .

والحقيقة أن هذه الرحلة قدمت لنا معلومات عن بلاد الشام وأعالى الفرات وآسيا الصغرى ومصر . وما يعنينا فى هذا البحث هو ماقدمته الرحلة عن مصر . والواقع أن ما قدمته رحلة ثيودوسيوس عن مصر محدود للغاية ، فقد ورد بها بعض المعلومات عن مدينة ممفيس حيث ذكر ثيودوسيوس أن فى مصر مدينة تدعى ممفيس Memphis حيث كان يعيش فرعون ، وحيث سجن سيدنا يوسف ، وأضاف أنه يوجد هناك دير للوندال وآخر للرومان ، وأن الدير الأول هو دير جرميه Jermaih والثانى يسمى دير القديس أبولونيوس الراهب St. Apollnius the Hermit [٦٨] . كما ذكر فى موضع آخر من الرحلة أنه بالقرب من جبل سيناء توجد مدينة فران Infra حيث حارب سيدنا موسى العماليق [٦٩] .

والواقع أن ماذكره الرحالة عن مدينة ممفيس حيث كان يعيش فرعون ، وحيث سجن سيدنا يوسف ، فإنها معلومات عامة غير محددة . أما عن دير الرومان فيبدو الأمر طبيعياً لأن مصر كانت تحت الحكم الرومانى (البيزنطى) ، أما عن دير الوندال فهذا أمر يدعو للغرابة لسببين ، أولهما أن الوندال لم يحكموا مصر حتى يبقى لهم دير بها ، وثانيهما أن الوندال كانوا يعتنقون المسيحية على المذهب الدوناتى الذى أسسه دوناتوس Donatus الذى كان أسقفاً لمدينة قرطاج فى القرن الرابع الميلادى

أما عن الوقت الذى حدثت فيه الرحلة ، فلم يرد مايفيد ذلك مباشرة داخل الرحلة. ولما كانت الرحلة لم تتعرض للإسلام أو للمسلمين فإن الرحلة تقع قبل الفتح الإسلامى لمصر والشام . ولما كان أنطونيوس قد أشار إلى تكية أو نزل بمدينة أريحا وحيث أن الامبراطور جستنيان هو الذى أقام هذه الكنيسة ، فإن هذه الرحلة تكون قد وقعت فى عهد جستنيان أو بعده . ويلاحظ أن أنطونيوس ذكر فى حديثه مع أسقف مدينة بيروت عما لحق بالمدينة من جراء الزلزال الذى ضربها ، ولما كان الزلزال الذى وقع فى عهد الامبراطور جستينان وقبل الفتح الإسلامى هو الزلزال الذى وقع فى عام ٥٥١م فتكون الرحلة وقعت بعد هذا التاريخ . كما أن إشارة الرحالة أنطونيوس إلى وجود مدرسة حديثة للآداب فى بيروت بعدما تهدمت المدرسة القديمة بفعل الزلزال تشير إلى أن الرحلة وقعت بعد عام ٥٥١م بفترة ليست طويلة. وقد حدد البعض وقعت الرحلة بعام ٥٧٠م ، كما حددها البعض فى الفترة من ٥٦٠ - ٥٧٠م [٧٣] ، والمدة الأخيرة أقرب إلى الصواب .

أما عن خط سير الرحلة فقد بدأت من مدينة بياكنزا فى إيطاليا ثم إلى مدينة القسطنطينية ومنها بالبحر إلى جزيرة قبرص حيث وصل إلى مدينة قسطنطينة Constantina (سلاميس) ومنها إلى بلاد الشام حيث وصل إلى مدينة طرابلس ، ثم اتخذ طريقه جنوباً على الساحل حتى بيروت ثم صيدا ثم صرفند ثم صور وحيفا ثم إلى الداخل حتى بحيرة طبرية ونهر الأردن والبحر الميت وأريحا ، ومنها إلى مدينة القدس ثم إلى بيت لحم والخليل وأخيراً إلى عسقلان وغزة . ومن غزة اتجه إلى مصر.

دخل أنطونيوس مصر من مدينة أيلة وقد رسمت باللاتينية بثلاثة أشكال هى Ailah ، Alath ، Ahila ، وهى مدينة (العقبة حاليا) ومنها دخل إلى صحراء سيناء حيث مر على مدينة فران وجبل الطور ثم إلى القلزم وهى (السويس حاليا) ، ثم صار

جنوباً بحذاء الساحل الغربى للبحر الأحمر حيث زار دير الأنبا بولس ثم اتجه جنوباً وشرقاً حتى وصل مدينة أسوان ، وتكلم عن الجنادل والنيل ثم أبحر إلى الشمال ماراً ببعض المدن التى ذكر منها الشيخ عبادة Antinoe حتى وصل إلى مدينة ممفيس وبابليون ثم شمالاً إلى تانيس (صان الحجر) ثم عاد إلى بنها ومنها إلى مدينة الأسكندرية ثم أبحر إلى بلاد الشام . وتجول لبعض الوقت فى الأراضى المقدسة ثم اتجه إلى دمشق ثم زار بعض مدن شمال الشام ثم إلى شمال الفرات ومنها عاد إلى وطنه بالبحر .

وما يعنينا فى هذه الدراسة ، ما قدمه الرحالة أنطونيوس عن مصر . ولما كان الغرض من رحلته كما سجل ذلك بنفسه أنه رغب فى تتبع خطوات السيد المسيح وأن يرى أماكن المعجزات الخاصة بالأنبياء . ولذلك فإن معظم ما سجله الرحالة كان يتعلق بهذا الجانب . وما يهمنا فى هذا البحث هو ما سجله الرحالة عن مصر فى رحلته. ومما ذكره أنطونيوس فى حديثه عن أهل مصر الذين يذهبون للحج فى الأراضى المقدسة أنه روى أن كل رجال أهل الأسكندرية ، ولعله يقصد المصريين الذين يأتون بالسفن ، فإنهم ومعهم بحارة السفن يأتون للاحتفال بعملية التعميد فى نهر الأردن، وقد حملوا السلال المملوءة بالتوابل والبلسم . وفى الساعة التى يبارك فيها القس مياه النهر ، نهر الأردن ، وقبل أن تبدأ عملية التعميد فإنهم يلقون بالسلال فى النهر ، كما أنهم يأخذون بعض المياه المباركة ويرشونها على سفنهم قبل رحلة العودة. وبعد أن تتم مراسم التعميد فإن أهل الاسكندرية وغيرهم ينزلون إلى مياه النهر للتبرك وهم يرتدون الملابس الكتانية أو أنواع أخرى من الملابس ، وهم يحتفظون بهذه الملابس لتكون أكفاناً لهم (٧٤). ويلاحظ أن الاحتفال بعملية التعميد هذه كان يتم فى عيد القديس أبيفانى فى الثانى عشر من مايو، ومنذ القرن السادس عشر تغير الموعد ليتفق مع عيد القيامة حتى لايتجمع عدد كبير من الحجاج لفترة طويلة

تمتد من عيد العماد إلى عيد القيامة (٧٥) . وعن عملية إلقاء المصريين بالسلال فى النهر فالواقع أنها مأخوذة عن الاحتفال بوفاء النيل . أما عن ارتداء المصريين للملابس الكتانية فلعلها ترجع إلى تقدم صناعة الكتان فى مصر .

وتحدث أنطونيوس عن مدينة أيلة ، وذكر أن هناك طريقاً يربط هذه المدينة بمدينة غزة وأنه اتخذ هذا الطريق للوصول إلى أيلة، وقال أن هذه المدينة تقع على رأس الصحراء التى تتصل بصحراء سيناء ، وسجل أنه إلى هذه المدينة تأتى السفن من الهند وهى تحمل أنواع مختلفة من التوابل (٧٦) ، وسجل أيضاً أنه غادر هذه المدينة إلى صحراء سيناء، كما وجد على بعد عشرين ميلاً منها تكية أو نزل مقام على شرف القديس جورج ، وأضاف أنه فى هذا النزل يجد المسافر المأوى والراحة، وأنه وجد أيضاً فى هذا النزل جناح للرهبان (٧٧) . وسجل أنطونيوس أنه بعد ما تجاوز هذا النزل وصل إلى المكان المشار إليه فى المزمور « والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها » ، وروى أنه رأى فى هذا المكان قليل من الرجال على جمالهم ولكنهم فروا من أمامنا . والمهم فى هذه المعلومات النزل الذى ورد ذكره فهو يدل على اهتمام الحكومة براحة المسافرين وتوفير الراحة لهم (٧٨) .

وواصل أنطونيوس رحلته داخل الصحراء لمدة ستة أيام على ظهور الجمال ، وأضاف أنه كان يتسلم فى الصباح والمساء كمية من المياه، وأوضح أن المياه تصبح مرة الطعم فى القرب لذلك تم وضع بعض الرمال فيها لتصير عذبة (٧٩) .

ويتضح من هذه المعلومة اهتمام المسؤولين بأمر المسافرين حتى توفر لهم المياه، ويتضح منها أيضاً تصرف أنطونيوس ومن معه حيال مرارة المياه . والواقع أن المياه إذا كانت عذبة لا تتأثر بجلود القرب إن كانت القربة مستعملة . ولعل القرب التى كانت مع الرحالة ورفاقه كانت جديدة الصنع لذلك صارت المياه مرة ، ولعل أيضاً

أن المياه التى اعتاد عليها الرحالة اختلفت عن مياه صحراء سيناء باعتبارها مياه ..
لذلك شعر بالمرارة . وعلى أية حال فقد كان تصرف سليماً منه تنقية المياه بالرمال، ولا أظن أن هذا التصرف يرجع إلى أنطونيوس وإنما هو تصرف رجل عارف بأمور المنطقة وأحوالها كان فى المجموعة المسافرة مع أنطونيوس .

واستطرد الرحالة حديثه عن صحراء سيناء وقال أن الأسر البدوية كانت تأتى من داخل الصحراء وتجلس على قارعة الطريق يسألون المسافرين بعض الخبز ، كما أن بعض البدو كانوا يقدمون لنا المياه مقابل الخبز ، كما أحضر بعض البدو بعض النباتات ذات المذاق والرائحة الطيبة ، وهذا العمل غير مسموح به لأن الأوامر تحول دون ذلك. وأضاف أن عدد من دخل صحراء سيناء بلغ حوالى إثنا عشر ألف حاج(٨٠).

وأهم ما ورد فى هذه المعلومات هى الأوامر التى تحول دون التعامل مع البدو فى المياه والنباتات ، وهذا يعنى أن الدولة هى التى تتكفل بذلك ، وأنها مسؤولة عن توفير المياه للمسافرين. أما عن العدد الكبير الذى دخل صحراء سيناء فيبدو أن فى ذلك صيغة مبالغة . ولكن المهم هو أن العدد كان كبيراً وأن الدولة كانت توفر الأمان لهؤلاء المسافرين . ولا شك أن ذلك كله يحتاج إلى نظام دقيق .

وفى حديث أنطونيوس عن حوريب وسيناء ذكر أن الرحلة استمرت ثمانية أيام حتى وصلنا إلى المكان الذى فجر فيه سيدنا موسى الماء من الصخرة ، وبعدها وصلنا إلى جبل الله ، حوريب ، ثم تحركنا من هذا المكان لكى نصعد جبل سيناء . وفى هذا المكان كان يوجد العديد من الرهبان الذين كانوا يحملون الصلبان وينشدون المزامير، وقد قدموا لمقابلتنا وسجدوا أمامنا وقد فعل أنطونيوس ورفاقه مثلهم والكل كان يبكى. وقاد الرهبان أنطونيوس ورفاقه إلى الوادى الذى يقع بين جبل سيناء

وجبل حوريب – الذى يعرف الآن بوادى الدير، والجبلين هما جبل الدير وجبل موسى – وفى أسفل الوادى يوجد نبع ماء هو النبع الذى سقى منه سيدنا موسى الخراف عندما شاهد العليقة المحترقة . وأضاف أن هذا النبع داخل الدير ، وأن الدير محاط بالأسوار وبه ثلاثة من رؤساء الأديرة ، وذكر أنهم يتحدثون باللغة اللاتينية واليونانية والسريانية والمصرية والفارسية ، ويترجمون إلى هذه اللغات (٨١) .

والجديد فى هذه المعلومة عن المعلومات السابقة للرحالة سلفيا ، ما ذكره أنطونيوس أن النبع داخل الدير وأن الدير محاط بالأسوار . ويلاحظ أن رحلة سلفيا كانت فى نهاية القرن الرابع الميلادى، لذلك لم يكن هذا الدير والسور موجودان. والحقيقة أن الامبراطور جستنيان هو الذى أمر ببناء الدير والسور لراحة الرهبان وحمايتهم بناء على رغبتهم ، وأنه زود المكان بحامية للدفاع عنهم من غارات البدو(٨٢) . يضاف إلى ذلك المستوى العلمى للرهبان الذين عاشوا فى تلك المرحلة .

وذكر أنطونيوس أنه صعد جبل موسى حتى وصل إلى المكان الذى اختبأ فيه إيليا من وجه آخاب السومرى ، وأنه بالقرب من الكهف يوجد نبع ماء بارد يتدفق على الجبل ثم واصل الصعود حتى قمة الجبل حيث توجد كنيسة صغيرة طول كل ضلع منها حوالى ستة أقدام . ولا يسمح لأحد بالمبيت فيها ، ويتم الصعود إليها بعد شروق الشمس وفيها يؤدى الرهبان الواجبات المقدسة . وأضاف أنه فى هذا المكان وبعيداً عن الديانة، فإنه يتم حلق الرؤوس واللحى ويلقى بالشعر خارجاً ، وقدفعل أنطونيوس مثلهم وحلق لحيته (٨٣) .

ومما يجب ملاحظته هنا أن نبع الماء لا يوجد بالقرب من كهف إيليا وإنما يقع أسفل كثيراً من الكهف ، ويعرف هذا النبع باسم عيون موسى . أما من عادة قص الشعر واللحى فمن الطريف أن يشارك أنطونيوس الحاضرين عملهم ويحلق لحيته.

وتحدث أنطونيوس عن بعض عبادة الأصنام فى صحراء سيناء ، وذكر أن العرب أو البدو وضعوا صنماً من الرخام أبيض اللون مثل الثلج وهم يعبدونه ، ولهذه العبادة كاهن من البدو يرتدى الثياب البيضاء الكتانية ، ويضيف أن موعد الاحتفال هو عندما يكون القمر فى السماء فتنزل أشعته على الصنم فيبدأ لونه فى التغير ، وعندما تبدأ مراسم الاحتفال يتغير اللون حتى يصبح كالسواد الفاحم ، وبعد الاحتفال يعود الصنم إلى لونه الأصلى وقد اندهش الحاضرون لذلك (٨٤) . ويمكن القول أن مثل هذه العبادة هي بقايا عبادة الإله سين إله القمر السامى الأصل وأنها كانت قائمة حتى وقت الرحلة فى صحراء سيناء .

وتحدث الرحالة أنطونيوس عن المن وذكر أن بين جبل سيناء وجبل حوريب يوجد وادى ينزل فيه الندى من السماء فى أوقات معينة ، ويتم جمع هذا المن فى الجرار التى تظلل فوق الجبل ، وهم يشربونه ويقدمون بعضاً منه للتبرك ، وقد قدموا لنا بعضاً منه وقد شربناه . واستطرد الرحالة فى تسجيل مشاهداته عن هذه المنطقة وذكر أن فوق هذه الجبال تعيش الأسود والنمور وكذلك الماعز والبغال والحمر البرية، ونظراً لاتساع الصحراء فإن الأسود لا تؤذى بقية الحيوانات (٨٥) .

وسجل الرحالة مشاهداته عن وادى فيران ، وذكر أنه عزم على العودة إلى الأراضى المقدسة عبر مصر بدلاً من العودة إلى أيلة ، لذلك اتجه إلى وادى فيران حيث توجد مدينة فران التى حارب فيها سيدنا موسى العماليق . وأضاف أنه يوجد فى هذا المكان كنيسة مذبحها من الحجارة والمدينة محصنة بالأسوار المصنوعة من الآجر، وليس بالمكان شئ يذكر سوى الماء ، وذكر أنطونيوس أنه فى هذا المكان بعض الأمهات والأطفال وقد حملوا فى أيديهم سعف النخيل وقوارير زيت الورد وقد انحنوا على أقدامنا ودهنوها بالعطور وهم ينشدون باللغة المصرية باركنا يارب وبارك القادمين. وأوضح الرحالة أن هذه الأرض هى أرض سيدنا يثرون (شعيب) والد زوجة سيدنا

موسى . وأضاف أن بالمنطقة يوجد ثمانية منازل للجنود وعائلاتهم وهم يتلقون حصة من القمح والملابس من مصر . وإلى جانب ذلك فإن لديهم أفراس عربية ويحصلون على حصة لها من القش والشعير من الحكومة نظير حراستهم للأديرة والرهبان من اللصوص [٨٦] . ومن هذه المعلومة يتضح اهتمام الحكومة بأمر هذه المنطقة حتى تعين حراساً لها وترسل لهم نفقاتهم وعلفاً لدوابهم ، كما توضح جانباً من الحياة الاجتماعية للأسر التى تعيش حول أو فى هذه المنطقة .

وتقدم أنطونيوس حيث وصل إلى مجدلوم وسكوت ، وإلى المكان الذى يوجد به سبعون نخلة واثنا عشر ينبوعاً ، وقد استراحوا فى المكان من التعب لمدة يومين. وقال أنه فى هذا المكان توجد قلعة صغيرة تعرف باسم غرندل Surandela ، وليس فى هذا المكان سوى كنيسة وقس ونزلين للمسافرين ، وقال أنه شاهد فى هذا المكان شجرة فلفل وقد جمع بعض الثمار منها [٨٧] .

والواقع أن ذكر الرحالة لمدينة مجدلوم وسكوت جاء فى غير موضعه لأن هذين المكانين يوجدان فى الصحراء الشرقية لمصر كما ورد فى رحلة سلفيا والواضح أنه وصل إلى وادى المغارة ومنه إلى قلعة غرندل .

وعلى أية حال تقدم أنطونيوس فى رحلته حتى وصل إلى المكان الذى أقام فيه بنو إسرائيل بعد عبورهم البحر ، وفى هذا المكان ، ولعله عند عيون موسى ، توجد قلعة ونزل أو تكية ، ثم واصل سيره حتى شاطئ البحر عند المنطقة التى عبر منها بنو إسرائيل البحر حيث توجد مصلى سيدنا يوسف. وأضاف أن فى هذه المنطقة توجد مدينة صغيرة تسمى القلزم (السويس) حيث تأتى السفن من الهند وتكلم عن الخليج – وهو خليج السويس– الذى يتصل بالبحر الأحمر ، وذكر المد والجزر الذى يحدث بالمنطقة وقال أنه عندما يبدأ الجزر فإن آثار جيش فرعون وآثار العربات تظهر ولكن جيش فرعون قد تحول إلى حجارة. وأضاف أن البعض قدم له النقل الطازج الذى

يأتي من الهند ، وأن الناس يعتقدون أنه يأتي من الجنة . وأن ميزة هذا النقل أن الإنسان يشبع عندما يأكله (٨٨)

والواقع أن هذه الفقرة مليئة بالمعلومات التى تحتاج إلى نقاش طويل فهناك الحديث عن القلزم والتجارة التى تصل إليها ، وهناك الحديث أيضاً عن المد والجزر وهو ظاهرة طبيعية تحدث حتى وقتنا هذا ، أما آثار جيش فرعون وعجلاته الحربية فهناك تجاوز شديد فى هذه المعلومة ، وأخيراً النقل الذى يحتوى على سعرات حرارية عالية وهذه حقيقة .

وسجل أنطونيوس أنه على بعد حوالى اثنا عشر ميلاً من مدينة القلزم توجد جزيرة صغيرة تعرف باسم الجزيرة الزيتية أو صخرة الزيت ، ومن هذه الصخرة تتدلى أشكال ناعمة الملمس فى شكل اصبع اليد تشبه البلح ، يتساقط منها مرهم يعرف باسم زيت الصخرة . ويقوم الناس بجمع هذه المادة للتبرك وهى تستخدم أيضاً لعلاج من مسهم الشيطان ، ولا يسمح لحاملى هذه المادة بالدخول إلى مدينة السويس إلا بعد خلطها بزيت الزيتون لأنها تحتفظ برائحتها الكبريتية التى تنتشر لمسافة طويلة تصل إلى ميلين (٨٩) .

ويحدثنا الرحالة أنه اتجه عبر الصحراء إلى كهف القديس بولس حيث يوجد بالقرب منه نبع ماء يسقى منه المكان كله (٩٠) ، والواقع أن هذه المعلومة جاءت مختصرة للغاية . والواضح أن الرحالة سار جنوباً بحذاء الشاطئ الغربى لخليج السويس حتى وصل إلى دير بولس الراهب (ت ٣٤٧م) ويعرف أيضاً باسم بولس الطيبى. ولاشك أن الرحالة زار كذلك ضريح أنطونيوس الراهب (٣٥١ - ٣٥٦م) الذى لحق ببولس الراهب فى أيامه الأخيرة وعاش فى هذه المنطقة حتى انتقل إلى مكان مجاور . والمعروف أن أنطونيوس من مؤسسى الرهبانية فى مصر (٩١) .

وبعد أن قام أنطونيوس بزيارة هذه المنطقة اتجه جنوباً ثم شرقاً حتى وصل إلى جنادل النيل فى أسوان حيث شاهد مقياساً للنيل وكان ارتفاعه وقت الزيارة اثنا عشر درجة. وأضاف أنه على مقربة من الجندل توجد مدينة على ضفة النيل تدعى بابليون وأخرى لم يذكر اسمها ، وقد بنى هاتين المدينتين على مايقال بنات سيدنا لوط . ثم اتجه عبر سهل تانيس إلى مدينة ممفيس وإلى الشيخ عبادة Antinoe حيث كان يعيش فرعون، وأضاف أن من هاتين المدينتين خرج بنو إسرائيل وفى هذه المنطقة توجد مخازن سيدنا يوسف وعددها اثنا عشر وهى مملوءة بالقمح (٩٢) .

والواضح أن المعلومات التى أوردها الرحالة عن الجنادل وأسوان ومقياس النيل تبدو سليمة أما المعلومات التى وردت بعد ذلك فهى مضطربة للغاية وغير منطقية مع بعضها إلى حد كبير، أما المكان الذى خرج منه بنو إسرائيل فهو يختلف عن المكان الذى سجلته الرحالة سلفيا . وعلى أية حال فمكان خروج بنى إسرائيل من مصر والطريق الذى سلكوه فهو يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

وعاد أنطونيوس للحديث مرة أخرى عن مدينة ممفيس ، وذكر أن كان بها معبداً وتحول إلى كنيسة وأن أحد أبوابها أغلق خلف السيد المسيح من تلقاء نفسه عندما كان موجوداً فى هذا المكان مع السيدة مريم العذراء ، ويقول أنطونيوس أن هذا الباب لايمكن فتحه . وأضاف أنه يوجد بالمكان ملابس كتانية عليها صورة السيد المسيح ، ويقال أن المسيح مسح وجهه فى هذه الملابس وأن صورته طبعت عليها(٩٣) .

ومن ممفيس اتجه الرحالة إلى مدينة أتريب ومنها سار بعيداً حتى مقبرة القديس ميناس Menas (ت ٣٠٣م) الذى أقام بعض المعجزات فى هذا المكان . وأضاف أنه تقدم من هذا المكان حتى وصل إلى الأسكندرية فى القوارب ، وذكر أنه أثناء سيره فى الماء شاهد عدداً كبيراً من التماسيح . ووصف الأسكندرية بأنها مدينة عظيمة وأن

أهلها عابثون ولكنهم مغرمون بالحجاج، واستطرد فى حديثه عن الأسكندرية وقال أن بها هرطقات كثيرة . واختتم حديثه بقوله أن القديس أبيماخوس والقديس أنطونيوس والقديس مرقص وقديسين آخرين ماتوا فى المدينة (٩٤) .

وعن ذكر الهرطقات التى بالمدينة فمن الواضح أن الرحالة كان كاثوليكى المذهب ، وهذا المذهب يخالف مذهب أهل مصر الأرثوذكس ولعل ذلك هو السبب لذكره أن بالمدينة هرطقات كثيرة. وعلى أية حال فقد انتهى عند هذه المرحلة حديث الرحالة عن مصر ثم تحدث عن بيت المقدس بعد أن عاد إليها من الأسكندرية بطريق البحر.

ومن الواضح أن الرحالة أنطونيوس قدم لنا عرضاً طيباً عن الأماكن التى سجلها فى رحلته ، وإن كان هناك بعض الخطأ فى ترتيب الأماكن حسب الواقع الجغرافى، وبعض المعلومات غير المعقولة. لقد تكلم عن صحراء سيناء ومابها من مزارات دينية وعبادة وثنية وإن كان أوجز فيها عما سجلته سلفيا لكنه انفرد بالحديث عن القديس بولس ، وجنادل النيل ومدينة أسوان ، ومقياس النيل ، ومدينة أتريب والقديس ميناس ، وبعض المعلومات عن الأسكندرية .

والخلاصة أن الرحالة سلفيا قدمت لنا جانباً طيباً عن صحراء سيناء وصحراء الدلتا الشرقية، كما أن القديسة بولا قدمت لنا جانباً جديداً عن صحراء وادى النطرون وأديرتها . أما ثيودوسيوس فجاءت معلوماته موجزة ومضطربة، فى حين امتاز أنطونيوس بما قدمه من معلومات عن القديس بولس ومصر العليا وممفيس والأسكندرية . ويتضح أيضاً أن الدخول لمصر إما كان يتم عن طريق العقبة أو عن طريق غزة البرى إلى بلزيوم (الفرما) أو الطريق البحرى من بلزيوم إلى غزة ، أو عن طريق الأسكندرية .

وتبين لنا رحلة أنطونيوس بعض الجوانب الاجتماعية الخاصة بسكان صحراء

سيناء والديانة الوثنية التى اعتنقها البعض ، يضاف إلى ذلك طريق التجارة إلى العقبة وإلى مدينة القلزم التى كانت تأتى من الهند . واتضح أيضاً عناية الحكومة فى مصر بأمر المسافرين وتوفير الأمن والأمان لهم .

والحقيقة أن هؤلاء الرحالة الذين تعرض لهم البحث لم يتحدثوا عن أى ضرر وقع عليهم أثناء رحلاتهم فى مصر مما يشير إلى حالة الاطمئنان التى سادت المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى . ويبدو جلياً أن هذه الحالة استمرت كذلك بعد الفتح الإسلامى لمصر ، فقد ذكر الرحالة برنارد الحكيم الذى زار مصر عام ٨٧٠م فى مطلع دولة ابن طولون ، أن السلام يسود بين المسلمين والمسيحيين وأن المسافر إن كان ذاهباً فى رحلة ونفقت راحلته ، فإنه يتركها وأمتعته دون حراسة ويبحث فى المدينة عن راحلة أخرى ، وإذا عاد فإنه يجد أمتعته دون أن تمس بسوء . أما عند حديثه عن إيطاليا فقد ذكر أن بها العديد من الأشرار واللصوص والنشالين ، وأن من يود الذهاب إلى روما لايمكنه ذلك إلا إذا كان مع مجموعة كثيرة العدد ومسلحة جيداً(٩٥) .

المختصرات لبعض أسماء المصادر والمراجع التي ذكرت بالبحث

P. P. T. S. = Palastine Pilgrims Text Society.

ANT. M. = Antoninus Martyr, The Holy Places, CF. P. P. T. S., London 1897, Vol. II.

Amm. Mar. = Ammianus Narcellinus. Loeb Classical Library.

Aziz. S. = Aziz Suryal Atiya, the Monaster of St. Catherin, Cairo, 1950.

Ber. W. = Bernard The Wise, The Itinerary, CF. P. P. T. S., London, 1895, Vol. III.

Gre. T. = Gregory of Tour. The History of Franks Great Britan, 1974.

Paula = The Pilgrimage of the Holy Paula. by St. Jerome, C. F. P. P. T. S., 1887, Vol. I.

Pro = Procopius, Loeb Classical Library .

Saints = Attwater, Donald, Dictionary of Saints Great Britain, 1975.

Silvia = Silvia of Aquitania, The Pilgrimage, CF. P. P. T. S., London, 1891, Vol. I.

Theo . = Theodosius, The Topography of the Holy Land, CF. P. P. T. S., London, Vol. II.

الحواشي

١ - Gre. T., PP. 14 - 15

٢ - Silvia, PP. 14 - 15.

٣ - Silvia, P. 73 .

٤ - Silvia, PP 31, 46

٥ - Silvia, P. 5.

٦ - Silvia, P. 20.

٧ - Aziz. S., P. 6.

٨ - Silvia, P. 69.

٩ - Silvia, P. 44 .

١٠ - Silvia, P. 41 .

١١ - Amm.Mar. II xxv 6, 9.

١٢ - Silvia, P. 35.

١٣ - Silvia, P. 4.

١٤ - Silvia, P. 41.

١٥ - Silvia, P. 5.

١٦ - Silvia, P. 43 No. 2.

١٧ - Silvia, P. 49 No. 3.

١٨ - Silvia, P. 18.

١٩ - Silvia, P. 76.

٢٠ - Silvia, P. 75.

٢١ - Silvia, P. 11.

٢٢ - سفر العدد ١١ : ٣٤.

٢٣ - Silvia, P. 11.

٢٤ - سفر الخروج ٣ : ١ - ٣.

٢٥ - Silvia, P. 12.

٢٦ - Silvia, P. 12.

٢٧ - Silvia, P. 13.

٢٨ - Silvia, P. 13.

٢٩ - سفر الخروج ١٩ : ١٨.

٣٠ - Silvia, P. 13.

٣١ - Silvia, P. 14 - 15.

٣٢ - سفر الخروج ٢٣ : ٢٢ .

٣٣ - Silvia, P. 15.

٣٤ - سفر الملوك الأول ١٩ :٨-٩.

٣٥ - Silvia, P. 15.

٣٦ - Silvia, P. 15.

٣٧ - Silvia, P. 16.

راجع أيضاً سفر الخروج ٢٤ :٩.

٣٨ - سفر الخروج ٣ : ٣.

٣٩ - Silvia, P. 16.

٤٠ - سفر الخروج ٣ : ٥ .

٤١ - Silvia, P. 17.

٤٢ - Silvia, P. 18 .
راجع أيضاً سفرالعدد١١ :٣,٣٤.
وسفر الخروج ٣٣ : ١.

٤٣ - Silvia, P. 19.

٤٤ - سفر العدد ١٠ : ١٢ .
٣٣ : ٢٦ .

٤٥ - Silvia, P. 20.

٤٦ - Silvia, PP. 20 - 21.

٤٧ - Silvia, P. 21

٤٨ - Silvia, P. 21 .

٤٩ - سفر التكوين ٤٦ : ٢٩ . .

٥٠ - Silvia, PP. 21 - 22.

٥١ - سفر التكوين ٤٧ : ٦، ١١.

٥٢ - Silvia, PP. 22 - 23.

٥٣ - Silvia, PP. 23 - 24

٥٤ - Paula, P. II - III.

٥٥ - عن ذلك ولمزيد من التفاصيل راجع
Saints, PP. 269 - 270.

٥٦ - Paula, P. IV.

٥٧ - Paula, P. II .

٥٨ - Paula, P. IV.

٥٩ - Paula, P. III.

٦٠ - Paula, P. 16.

٦١ - سفر اشعيا ١٩ : ١٨ .

٦٢ - Paula, P. 15.

٦٣ - Paula, P. 15.

٦٤ - Paula, P. 16.

٦٥ - Theo, P. 13.

٦٦ - Theo. P. 5.

٦٧ - Theo, P. 5.

٦٨ - Theo. PP. 12 - 13.

٦٩ - Theo, P. 17.
راجع أيضاً سفر الخروج ١٧ :٨-١٩.

٧٠ - جيبون ، ادوارد : اضمحلال
الامبراطورية الرومانية وسقوطها -
القاهرة ١٩٦٩ ، جـ٢ ، ٢٥٦-٢٥٧.

٧١ - Ant. Mar. P. 1.

٧٢ - Ant, Mar, P. 19.

٧٣ - Ant. Mar. P. V.

٧٤ - Ant. Mar. P. 11.

٧٥ - Ant. Mar. P. 10 No.3.

٧٦ - Ant. Mar. P. 31 .

٧٧ - ant. Mar. P. 28 .

٧٨ - Ant. Mar. P. 28 .

٧٩ - Ant. Mar. P. 28.

٨٠ - Ant. Mar. P. 29.

٨١ - Ant. Mar. P. 29.

٨٢ - Pro.Vol.VII.PP.355-7.

٨٣ - Ant. Mar. P. 30.

٨٤ - Ant. Mar. P. 30.

٨٥ - Ant. Mar. PP. 30 - 31.

٨٦ - Ant. Mar. PP. 31 - 32.

٨٧ - Ant. Mar. P. 32.

٨٨ - Ant. Mar. P. 33.

٨٩ - Ant. Mar. PP. 33 - 34.

٩٠ - Ant. Mar. P. 34.

٩١ - Saints. PP. 49,50,288-9

٩٢ - Ant. Mar. P. 34.

٩٣ - Ant. Mar. P. 35.

٩٤ - Ant. Mar. P. 35.

٩٥ - Ber. W. P. 11.

Abstract of Proposed Paper

submitted to the First International Alexanderia Conference on Cul ture exchange among the Peoples of the Mediterrian through out history, January, 1994.

Submitted by: Dr. Ali Diab, Faculty of Letters, Damascus University Topic Title : The Spread of the Arabic Branches of Knowledge, their Movement from the Orient to the West, and their influence in Europe.

The topic is introduced by giving a historical synopsis in which we explain the nature of the relationship between East and West, or between the Orient and the Occident where the former was the primary origin of the transfer of Arabic Knowledge to the West ; both Arabic and Foreign well-known researchers are quoted . The beginning of this transfer, which was associated with the first conquests of the Iberian Peninsula is also emphasised. The manner in which the people of the West regarded the perple of the East is also stressed. A list of the names of those who came from the Orient to the west is given-singling out some prominent personalities who were influential in the new land, the achievements of whom so widely spread that their fame travelled and exceeded the boundaries of the Peninsula itself. One such importhant personality has been given as an example : the personality of Zeryab-the famous and singularly endowed (musician) along with the influence of his artistic, cultural and social innovations in general. Mention has also been made of such important personalities as Abi-Ali Al-Quali who wrote : **Al-Amali and Al-Nawader** (The Excerpts and the Anecdotes), and Abi-Al-Alaa Seaed Al-Baghdadi who wrote: "Seaheb el Qusus" "that of the Short Cuts", and Abi-Al-Hassan Al-Antaki, and Abdul Malek ben Omar ben Narwan Ibn El-Hakkam, and others.

We have also mentioned some famous women and well-known Lady-Slaves who had their influence through their skills and what they had introduced in the fields of Arts, such as Abedeh Al-Madaniyeh, and Fahdl Al-Madaniyeh, and Quamar the Lady Slave of Ibrahim ben Al-Hajjaj Al-Laxami (Al-Lakhami).

We have talked with some detail and depth about the importance of the Orient and its role in the Moorish traditional culture, since the Andalus Literature and most of the other scdences were based on the Arabic literature and science of the Orient and carried hence to the West by scientists; in other words the West in the advancement and development of this science and that was indebted to the Orient . We have also pointed out the importance of these sciences in later times and how they managed, in spite of their classical nature at the beginning, to persevere as inherently original sciences of the East complementing and even influencing them, achieving predominance in certain fields .

Mention has been made of some of the prominent personalities of Andalusia in more than one field of knowledge, such as philosophy and literature in general and other applied sciences such as Medicine, Mathematics, Astronomy and others in particular; the most prominent of such personalities being Ibn Hazm, Al-Zahrawi, Averoes, Avecenna and others. How the fruit of their reserch moved to Europe and had its influence there is also explained .

The study of the historical side has been given due consideration beginning with the earliest incidences of this movement of the Science at the moment of their first existence along with those people who came to this region as warriors of any others that accompanied them with the purpose or teaching the proper Arabic Language and spreading its usage, in addition to spreading the dogmA of the new religion into those regions, emphasising the development of this undertaking along the centuris Finally, we have pointed out in our conclusion the close relationship between East and West and the importance of this relationship and its distinguished nature in the Arabic Classical ages in various fields; and the continuity of this importance through our present time and into the future is also stressed .

الموضوع المقترح لمؤتمر الاسكندرية الدولى الأول
حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط
عبر التاريخ كانون ثانى - يناير - ١٩٩٤ .

انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب وتأثيرها فى أوربا :

قبل أن نشرع فى موضوعنا ، نوغب الاشارة الى تلك العلاقة بين الشرق والغرب ، أو بالأحرى كيف نفهم ذلك عندما نتحدث عن الأندلس؟

وبالتالى ما كان لها من فضل فى تطور العلوم وتقدمها ، هذه العلاقة التى بدأت بين المشرف والمغرب ، ومن ثم ما آلت اليه بين الشرق والغرب عامة ، ومما يستوقف أى مطلع على الثقافة العربية الأندلسية ، ولا سيما فى بداياتها الأولى وتأثرها بالثقافة العربية المشرقية بشكل كبير ، وملفت للنظر ، وفى مختلف مجالات الحياة ، سواء السياسية منها أو الاجتماعية أو الفكرية بشتى فروعها العلمية والفنية ، وقول ابن بسام فى هذا الصدد خير شاهد على ذلك :

« إلا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل المشرق ، يرجمون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيه ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبّع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرَةً لهذا الأفق

الغريب أن تعود بدوره أهلّه ، وتصبح بحاره ثمارا مضمحلة ، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات احسانه قبله ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان[1] ؟».

وبعد تأمل قول ابن بسام ، يتضح لنا الكثير الكثير ويؤكد ما قلناه عن تلك العلاقة ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار ، الفترة الزمنية التى جاء فيها قوله ، حيث عاصر فترة أواخر القرن الخامس الهجرى ، وفترة لا بأس بها من القرن السادس الهجرى ، إذ كانت وفاته عام / ٥٤٢ / هـ [2] .

هذا موقف ابن بسام ، وبعد مرور قرابة خمسة قرون على تلك العلاقة بين المشرق والمغرب ، كاد كتابه الذخيرة ، أن يكون بمجمله بمثابة رد على هذه النقطة ، ألا وهى تأثر المغرب بالمشرق ، ساعيا الى اتهام أهل بلاده ، أن عندهم ما يعتزون به ، ويفاخرون غيرهم . ربما نوافق ابن بسام الى حد ما ، ولكن فى فترة متأخرة من عمر الثقافة العربية فى الأندلس ، ولا سيما بعد أن نضجت وتكاملت ، وأضحت ذات سمات أندلسية خالصة .

هذا ما يدفعنا إلى القول : إن ابن بسام ربما كان متأثرا بمغربيته التى دفعته لأن يتناسى تلك الحقائق التاريخية ، فمن الطبيعى أن يكون هناك تأثر وتأثير ، حيث إن تلك الديار قد وطئت من قبل القادمين من المشرق والذين بدورهم، بدؤوا بنشر لغتهم ودينهم باللغة العربية ، وبالثقافة العربية الاسلامية، والأداة المنفذة لذلك ، هم أولئك القادمون من المشرق، ولذا فمن الطبيعى أن يكون ذلك مطبوعا بالطابع المشرقى، وهذا ما خفت تدريجيا فيما بعد. وها هو الأديب الفرنسى المشهور هنرى بيريز يقول وفى السياق اياه :

« يتطلع الأمويون فى أسبانيا دائما نحو العباسيين فى بغداد ، والأدب الذى تكوّن فى قرطبة وفى تلك القصور الصغيرة حول الحكام فى المحافظات ما هو إلاّ محاكاة وتقليد لما حدث فى العراق . كان خلفاء قرطبة يستميلون أدباء بغداد أمثال : أبو على القالى وهو عالم لغوى أكثر من أنه شاعر ، وصاعد اللغوى الشاعر الحاذق واللغوى الشجاع الذى وصلتنا أخباره حديثا. لقد قام أمير اشبيلية ابراهيم بن الحجاج بتقريب اللغوى أبو محمد العذرى وإبقائه الى جانبه وهو من الحجاز ، ولكن تأثيره لم يكن أقل قوه من الذى مورس من قبل الجوارى المغنيات المتدربات فى الشرق ، فى المدينة كما فى بغداد ، حيث تم شراؤهن من قبل الأمراء والحكام فى إسبانيا ، الذين كانوا يدفعون فى بعض الأحيان أثمانا باهظة لانتزاعهم من بلاط بغداد [٣] » .

وهنا نود الأشارة الى ما ذكره المقرى فى نفحه وهو بصدد الحديث عمن رحل من المشرق الى بلاد الأندلس :

« أعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لاتحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم ، ومنهم من أتخذها وطنا ، وصيّرها مسكنا ، الى أن وافته منيته ، ومنهم من عاد الى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس منيته [٤] » .

هكذا يقوم المقرى بإحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم قرابه / ٨٦/ ستة وثمانين شخصا ، ومنهم عدد من النساء المشهورات .

وهنا تجدر الاشارة الى أن معظم الذين دخلوا بلاد الأندلس من المشرق لم يدخلوها للغرض نفسه الذى ذهب من أجله الاندلسيون الى بلاد المشرق، وانما جاؤوا الأندلس كفاتحين ومبشرين ، سواء منهم المقاتلون والقادة العسكريون ، أم المثقفون الذين سيسند إليهم التوجيه والإرشاد ،

بالإضافة الى قيامهم بدور تعليم اللغة العربية ، ونشر الدين الاسلامى فى تلك الأصقاع .

سنقوم بعرض بعض الاسماء اللامعة وعلى سبيل المثال لا الحصر ممن قدم المغرب من المشرق ، وما كان لها من تأثير بشكل عام فى الغرب ويأتى فى مقدمه هؤلاء زرياب (٥). لقد كان مولى أمير المؤمنين المهدى العباسى وكان كذلك تلميذا لإسحق الموصلى فى بغداد ، فتلقف من أغانى أستاذه وهدى الى فهم الصناعة ، وصدق العقل مع طيب الصورة ، وصورة الطبع الى ما كان به اسحق نفسه ، وقد غنى مرة لأمير المؤمنين الرشيد :

يا أيها الملك الميمون طائــره هــارون راح اليك الناس وابتكروا (٦)

وأطرب له ، وأعرب الرشيد لأستاذة اسحق عن رضاه واعجابه بهذا المغنى الشاب وعن لومه له لعدم إعلامه بشأن هذا المغنى وطلب منه رعايته والاهتمام به ، ونتيجة ذلك خاف منه أستاذه ودب الحسد فيه ، فجاءه وصارحه تاركا له أن يختار بين اثنين : أما أن يهجر تلك البلاد ، وإما أنه سيغتاله ، وكان زرياب عارفا لقدرة أستاذه فتركه وقصد بلاد الأندلس مع عائلته ، لقد استقبل زريات فى قرطبة استقبالا جيدا ، وأمر له الأمير عبد الرحمن بن الحكم براتب جيد ، وأنزله مسكنا لا بأس به وطلب الى عماله أن يحسنوا اليه وكان ذلك سنة ست ومائتين للهجرة (٧).

بعد أن استقر المقام بزرياب فى مكان إقامته الجديد ، قام بزيادة أوتار عوده وترا خامسا ، أحمر متوسطا ، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة ، وقد اخترع أيضا مضراب العود من قوادم النسر معتاضا به من مرهف الخشب ، فأبرع فى ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع ،

وكان زرياب أيضا عالما بالنجوم ، وقد جمع الى خصاله كفنان وموسيقى كثيرا من ضروب الظرف وفنون الأدب ولطف المعاشرة ، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة لهم فيما سنه من آداب ، ومما أخذه عنه الأندلسيون تعليمه لهم كيف يفرقون شعرهم وسط الرأس ، ويعقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، فى حال أنهم كانوا يتركونها تغطى كل هذه الأماكن الجميلة من الانسان ، وهناك الكثير من العادات التى أخذها عنه الاندلسيون ولا مجال لحصرها فى دراسة مثل هذه الدراسة (٨).

وخلاصة القول : إن زرياب أنشأ أول مدرسة فى الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء ، وكان عماد هذه المدرسة أبناؤه وبناته وجواريه ، وما تبعها من مدارس أخرى فى إشبيلية وطليطله وبلنسية وغرناطة كان استمرارا لمدرسته ، ويعتبر حجر الأساس فى فن الموسيقى الإسبانى . كما كان من نتائج مجيئة للأندلس وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية ، أن شاع فى المجتمع الأندلسى حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة ، وقد وضع زرياب نظاماً للزى يقضى بأن يلبس الأبيض منذ مطلع حزيران حتى نهاية تشرين وأن الربيع هو الفصل الذى تلبس فيه الناس الحرير والألبسة الخفيفة وذات الألوان المتعددة ، أما فى فصل الشتاء فتلبس الفراء والمعاطف المبطنة .

« وكان الناس يلتمسون آراءه فيطبقونها نصا وروحا [٩] » كما شاع أيضا الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء ، مما أدى الى التورط أحيانا باللهو والمجون ، والذى ساعد على ذلك تحرر بعض الأمراء الذين حكموا فى تلك الفترة مثل عبد الرحمن الأوسط ، ومع نهاية فترة عبد الرحمن هذا ينتهى

زرياب بانتقاله الى العالم الآخر وذلك عام / ٢٣٨ / هـ [١٠]. وكان لزرياب أثر بالغ فى بعث النهضة الفنية فى أوروبا ، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين والباحثين يشير إلى أن فن التروبا دور قد نبع من أصول عربية وأندلسية . ومن الأعلام المشهورين أيضا الذين قدموا الأندلس من المشرق أبو على القالى صاحب الأمالى والنوادر ، وكان أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين، وكان يسمى بالبغدادى لوصوله الى الأندلس من بغداد، ويقال:

إن الناصر هو الذى استدعاه من بغداد لولائه فيهم [١١]. ونذكر أيضا من هؤلاء العلماء أبا العلاء صاعد البغدادى[١٢] اللغوى وأصله من الموصل، دخل قرطبة أيام المنصور بن أبى عامر ، وظن المنصور أنه سيناهض به أبا على القالى الوافد على بنى أميه ، ولكنه لم يجد عنده ما يرتضيه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وكان له نوادر عديدة مع المنصور ، وقد أعجب مرة بما بدر منه، وأراه كتاب النوادر لأبى على القالى ، وطلب صاعد من المنصور أنه اذا أراد فبإمكانه أن يعد كتاب أرفع من النوادر وأجل منه ، وأنه لا يورد خبرا مما يورده أبو على ، ثم ذهب وجلس بجامع مدينة الزهراء وأنجز كتابه «الفصوص» وبعد أن اطلع عليه أدباء ذلك الوقت أمر المنصور بقذفه فى النهر ، حيث قال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عاد الى معدنه ، إنما توجد فى قعر البحار الفصوص[١٣]

ومن الذين دخلوا الاندلس أيضا أبو الحسن الأنطاكى وفيه يقول أبو الوليد بن الفرضى :

« أدخل الأنطاكى الأندلس علماً جماً ، وكان بصيرا بالعربية والحساب وله حظ من الفقه ، قرأ الناس عليه ، وسمعت أنا منه ، وكان رأسا فى القراءات ، لا يتقدمه أحد فى معرفتها فى وقته ، وكان مولده فى انطاكية سنة ٢٩٩/ هـ ومات بقرطبة سنة ٣٧٧/ هـ رحمه الله تعالى[١٤]»

ومن الذين وفدوا أيضا الى الأندلس من المشرق ، عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموى ، إذ فرّ من الشام خوفاً من أعدائه ، فمر بمصر ومضى الى الأندلس فأكرمه عبد الرحمن الداخل وولاه إشبيلية ، وكان يحن دائما لوطنه ، ولا سيما أنه لم يأت الأندلس راضيا كغيره ، وإنما أتاها فارا من خصومه فى المشرق ، ويروى لنا المقّرى أنه رأى نخلة منفردة فى اشبيليه فتذكر وطنه بالشام وقال :

يانخل أنت فريدةٌ مثلى ... فى الأرض نائبةٌ عن الأهل
تبكى وهل تبكى مكممة ... عجماء لم تجّبل على جيلى[١٥]

لقد قدم الأندلس أيضا أحد الأولياء الصالحين واسمه سيدى يوسف الدمشقى[١٦] وهو شاذلى الطريقة ، كان يأتى مدينة وادى آش الكرة بعد الكرة لزيارة بعض معارفه ، وكان من الذين أخفاهم الله لا يعرف به الآ من تعرف له .

كما قدم الأندلس أيضا عدد من النساء نذكر منهن: عابدة المدنية[١٧] أم ولد حبيب ابن الوليد المروانى المعروف بدحون ، وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة .

ونذكر أيضا فضل المدنية[١٨] وهى حاذقة بالغناء ، كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد ، نشأت وتعلمت ببغداد ، ومنهن أيضا

قمر جارية ابراهيم حجاج اللخمى وكانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان ولها فى مولاها :

ما فى المغارب من كريم يرتجى   الا حليف الجود ابراهيم

إننى حللت لديه منزل نعمة   كل المنازل ماعداه ذميم[19]

ومن النساء اللواتى دخلن الأندلس أيضا الجارية العفراء ويصفها الأرقمى أنها لم تكن حسنة المظهر ولا جميلته ، الا أنها كانت مغنيه بارعة ولها :

ياطول ليلى أعالج السقما   اذ حلّ كلّ الأحبة الحرما

ماكنت أخشى فراقكم أبدا   فاليوم أمسى فداقكم عزما[20]

وهكذا نجد أنه كان لمجموع الوافدين الى ديار الاندلس تأثير كبير فى مختلف مجالات الجياة وقد ظل الأندلسيون يحاكون أهل المشرق فى كل شيء وفى هذا الصدد يقول هنرى بيريز :

« إن الثقافة الأدبية التى رأيناها هكذا ، بدأت فى اسبانيا بالشعر المشرقى وفرضت طريقة استبدادية على ذهن جميع الأندلسيين ، فإذا أرادوا أن يميزوا أديبا أو شخصيه ما كانوا يعودون مباشرة الى ما يقابلها فى ذاكرتهم المشرقية . فالمعتضد قورن بالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، والمعتمد قورن بالواثق بالله وذلك بسبب حدة ذكائه واتساع معرفته الأدبية[21] » .

وفي هذا الاطار نفسه يقول شوقي ضيف :

« ارتبطت الأندلس فى علمها وفلسفتها بالمشرق فقد كانت تستورد

منه نماذجها الثقافية ، تارة يذهب أهله اليه ليتعلموا على يديه ، وتارة يرسل هو إليه علماءه كأبى على القالى على سبيل المثال(٢٢) » .

وما نود الاشارة اليه ، والتأكيد عليه الأصل المشرقى للعلوم فى البداية وكيف انتقل كما ذكرنا الى المغرب عامة والأندلس خاصة ، وبغض النظر عن تقليدية هذه العلوم فى البداية وكيف أصبحت أصيلة فيما بعد وأضحت أندلسية خالصة ، حيث كان لها السبق فى بعض المجالات ، ومن هذا الموقع الجديد انتقلت هذه العلوم الى بقية أنحاء المعمورة الأوروبية ، وكان ما كان من صدى لانتاج ابن حزم وابن رشد وابن سينا والفارابى وغيرهم . قبل أن نذكر بعض الأمثلة لنماذج تم انتقال هذه العلوم عبرها ، نود الاشارة الى تلك المكانة التى كانت تمثلها اللغة العربية فى ذلك الوقت ، وكيف انصرف اليها الجميع ، لما تمتعت به من أهمية وعلى مختلف الصعد الفلسفية والفنية والأدبية وغير ذلك ، واقبال الكثيرين على تعلم هذه اللغة ، وخير شاهد على ذلك هو ما قاله ألفرو القرطبى (ALVARO CORDOBE) عندما خاطب أبناء الإسبان مبدياً تخوفه من انتشار العربية وتحول معظم أبناء بلده الى العربية ، ويعرب عن تأسفه حيال ذلك فيقول من جملة ما يقول :

« إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا . وأين تجد الآن واحدا ـ من غير رجال الدين ـ يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى ـ رجال الدين ـ

يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة ! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم . وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقية بالاعجاب . فاذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم بالألم ! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا (٢٣)» .

وبغض النظر عن وقوفنا عند قول ألفرو ومناقشته ومن ثم مخالفته هنا أو موافقته هناك ، فإن ذيوع وانتشار اللغة العربية كان كسريان النار فى الهشيم ، وفى المناطق التى لم تصلها اللغة العربية ، أو كان من الصعوبة بمكان أن يتعلم أبناء هذه المنطقة أو تلك هذه اللغة الجديدة ، فجودة الانتاج وسموه دفع بالباحثين والمفكرين إلى ترجمة هذه الآثار الرائعة إلى اللغات الأخرى وكانت اللاتينية فى مقدمتها بل وعلى رأسها ، ومن خلال هذه الترجمات وصلت هذه الآثار إلى أنحاء المعمورة الأوروبية ، وقبل أن نذكر بعض الأمثلة كشواهد حية على انتقال العلوم العربية وانتشارها فى أوروبا ، نود أن نذكر ما نقله زكريا هاشم زكريا عن برفو (BRIFFAUT) فى كتاب : « تكوين البشرية فى القرن التاسع عشر » : (إن رئيس دير كلونى (CLUNY) كان يأسف أثناء إقامته بالأندلس ، لما كان يشاهد

« إن ابن رشد هو ربما الإسبانى الذى كان له أكبر تأثير على طول التاريخ كله على الفكر البشرى [٢٦]» .

هذا ويخبرنا الفيلسوف الفرنسى ربنان عن ابن رشد أيضا :

« ان ابن رشد ، خاصة ، قد عظم فى نظرى ، وباختصار : فالتطور العقلى الذى أحرزه العلماء العرب ظل حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أعلى من مقام العالم المسيحى [٢٧]» ويضيف كذلك المؤلف نفسه وهو فى اطار الحديث عن ابن رشد مجملا حديثه عن الفلسفة الاسلامية من خلال رأيه بابن رشد : « إنه لحق ، وصحيح جدا ، أن الفلسفة العربية منطلقة من أساسى تقليدى قد وصلت خاصة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (الميلاديين) الى أصالة حقيقة [٢٨]» .

ويعلمنا ربنان فى مؤلفة إياه :

« وعندما قرر الملك الفرنسى لويس الحادى عشر تنظيم التعليم الفلسفى سنة ١٤٧٣ كان المذهب الذى أوصى به هو مذهب أرسطو وابن رشد [٢٩]» .

ونورد الإشارة أيضا إلى أن ابن رشد كان أول من قال : ان بعض الأمراض المعدية مثل الجدرى الاسود ، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة. وبذلك يتجلى لنا مدى تأثير فلسفة ابن رشد ، وما تركته من بصمات بيّنة ، واضحة المرتسمات فى الفكر الأوروبى عامة .

والمثال الثانى الذى يخطرنا هنا بعد الحديث عن ابن رشد فهو ابن حزم القرطبى وهو سابق لابن رشد وما كان له من دور فى انتقال العلوم الى

من تهافت الطلبة من فرنسا وألمانيا وانكلترا على مراكز العلم العربية ، كما يضيف برفو أيضا : « العلم هبه عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر » كما ويذكر لنا السيد بلقاسم مولود فى بحثه الذى قدمه لندوة الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ فى دمشق عام ١٩٩٠ :

(أن الاستاذ الكبير جانبيلافسكى « JAN BIELAWSKI ») رئيس قسم الدراسات الإسلامية فى جامعة وارسو قد قال لهم أثناء انعقاد الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فى عنابة بالجزائر عام ١٩٧٦ : [ان كتاب «الكليات فى الطب لابن رشد» كان يدرس فى جامعة كراكوفيا (CRACOUI) ـ مسقط رأس البابا الحالى ـ حتى القرن الثامن عشر] . وجاء فى مداخله السيد بلقاسم أيضا أن الاستاذ الدكتور هيرمان لاى (HERMMANN LEY) الاستاذ بجامعة هومبولدت فى برلين قال لهم:

« ان نفس الكتاب كان يدرس فى جامعة يينا (JENA) فى المانيا حتى بداية القرن التاسع عشر » ويضيف السيد بالقاسم أيضا : إن المؤرخ الإسبانى المعاصر الكبير خوان فيرنيت ـ (JUAN VERNET) يقول فى كتابه الأخير : « الثقافة الإسبانية العربية فى الشرق والغرب » : (اذا كان القرن الحادى عشر (ميلادى) عصر علماء الفلك الكبار فى الأندلس ، فالقرن الثانى عشر أعطى هذه الأسبقية للأطباء والفلاسفة ففى كلا الميدانين تميز ابن رشد ، إن مؤلفاته فى الميدانين ، قد كان لها من التأثير فى العالم الغربى (أوروبا) حيث أصبح هذا العالم فى القرن الخامس عشر ، لم يعد يؤمن بأن النور يخرج من الشرق ، بل من أسبانيا (الاندلس) ولقد ذكره (الشاعر الايطالى الكبير) دانتى فى ديوانه الجحيم)[٢٥] ويضيف المؤلف نفسه :

الغرب وسنقتصر فى حديثا عن ابن حزم على مثال واحد وهو شيوع مؤلفة الهـام فى الحب (طوق الحمـامة) وكيف سرت الأفكار المتضـمنة هذه الرسالة البديعة من تعريف للحب وما هيته وأنواعه بأبوابها الثلاثين وخير ما يؤيد قولنا هنا ما ذكره السيد غومس غارسيا وهو فى اطار رده على الذين أنكروا أثر العذرية العربية فى الادب الاوروبى ، يقول :

« ان شعراء الإسلام ، من بغداد الى مرسية ، أقاموا قرونا ثلاثة يتفننون بالحب العذرى ، ويحللونه ، ويرسمون له المناهج ، وتلك هى الحركة التى انتقلت من قرطبة الى بروفانس (جنوب فرنسة) لتلهم البروفنسيين ما سموه (بالعلم البهيج) والتى أوحت الى جويدا جينزلى (GUINIDA GUINZELLI) أستاذ « دانتى » أسلوبه العذب الجميل، ومع هذا فعندما أخرجت مطابع فلورنسة النص الاغريقى لكلام « افلاطون » رمى الناس العرب بالحسية الجافية ، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك[٣٠]» لا نريد أن نسهب هنا فى الرد على الذين أنكروا العذرية على العرب ، فتاريخ الأدب العربى حافل بها لا يحتاج الى اثبات وبراهين وذلك بدءا من عنترة بن شداد ومرورا بجميل بثينة الى ابن حزم الذى قيد الحب فى طوقه ، عارضا خلاصة تجربته فى الحب والأشكال المتعددة له بحلوها ومرها ، هذه الأشكال التى جاء الشعر البروفانسى الأوروبى وبعد قرن من الزمن ليتعرض اليها ، وان ما تضمنه هذا الشعر من تمجيد للمرأة وخضوع لها ليس له أى جذور فى الشعر الغنائى الأوروبى الذى لم يعرف قبل القرن الثانى عشر الميلادى ولم يبق أمام النقاد والمؤرخين الا أن ترد هذه الجذور الى الأدب العربى عامة والأندلسى خاصة ، والتى كان يشكل فيها غرض الغزل جوهرة ومركز تطوره .

ونود أن نذكر هنا قول ستندال للتدليل على ذلك :

« يجب أن يبحث عن الحب الحقيقى ووطنه تحت خيمة الأعراب القاتمة [٣١]» .

وخير ما نختتم به حديثنا من انتقال آثار ابن حزم الى الغرب ، ما أشارت اليه د . البغدادى فى تقديمها الكتاب هوسا [٣٢] ـ الذى قامت بتعريبه ـ من مقارنة بين طوق الحمامة لابن حزم ومؤلفات أخرى مثل : (فن الحب) لاندريه لوشابيلان ، وكذلك (فن الحب العفيف) لاندريا كابلانوس . حيث ظهر هذان الكتابان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين مع ظهور الشعر الغنائى الأوروبى فى إسبانيا وجنوب فرنسة قبل انتقاله الى أرجاء أوروبه الغربية ، مع الاشارة الى أن كثيرين ممن تعرض لهم هو سافى كتابه (شعراء التروبادور ومجالس الحب) مثل : دى سانت ديديه، ودى كابستان ، وأرنودى مارى ، ولابازول وغيرهم ، حيث جاءت أراؤهم فى الحب صدى وتكرارا لشكل أو آخر لما تعرض له ابن حزم ونأتى بمثالين على سبيل الذكر لا الحصر مؤكدين ذلك :

المثال الأول : يقول ابن حزم فى باب طى السر :

« ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود المحب ان سئل، والتصنع باظهار الصبر ، وربما كان سبب الكتمان ابقاء المحب على محبوبه، وان هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . وفى ذلك أقول :

دری النـاس أنـى فتى عاشـق ... كئيـب معـنى ولكـن بمـن

اذا عاينـوا حالتـى أيقنـوا ... وان فتشـوا رجعـوا فـى الظـنن

وفى كتمان السر أقول قطعة منها :

للسر عندى مكان لويحل به حتىّ إذاً لاهتدى ريب المنون له
أميته وحياة ميتته كما سرور المعنىّ فى الهوى الوله [٣٣]»

وفى المقابل يقول أرنودى مارى مخاطبا حبيبته :

« اذا تفضلت بمنحى بعض الاحسان ، آه يا أعز النساء ، فأعلمى أننى سأتحمل الموت أولى من أن أرتكب أقل حطأ بإفشاء الشر ، آه اننى أطلب من الله أن يقضى على أيامى فى اللحظة التى أرتكب فيها خطأ خيانة سر ألطافكم [٣٤]» .

أما المثال الثانى: فهو عندما يقول ابن حزم فى باب علامات الحب:

« ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة وفى ذلك أقول قطعة منها :

اذا ما رأت عيناى لابس حمرة تقطعْ قلبى حسرة وتفطّرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا وضرّج منها ثوبه فتعصفرا[٣٥]

وفى المقابل يقول لوشابيلان : (فى قوانين الحب ، القانون الخامس عشر : « على كل عاشق أن يمتقع لونه بحضور حبيبَه » القانون السادس عشر : « على العاشق أن يرتعش قلبه فى حالة رؤية محبوبته فجأة » [٣٦]) .

يقول بالنثيا فى كتابه المشهور : [ويذكر ابن حزم صورا متعددة للهوى العذرى .. ويقول :

« إن هناك وجوهاً كثيرة للقنوع بالحب، منها الاطمئنان على سلامة الحبيب (وهو أمر سيردده دانتي عندما يتحدث عن سلامة بياتريس) ويذكر حيناً آخر كيف يقنع المحب بتقبيل التراب الذى وطئه قدم الحبيب ويقول : « وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوما فى بعض المنتزهات ماشيا وامرأة خلفه تنظر اليه، فلما أبعد أتت الى المكان الذى قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله «وهو أمر سيفعله فيما بعد شاعرنا المبدع ماثياس (MACIAS) [(٣٧)] .

ونورد هنا بعض الابيات التى انشدها ابن حزم على لسان تلك التى قبلت موطىء قدم الحبيب :

« يلوموننى فى موطىء خفه خطأً ولو علموا عاد الذى لام يحسد

فيا أهل أرض لا تجود سحابها خذوا بوصاتى تستقلوا وتحمدوا

خذوا من تراب فيه موضع وطئه وأضمن أن المحل عندكم يبعد[٣٨] »

ومما لا مندوحه لنا من ذكره أيضا وجود بعض الأعلام الكبار الذين كان لهم السبق فى الكثير من الاكتشافات التى اقتبسها عنهم الاوروبيون ويدينون لهم بذلك حتى الآن ففى مجال الطب على سبيل المثال نذكر (كتاب الحاوى) للرازى ، فهو موسوعة فى الطب تعالج الموضوعات الطبية من عهد أبقراط حتى عصر المؤلف ، وكذلك ابن النفيس الذى امتاز بالشكل وقوة النقد وكان أول من اكتشف الدورة الدموية وأكد وجودها . وابن زهر الاشبيلى الذى اكتشف حشرة الجرب وهو أول من شخص أمراض

الالتهابات الجلدية ولا يمكن لأحد أيضا أن يتجاهل ابن سينا الذى سمى بالرئيس وكان أول من جعل الأدوية حبوبا ، ولبسها بالسكر ليس ليسهل تناولها ، وهو أول من لاحظ أن السرطان الموضعى هو عبارة عن مرض بالسرطان للعضو ، وقد اهتم بالمعالجة النفسية بالاضافة الى العلاج بالادوية .وكذلك أبو القاسم الزهراوى الذى ابتدع الخياطات الجراحية ، والكثير من الآلات الجراحية واستخدام الخطاف لاستئصال الزوائد الانفية ، وإليه يعود أيضا ابتداع المرآة المهبلية . لقد كان العرب أول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية فى عهد أبن جعفر المنصور فى القرن الثامن الميلادى ، وظل تأثير العرب على أوروبا فى الصيدلة قائما حتى القرن التاسع عشر وكان العرب قد اكتشفوا طريقة حديثة فى التخدير ، وهو التخدير الشامل ، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض ، وبذلك خالفوا الهنود والرومان واليونان ، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه . ولقد أبدى العرب عبقرية خاصة فى البصريات ، ويعتبر هذا العلم بحق أنه علم عربى ، وقد ساعد التقدم فى هذا العلم عند العرب على تقدم فى طب العيون وكانوا أول من اهتم بهذا الطب حيث يعتبر كتاب حنين اسحق أول كتاب لطب العيون .

هناك كثير من المكتشفات والاختراعات التى تنسب ظلما وخطأ الى الانكليز والفرنسيين ، ولكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة ، هم أساتذة أوروبا الحقيقيون ، وقد أخذت أوروبا عنهم كتبهم التى امتازت على ذلك الخليط المشوش الذى تركه اليونان [٣٩] .

والمثال الأخير الذى نسوقه هنا ما جاء فى كتاب تزفيتان تودوروف

(فتح أمريكا) ففيه أن كولومبس قد استفاد فى رحلاته الاستكشافية من بعض معلومات الفلك التى استقاها من العلماء المسلمين ، فقد كان هناك إعتقاد سائد فى عصره أن الارض كروية ، وإن لم يكن من دليل يؤكد ذلك. وقد استند كولومبس الى رأى الفرغانى الفلكى العربى الذى ألف كتاب (المدخل الى علم الافلاك) المترجم الى اللاتينية قبل ظهور كولومبس وتفكيره فى رحلته بحوالى ثلاثمائة عام . كان يشير فى كتابه بشكل صحيح إلى حد ما إلى طول دائرة الأرض . وعندما ترجم كولومبس طول الأميال العربية التى وضعها الفرغانى الى الأميال الإيطالية ، وجد أنه يستطيع القيام بهذه الرحلة . كما أنه استفاد من علم الفلك العربى عندما حوصر من قبل الهنود الحمر مدة سبعة أشهر ، ولم ينج منها الا عندما لجأ الى حيلة وهى الزعم بأنه سوف يسرق القمر وذلك عندما عرف بقرب وقوع خسوفه (٤٠).

وهكذا نجد أن البون شاسع بين اسهامنا الحضارى وفضل السبق الذى حققناه فى مختلف ميادين الحياة فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا متخلفة عن الركب الحضارى الذى عاشته أمتنا العربية والاسلامية ، وفى هذا الإطار نستشهد بقول باحثة أوربية منصفة ، توضح لنا الفارق الكبير الذى كان بين أوروبا والعالم الاسلامى عامة والأندلسى خاصة إذ تقول : (كان التعليم فى العالم الاسلامى ميسرا لجميع الناس ، وكان الأطفال من جميع الطبقات ، يقصدون المدارس الأولية ، لقاء نفقات ضئيلة جدا ، وفى اسبانيا المسلمة كان التعليم مجانيا ، وقد كانت توجد فى قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأولاد الفقراء ، وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين ،

كانت أوروبا بين القرنين التاسع والثانى عشر موطنا للأمية وقد بلغت نسبتها ٩٥٪ وكان شارلمان ملك فرنسا العظيم أميا ولم يحاول تعلم القراءة والكتابة الأ وهو فى سن متقدمة . حتى رجال الدين فى الأديرة لم تكن بينهم غير قلة قليلة جدا ، تعرف القراءة والكتابة .. [٤١]) .

وفى ذلك يتبين لنا بشكل جلى الإسهام الحضارى العظيم الذى قدمته حضارتنا للحضارة العالمية وهذا خلاف ما يريده أعداؤنا ولحسن حظ العرب والمسلمين أنه وجد فى الغرب من أنصف هذه الحضارة ورد على المغرضين الذين أرادوا النيل من تراثنا وتاريخنا ، ويخطرنا هنا ما ذكره فى السياق إياه جوزيف ماك كيب فى مؤلف هام له عن مكتشفات العرب وانجازاتهم فى مختلف مجالات العلوم والصناعات والفلك والرياضيات والفيزياء والطب .. فيقول :

« إن هذه الأخبار وان كانت مختصرة جدا ، فإنها كافية للدلالة على أن عرب الأندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة فى أهم نواحيها [٤٢]» .

وفى النهاية يمكن أن نجمل القول : أن اللقاءات الأولى بين العرب والغرب كانت عبر المعارك العسكرية وغير العسكرية التى شهدتها شبه الجزيرة الإيبرية ، ومن ثم حصل التمازج وكان التأثر والتأثير فى مجال الثقافة والعلوم عامة ، قد توطد ، وقوى الاتصال بين الطرفين عبر قرون عدة حيث لانزال نشهد حتى يومنا آثار الحضارة العربية باقية لاتمحى ولاتزول ، على الرغم من كل ماحيك من أعداء العرب للقضاء عليها ، كما كان لوجود العرب هذه الفترة الطويلة فى تلك الأصقاع أثر بالغ مما أدى الى تنبيه

الأروربيين ، وجذبهم تجاه المؤلفات العربية فى العلوم كافة الفلسفية منها والطبية والفنية والرياضية والفلكية وغيرها ، متوجهين نحو العواصم العربية التى كانت تزخر بأمهات الكتب لينهلوا منها ، سواء بالأخذ منها مباشرة أو بترجمتها الى لغاتهم الحية . كما نود الإشارة إلى أننا إذا أردنا الاسهاب فى هذا المجال ، فإن الحديث يطول ويستغرق مجلدات عدة ، وإنما نعتبر أن ما ذكرناه ليس الأ اشارات سريعة غايتها تسليط الضوء على هذه الجوانب كافة ،ومن ثم يمكن أفراد أبحاث خاصة لكل فرع من هذه العلوم ، والسير معها منذ ولادتها سواء في المشرق أو الأندلس ومن ثم انتقالها من خلال الجسر الاسبانى الى أوروبا .

إشـــارات

١ ـ ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول : ١٢ .

٢ ـ ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، ٢١٧/١ .

3 - Pèrés H. La Poésie Andalouse en Arabe Classiopue p. 40 .

٤ ـ المقرى ، نفح الطيب ٣ / ٥ .

٥ ـ اسمه : أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب وهو لقب غلب عليه بيلاده من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ولذا فشبه بطائر أسود غرد عندهم اسمه زرياب .

٦ ـ المقرى ـ نفح الطيب ٣ / ١٢٣ .

٧ ـ المصدر السابق ـ ١ / ٣٤٤ .

٨ ـ للمزيد من التفصيل انظر المصدر السابق ـ ١٢٢/٣ ـ ٣٢٢ .

٩ ـ ليفى بروفنسال ، (حضارة العرب فى الاندلس : ٥٧) .

١٠ ـ المقرى ـ نفح الطيب ١ / ٣٤٧ .

١١ ـ المقرى ، نفح الطيب ، ٧٠/٣ ـ ٧٥ .

١٢ ـ المصدر نفسه : ٧٥ ـ ٧٨ .

١٣ ـ المصدر نفسه : ٧٨ .

١٤ ـ المصدر نفسه : ١٤٤ .

١٥ ـ المصدر نفسه : ٥٩ ـ ٦٠ .

١٦ ـ المصدر نفسه : ١٤٨ .

١٧ ـ المصدر نفسه : ١٣٩ .

١٨ ـ المصدر نفسه : ١٤٠ .

١٩ ـ المصدر نفسه : ١٤١

٢٠ ـ المصدر نفسه : ١٤٢ .

21 - Pérés, H. op. cit. p. 46 .

٢٢ ـ شوقي ضيف ـ ابن زيدون : ٩ ـ ١٠ .

٢٣ ـ بالنثيا ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس : ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

٢٤ ـ زكريا هاشم زكريا ـ فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم ، ص ٣١٤ .

٢٥ ـ الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ ، دراسات وأبحاث : ١٨٢ .

٢٦ ـ المصدر نفسه .

٢٧ ـ أرنست رينان ـ ابن رشد والرشدية : ١٢ ـ ١٣ .

٢٨ ـ المصدر نفسه .

٢٩ ـ المصدر نفسه : ٢٤٥ .

٣٠ ـ غوس غارسيا ـ الشعر الاندلس ـ ترجمة د . حسين مؤنس : ٨٢ .

٣١ ـ حيدر بامات مجابي الاسلام ، ترجمة عادل زغيتر ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، نقلا عن ستندال «حول الحب» باريس ، ١٨٨٢ .

٣٢ ـ هوسا ، جاك لافيت ، شعراء التروبادور ومجالس الحب ، انظر مقدمة الترجمة .

٣٣ ـ ابن حزم ، طوق الحمامة : ٣٦ ـ ٣٨ .

٣٤ ـ هوسا ، شعراء التروبادور ومجالس الحب : ١٠٨ .

٣٥ ـ ابن حزم ، طوق الحمامة : ١٢ .

٣٦ ـ هوسا ، شعراء التروبادور ومجالس الحب : ٧٥ .

٣٧ ـ بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د . مؤنس : ٢٣٣ .

٣٨ ـ ابن حزم ، طوق الحمامة : ٩٧ .

٣٩ ـ حومد أسعد ، محنة العرب فى الأندلس : ٤٠٢ ـ ٤٠٤ .

٤٠ ـ تودوروف ، تزفيان ، فتح أميركا ، نقلا عن مجلة العربى ، كانون الثانى ١٩٩٣ ص ١٤ .

٤١ ـ د. هونكه ، فضل العرب على أوروبة ، ترجمة د. فؤاد حسنين على : ٢٩٧ .

٤٢ ـ ماك كيب ، جوزيف ، مدينة العرب فى الاندلس ، ترجمة د. تقى الدين الهلالى : ٥٦ .

مراجــع البحــث

- ابن بســـام ، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

- ابن حزم القرطبى ، **طوق الحمامة في الألفة والألاف** ، تحقيق حسن كامل الصيرفى وتقديم ابراهيم الإبيارى ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٦٤.

- ابن سعيد المغربى ، **المغرب في حلي المغرب** ، تحقيق د. شوقى ضيف ، دار المعارف فى مصر القاهرة ١٩٦٤ .

- ارنست رينان ، **ابن رشد والرشدية** ، ترجمة عادل زعيتر ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٧ .

- بالنثيا آنخل غونثالث ، **تاريخ الفكر الاندلسي** ، ترجمة د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .

- حيدر بامات ، **مجابي الاسلام** ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ١٩٥٦ .

- د. حومد أسعد ، **محنة العرب في الاندلس** ، طبعة ثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٨ .

- زكـريا هاشم زكـريا ، **فضل الحضارة الاسلامية العربية علي العلوم** ، القاهرة ١٩٧٠ .

- د. ضيف شوقى ، **ابن زيدون** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٣ .

- غومس غارسيا ، **الشعر الاندلسي** ، ترجمة د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

- ليفي بروفنسال ، **حضارة العرب في الاندلس** ، ترجمة د. ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون تاريخ .

- المقرى ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .

- ماك كيب جوزيف ، **مدنية العرب في الأندلس** ، ترجمة د. تقى الدين الهلالى ، بغداد ١٩٥٠ .

- هوسا جاك لافيت ، **شعراء التروبادور ومجالس الحب** ، ترجمة د. مريم البغدادى ، دار تهامة ، جده ١٩٨١ .

- د. هونكه سيجريد ، **فضل العرب علي أوروبا** ، تعريب د. فؤاد حسنى على ، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤ .

- **الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ** ، دراسات وأبحاث ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، دمشق ١٩٩١ .

PERES H. LA POESIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE
AN X SIECLE. ADRIEN - MAISONNEUVE
PARIS 1953

The Egyptian Peasant and the World Today

Georg Stauth

I.

Ten years ago, a paper with this title would certainly have attempted to draw a picture of rural and village structural transformations and would have given the respective anthropological descriptions. Perhaps this is exactly what you would have expected me here to do as well. I will, however, not do that: Structuralism would always imply some metatheoretical assumptions about what was the nature of the past and what is the nature of the present. Furthermore, the "over-socialized man" has become a stereotype figure in recent social thought, and he has entered the sociological consciousness as a man of nostalgia.[1] Social theory in its nostalgic structuralist version always implies certain statements to assume some golden age of heroic virtue, moral coherence and ethical certainty which have been recently referred to as inventions of tradition and of 'primitive society'.[2]

As early as in Alexandre de Toqueville's descriptions of America, we can trace the bewilderment of the loss of commu-

---

1 For a critique of nostalgic sociology, see G. Stauth and B.S. Turner, Nietsche's Dance: Resentment, Reciprocity and Resistence in Social Life, Oxford: Blackwell, 1988, pp. 47ff.

2 Cf. E. Hobsbawm and T. Ranger (eds.), The Invention of Tradition, Cambridge: Cambridge University Press, 1983; also A. Kuper, The Invention of the Primitive Society, Transformations of an Illusion, London and New York: Routledge, 1988.

nity-centered action - certainly one of the more efficient tools of government of the old aristocracies. Toqueville discovers a strange paradox of American democracy: the paradox between the socially integrative democratic process of voting, election mechanisms and church culture on the one side, and the rise of an irresponsible individualism which remains unchallengingly non-interested in the performance of communal tasks and public life on the other side.[3]

This paradox finds its parallels in more recent American social theory which puts into contrast the collectivism of the state and the individualism of a civil society. More state and etatization of individual needs - we are told here - create political apathy and increase the psychological burden within the civil society where the individual has to act according to its own needs and its personal gains and losses. In American liberalist sociology self-regulation within the bourgeois civil society ranges superior to state control over social regulation.[4]

Does such a perspective hold reasonable ground with respect to the modern roles of the Egyptian peasantry? It has been widely observed that in Egypt and elsewhere in the Arab world the educated elites have retreated from the project of Arab nationalism and socialism. The ideals of nation-state building which once had so overwhelmingly shaped the lives of these elites in the 1960s and 1970s, and even in the early 1980s, have lost attraction. Is it wise to offer now the project of a self-regulating civil society to socially integrate the peasantry?

---

3 Cf. A. de Tocqueville, Democracy in America, New Rochelle, NY: Arlington House, 1966.
4 One could consider Daniel Bell as the most prominent exponant of this tradition, see e.g. his The Cultural Contradiction of Capitalism, London: Heinemann, 1979 and his Sociological Journeys. Essays 1960-1980, London: Heinemann, 1980.

In the 1970s and 1980s western development ideologies have been extremely parasitic on the people in search for cultural authenticity in the emerging nations of the former colonies. Adaptation, authenticity and indigenization have been the "porte parole" of the developmentalist enterprise.[5] This position suggests that it could bring about the moral enforcement of a new civil ethic and an alternative economic culture relatively free from state control and its rotten ideologies. The project of cultural authenticity seemed to evoke a vision for salvation from developmental problems and it suitably engaged governments, developmental agencies and sociologists and anthropologists alike. This theorem of cultural authenticity has come under strong attack. But it seems that new attempts occur to indirectly pursue it: Submerged in the idea of cultural cosmopolitanism the concept of cultural authenticity reappears in order to integrate into the liberalist project. The liberalist project turns out to be similarly parasitical in grounding developmental theories on the emancipation of the new cosmopolitan elites celebrating their advent in international social spheres. Leonard Binder's critique of development ideologies does not turn over into a reflection of developmental strategies and policies: the possible availability of a conjunction between authentication and the liberalist project does not entail any reflection on the necessity of rationalization of state functions and the necessary degree of the presence of the state in order to promote and stabilize development.[6] Furthermore, overloading the project of a bourgeois civil

---

5 Cf. M. Abaza and G. Stauth, Occidental Reason, Orientalism, Islamic Fundamentalism: A Critique. International Sociology 3(4), 1988, pp. 343-364.
6 L. Binder, Islamic Liberalism. A Critique of Development Ideologies, Chicago: University of Chicago Press, 1988; see also my critique, Leonard Binder's Hermeneutic of Authenticity, Arabica, XL, 1993, pp. 62-83.

society with authentication does not consequently lead to the realization of self-regulation powers within the society. To say it more directly: the search for roots cannot repeat or replace that what Max Weber had termed the ever enthrusting process of rationalization. We should recognize that in today's Arab societies the necessary social and institutional differentiations would still have to be achieved in order to allow us to speak of a bourgeois state encouraging and affirming the emergence of a civil society. The necessary jurisdictional processes which could allow on the basis of the society for the stabilization of claims of the individual, the diversity of lifestyles, and the claims for bourgeois social sanctions is only beginning to emerge. And, indeed, authentication as a social process has implications on legal aspects of everyday life. Everyday interaction has become the place where projections of various forms of lifestyles and inner attitudes towards life compete with one another. Is this, however, the only path of implementing civil solutions of regularization?

Let me reflect on this a little bit further in terms of the social integration of the peasantry in Egypt today.

II

But before drawing upon some of today's examples I would like to summarize quickly the classical pattern of interpretation of rural-urban dynamics and the relationships between them to use the late Gabriel Baer's words: the Fellahin and Townsmen.[7]

---

7 G. Baer, Fellah and Townsman in the Middle East, London: Frank Cass, 1982.

As you know, ancient Egypt, but surprisingly enough also Egypt of the 19th and 20th century, has been described as the key example of a model of state-dominated natural economy. Hegel, Marx, Rosa Luxemburg, but also Max Weber, have been similarly convinced that control over the natural economy of the peasant made the central state over thousands of years an unchallenged institution of power, reinforcing its revenues and the significance of its administration. This control of the self-supplying natural economy of the Fellahin and of far-distance-trade was submitted to a unique logic, the Oikos of the Pharao. There, the kind-related, coercive Oikos was seen as a counter-concept to the idea of free market exchange and cash relations. The image of the Egyptian society emerged in the 19th century as a counter-image to developments in the West, namely, that economic interests of the society remained submerged under the political economy and the superior necessities of the state and its central bureaucracy.

Coercion and bureaucratic rule - in this view - prevented the rise of local aristocracies and consequently of any notion of individualism. In Weber's view, ancient Egypt but also his later concept of the Islamic City, did not allow for urban citizenship with privileges of individual trade and "urban institutions with administrative autonomy"[8] (Weber, Ancient History, 109).
There also arises a concept of the absolute boundage of the peasantry to the soil and of labour services to the state. The responsibilities were collective and not individual. Any notion of private property remained tied to the coercive power of the state. Where bureaucrats and priests were granted some sort of property, this was dependent on the

8 M. Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations, London: New Left Books, 1976.

travel arrangements, travelling and returning. Migrant remittances seem to have substantially contributed to the emergence of a self-regulating market independent from agriculture and peasant subsistence needs. New forms of allocation of money and services have emerged. And most of the non-migrant households consequently imitated migrant attitudes. The access to consumer durables has reinforced cash-oriented types of social interaction. The importance of participation in consumerism, which relates essentially to the demonstration of consuming a stylized and fashionable good, ranges higher than the spending on or saving for useful assets which have been structurally necessary. The Toyota used as a type of collective means of transport or as taxi has brought about an immense mobility among the lowest classes in the countryside. It is this mobility that had a tremendous impact on local market relations, strengthening and extending ties between villages and district towns. Basic attitudes toward education have been changed. Male and female youths looking for short-term professional education have been offered the opportunity of an earlier career job both at home and abroad.

Small factories, repair shops and other service units were founded by foreign-trained returning labourers, groceries and boutiques - as they call it - often run by young teachers who could not afford a living from their salaries. All this contributed to the growth of consumption patterns. Stylishly furnished houses and individual modes of dressing - including all variations from western cravattes to the traditional *imama* - have been made available on the local market.

A new rural middle class has developed. Shopkeepers and peasants alike have become members of this class as well as taxi drivers and craftsmen, some of them are illiterate or semi-illiterate. The consumerism of the new media and mass

culture has introduced a figurative scriptualist habitus which is - seemingly - readable for all. But as social psychologists tell us, it is not equally understandable or interpretable. It is only literates who have the accurate interpretative powers to look through it.
The cement and red-brick houses are now frequently painted and renovated in radiating colours. Small front-house gardens are added to distance houses from the street. Bathrooms and salons have been introduced to peasant houses. New orders derive from commitment to consumer durables. The spheres of men's leisure places for meeting and sitting have been more vigorously separated from the workplace of women. But it is watching television that has reunited sex- and age-groups in the house. Women among this class have to refrain from appearance in the public from field work and weekly markets. Contrary to this domestication of women, symbolizing restrainment and civility, the men enhance their public representation with a newly acquired leisurely attitude.[10]
I should mention here, that a new code of civilized behaviour and welfare prevails around the village, emerging from the house, the consumption of the commodity and the search for purity and cleanliness. This code, however, has little support in the devastating public realms of the village where garbage accumulates on the streets and in smelling water canals, where sewage systems are absent, plastic bags scattered all over the place, animals and cars are both struggling for space in dusty village lanes. The struggle for a seat in a Toyota or a bus, the fight with neighbours over ordering and cleaning public space in front of houses

10 On the conflict of women and migrant husbands, see my Women, Properties, and Migrants: Access to Land and Local Conflicts in Rural Egypt. Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft (ZDMG), Bd. 140(1), 1990, pp. 32-50.

and gardens - all these are problems left unsolved by the new code. The micro relations of everyday life and practical reason - this is what we have to note here - remain detached from the new codes of civility and modernity. There has been an option to call for state-centered forms of regularization during the last fifteen years. Did this option work out? The state itself in limitating its functions to the monopoly of macro-politics and macro-services has not yet developed the means and methods that could be offered to smoothen the civil war of everyday life.

The option for authentication as a means of regularization and the establishment of a consensus as reinforced by the rural middle class becomes obvious in its overpowering attitudes towards the conventional rites of the village. The lack of status affirmation in the new realms of modernity also leads to the continuous search for status and honour by essentializing and over-dramatizing the symbolic value of conventional rites and rephrasing them in language and in symbolism. Can this establish stabile and assured solutions and mechanisms of regularization? With the new codes of modernity a variety of secular lifestyles are recreated and reshaped in the village. And some of the tensions arise from the ritual confronton of these lifestyles.

III

Islam has not been absent in the process of political and social formation of Egypt in modern times. I should shortly refer to the *al-nahda al-islamiya*, the Islamic renaissance. This movement started in Cairo in the late 19th century and it had a decisive impact on the political discourse in the country. The modernized elites were specifically dependent

on this movement as they demanded an illuminative Islam adaptable to modernity and called for the restriction of religion to separated and subordinates spheres of public affairs. But also, within this movement, the discoursive grounds for Islamic readicalism were developed. Here, a radical minority of negatively privileged intellectuals constructed a counter-orthodox, simplified and unified, essentialized and at the same time modernist-instrumental version of Islam. Islam here was used to make public affairs a scenario of celebration of essentialized religious values and symbolism. They also used forms of political organization with which they imitated forms of communication and gathering of popular Islamic mysticism, i.e. of the Sufi village *tariqas*. Both groups, the radicalists and the secularists are in my view modernists, and both were most influential in recent history. The secularist modernizers 'Ali 'Abderraziq, Taha Hussain and Ahmad Amin could be called the founding fathers of modern secular institutions within a religious discourse. In opposition to this the radicals of the Muslim Brotherhood and their leaders, Hassan al-Banna and Sayyid Qutb, tied the discourse over popular emancipation, class and social regulation to religious values and symbolism. Both groups have shaped the lines of argument of political discourse in Egypt over the last 50 years.

The recent wave of Islamization occured among the urban but at the same time also among the rural middle class in the early 80s. The unimaginable public murder of the Present of the Republic by members of the clandestine group of al-Jehad had a far-reaching impact on the society and social life in general. Gradually the figurative regimes of public life seemed to become transformed into a language of religious concerns. The visible appearance of the society carried a religious message. First, an increased mass atten-

dance in Friday prayers with unexpected portions of youths was observed. Many of these youths had changed their way of dressing and gave their appearance a specific habitual expression of an Islamic lifestyle. Subsequently, more and more young women followed the postulate of religious purity and took on the symbol of the pure Muslim sister, the white hair-cover (*hegab*). A majority of women in public life, universities, administrations, supermarkets and storehouses in Cairo and in district towns of Upper Egypt and the Delta have been following such calling. Male youths at first appeared in army jackets, jeans and the short full beard, expressing vague sympathies with the Iranian revolution and Islam. Then, more decisively, young, but also middle-aged men appeared in white *galabiyas*, the white *taqiya*, sandals and a long full beard in demonstrative attire. Both in town and villages these Islamic dresses evoked an atmosphere of restrainment and religious concern against the traditional loose attitudes among urban popular masses and the Fellahin. The white colour in dresses seemed to attempt a symbolic attack of religious purity against the popular realms of unbelief and savage life symbolized in the fancy colours of popular dresses. The new groups, however, had little success in traditional popular quarters of Cairo where the control of informal economy and communality remained in the hands of orthodox merchants and power-brokers. The new quarters, however, created in Nasser's times and expanding in the booming Infitah-period, like Zawyia al-Hamra, Zaqqiyed Makki, and Ain Shams, witnessed a widespread wave of Islamic unrest and control. These are quarters with an overwhelming percentage of the new arrivées of the lower middle class. The movement fought - what it believed to be - the heresies (*kufr*) and innovations (*bid'a*) which they declared forbidden in social life, only to introduce a new *bid'a* which they legitimated as pre-orthodox traditions, the latter, of

course, having a strong practical meaning with reference to the unsatisfying social environment. For example, they introduced new forms of marriage and systems of distribution of women according to their needs and new forms of group interaction with low profile of individual property, consumption and mutual self-help in everyday life. In certain cases the *'amir al-gama'a*, the religious leader of the group, was given the traditional task as head of the family to arrange marriages. In general, the problem of a postponed marriage because of an economic crisis in the family, was attempted to be solved by declaring the existing forms of bride price, dowry and women's belongings as non-religious. These youth groups are radical. They refer to state and society as being in a position of *gahiliya* (paganism), while they attack any secular consensus in the society as *kufr* (heresy). The *gama'at al-islamiya*, the new Islamic groups, are the only visible body in public, and *al-Jehad*, the clandestine organization of the movement, operates within its realms. Until 1988, when the government retightened its control and gained initiative, these groups had attracted many youths of the lower middle stratum who were mostly unemployed but often possessed highly qualifying university degrees. They operated in the above mentioned Cairean quarters and in district towns of Upper and Middle Egypt as if these were liberated Islamic territories. And in the public eye these places and their names were registered in the list of victories of the movement. At the same time the Islamic investment banks and small Islamic enterprises appeared in the public of the society propagating the vision of a wealthy Islamic economy. They offered highly profitable investments to the new bourgeoisies of various on petro-dollar dependent countries and to migrant labour remittance fonds. But more than in the realm of economic enterprise, they were interested in the distribution of a world of Isla-

mic symbols by using the most advanced "post-modern"-styled advertisements, thus establishing figurative regimes of an Islamized society. With post-modern aesthetic imaginations of a coming-of-age of Islamic spirituality and civilization, they overpassed the old borderlines of a national purity and stylized the universal realm of Islam. But to many observers it seemed that the religious image produced by advertisements and the religious habitus of the owners and the management were also intended to help to "whitewash" the dubious capital movements of their companies. But for young Muslims of the lower middle class they offered attractive employment opportunities or credits, helped in marriage arrangements and furnished flats and offered a future of an Islamic lifestyle and consumption pattern.

But at the same time new Islamic institutions had been created or were being created which offered social services and health care. Most famous perhaps is the Mustafa Mahmoud complex in Mohendessin, built in the early 70s but gaining high symbolic status in the 80s. But more surprisingly, in a small village like Simbu in the Eastern Delta, a huge Mosque complex was constructed, widely visible in the country in its unsettled mixture between white marble (*mashrabiya*) and woodwork in radiating colours. It has a swimming pool and a youth sports centre.
Furthermore, in a village near Simbelaween a huge private centre for professional training and education with a specific religious orientation has been created with the most modern assets of administration and machinery. In both cases the money came from endowments and tax debitors who with the support of the government avoided legal prosecution with these endowments.
Islamic social service, schools and hospitals seemed to have offered in the first instance higher efficiency than govern-

ment services. Islamic neighbourhood groups and other social networks of sex-, age-, and profession-related groups were founded in urban quarters and villages alike. They offered everyday problem-solving in the sphere of private care and arrangements, but with these mutual self-help networks an autonomous social space was gradually conquered and defined as Islamic and accordingly regimented with Islamic symbolism. These formed the focus of state-freed territories in some Upper Egyptian towns and Cairean quarters. Here then the whole population was ruled by the organizational schemes of the *gama'at*. Those, who willingly or seemingly did not submit to their rule, underwent mafia-style punishment.
But also some of the Islamic investment banks like the Sa'd Company operated in similar spaces of - however undeclared - Islamic territories. The life-story of Ashraf Sa'd, the owner of the company, might give some indication of the "liberties" of this period of Islamic unrest.
Ashraf Sa'd was born as the son of a coolie, foreworker or supervisor of Fellahin in an *'ezba*, a local estate near Simbelaween. He completed his higher education with a degree in commerce, but was soon put in prison on a one year charge for being a blackmarket foreign currency dealer. He then went to Saudi Arabia and came back in 1982 with a stock capital of 36 Million L.E.
The local relations of the Sa'd Company in the Governorate of Dakakhliya and in the central agencies of the state are quite obvious. The cooperation with the firms of Ahmad Othman Ahmad have helped the company to overcome the crisis of 1988/89 when the government interfered in the organization and management of the companies. Having its main office in the significant vicinity of the Governor's palace the company also employs the brother of the Governor and various former Ministers and high officials as managers and

advisors. Junior employees adapt to the company owner's dressing: white *galabiya*, beard, sandals.
The company has smoothened this regulation and also the massive Islamist campaigns of the company have been turned down. The relations of the company to the *gama'at* may have been only of a propagandist nature. But the strategies of limited but well placed campaigns and games of display of well legitimated Islamic symbolic regimes and discourse have been similar as much as the attitude towards the government which took the unbelievably long time of seven years to dismantle the companies.
The strategies of the companies and of the radicals have been the same emerging from social space or discourse of everyday practice and needs of local population. They both aim at gaining space for political operation.
In looking back to the pre-1988 situation, one would have to suppose that the triumvirate of the Muslim Brothers, who had fled from Nasser and returned from Saudi Arabia in Sadat's time, the so-called fundamentalists, the *gama'at*, and the Islamic companies *(al-shirkat al-tauwsif wal-amwal)*, had succeeded in establishing the Islamic consensus as the decisive and imperative element of the entwinement of politics and religion in Egypt, symbolized by the discoursive and figurate regimes established both in public and in everyday life.

The new rural middle class today is fully exposed to the tensions deriving from the articulations of an orthodox conventionalism to which the Muslim Brothers have contributed modern social and political elements, the *gama'at* with their habitual display of puritanism and restrainment and the Islamic investment banks establishing Islamized codes of wealth and consumerism.

The state officials of the small and middle ranks of the educational system and local administration, doctors and engineers, who had been or still are working for a certain period in Saudi Arabia, form the core of this class. There exists a clear-cut correlation of educational status and the country of migration, and Saudi Arabia is the country of choice for this class. While reintegrating into the village, this stratum had sympathies with the certain political claims of the Islamic radicals for an Islamization of law and of the social public. However, they preferred to act behind the scenes, participating in discussion groups, endowing money for Islamic Youth Clubs and stimulating the plantation of trees and the cleaning of canals.

In their public appearance in the village they promote the projection of Islamization of the traditional rites of the communal life. They maintain the Islamic consensus in the village both in attitude and in speech as the only legitimate code, enforcing the old groupings of village headmen (*kubar*) into the scheme of participating in the code. Again it is the visual appearance and the various forms of ritual behaviour in which this code is mediated. Most obvious is the style of dressing: a white *galabiya*, cut in peasant style, but together with the white *taqiya* alluding to the dress of a *hajji*, a Mekka pilgrim. Those who are forced to wear Western suits in office, change dress after having returned to the village. Western or the old Nasserite suits with long overlapping shirts have totally vanished. The village itself appears overloaded with religious symbolism. The symbiosis between modernity in everyday practice and religious essentialization of the village world of symbols become more obvious by looking to the most conventional rites of the village.

As has been observed in the case of revolutionary events in Iran, these rites, specifically as they relate to food or to death, are most sensitive towards changes on the broader level of the society and to politics. In such a situation the community reinvents its values on traditions which seem to have lost meaning in a transformed practical life. Such statements have been evoked in relation to the importance of death rites in modern Islamic Iran. But the Shi'ite Iranians have an old political tradition of celebrating such death rites, and transformations of such rites into political manifestations have found much attention in re-evaluating the political role of Islam in Middle Eastern societies. In the social context of the Egyptian village and its new middle class the restyling and dramatization of death rites seems to be rather a question of honour and status through which the politics of Islam are mediated. Where similar participation in consumer culture and public democratization have disconnected the heraldics of honour from office and official rank, the acquisition of honour and status positions in the village might give some sort of relief and accommodation. And the figurative regime of Islamic symbolism over these rites serve to reconcile with or at least to suppress unfortunate views on practical life in the village.

The reciting of the *qoran* (*tilawa*) on the evenings of the mourning days as a collective mourning of relatives (and village) fellow men (*'aza* or in the fellahi vernacular *ma'za*) is common practice in Sunni Islam. In Egypt, however, with its long history of overwhelmingly significant death rites, the meaning and periodization of transition and incorporation of the body to the world of death has until

today pharaonic connotations.[11] Van Gennep (1960:146ff.) has argued that rites of separation of the body of the deceased are relatively simple and less important than rites of transition and incorporation.[12] This holds true in the case of Egypt. The *'aza* signifies the period of transition and the day of incorporation.

The *'aza* mourning sessions are performed during the first three days after the burial, the 15th and the 40th day (*'arba'in*) - which according to pharaonic beliefs is the day of the great proceeding, *tala'a*, the day of incorporation. The *'aza* is also performed yearly at the day of memory, and sometimes families also memorize the day of the *'arba'in* every year. One can easily imagine that with this frequency the rite becomes an everyday event in the village, and specifically in bigger villages an 'aza takes place in the evening in some house somewhere. And particularly for the Islamic middle class it has become an event of display of their stylized religious attitudes. The new importance of this session can be traced in the arrangements and habits which have been developed: a hifi-set with a tape recorder and a microphone, loudspeakers in the street in front of the house, a full illumination of the space in front of the house, where benches and chairs are positioned to receive the fellow mourners from the village. (It is considered as *'aib* (shame), to complain about noise and arrangements in the street. Nevertheless, neighbours sometimes complain, provoking serious and far-reaching quarrels.)
The evening after the burial one or two *faqih*, readers of *qoran*, are called to the house and their recitals continue all evening long until late in the night. Relatives,

11 W. Blackman, The Fellahin in Upper Egypt, London, 1927, pp. 114.
12 A. van Gennep, The Rites of Passage, London: Routledge and Kegan Paul, 1960, pp. 146ff.

friends, neighbours and often also other people from neighbouring villages as well as friends of friends come to pay their condolences, get seated for a while, listen to the recitals, greet other people, drink coffee, smoke and then leave. How long a person stays depends generally on the degree of closeness to the deceased and his family. That this meeting of paying condolences and recital of *qoran* turned out to be one of the most crucial institutions in village life is a rather new phenomenon. Traditionally, the funerals and *'aza* of the village notables and landlords were formally celebrated in such ceremonies while the small and middle peasants only had small informal sessions of condolence in their homes and recitals of cheap village *faqihs* without microphone, tents, benches and illumination in front of the house. But the *'aza* was traditionally an event of sacredness and it has now - beside the Friday prayer in the Mosque - turned into an occasion of public demonstration of high religiousness and status in religious matters.

There are various ways to approach the *'aza*, but the collective visit sometimes forms the highest point of a meeting of friends and occasional social groupings in the village. And specifically the *shilla*, the age group of the *kubar*, the old notables, of males of the Islamic middle class, of youths with various orientations of interest, join in the occasion of an *'aza* if one of their members is concerned. Most of them now dress in white *galabiyas*. The *'aza* changes to the location where the men now spend a great part of their evenings and leisure time. One meets after the Maghreb prayer and after a chat on the veranda, one walks through the village to a proposed *'aza*. There, after a while of sitting and of honorary exchanges, of condolences and quiet talks, a collective evening prayer, *'asha*, is initiated, which then is headed by the *faqih* or - if higher

in religious learning - by one of the notables or even the younger ranks. If there are close family ties to one of the *shilla* members one remains until late at night. Or one continues to walk around in the village to another *'aza*, a visit that might have been planned or which was spontaneously suggested while strolling in the village.

The social success of the *'aza* depends on material manifestations of richness. Apart from the technical arrangements mentioned above, the selection of a famous *qoran* reader from a district town or even from Cairo is a most obvious sign of richness. These readers have been formally trained in the al-Azhar University or in one of its institutions widespread over the country, and they are preferable to the cheap village *faqihs* who are only trained by oral tradition. But in the atmosphere of celebrating a religious code the success of the *'aza* also depends on the happening of mystical dramatizations of the recitals. The beauty of the reader's voice, the art of reading and expression, the meaning of the text, all this can become subject to ritually intensifying comments, holy exclamantions and praisals of the prophet and God.
While the women remain in the back-house or in the kitchen, preparing food and coffee, the male family members serve coffee to the guests. There is a continuous restructuring of the sitting order among the male group of mourners, a movement with which invisible structures of hierarchies are observed. Members of the middle class *shilla* sometimes obviously and intentionally violate such structures and impose themselves to the honourous tasks of replacing the head of the family in greeting guests, imposing themselves - unexpectedly - for the heading of the prayer, but also in less demonstrative acts like offering cigarettes or chairs

to newcomers or interfering in the handling of the electronic apparatus, etc.

Later at night, when the mourners group around the faqih, people give greater attention to the reading. The *'aza* now seems to transform into a *sufi zikr*, a mystical session of *tariqa*. Colourful brown and blue *galabiyas* of peasants become mixed with white ones of the Islamic middle class, but rich and poor valuations seem to be absent. The depth of the common experience, the sacred text, the beauty of the voice, the silent remembrance of youth and death are new sources of elevation. Restrained inward bowing of the body or expressive exclamations and evocations of God, resemble the different attitudes of the status-conscious middle class or the immediate behaviour of the peasants.
The appearance of the group of new religious men has made the *'aza* a symbolically overloaded location of gathering and public display of religiosity. The old secular elites have lost the initiative. Where they maintain reference to Fellah culture, they are pushed back from the scene of public events. And their sons of the 40 and 50 year old *kubar* have fully assimilated to the cultural habits of the religious middle class.

The village consensus depends largely on the way how groups and traditions representing different projections of lifestyle and attitudes towards life submit to the symbolic dramatizations of the village rituals. This tightens the space for secular political action of government.
The rituals as they become occasions of display of new middle class habitus and wealth loose their functions of social integration. The new figurative evocations of culture suppress and disguise the material cultural context which remains of concern to the various strata of peasantry. The

rite - here now arisen from its old cultural meaning - in suggesting reconciliation and redemption from conflict and in obviously simulating - as all rites do - problem-solving and regulation where it clearly remains a tool of status affirmation, loses its old integrative functions through its new transparency.

IV

I have attempted to show that the project of the Islamic civility and modernity of the urban and rural middle classes in Egypt negate and exclude all representations of secular lifestyles. This project cannot purely trace itself back to the tradition of Islamic Orthodoxy. It has also traces in imitative responses to Western inner attitudes as much as in the new tools of media and consumer culture.[13] The relicts of the Fellah culture, however, as much as the alternative secular lifestyles present in the consumer society which extends over villages and towns will need similar adequate figurative and discoursive representations, should the project of liberalism and cosmopolitanism be pursued. The integration is possible then on grounds of rationalization and differentiation of juridical and other regulative functions of the secular state, serving the developments within the civil society. The project of a modern Islamic civilization, as much as it has moved the Egyptian society a step forward in the last ten years, has only a developmental perspective

13 The first to discover the essential coincidence of mass culture and Islamic resurgence was the French philosopher Michel Foucault. He was in the years 1978 and 1979 in Iran. His report in the Italian daily newspaper on this convergence appeared on 19 November 1979 as 'La rivolta dell'Iran corre sui nastri delle minicassette' (The Revolution of Iran runs through the Tapes of Minicassetten). See also my Revolution in Spiritless Times. An Essay on Michel Foucault's Enquiries into the Iranian Revolution, International Sociology, 6(3), pp. 259-280.

if it remains one project among others. The discourse over forms of juridical rationalization of everyday life has been provoked by the movement of radical Islam against an authoritarian and often autocratic state. Paradoxically enough, it has also settled the infrastructural tasks and the problems for social integration and representation of secular projects present within the society.

The problem of re-stylization of social life in the rural society and the importance of authentication as a means of this re-stylization has not yet gained the attention of anthropologists and sociologists.
From what we have experienced in frequent analyses we could trace since the mid-1970s a tendency of an accelerated transformation of peasant lifestyles:

First, there has been an ever increasing wave of participation in the consumer and media culture which was based on and coinciding with the Islamic resurgence.
Second, the various trends to gain access to monetary means for all strata led to "the breakdown of money as a sure means of representing value" which itself created a crisis of representation in the local market.
Third, this among other factors and specifically the one of increasing mobility, led to the problem of time-space compression which is now visible in all village interactions.

Transnational movements of peasant labour force, but more general "travel" as a means of rural mass communication has increased this trend. More than anything, however, the media revolution, the participation of the peasant in a global information system has contributed to a total reformulation of peasant-state relations. With the decline of immediate state power in the village we have not yet found the

necessary civilizing and constraining forces that could contribute to development and self-centered forms of social regulation.

As we have seen, the new village culture leads to a deconstruction of the mental unity of time and space relations: while mutual economy and the struggle over local resources remain major economic inclinations of the rural population and still form a component of conventional time-space relations, new factors of monetary relations and physical and visional mental mobility emerged and contributed to the formation of a plurality of styles and values - often contradicting each other rather than contributing to a unification of local outlooks. In this context authentication often takes the form of a technology of the individual to reorientate and to affirm itself. This is quite similar to processes which have been observed in other cultures and regions. Peasants, or a substantial part of the rural population, take over attitudes and behaviour patterns which are similar to what can be described as behaviour of middle classes in industrial societies. There is a new citizenship of consumerism, and my personal conviction is that the emergence of this type causes a tremendous problem in the village and its remaining forms of natural economy. This type could be strongly distinguished as against Max Weber's type of an agrarian citizenship. For Weber this concept relates to the societies of Mediterranean antiquity where the agrarian active population was organized in a type of state citizenship with the focus on a strong political integration of "peasantry" in the process of an institutional formation of the state.[14]

The concept of a consumerist citizenship, however, relates basically to forms of social integration in terms of con-

14 M. Weber, op.cit.

sumerist lifestyles, where the form of life depends largely on the amount of money spent, not on the amount of money earned through produce.
If we speak of the problem of the Egyptian peasant today, then I believe that it could largely be characterized in terms of the contradiction of these two types. The peasant being strongly put into a double bind situation jumping from one image to the other, from one form of life to another.

Let me finish this talk with three questions as to the social role of the Egyptian peasant today:

Weber's _agrarian citizen_ was for Weber an ideal type of a peasant in Northern Mediterranean countries. Does he, can he emerge or even _has_ he emerged in Egypt?
The consumerist citizen with his strong wish for authentication, can he serve as model of a long-range social integration of the peasantry?
Weber's, Marx's, and Rosa Luxemburg's _Fellach_ as a proletarian relict from antiquity, does he still exist?

Bibliography

Abaza, M. and G. Stauth, Occidental Reason, Orientalism, Islamic Fundamentalism: A Critique. International Sociology, 3(4), 1988, pp. 343-364.

G. Baer, Fellah and Townsman in the Middle East, London: Frank Cass, 1982.

D. Bell, The Cultural Contradiction of Capitalism, London: Heinemann, 1979.

---, Sociological Journeys. Essays 1960-1980, London: Heinemann, 1980.

L. Binder, Islamic Liberalism. A Critique of Development Ideologies, Chicago: University of Chicago Press, 1988.

W. Blackman, The Fellahin in Upper Egypt, London, 1927.

M. Foucault, 'La rivolta dell'Iran corre sui nastri delle minicassette' (The Revolution of Iran runs through the Tapes of Minicassettes), in Corriere della Sera, Milan, 19 November 1978.

E. Hobsbawm and T. Ranger (eds.), The Invention of Tradition, Cambridge: Cambridge University Press, 1983.

A. Kuper, The Invention of the Primitive Society, Transformations of an Illusion, London and New York: Routledge, 1988.

G. Stauth, Die Fellachen im Nildelta, Wiesbaden: Steiner Verlag, 1983.

---, Women, Properties and Migrants. Access to Land and Local Conflicts in Rural Egypt, Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft (ZMDG), 140,1, 1990, pp. 32-50.

---, Revolution in Spiritless Times. An Essay on Michel Foucault's Enquiries into the Iranian Revolution, International Sociology, Vol. 6, No. 2, September 1991, pp. 259-280.

---, L. Binder and the Hermeneutic of Authenticity: A Critical Note. Arabica XL, 1993, pp. 62-83.

G. Stauth and B.S. Turner, Nietzsche's Dance: Resentment, Reciprocity, Resistance in Social Life, Oxford: Basil Blackwell, 1988

A. de Tocqueville, Democracy in America, New Rochelle, NY: Arlington House, 1966.

A. van Gennep, The Rites of Passage, London: Routledge and Kegan Paul, 1960.

M. Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations, London: New Left Books, 1976.

EMBASSY OF GREECE IN EGYPT
THE CULTURAL SECTION
18, Aissa Al Taimuriya, St., Cairo
Tel, 3551084 Fax. 3563903

Ladies and Gentlemen,

dear friends,

* Humaniy, as we all know, is a unity of contradictory elements, a multitude of different traditions founded on different Praxis, but, founded also, on the urge to communicate with each other, ereating, thus, a Logos that is composed from both :

The " é y eç " " , the Love " and the Repulsion " , the urge towards unity and the urge towards division , individuality, are the main components of the Tragedy of Cosmos, the tragedy of the World.

* From Geography and from History, from its configuration in space and in time - Greece, "Hellas", as we Greeks call "our own county", is a bridge between Europe, Asia and Africa, and the civilizations of those comtinents. From that point also, as from many many others, the similarities between the functions of Greece and Egypt, in Geography and in History, are evident.

The greatest greek poet who happened to be born on the land of Egypt, konstantinos kavafis, says : " we are a people of Europe but, also, a people of Asia and of Africa " ...

* the happy marriage of the civilizations of classical Greece with the ancient civilizations of the other lands of the Mediterranean East, gave birth to the Hellenistic-the Alexandrian civilization, A civilization that expressed the synthesis of all the mediterranean East and continued to be

the civilization of that world for a thousand years : from the Alexandrian conquest in 333 B. C. to the Arab conquest in 641 A. D.

A civiliztion that was developed during those thousand years towards a monotheistic vision of life, founded on the dialectical Praxis immanent to this world : sociaty of encounter, of communication, of exchanges not only of commodities - not only of material goods - but also a sociely of encounter, of communication, of fxchanges of sensibilities and ideas. A world that could be called, with the deepest meaning of the word " an erotic world ", " a cosmos of participation " ....

* Later, in the 7th century A. D., Islam was born on the south-eastern margins of this space. Islam, with all its differences, has much in common with the vision developed in the Eastern Mediterranean through the Hellenistic and Grecoroman times . In this saciaty the center of life, God, is the one, the omnipotent master of the totality. But in the perception of him as the " Omnipotent ", more stressed in Islam, and the percoption of him as "Love", more stressed in Christianity, especially in Christian Orthodoxy. Howener, bath in Christiamity and in Islam god is "The Rahman we Rachim", "the All compassionate and All loving", " " nalo "EuEnuwv".

Evenig God in Christianity is understood in a more anthropocentric aspect- is god but he is also the Tjotal Man, the One that proceeds through time, incarnating time, transforming the impersonal history to the history of Mankind .

* The similarities in the conception of god between Christianity and Islam are evident, especially among the suffi, both in the sunnite and the shiite tradition .

Mansur al Haladj, the great suffi of the loth century, saying "1 am you and you are me", could well be one of the great Saints of Orthodoxy, saint Seraphim, for example, who says "The Other is my Joy. The Other is my Salvation" .

There are thus more similarities than differences in the total, the epicantnc, vision of the world among the perples of the eastern shore of the Mediterranean. And, anyway, there is a "unity in contradictions", separating, less, the different peoples of these eastern shores of the Mediterranean amons them, than the differences separating the peoples of the Eastern Mediterranean form the peoples of the west whon nowadays we begin to call, the North.

* the differences in the Eastern Mediterranean Worlds are differences in intonations born from a difference in the "dominant" among a multitude of similar traits .

The mobile, praxis of the helladic world founded on the exchanges of commodities, of sensibilities and of ideas, is born out of a space characterised by the interpenetration of sea and land, the vicinity of sea and mountain .

A landscape that facilitates the diversitication of the material and spiritual production, and, consequently, the development of a more comoplex-material and spiritual-world .On the contrary, the civilizations of the great rivers of mesopotamia and of Egypt, self supporting, tend to be more closed and less dialectic and mobile both in their economy and theculture.

* The human being before the classical epoch of Greece lacks "individaulity". It persists as a particle of a mass, developping a solid but a slow-moving civilization. The classical greek civilization first gives to the human the possibility of individuality, an individuality that is not a seclusion in its

lindines as it is in the alienatid wesfern development, but an urge to participate in the edification of a world nearer to humun desires .

As wedready ment and, the human being of the hellenistic world is the product of the happy marriage of this civilization with the civilization of the other peoples of the Levant. It is here that the Praxis of Justice and brotherly Love were born. In Christianity, combining all those traits, the human being thus becomes a person, neo6-wnor, turned toward the other, turned toward the Prax is of edifying a more human and a more just world .

* The went is different. If Mansur Al haladj and Seraphim of Sarof spoke thus of the Other, expressing a comnon feeling of Love and participation, the equivalent thinkers of the West-what we now call the North in the words of their most eminent philosopher said :

* The Other is my Hell; the Other is my Damnation ".

* there are not deep differences in the Logos or in the structure of the two mediteranean shores. But there are deep and structural differences between " North " as we tend to call now the "West" and the "south". To a great extent these differences are the product of the world domination by the so called deveeloped countries; what we were calling, but it seems it is no more fashionable, the imperialism of the developed world. This distortion of human history by imperialism divides the world its the "developed" North and the "underdeveloped" South. And in order to extend its dormination the North tries to divide the peoples of the underdeveloped world by encouraging, deepening and exploting their internal differences, this continuing the tradition that started by the first ot Romes and was expressed by one of

the consequent Romes in history, "rule et divide", - "divide so you rule" ...

The hellenic Republic - Greece is of course a part of Europe, now also a pint of the European Community. Through the happy marriage of the classical helleniccivic soon with the other great civilisations of the Middle East, christianity, the main optinospace of the world in our hellenic civilisation, was founded .

An optic, a vision of the world, where the centre of life- "god" - is love, participation, the struggle for justice. In the words of the Ecumenicl Patriarche of Constantinople, Vartholomeos, the head of Orthodoxy - the official hellenic religion- "the main sin, the principal weakness of mankind, is to be indifferent to the stniggle of the Other for a more human life. This Other, for the Europeans, is the sò called " third world" .

So, we presume that one of our tasks here in Egypt, as Europeans, and, in general, as humans, is to care also for the Egyptian peple; it is not only a human task, but has to lxcome a "national European" task as well .

Regarding our country Greece, here the principal product through history has been, this "civilisation of participation" - of humans not as "individuals". secluded in their loneliness, but as "persons" turned toward the Praxis of the other-we tried, within our own national culural activity, to promote further the knowledge and the understanding of the other. For example, we have translated into Arabio, or, reciprocaly in the hellenic language. The masterpieces of the hellenic and the Arab literature and Logos: not only the Greek-Egyptians kavafis and Tsirkas, but also, Ritsos, Seferis, Kazantsakis, an Anthology of Arab poetry. All these repeatedly published in the three years of the existence of the cultural section. Our Symposiums of Archeology, Theology and Philosophy that

have now a tradition of three years, are to continue, And from 1994, with the inauguration of the headquarters for the Middle East of the foundation for the hellenic culture, in Alexandria, these symposiums are going to be devel oped in Seminaries - one month peri- ıs lesons for postgraduate studies - covering Literature, History, Archeology, Philosophy, theology and Sociology. The University of "Alexander the Great" in Alexandria, which will be also inaugurated in 1994, concentrating mainly on polytechnical studies, is a project parallel and complementary to the above mentioned project of Seminaries, which is promoted by the Foundation for the Hellenic Culture. In our Cultural Center of Alexandria, we are organising a library. Covering, in Greek, English, French and Arabic. When it will be oompleted- all matters regarding the Hellenic civilisation and its relation with the Middle East. The Hellenic- Egyption Archeological Institute is giong to be inaugurated this year as well.

However, besides our "national" activities that promote this Hellenic civtlistion " of participation and love", would like to develop also our collestive European activities in that sense of "particpation and better understanding of the other". A series of projects are going to be presented through our presidency, the Greek presidency of the European Commission that covers the first tes ieinrs of 1994 .

The Cultural Section of the Embassy of Greece in Egypt, and the Middle East section of the foundation of Hellenic Civilisation have taken the initiative of offering their "good services" to the Arab world and its herat, Egypt, and promote to the whole world the humanistic reality of the Arab civilisation, a reality more and more distorted today by certain Mass Media of a certin "North".

Greece as nescid has always fetl as a component part of the Middle East, being. throuth hisory a part of Europe as well as a part of the whole mediterranean world. Greece is, thus, feeling affected "in its own body".

We are eager to assist by helping to fight the distorion that ome mass-media of the First World want to effect in the public opinion of this First World about the humanistic aspect of the great Arab Civilization.

We have to deepen our knowledge of the Other, we have to deepen our knowledge about these civilizations of the Eastern Mediterranean that we Greeks cal " our collective body ".

We would like to propose the creation of a Forum which would have as its main goal the promohon of a pemanent dialogue between the European and the Middle Eastern Civilzations. We propose, thus, to start with the Symposium we suggest to organise next May, in accordance with the forces of understanding and peace of the European Community countries where the Hellenic Republic in holding for this first semester of 1994, the presidening. A dialogue that, regarding Greece, han already started two years ago and was developed last year under the title " Dialogue for the respect of the Other " ...

There are deeds to be done. Lut us repeat the great Logos of the main philosopher, of Praxis, at the beginning of our century : "What is needed in history is the vision, the dream, the project to develop the humanisation of this impersonal world, but, also those delicate therads that could make this our vision reality " .

The first thins we need to accomplish this vision is the edification of a strong collective will, a will that, by its development among the masses, would become a material force, a reality.

Because the main obstacle in the struggle of edifying a more human world is the violent, bloody and materially destructive confrontations, that we see unfortunately, still existing today. Peace is thus the priority of priorities because history has shoun, clearly in

our days, the fultility of war, the fulility of any bloody confrontation, and has fory shown cleasly also, that the humanisation of the would could be achieved in a drastic way only by the edification of this strong will of the peoples towards a constructive peaceful confronta tion against the impersonal and inhuman struc tures of society.

the peaceful coexistence of the nations was, thus, unrealistic. No. Thousands of years of history say no ... It is realistic. It has been achieved for centuries in history.

It is evident, of course, that the inavoidable internal contra dictions of the multinational countries, as well as the internal contradictions of any country, are exploited by the " Great powers", so that ther divide and dominate better the peoples of the World.

We have meny examples from history that show the drastic possibilities of these non-violent means. The demands of much of the social spectrum of German people in the late 19 th century for an equal and more just division of the world among the "Great Powers" of the day, were achieved after a century when they were fought by non-violent means, through economic and political pressure of both the german government and the masses. However, in the meantime the pursuit of these demands by violent means caused the deads of 40 million and billions of material destruction thet humantity suffered fromin the I and II world Wars. It is a sad fact that this " equality " among the developed nations of the world powers achieved by the german people, in that irrational way, caused also the division of the formet a soviet people with aperpective of a permanent war for some years among them. And it has cansed also the present crisis of the III World, that has been left without the balancing possibil ities of the Second World. But that is another problem, not connected immediately to our discussion.

Another example of the frhlity of war is the recent history of the geographical and historical entity of the Balkans and Asia Minor that had forned, subcequently, the Hellenistic, the Byzantine and the Ottoman States. The coexistence of the peoples of the region was destroyed by the manipulation of its unavoidable, but controlled till then, contradictions by the nationalistic forces that were the neaative side of the great French Revolution of 1789. This led to the horrible ethnic cleansings that started from the beginnings of the 10th century, culminated in 1922 in the expulsion of the Greeks from Asia Minor and of the Turks from mainland Greece, and is continuing today in the lands of Former Yugoslavia.

We could also mention the Zionis example :

It is evident to democratic Israelis - and they are many, even in some places of the present government - that a Jewish home in Palestine could be achieved in amoderate and compromising, but also secure, way, without causing for Jews and Arabs, but assl for the rest of the world, the amounts of suffering that extreme Zionism has caused in the last 50 Years, The same holds to the other side. A more realistic, compromising attitude could have helped both sides.

One could well ask where the Zionist movement is going in the future with the arrogant continuation of the policies of the occupation of the whole of Palestine .

Peace comes first But not the peace of the opprssors, nor the peace of the unjust structures of the present world .

A Constructive peace is needed, a peace through which the struggle of humanity for a more just world would continue with nonviolent means .

And those means are the systematic encounter, the struggle to know, the struggle to meet, the Other. The struggle of deepening knowledge of the different, of understanding the different .

The struggle to find the common goals to emancipate humanity from the slavery of the structures of nature or the slavery of the structures of society .

The readjustment of the structures of the world could well be achieved. It could be achieved by edifying metnodically : by forging patiently the unity of the peoples, their persistence .

We have many examples of such a peaceful and drastic struggle in history : The Italian "Rissorgimento" in its great moments, the Indian struggle for Independence under Gandi, the intifadah in its great years .

And to come even nearer, " The potrol of the Arab world should be the collective heritage of the Arab nation" - of the Arab peoples ...," said the hero of the contemprorary Arab history .

this has, of course, yet to be achieved: this is a must of history. But that just vision could be achieved only by forging the unity and the persistance of the national consciousness of the Arab peoples .

Petrol, the wedths of Arab nations could be the main weapon for restructuring the world, If the peoples of the III World decide and learn how to use their collective inheritance : their masses, their billions of people, as much as their mineral and other hidden wealth they would liberete also their present oppressor, the I World, from the deeper alienation of its humanity, caused by acting either personally or collectively in an inhuman way, in a way far from the Ways of God, as our Christion, or Muslim brothers would say .

Communication, therefore, doesn't mean the acceptance of the so called reality of the structures of the world. On the contraty, communication means interpenetration, exchange of commodities but mainly exchange of ideas and exchange of sensibilities. It

means participation, the encounter of humanity to forge its real weapon, edifying a common will of the peoplcs to alter the impersonal reality of the structures that inhibit humanity from building a more human world. The **structures** are enslaving: only the **Praxis,** the struggle to alter by human means the inhuman and impersonal reality, is a liberating factor in the history of mankind, in the possibities of mankind to construct by its struggle monviolently but drashrally and persistently towands a more human world .....

We have thus to clear human existance from the alienstions of history: We have to struggle to rediscover the essentials of human civilization, getting rid of the deformities. We have to extend further our common essential product - through our pain in history - that is the Praxis and the Logos of the Human Person, the praxis and the logos turned toward the Other and the Total Other .

And by developing this, we shall extend that Praxis to wards the margins of our world, helping also these margins to participate in a world that will not be divided into First, Second, and Third World, into North and south, but in a World that will be the common home of Mankind, united, even with all its contra dictions .

Alexandria First International Conference
" Cultural Interaction among Mediterranean Peoples through History " , Alexandria , Egypt ,
January 22 - 26, 1994 .

ENVIRONMENTAL EFFECTS OF EVOLUTIONARY SYSTEMS AND SOCIETIES

Mar. in R. Mehandjiev, Assoc. Prof., Ph. D.
Scientific Secretary of the Association of Bulgarian Ecologists, P. O. Box 52, 1231 Sofia, Bulgaria

INTRODUCTION

As a result of strict logical & mathematical constructions, of inevitably considerable principles, and of the use of basic notions as mass and energy kinds, a contemporary thermodynamic approach permits, from most general positions, as well as by a detailed analysis, the essence of each given phenomenon to be elucidated. This work is based on regularities of the non-equilibrium Thermodynamics of Accumulation Processes / TAP/. Considering the association between the evolution and the global demographic, environmental and natural resources ' crises, the work' s approach can be applied to historical studies on cultural interaction among peoples without difficulties .

THREE DISASTERS AND EVOLUTION

An awareness of potential global demographic, environmental and natural raw materials' crises since the last three decades provoked the appearance of many ideas, studies, projects and even programmes for the achievement of goals called" Ecological Economics of Sustainable Development " Environmentally Sustainable Global Economy ", or " Reshaping the Global

Development " etc. There are many books and reports with titles composed of various combinations of such or similar words pregnant with meaning , mostly originating from nongovernmental organisations as Club of Rome and Worldwatch Institute, but all these works are based on the simple and sorrowful idea of a future general self-restriction in prosperity of mankind. Unfortunately, that self-restriction is fuzzy regarding its realization management and fairness, and should concern, inevitably and logically, the peoples with a poor or even zero prosperity mainly because such restriction is realizable mostly in their cases : they, being the bigger part of humanity, will never achieve the recent prosperity of developed countries .

There are, of course, two unavoidable questions associated with the three disasters-to-come . The questions regarding : reasons for prololems, salutions for problems and additional less important question: which twdg disaster kind is the impending and most dangerous one ?

We know many contradicting opinions regarding the reasons of those future misfortunes, However, reasons shared mostly are: 1. The human population growth; 2. The competitive economic development of the countries, and 3. The enormous, harmful impact upon the environment. We could accept these reasons too. The last of the reasons should be considered as an inevitable and direct resiult of both previous reasons, because the wastes quantity is alwas symbatic to population and to econcmic development and since an impact by wastes disposal & emission cannot be beneficial. Now, however, two new, very important questions arise : Were there in the past possibilities of population growth and economic development removal, and what would be that elimination price ? The first of these two questions is relevant to the statement repeated often, that mankind' s stupidity in the remote and near past allowed the recent dangerous state of the world. Nothing can be more incorrect than that statement,

because the answers of the last questions are very clear. Population growth and economic development, together with their environmental impact have been removable in the past / tbanyh only, by force /, but the removal price would be the stoppage of mankind' s evolution - nothing more or less .

In a very interesting lecture presented at the International Conference " Ecology and Industry' 93 ", held in Sofia, October, 1993, Dr. Judy Messer said that " the Australian Aboriginal peoples managed to live successfully and in harmony with the Australian ecosystems for more than 40, 000 years " (1) . That is true enough, but there is another fact also : they managed to remain at the same stage of evolution during those 40, 000 years . That and similar examples, based on primitive tribes' life and development, support the answers given above, especially that about the price. However, we should emphasize here that the answers are relevant to the world of the past only. Later on we will put and answer the same questions for the future.

Moreover, our notions about the direct dependence between the evolution of humanity and the environmental impact are based not only on such examples, but also and mostly on thermo dynamic studies using the regularities of TAP. More detailed thess studies are outlined in the Appendix to this work .

As we all know evolution is the gradual development of earlier or simpler forms of life, or of a system in general. In the case of humanity considered as a biosystem, that notion includes technosphere and societies development also. It is known too, that there existed no quantitative criterion for evolution stages of determination and assessment. The development of such criteria was significant for the investigation of past or contemporary cultural interactions between the peoples, also because the mutual cultural influences are an important part of the processes attend-

ing and supporting the evolution of human technosphere and societies Thus, the same criteria developed in this work can be applied in those investigations .

EVOLUTION PRINCIPLES AND RELATIONSHIPS

Using TAP - notions and regularities / the Appendix could be seen for details / four biosystems kinds shown in Table I are discernable, as well as the following principles and rules / principle consequences / have been postulated :

I . The Strategy of a biosystem consists in a continuous acceleration of the general process realized in the biosystem or by this biosystem. / Appendix, Ineq. 2 /

I.I A biosystem can have such tactics / or behavior / only, which are co-ordinated strictly with the biosystems strategy, if the circumstances favour the realization of the strategy.

II. Each developing biosystem accelerates its impacts upon the surrounding systems or upon the environment, in general.

III . Evolution can be defined as a development, in which the system' s ability for biosystems strategy realization is not only accelerated gradually, but also multiplied by a qualitative change / qualitative transformation / .

III.I. Each evolution of a biosystem is assessable by multipliel accelerated and qualitatively changed impact / impacts / exercised by the evolutionary biosystem upon the environment.

III.2. Evolution criterion : Biosystem evolution is determinable by accelerated and multiplied by qualitative transformation impact / s / of the evolutionary biosystem upon the environment./ Table 1, Ineq . 20 / .

BIOSYSTEM KINDS DISCERNABLE IN TAP

TABLE 1 .

NO	Kinds of Biosystems	General Expression, / No in Appendix /
1	Degenerating Biosystems	$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 < 0$, Js^{-2} /6/
2	Conserative Biosystems	$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 \cong$ constant, Js^{-2} /5/
3	Developing Biosystems	$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 > 0$, Js^{-2} /4/
4	Evolutionary Biosystems	$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 > 0$, Js^{-2} ; /20/ at: $\psi_s \cong$ /0.04/ / Evolution Criterion /

III.3. Simultaneous evolutions of all subsystems included in a system cannot be realized.

III.4. Evolution of a subsystem can be accepted as evolution of the whole system, provided that the evolutionary subsystem accelerates and qualitatively changes the impact of the system upon the environment.

TAP - approach, therefore, uses an unpleasant and even dangerous by - effect as the impact upon the environment, in order to assess the development and the evolution of a biosystem as humanity. The reason of the choice, however, is obvious : the work done by impact, i.e., the effects of impact, are easily measurable and much appropriate for a quantitative assessment of an

acceleration . The effects observable are often studied and measured for other purposes and the investigation performed usually in clude the affected population also, as a part of the environment, in the sense accepted in the human ecology .

Principles II and III state that, there exists a clear difference between developing bioystems and evolutionary biosystems because an accelerated impact of a developing biosystem according to Ineq. 4, could be aresult of an extensive increase of the number of the organisms without any evolution .

By expressions derivative of Ineq. 4 and 20 , applied to the effects of peoples' cultural interactions and assessed with respect to the impact / the work done upon the environment / e. g., de forestation, Land degradation , desertification etc. / The developnent and evolution of peoples , even in historical aspect, as a result of those cultural exchanges can be investigated and quantitatively assessed .

Now, developing the TAP - approach further, we should put and answer the Previais questions, although slightly altered :

- Will there be in the future possibilities of human population growth and economic development elimination together with their effect - the impact upon the environment ?

  Unfortunately , the reply is still "None, without evolution removal". Since the biosystems development principles outlined before are unchangeable, they will remain the same .

  Thus, the second question is :

- As far as the answer of the first question is negative, are there possibilities of mankind' s survival in the future without demographic, environmental and natural resources disasters, so - called " triple disaster " realization ? The reply is given below.

TRIPLE DISASTER PROBLEMS SOLVING: LAST CHANCES

Considerations made and the basic biosystems strategy , development and evolution definitions lead to the inevitable and indisputable conclusion that ideas such as self-restriction including " family planning " in democratic countries cannot be welcomed by the peoples, and are also imaginary because of their contradiction to the basic biosystems principles, even if some government or world administration decided to sacrifice the development & evolution .

Other measures as the reduced exploitation of accessible resources; production with increased yield & recycling; reduced wastes disposal & emission; environment protection by "green taxes' ; renewable energies : solar / incl. photovoltaic /, wind, tidal and geothermal power use, etc, based on contemporary technical & technological achievements, although very important now-adays, deserving full attention and great efforts, had and will have temporary effects . They represent no sustainable problem solving , but delaying measures regarding the triple disaster because , in principle , we cannot react against and overcome an acceleration effect, even a gradual one / Ineq. 2 of Appendix; 4 qnd 5 of Table 1 /, by means of extensive increase of opposite effect only .

Effects of a gradual acceleration can be removed successfully only by counteracting acceleration, or , most effectively , by accelerated realization of conditions for a saltatory appearance of the results of sufficiently big or accelerating counteractions. The new counteractions to be invented could be nontraditional and even odd, mostly related to the human resilience, food and energy production .

There are, even now, sufficient number of scientific ideas, applicable in the researches on the saltatory and sufficient counteractions needed. Those ideas will not be, of course, easily developed Nevertheless, they should be seeked all over the world . found and checked carefully . and then studied

independently in accelerated investigations. For example, two of the promising strange research directions based on TAP are : A. Creating defense means of the human organism against various harmful influences due to the degenerated environment / as, e. g., ozone depletion /, using a corrected and improved cancer mechanism [s,3]; B. Power production by thermonuclear fusion using the compensation effect of carbon dust particles ' evaporation [4]. There is no doubt about the existence of more various bright ideas in the other scienticic fields, as, e. g., gene engineering ,

In the accelerated efforts to meet and overcome the challenge and menace of the triple disaster, looking for "desperate remedies under desperate circumstances", we have the last chances to find, among many odd ideas, the remedies needed for the future development and evolution of humanity without application of any unlimited and useless "self-restriction" directed against the natural principles .

References .

1. Messer, J, Towards an Ecologically Sustainable Economy: the Public Interest Point of View. Paper of "Ecology & Industry, '93" Internat . Confer., Sofia, Bulgaria, Oct. 6 - 8, 1993, Book of Plenary Papers, PP 80 - 91, 1993 .

2. Mehandjiev, M. R. Geocancerology and the Hypothesis of Cancer as Protective Mechanism of Organism Tissues. Medecine, Biologie, Environment, 18 / 1990 / 1, 64 - 66 .

3. Mehandjiev, M. R. Cancer : Enemy and Future Ally. Technica Publ. House, Sofia, 1993 .

4. Mehandjiev, M . R . Experimental Possibilities of Plasma Fusion Controlling Based on Regularities of Thermodynamics of Accumulation Processes . Paper of Tenth Exper . Thermodynamics Confer. Sheffield, Apr. 2 - 4, 1984, Abstr. Book, Sheff. Univ., P 5 .

APPENDIX

NON-EQUILIBRIUM THERMODYNAMICS APPROACH CHOICE

This work is based on the regularities of the Thermodynamics of Accumulation Processes / TAP /. TAP and the thermodynamics of irreversible processes are the two branches of the non- equilibrium thermod namics. They have, however, different research fields : TAP, developed since 1967, deals with phenomena in open, affected systems; these phenomena - processes and effects - due to predominantly positive external impacts upon the systems, are associated with a retreat from the equilibrium state. The positive effects - accumulation effects - resultne from accumulation processes, cause an increase of the free thermodynamic potential of the affected systems, which are called, in these cases , accumulation systems, respectively [1, 2] . The diference of principle between irreversible and accumulation processes is proved by almost each hysteresis phenomenon. The thermodynamics of irreversible processes, dealing with phenomena associated with an entroby increase, and with processes directed towards equilibrium state establishment , cannot be considered as an appropriate base of studies on open, developing living natural systems, as well as on their essential properties as evolution. For example, the so - called "universal criterion of the evolution" accepted in [3] on the base of the thermod ynamics of irreversible processes is written as follows :

$$d_i s / dt \leq o ,$$

and was supposed to express "a minimum entropy production demand" [3]. There could be hardly imagined, however, some equation seriously presented as an evolution criterion more unconvincing than Ineq. 1 because of three reasons at least. First, Ineq. I contradicts the basic rule of the thermodynamics of irreversible processes, which states that the entropy production $d_i s$ /

dt cannot be negative [4]; secondly, in the form:

$d_i s / dt = o$. allowed by Ineq. I, the "universal criterion of the evolution" corresponds to the cases of reversible processes [5], which could not be accepted as evolutionary ones at all; thirdly, Ineq. I does not posses any practical, directly measurable, comparable or even assessable value of meaning : the production of entropy itself is expressed in all cases only by the change of Gibbs' energy in the de Donder' equation, developed for the very restricted field of processes at contant temperature [6]. That is why, Ineq. I was disregarded and the regularities of TAP were prefered in this work .

STRATEGY OF BIOSYSTEMS

There are two states only considered possible, theoretically, for the natural systems: The state of isolated systems, and that of affected systems. Since an absolute isolation cannot be realized, all natural systems should be considered as affected ones - objects of continuous impacts / influences originating from the currounding systems respectively / the impact intensity degrees or changes are of no principal importance /. However, the natural living systems - the biosystems - among all affected systems on the Earth also represent self - controlled accumulation systems, in accordance with TAP - definition / self - controlled accumulation systems can provoke or cause the positive impacts needed for their continuous existence as accumulation systems /. Being very similar in a general thermodynamic sense, all biosystems should posses a common property or quality, which, interpreted as "strategy" / i. e., as "activity or phenomenon directed towards goals, unalterable during the time - period concerned" /, should determine their expected behavior, whatever the circumstances. Thus, the strategy of biosystems has been postulated in TAP as follows :

Strategy of a biosystem consists in a continuous accelera-

tion of the general process realized in the biosystem or by this biosystem.

Using TAP - notions, that biosystems strategy can be expressed by a single mathematical inequality only:

$$\sum_{k=2}^{k=n} \frac{d^2E_k}{dt^2} > o, \text{ Js}^{-2}, \text{ or, by limited differences}: \sum_{k=2}^{k=n} \frac{\Delta^2E_k}{\Delta t^2} > 0, \qquad 2$$

Where E_k is the elementary energy / mass / of k - kind, J, used; / mass can be expressed as energy of some kind "p" by a production, using the mass quantity m, kg, and the specific p - kind energy e_p of unity mass, Jkg^{-1}; e. g., $E_p = e_p m$, j/; t is the time, s ; n is the total number of energy kinds, which participate in the processes realized in the system, or attended by the system; the value k = 2 / i. e., K > 1 / is based on the effects' polyenergetization principle of TAP [7]. Ineq. 2 expresses the strategy of biosystems as open, accumulation systems, by analogy with the known inequality of the Second Thermodynamic Principle, expressing the strategy of isolated systems:

$$ds / dt > 0, \qquad 3$$

where S is the entropy of these systems.

As well known, temporary tactics, which should consider the real recent circumstances such as: resources, space, presence or lack of harmful influences / enemies /, etc, can never alter a strategy. Therefore, observed phenomena as resilience, adaptation, metamorphoses in the life - cycles cannot concern that postulate of biosystems' strategy.

TAP considers as developing biosystems those, tactics which correspond to the biosystems strategy entirely during the time - period studied, i. e., those with accelerated general process according to Ineq. 2. The degree of acceleration in this case is unconsidered.

Several very important consequences follow from the biosystems strategy definition .

1. A biosystem can have only such tactics / or behavior which are co - ordinated strictly with the biosystems strategy, if the circumstances favour the realization of the strategy .

That rule is based on the notions semantics directly; however, it has an additional significance regarding the biosystems definition. As " biosystem " should be considered the species, because the most basic notions " strategy " and "tactics" can be related to the biological species only, in the sense determined by Ineq. 2. Individual specimens / organisms / of each biological kind should be accepted as subsystems, all of which have common, approximately uniform characteristics, and together compose the respective biosystem of that kind - the species. Thus, the development of a biosystem in the sense of the strategy realization can be expressed extensively too by increase of the number of the subsystems - the individual organims .

2. Each developing biosystem accelerates its impacts upon the surrounding systems or upon the environment, in general.

That principle is exressed by Ineq. 4 :

$$4 \quad \sum_{r=1}^{r=q} \frac{\Delta^{2} w_{r}}{\Delta t^{2}} > 0, \ Js^{-2},$$

presented by limited differences; ΔW_r is the work of impact, J, of r - energy / mass / kind, done by developing biosystem upon the environment . The principle is easily provable . The biosystems should affect the environment in order to provoke the positive return impacts needed for their existence and development. On the other hand, they should release partly the

accumulated mass and energy through their borders as transformed energy / mass / kinds mainly in accordance with the TAP - rule of obligatory mutual compensation of the direct and indirect effects in the systems [7] /, in order to preserve their state in their regions of existence, which are determined by the values of the factors in the respective state vectors [2] .

3. Biosystems, the impacts of which remain unchanged upon the environment during the time - period investigated should be accepted as conservative biosystems; biosystems with negative acceleration/i.e.with deceleration of those impacts are defined as degenerating biosystems .

The behaviors of conservative and of degenerating biosystems are expressed by E_q . 5 and by Ineq. 6 respectively; these expressions are developed in analogy with Ineq. 4, and correspond to the systems definitions entirely :

$$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 \equiv \text{ constant}, Js^{-2} ; \qquad 5$$

$$\sum_{r=1}^{r=q} \Delta^2 w_r / \Delta t^2 > \text{ constant}, Js^{-2} . \qquad 6$$

4. Evolution can be defined as a development in which the system's ability for biosystems strategy realization is not only accelerated gradually , but also multiplied by a qualitative change / qualitative transformation / .

Therefore, the following rule can be stated :

5. Each evolution of a biosystem is assessable by multiplied accelerated and qualitatively changed impact / impacts / exercised by the evolutionary biosystem upon the environment .

These two definitions , although clear and without internal c...tradictions , should be attended by a possibility of quantitative assessment of an evolution, i. e.,we should possess quantitative criterion or criteria for simple determination of an evolution stage. Criterion needed has been developed by TAP - regularity. Obviously, a qualitative change of some system's ability should be preceded by an internal /qualitative change in the system itself.

SYSTEMS QUALITATIVE CHANGE CRITERION

Appearance of a new quality, i. e., a qualitative transformation / QT/ in the system investigated can be ascertained, according to TAP, by the polyenergetic coniugation relationships, the general expressions of which are given by Eqs. 7 and 8. Polyenergetic conjugation equations associate system intensity / P / or capacity / X / factors, or both, which define various energy / mass / kinds. In Eqs. 7 ; 8, n equals the number of energy kinds existing in the system. In eq. 8, T is the kelvin temperature and exponents o_r and o_i have relative values, less than 1, determined experimentally, assuming the T- exponent equal to unity. The exponent signs depend on the symbaticity / negative sign / or antibaticity / positive sign between the respective factor changes and the change of a chosen factor / T in polyenergetic conjugation equations, composable for each affected system, or for each

$$\prod_{r=1}^{j} p_r^{\pm\theta_r^0} \prod_{i=j+1}^{n} x_i^{\pm\theta_i^0} = \text{constant} \; ; \quad \Big| \; r \neq i \; ; \qquad 7$$

$$T \prod_{r=2}^{j} p_r^{\pm o_r} \prod_{i=j+1}^{n} x_i^{\pm o_i} = \text{constant} \; . \quad \Big| \; r + i + I = n \geqslant 2 \qquad 8$$

system's subsystem discernable, express the internal compensation between the direct and indirect effects in an affected system. In practical applications, n is rarely bigger than 2 or 3, but the factors used should be the indispensable and most characteristic ones for the system studied. Expressions, derivative of Eq. 8, have been tested experimentally and successfully in many TAP - studies [8] .

TAP assumes that a subsystem can be considered as an inseparable part of the whole system if the subsystem removal causes qualitative changes in the system and reduces the system's specific accumulation properties. Affected systems conserve their properties of accumulation in part or entirely until the direct and indirect effects of impacts are compensated in the system; that compensation can be determined easily by equations of Eq. 8 - type as a lack of qualitative transformation.

A qualitative transformation QT / can be performed saltatorily or gradually and can be positive or negative also. A saltatory QT / sQT / is associated with a change of the number n of energy / mass ./ kinds in Eq. 8 always. Number n increases in positive sQT / + sQT /, and decreases in negative ones which are denoted by " - sQT". For examle, a +sQT is the appearance of a new phase in the system / phase + sQT /, or the appearance of a new, chemically discernable substance / chemical +sQT /. In analogy with the +sQT, a negative sQT / -sQT / is, e. g., the disappearance of a population in an ecosystem / biological -sQT /, etc.

A gradual QT / gQT / can be positive / +gQT / or negative / -gQT / also. However, a gQT is realizable by gradual change of the quantity of some energy / mass / kind in the system and, therefore , is not observable so clearly as a new energy kind appearance or disappearance. Good examples of such transitions of quantity to quality are the gradual accumulations of harmful

substances in the soil due to continuous industrial emissions : concentrations surpassing certain limits cause a new quality of the land - it cannot be used for agricultural purposes. Both QT-forms, i. e., gQT and sQT can be realized as successive phenomena, e. g., the saltatory crystallization of a compound in a homogeneous liquid system / appearance of new phase = + sQT / can be caused by gradual saturation of the solution and surpassing the compound solubility. That is why, TAP assumes, generally, as "approximate QT-state" or "pre-QT-state", that state of an affected system at which, even a little impact of the same kind will cause a QT as an inevitable irreversible process .

A +sQT can be caused as a result of an adenergetic effect, due to continuous constant impact upon the system, provided that the values of all existing intensity factors of that system remain constant [9] .

The TAP-methodology associated with AT-phenomena applicates Eq. 8-derivative expressions for determination of a gQT, or a pre-QT-state by calculation. It has been proved experimentally that, for effects without a QT, the relative exponents for each P_r and for every Xi in Eq. 8 / exponents are denoted by "Θ_r" and "Θ_i" respectively in these cases /, have approximately constant values : $\bar{\Theta}_r \longleftrightarrow \Theta_r \cong |0.3|$; $\bar{\Theta}_i \longleftrightarrow \Theta_i \cong |0.4|$; these values do not vary with the exopnent signs, or with n , or even with the energy kinds defined by the factors. For effects attended by ar AT, the exopnents are denoted by " ψ_r" and " ψ_i" respectively, and their values do not vary with the exponent signs also, but are dependent on the energy kinds defined by the factors. For example, in cases with QT, the surface area exponent value proved to be: $\bar{\Theta}_i \longleftrightarrow \psi_i \cong |0.04|$, i. e., ten times less than the value of Θ_i for capacity factors as the surface area in cases without a QT. Thus for the surface area s / exponent index "s" / we have :

For effects without qualitative transformation : $\theta_s \cong |0.4|$
For effects with qualitative transformation : $\psi_s \cong |0.04|$. 9

Values of a system's surface area exponent between $|0.04|$ and $|0.4|$ indicate the transition states before a qualitative transformation .

Since each specific factor can be easily transformed in surface area of a certain component / or subsystem characteristic for the system of study, the surface area exponent value, determined by expressions of Eq. 8-type, can be used, therefore, as a criterion of QT caused by impacts upon the system. Calculations of surface area exponent $\bar{\theta}_s$ value regarding a lack, an existence, or a current possibility of QT, are besed on expressions with n < 3 . For example, in cases of n = 2, the necessary relationships are developed by the algorithm described by Eqs. 10 - 14 . From Eq. 8, written for two consequent time-periods, indexed by "1" and "2", assuming that : $t_1 = t_2$; $P_1 < P_2$; $s_1 < s_2$ / symbatic factors /, and that symbols indexed by "m" are the factors mean values for both time-periods, we have :

$$P_1^{0.3} s_1^{-\theta s} = P_s^{0.3} s_2^{-\theta s} = \text{constant}, \quad 10$$

$$0.3\left(\frac{d \log p_2}{dt} - \frac{d \log p_1}{dt}\right) = \bar{\theta}_s\left(\frac{d \log s_2}{dt} - \frac{d \log s_1}{dt}\right), \quad 11$$

or, expressed as limited differences :

$$\frac{0.3}{p_m}\left[\left(\frac{\Delta p}{\Delta t}_2 - \frac{\Delta p}{\Delta t}_1\right)\right] = \frac{\bar{\theta}_s}{s_m}\left[\left(\frac{\Delta s}{\Delta t}_2 - \frac{\Delta s}{\Delta t}_1\right)\right], \quad 12$$

where : $P_m = 0.5 (P1 + P2)$; $s_m = 0.5 (s1 + s2)$.

Assuming that :

$(\Delta p/\Delta t)2 = a(\Delta p/\Delta t)1$; $(\Delta s/\Delta t)2 = b(\Delta s/\Delta t)1$; $a > 1$; $b > 1$, we derive the calculation equation :

$$0s = o.3 \frac{s_m \left(\frac{\Delta p}{\Delta t}\right)_1 (a - 1`)}{s_m \left(\frac{\Delta p}{\Delta t}\right)_1 (b - 1`)} , \qquad 13$$

which gives the value of $\bar{\theta}_s$ as the QT- criterion needed for the case of study .

Three peculiarities facilitate the application of polyenergetic conjugation equations for biological objects :

- temperature T of the biosystems is approximately constant or ~~varies~~ in approximately constant and narrow intervals. That is why, T can be transfered and included in the constant of the right hand side of the equations, preserving the symbaticity / antibaticity of the remaining factors with respect to T. As shown by Eqs. IC and 11, the right hand side constant does not praticipate further in QT- criterion calculation. Thus, the number n can be reduced. For example :

$$T P_r^{-0_r} X_i^{o_i} = \text{constant}/1/; \ (Y = \text{constant}). \qquad 14$$

$$P_r^{-0_r} X i^{0_i} = T^{-1} (\text{constant}/1/) = \text{constant}/2/.$$

- many capacity factors of biosystems composed by uniform organisms can be represented by the organisms' number N in Eq. 8-derivative exressions. For example, a total surface area of the biosystem s can be substituted for N, since the mean surface area of one organism s_e is approximately constant, and $N = s/s_e$. E. g., at n = n, using s and a symbatic intensity factor P we have :

$P^{0.3}\, s^{-\sigma_s} =$ constant /3/.

$P^{0.3}\,(Ns_e)^{-\theta_s} =$ constant /3/; (s_e = constant), 15

$P^{0.3}\, N^{-\theta_s} = s_e^{\theta_s}$ (constant /3/) = constant /4/.

- total surface area s of a biosystem can be conjugated polyenergetically always with certain symbatic intensity factor P_c, which reflects the effect caused by a given impact upon the system. If the impact is continuous and constant one during the time $t = t_2 - t_1$; $t_2 > t_1$, p_c is proportional to the t-value and we can write:

$P_c = A_c t$, (A_c = constant), 16

$P_c^{\theta_r}\, s^{-\theta_s}$ = constant /5/; $(A_c t)^{\theta_r}\, s^{-\theta_s}$ = constant/5/; $t^{\theta_r}\, s^{-\theta_s}$ = constant /6/ 17

transfering the constant A_c in the right hand side of the equation

Furthermore, if the effect in the last case above is attended by a constant heat release in the environment, in order that a constant T to be maintained in the system, P_c -value is considered proportional to the T-value which will be achieved without that heat release. Therefore, the exponent of P_c and of t respectively, in Eq. 17 should be assumed equal to unity as the T-exponent in Eq. 8. Thus, from Eq. 17 we could have :

$t\, s^{-\theta_s}$ = constant /7/, 18

and, substituting s for N as in Eq. 15, we could obtain:

$t\, N^{-\theta_s}$ = constant /8/, 19

Eq. 19 has been used for determination of a QT in the leucosis cells division with respect to the human organism's immunological control [8]; at leucosis cells number $N \cong 10^7 - 10^8$, the exponent value is $\Psi_s \cong |0.04|$, detecting a QT - inevitable destruction of the human organism .

EVOLUTION CRITERION

Based on the considerations made regarding systems evolution and qualitative transformation of affected systems, we can define the following rule for the evolution criterion :

6. Biosystem evolution is determinable by accelerated and multiplied by qualitative transformation imp[act / s / of the evolutionary biosystem upon the environment and can express it as follows :

$$\sum_{r=q}^{r=q} \frac{\Delta^2 w_r}{\Delta t^2} > 0 \ , \ J s^{-2} \ ; \ \text{at}: \Psi_s \equiv |0.04| . \qquad 20$$

where the inequality is the same as in Ineq. 4, but the condition " $\Psi_s \equiv | 0.04 >$" corresponds to a qualitative transformation detectable by the value of surface area exponent in the respedtive polyenergetic conjugation relationship, written for that biosystem.

References

1. Mehandjiev, M. R. Thermodynamics of accumulation processes applied to colloidal systems. Progr. Colloid & Polymer Sci., 77 / 1988 / 143 - 145 .

2. Mehandjiev, M. R. Contemporary modelling of the resilience of ecological systems. In: Terrestrial and Aquatic Ecosystems, PP 109 - 118, Ellis Horwood Ltd, N. Y-London, 1991 .

3. Nicolis G. and I. Prigogine. Self-organisation in non-equilibrium systems. J. Wiley & Sons Inc., N. Y. -London, 1977, Mir, Moscow, 1979 P. 62.

4. Ibid, P. 34

5. Haase R. Thermodynamik der irreversible Prozesse. Steinkopf Verlag, Darmstadt, 1963 .

6. de Groot, S. R. Thermodynamics of Irreversible Processes. North Holland Publ. Co., Amsterdam, 1952 .

7. Mehandjiev, M. R. Basic regularities of thermodynamics of accumulation processes. Chemistry and Industry, 3 / 1979 / 104 -* 105 / Bulgarian /.

8. Mehandjiev, M. R. In : Ecologization and Ecological Assessment, PP 30 - 318, V. F. S. I. Publ. House, Svishtov, 1981 / Russian /.

9. Mehandjiev, M. R. and K. R. Mehandjieva. Dangerous Perfectness in process control. Paper B 3.3 of CHISA' 87 Conference in Prague, Abstr. Vol. P 41, 1987.

Dept of Biology, University of Padova

Observations on Demography and Epidemiology of the Mediterranean Countries

Giorgio Marcuzzi

Researches on demography and epidemiology in a heterogeneous area as the Mediterranean are exteremely difficult, as one can easily imagine. WHO, for example, which is one of the various supernational, or intercontinental organisms, makes a distinction for epidemiological aims in which it recognizes a S-E Mediterranean area, but not a S-W one, though these two sectors are not very different from medical as well as environmental point of view. An approach to demography and epidemiology is however useful, if not necessary, considering some uniformity in the Mediterranean area in climate, racial constitution and presence - since exteremely remote times- of traffics, exchange, etc. among all its parts. So one speaks for instance of a " Mediterranean " type of house, adapted to a more or less hot, arid, climate.

Incidentally, demography perhaps has been born on the very shores of the Mediterranean Sea with the Biblic book "Numbers", in which a first census of Hebrew people has been done under the command given by God-contained in the first chapter - to number the children of Israel, of all of the "from twenty years old and upward", the tribe of Levi being excepted. The number was 603.550 ; the Levites number 22.000, counting every male a month old or upward. The new census, taken before the entry in the land of Canaan, is 601.730 that of the this Levites 23.000. The Numbers are posterior to Moses.

This may be compared with a pass of Deuteronomy (X,22) "your fathers came to Egypt in the number of seventy persons, and now the Lord your God has multiplied you as the stars of heaven " : the data reported from Numbers show the multiplication of Jews after 430 years of stay in Egypt (see also Lack, 1954).

Epidemiology, in its turn, can be considered (is it born?) in Egypt.

In the papirus Ebers (1500 B.C.) there is a description of a disease characterized by severe anemia, due to the worm "Helu", probably the hoodworm Ankilostoma duodenale. In the same papirus another parasitic worm, Schistosoma, is described very accurately. In Egypt the oldest representation of a tick is going back to c. 1500 B. C., discovered in a tom near Thebes ; the tick is present inside the ear of an animal alike to a hyena. Gadflies and mosquitoes are mentioned in Psalms, CIV, 34 - 35.

The Mediterranean peoples exhibit a very different demographic and epidemiological pattern according to their geographic position and relative climate and vegetation and according to the race or "subrace" to which they belong or from which they derive. Alimentary habits, religions, traditions (partly bound to the latter) and in general life-style can account for the difference we find in these characteristics, so far very little investigated, if we make an allowance for ethnology. We will base for the definition of Mediterranean peoples exclusively on ecological factors, namely climate and vegetation of the shores of Mediterranean Sea (fig. 1.2) for this reason, France is not considered a Mediterranean country, since the Mediterranean climate is limited to a narrow belt along the southern Mediterranean, shores, which (inter alia) is interrupted by a wide humid region, La Camargue, along the Lower Rhone and its

mouth. In the Balcanic Peninsula, namely Jugoslavia and Albania, the true Mediterranean climate and vegetation are limited to the western shores, inland being substituted by other vegetational, less xeric, types.

From a purely anthropological stand point, according to Jurgens (1982, p.72) " there is a wide North - African Mediterrnean zone of European and African mixture, the variety of which is so abundant and so complicated that we restrict ourselves to identifying this area as a single one " . The following are the main populations living in North Africa : Beduins, from NW Africa to Syria ; nomads with camels and sheep, near wells and meadows. Tuareg in desert zones ; Moslems with magic - exorcistic practices. Berbers : devoted to agriculture and breeding, rarely nomades ; Moslems with some pre-islam habits (magics, etc.). Yuruk : in centro-northern Turkey, of probable centro-Asiatic origin, demonstrated by beliefs and traditions. Felahin : in Nilus-valley, Arabs with characteristics of old Egyptians perhaps " Mediterrnean " , characterized by a fatalist attitude. In Egypt only a stripe of arable, cultivated, land along the Lower Nilus is inhabited, long 1500 km, what means c.1. milion of square kilometers, i.e. 3,5% of the territory, whereas 96% is represented by desert . 46 milion persons live in this area (highest density in Africa, fig. 4.5). Palestinians : Arabs dispersed in Lebanon, Syria and Israel (Cisgiordania, occupied in 1967 by Israelian Moslems of Sunnite rite (c.l. 500.000 individuals, living in 68.589 km^2, which means a density of 21).

Europe exhibits a mixture of several " races " or subraces. In Albania the Turkish dominion from 1479 to 1913 followed by the Italian presence from 1927 to 1945 have not influenced the anthropological type, belonging to dinaric "race" (of Illyric stem), but has had some effects on habits and life-style which perhaps are responsible for some demographic phenomena.

Table (1)
Population (Nox 1000) of the various Mediterranean countries
(from WHO data)

Country	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984
Spain		35.937	33.956	36.778	37.108		37.746		38.228	
Italy	55.830		56.462	56.714					56.784	
Jugoslavia			21.780	21.974	22.166	22.306		22.690	22.839	
Albania			1.626						2.841	
Malta			309				366	360		
Greece			9.018		9.449	9.643	9.707	9.793		
Israel			3.147	3.693	3.786	3.879		3.980	4.129	
Syria			6.304			8.979	9.313		9.606	
Egypt	37.011	36.626	37.365	39.767	40.983		43.465	44.825		
Lebanon			2.126							2.644
Cyprus			631				637		655	
Turkey			40.347			45.217			47.279	
Algeria			16.948			18.666		19.857		
Morocco			15.379				17.983*			
Tunisia	5.572		5.588			5.572			6.886	
Lybia			2.257					3.224		

(* average of 2 values)

(*) For year previous to 75 the following data could be added :
Albania, 60 : 1626 ; Malta, 67 : 316 ; Israel, 72 : 3.148 ; Syria, 70 : 6.305 ; Cyprus, 73 : 632 ; Morocco, 71 : 15.321 ; Lybia, 73 : 2249.

the population of the various Mediterranean countries in the last 8 years is exposed in the following scheme (Table 1).

The increase - expressed as percentage of the last value is the following :

Albania	42% in 6 years
Syria	34,3% in 6 years
Lybia	31% in 6 years
Israel	24% in 6 years
Tunisia	19% in 8 years
Egypt	18% in 6 years
Turkey	14,8% in 6 years
Morocco	14,8% in 4 years
Greece	8,1% in 5 years
Spain	6,4% in 7 years
Italy	1,5% in 8 years

there is a clear - cut difference between European countries and extra-European ones, with an exception of Albania which behaves as an extra-European country, though the data we have in general for this country are perhaps not so reliable as the other ones (Fig. 6).

Percentage of population aged ≥ 65 years or more . The following table illustrates the % of people aged ≥ 65 years

during the period from 1975 to '90 (or '91) in all the Mediterranean countries (Table 2).

An increase is clearly visible - though slight - in Italy, Spain and Malta, i.e. in three European countries. For some extra - European countries the data seems to be the same for some periods of time, so to induce us to doubt about their **Real** value (Fig. 7-8).

Of course the No of individuals aged more than 65 depends from several factors intervening during the vital cycle, and vary between males and females : in some instances a conventional average value has been reported in this table. The No can be affected also by a shift in longevity, which is different in the various countries ; this elemet has not been taken into consideration in this brief paper.

Natal rate, mortality and natural increase vary very much. Asia, Lebanon and Turkey show practically the same pattern in all the three variables, Syria shows the highest value of natal rate and natural increase of all the Mediterranean countries. Of course no limitation of births or a very limited one is practiced. It should be interesting to investigate the reason for that. Noteworthy is also the very low level of mortality in this country, in the period '85 - 90 averaging 7% . Israel and Cyprus again exhibit a very similar pattern, characterized by low natal rate in Israel (as in some European countries), but high in Cyprus (different because of culture and / or religion ?). The natural increase is low in both, similar to that present in Syria.

In Europe we find constantly a very low natural increase, lower than mortality : the pattern is very similar in Spain, Greece, Malta and Jugoslavia. In Greece and Malta mortality stays for all the considered period (1977-80 to 1990) constantly at a higher level compared with natural increase.

Quite differently behave Italy and Albania, unique in all Mediterranean basin. Albania has a pattern very similar to those of Lebanon and Turkey, with a very high natal rate (from c.9 to 24 in the last period, 1985 - 90). We could think that life-style and possibly culture are similar to those of an Asiatic people : Albania has been subjected to Turkish dominion from 1479 to 1912 3.9% of population belong to the religion of Islam (1987). Italy is the most isolated in all Mediterranean basin (also geographically, incidentally) and the country with deeper roots in the rest of Europe as life-style and philosophy. It is characterized by the coincidence of natal rate and mortality in the last years (' 85 - 90, as an average), with the lowest natural increase of all the Mediterranean countries. This is curiously contrasting with its "official" religion, which makes the possible against all contraceptive methods. The phenomenon deserves very accurate studies by economists and sociologists, who today enter of course in the territory of human ecology.

African Mediterranean countries show a very homogeneous pattern, characterized by high natal rate (lower only to that of Syria), decreasing from Lybian values (46) to those of Egypt and Algeria (42) and to those of Tunisia and Morocco (36, lower in the last period, i.e. ' 85 - 90). Natural increase is constantly very high.

From all that we may deduce that Europe, Asia and Africa exhibit different demographic characteristics which (apart from the influence of diseases and medical care we will see later) point to different life styles, habits, nourishment and possibly race. Probably the position of each country is very different also as far as contraception is concerned.

For the vital events natal rate, mortality and natural increase some graphs have been done for all the Mediterranean countries except for Malta and Jugoslavia, for which the available data

were not suitable for a graphic representation. I utilized the rate x 1000 population (WHO). The considered countries are Isreal, Cyprus, Egypt, Algeria, Lybia, Albania, Italy, syria, Lebanon, Turkey, Spain, Greece, Tunisia and Morocco (Fig. 9-22).

I include here also a scheme of the main demorgraphic parametres we have already taken into consideration, valid according to WHO for the period 1980 - 84. Unfortunately nothing is found for more recent years.

Country	Natal rate	Mortality	Nat. increase	Infant Mortal. (%)
N-Africa				
Algeria	47,7	12,4	35,3	109,8
Egypt	35,0	11,4	23,7	96,7
Lybia	46	11,2	34,8	93,4
Morocco	44,1	11,7	32,4	100
Tunisia	33,9	10,2	23,7	93
W-Asia				
Lebanon	29,6	7,9	21,7	38,7
Syria	46,4	7,7	38,7	56,7
Cyprus	19,6	9,0	10,6	16,7
Israel	24,7	7,3	17,4	15,5
Turkey	33,6	9,3	24,3	114,2
S-Europe				
Albania	27,8	6,0	21,7	44,1
Greece	15,8	9,9	5,9	19,3
Italy	12,8	9,8	3,0	14,3
Malta	17,1	9,0	8,1	14,7
Spain	16,9	8,4	8,5	11,5
Jogoslavia	13,3	9,9	3,5	18,6

Africa is characterized by a high value of mortality and infant mortality ; Asia by a low value of mortality, but a rather high value of infant mortality. Natural increase as an average is lower than that of Africa and higher than that of Europe. Europe is characterized by low values of all the demographic parametres, particularly low natural increase, except for Albania, which behaves as an Asiatic country (value near to those of Lebanon and Turkey).

Infant mortality (x 1000 alive born) .

The data are shown in the (Table 3) and in Fig 23).

In fig 24 infant moratality is represented in all Mediterranean countries, where it shows a decrease. They belong to Europe, and to Asia limited to Syria, Israel and Cyprus. Greece, Italy and Spain show a steady and regular decrease since 1976 - 78. The mortality is very high in Jugoslavia (extra - European values), where the decrease is exteremely slight.

All the others exhibit a rather constant pattern in the considered period, with a few fluctuations, which means that no measures are taken to reduce infant mortality. This is rather consistent with the level of illiteracy we may see in fig. The sociologists and / or the economists should look for the reasens of the level of illiteracy.

As far as the preceding years are concerned, we may refer some data (WHO, 1983, p. 334 fll.) about infant mortality from 1950 - 54 to 1970 - 74, expressed as percentage of mortality during the first period. The following table represent a clear picture of the decline in infant mortality in four Mediterranean countries.

Table (2)

Country	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990	1991
Italy	12,1		12,68	12,96			13,6		13,6	13,6	12,7	13,0		12,7		16,7	14,3
Greece			12,7		13,05	13,1	13,2	13,2		13,3	13,1	13,1		13,3		13,7	
Jugoslavia			9,13	9,28	9,36	9,39			9,4	9,4	8,5	8,2		8,5		9,5	9,5
spain		10,46		10,67	10,77				11,8(*		12,1	11,1		12,1		13,1	13,1
Israel				8,34	8,51	8,64	8,6		8,6		8,8	18,8		8,8		8,8	8,8
Algeria						3,9		3,9	3,6			3,6		3,7	3,7	3,6	
Morocco				2,7			2,7	3,3				3,9		3,9		3,6	
Tunisia							4,4		4,4	3,8		4,4		3,8		4,0	
Lybia								2,2		2,2		2,3		2,3		2,4	
Lebanon						5,4				5,4	5,1	5,1		5,1		5,0	
Turkey									4,6	4,6	4,2	4,2		4,2		4,2	
Cyprus								10,0	10,0	10,0	9,9	9,9		10,6		10,3	
Albania						4,8	4,8	4,8	4,8	4,8	5,1	4,9		5,3		5,3	
Malta			8,73				8,0	9,1(**		9,0	9,9	9,4		9,9		10,2	
Egypt	3,47	3,58	3,58	3,6	3,6			3,6	3,6		3,6	4,0		3,9		3,9	
Syria						3,07	3,04		3,0	3,0	4,4	2,7		2,8		2,6	

(*) According to another value WHO 10,7.
(**) According to another value WHO 8,0.

Table (3)

Infant mortality (%)

Country	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989
Algeria		87,9		69,6	81,8 (aver.)	101,9		92,9			93				
Morocco											84				
Tunisia		47,1	47,1	40,3		39,2	39,2				71				
Lybia					45,7		46,3				79				
Lebanon											39				
Turkey						101,4					90				
Cyprus				17,1		17,2	16	17,2	12,7		13,5*				
Albania									14,6		37				
Malta					15,1	15,5	13,1		14,5		14,3	10,1			
Egypt	89,2	87,5	85,3	73,5	76,4		70,3				97				
Syria				15,1	12,6			6,9		7,2					
Italy	20,8			17,7	15,7	14,3	14,1	12,7	12,4	11,4	11,9*	9,7	9,6	9,5	8,8
Greece			20,4	19,3	18,7	17,9	16,3	15,1	14,4	14,3	16*	12,3			
Jugoslavia			34,9	33,8	32,7	32,8	30,6	30,3		27,7	28,6	27,3			
Spain		17,1	15,9	15,1	13,0	12,3	12,5	9,6	10,7	10,5	10,5				
Israel				15,2	16,6	15,3		15,3	14,4	12,8	13,0	11,4			

(*) Mean of two values reported by WHO.

Year	Israel	Italy	Spain	Jugoslavia
50 - 54	100	100	100	100
55 - 59	83	79,8	80,9	85,2
60 - 64	65,5	66,3	59,5	70,5
65 - 69	53,7	55,0	46,6	54,1
70 - 74	48,4	43,9	30,2	40,6
75 - 79	-	-	28,6	30,9
1980	-	-	-	27,3

Lastly, let us metnion some values of infant mortality in two African countries before the considered period : Algeria, 1965 - 69, 142%, Tunisia, 1971, 111%. (Population Index, 44, 1979, 601 - 6).

We may imagine that the conditions in other parts of the Mediterranean Basin were not very different.

I expose now the data I obtained from WHO statistics to subdivided infant mortality cases into the three periods perinatals (1-6 days), neonatal (7 d. -1 month) and post-neonatal, (1 month - 1 year). Unfortunately the methods used in the various volumes of Statistics of WHO make it extremely difficult to reach some comparable results. In some years the periods were 1 - 6 d., 7 - 27 d. and 28 which could be considered with a good approximation perinatal, neonatal and post - neonatal periods. In some cases we find the deaths occurred in period 0 - 27 and 28 as percentage of total deaths, which makes it of course, impossible to make a comparison with the preceding data. In other cases the categories were : perinatal, including true

perinatal and fetal deaths, which must be subtracted in order to the obtain true perinatal deaths, and neonatal deaths, occurring in first month : in this case we had to subtract true perinatal from " neonatal " , in order to obtain true neonatal (1 week - 1 month). Post - neonatal corresponded to true post - neonatal.

The data obtained for the various Mediterranean countries since 1975 - 1977 are exposed in the following tables (Tables 4 - 5).

The deaths occurred in the year 0 (infant mortality) are subdivided according to perinatal (1 - 7 days), neonatal (1 week - 1 month) and post - neonatal periods (1 week - 1 month). The average values for each country are shown in fig. 25 - 26.

Deaths in the post - neonatal period are elevated only in Egypt and secondarily in Tunisia. Europe shows constantly very low levels of post - neonatal deaths and high levels of deaths occurred in the neonatal period. This strongly suggests that in Europe infant deaths are due-since 1976 - essentially to endogenous causes (which points to genetic or congenital diseases) low only in Malta, which is situated half - way with Africa, whereas the high values present in post - neonatal period in Mediterranean Africa point to exogenous causes, which means infections and parasitic diseases (gastroenteritis, diseases we find as target diseases subjeced to immunization etc. Of course these diseases are bound to local, environmental and socio - economic conditions of the populations.

For a successive period (1979 - 89) the Statistics of WHO change the criterion of subdividing the mortality in the three periods, representing the absolute No of deaths during year 0 and the numbers of deaths in the three peiods. Using these data I have calculated the percentage of deaths in each period (peri-neo- and post - neonatal). The data are exsposed in Table 5.

Table (4)

Subdivision of infant mortality in three periods (perinatal, neonatal and post-neonatal)

Country	Greece			Italy			Jugoslavia			Israel			Egypt		
Mortality	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.
1975													6,4	8,8	74
1976							13,2	4,6	19,0				6,0	8,4	73,1
1977	12	3,2	5,1	11,4	2,3	4,0	13,2	4,1	17,6				6,3	7,9	71,1
1978	11,6	3,2	4,3				13,1	4,0	16,8	8,4	2,5	6,3	6,0	7,8	59,1
1979	11,5	3,0	4,3				12,5	3,7	16,2				4,5	6,8	64,3
1980	10,9	3,0	4,0	9,3	1,7	3,1	12,5	3,7	15,5						
1981	8,3	2,78	3,47	9,4	1,7	3,0									
1982										6,46	1,83	5,38			
1983															
1984															
1985															
1986															

Table (4)

Subdivision of infant mortality in three periods (perinatal, neonatal and post-neonatal)

Country	Tunisia			Malta			Spain								
Mortality	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.	peri	neo-	post-n.
1975															
1976	9,3	7,1	30,7				9,3	2,5	5,3						
1977	9,3	7,1	30,7	8,5	0,5	4,8									
1978															
1979	9,11	6,7	30,7	7,4	2,14	5,4	7,7	1,9	4,1						
1980															
1981															
1982															
1983															
1984															
1985															
1986															

Table (5)

Country		1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989
Gteece	peri			56,36		53,9		54,0	52,8	56,6	55,2	
	neo			19,35		21,1		20,6	17,9	15,6	18,2	
	p/neo			24,28		25,08		25,4	29,2	27,7	26,4	
Italy	peri		65,9	65,5			66,1		64,4	65,0	65,1	
	neo		12,1	12,4			13,1		13,6	13,4	12,5	
	p/neo		22,0	21,7			20,8		21,9	21,5	22,2	
Spain	peri	55,6	53,9	55,0		52,5			51,4			
	neo	14,4	14,9	15,0		16,8			15,0			
	p/neo	29,9	31,1	29,9		30,6			33,5			
Malta	peri	49,4						66,7	49,0	47,5		62,7
	neo	14,3						22,2	22,6	22,5		16,9
	p/neo	36,2						11,1	28,3	30,0		20,3
Jugoslavia	peri	36,6			41,9		44,1		45,0	45,2		
	neo	12,0			11,7		12,4		12,0	12,17		
	p/neo	49,4			46,3		43,5		42,9	42,6		
Ireael	peri				48,3	50,3	50,8		51,9	53,0		
	neo				12,8	13,8	10,4		14,7	12,9		
	p/neo				38,8	35,8	38,7		33,4	34,0		

Table (6)

Infant mortality causes of death

Country		1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990
Greece	infect. dis.			229	213	55	42,5	37,6	40	47,5	31		29	31	24,2	19,8	
	congenit. dis.			601	648	482,5	464	479	477	461	443		337	364,7	349	326	
	anoxy			824	758					414	434		285	246,3	218	182	
	perinatal d.			655	480	1122*	1043	888*	806*	751	791		695	655	581	496	
Italy	infect. dis.	120				48	30	23,6			19,1	11,5	12,8	9,1	6,8		
	congenit. dis.	330				325	320	317,9			271	245	260,7	246	236		
	anoxy	461						302			314	290	298,6	333	341		
	perinatal d.	680				952*	871*	870			718	663	603	588	572		
Spain	infect. dis.		139			116	62,3		41,8	35,4	38,7	33,1	34,6	25			
	congenit. dis.		372			334	317		305	292	283	248	261	252			
	anoxy		194			155	161		138,5	134,7	115	107	113	117			
	perinatal d.		418			318	562		540	512	432	362	368	376			
Jugoslavia	infect. dis.			414		351	282	273,7	301		271	286	308	242			
	congenit. dis.			254		254	255	295,9	294		298	294	274	256			
	anoxy			349				443	412		389	371	377	396			
	perinatal d.			705		1293*	1263*	1209	1074		1134	1199	1126	1032			

(*) Including anoxy.

To this table we could add the data about Tunisia and Turkey, namely : Tunisia, 1976 : 19,7 ; 15 ; 65,2 ; Turkey 1980 : 32,8 ;15,9 ; 51,2 ; 1982 : 44,2 ; 14,8 ; 37,2 .

The results, though not quite comparable with the preceding (Table 4) permit us to reach some interesting conclusions. The deaths (%) in perinatal period are the highest in Italy, followed by Greece and Spain, the lowest in Jugoslavia. This point to a different genetic set-up of these populations (or better of the several populations constituting Italy and Jugoslavia, respectively both of very complex origin). It is very interesting and not expected that in both Italy and Jugoslavia the percentage of deaths in neonatal period is the lowest in Europe, similar to that of Israel. Mortality in post - neonatal period is by far the lowest in Italy and the highest in Jugoslavia : this must be attributed exclusively to health conditions, very satisfactory in ~~Italy~~ (at least in this period) and extermely precarious in Jugoslavia. This could be compared to the average income per capita (fig. 48) of the two countries. The value obtained for Jugoslavia is worse than that obtained for Turkey (averaging 44,2) surpassed only by Tunisia (65,2 in 1976). Deaths in post - neonatal perio (due mainly to infectious diseases) increase in this order : Greece, Malta, Spain and Israel. During the period 79 - 89 there is a slight increase in post-natal deaths in Greece and Spain, a slight decrease of deaths in perinatal period in Spain, of deaths in post-neonatal period in Jugoslavia and Malta.

Epidemiology

We will take into consideration only some aspects of epidemiology which have some connections with environment (infectious and parasitic diseases), with genetics or with social system such as health conditions, taking care of the population, etc.) i.e. with human ecological problems.

Table (6)

Infant mortality causes of death

Country		1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990
Malta	infect. dis.									53,1					18,1	17,9	37,3
	congenit. dis.							264	406	513	341	294,7		169,4	271	304	149
	anoxy									159	107,7	92		112,9	72,3	394	186
	perinatal							831*	812*	760	682	626		357	397,6	609	466
Israel	d.infect. dis.						51,3		38,3		56,9		43,3	21,2	25		
	congenit. dis.						305		318,5		363		342	292	105,5		
	anoxy						160,5		131,3		245		216	292	225		
	perinatal d.						648		625,7		485		496	507	420		

(*) Including anoxy.

Studying the infant mortality, I wished to see the trend in the considered period (c. 76 - 88) of four causes of death, namely infectious diseases, congenital diseases, hypoxia and birth asphyxia, and certain conditions originating in the perinatal period. Whereas congenital diseases are mainly of genetic origin and should not depend on environment, the other types of diseases depend partly on environment (bad hygienic conditions = infectious diseases), partly on health measures taken before, during and immediately after delivery. Table 6 shows all the numeric data about this demographic phenomenon. For Tunisia 1980 we may add the data : infect. dis. 94%, congenit. dis. 19% ; perinatal d. 271% (WHO).

For the countries well represented in the WHO statistics, the graphs 27-31 have been constructed. One sees immediately how hypoxia is a little parallel to diseases of perinatal period ; this is well visible in the case of Jugoslavia and Greece, both Balcanic countries. Infectious diseases behave in a similar way in Italy and Spain (in the former at a lower level). Congenital diseases are the most uniform through the period, with an exception of Greece, where there is an evident decrease since 1977.

The following table shows the number of beds present in obstetric and paediatric departments of general hospitals in some Mediterranean countries (also expressed as % of total population) and, for comparison, in an extra-Mediterranean, Centro-Eurpean country, West Germany. The aim was the demonstration of a possible relationship between medical structures and frequency of perinatal diseases among the causes of death in infant mortality.

A high number of deaths as consequence of perinatal injuries is present in most countries, though slowly declining in the last years (fig. 27/31). I examined the No. of beds expressed as % of total population both in maternity and paediatric clinics, the results being the following :

Country	Year	Maternal	Paediatric Clinics
Italy	1977	0,062	0,052
Spain	1979	0,044	0,043
Jugoslavia		0,0208	0,052
Greece	1978	0,039	0,017
Israel	1980	0,033	0,044
West - Germany	1978	0,010	0,014

There is no clear relationships between No. of beds in maternity and paediatric clinics and the rate of deaths due to perinatal-injuries. This means that beds alone are not a sufficient index of the quality of medical assistance to women during delivery and everything connected with it.

I tried therefore to see whether there is any relationships between the No. of physicians (obestetrcians) and midwives in the total population. The results are as follows (no data are available in WHO statistics for Italy, 1978 - 79, necessary for a comparison).

The following scheme represents the results :

Country	Year	Physicians	Midwives (%)
Israel	1979	0,022	0,032
West - Germany	1979	0,22	0,011
Greece	1977	0,22	0,034
Spain		0,022	0,016
Jugoslavia	1978	0,137	0,0317

The higher percentage of physicians relative to that of midwives means possibly that most deliveries occur in clinics, with the assistance of a doctor besides a midwife. The % of physicians in Greece is similar to that of Germany. that of midwives is a little higher than that of Israel. In Spain we find a tenth of physicians relatively to West Germany and one third of midwives existing in Greece or Israel.

Assistance in Spain should be good, since deaths due to perinatal injuris are not higher than those of Israel In Jugoslavia physicians are almost (as few as) half of those we find in Germany ; midwives are numerous more or less as in Israel. This does not explain the very high rate of deaths due in Jugoslavia to perinatal injuries (often included hypoxia) this could depend theoretically on the level of assistance by physicians and still more by midwives and assistants. and perhaps on the general health cares existing in this country (during the considered period).

* * *

Table (7)

Country		1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990
Italy	infect . dis.	9,8		7,3	6,7	5,9	5,7	5,4	6,5		6,4	4,8	5,3	4,5	4,6		
	senility	26,8		24,1	23,8	22,9	21,9	20,7	19*		18*	19*	18*	15*	15*		
	ill def. dis.	33,7		31,1	6,2	2,9	3,6	4,1	6,2		5,6	8,0	10,7	10	10,5		
Spain	infect . dis.		16,3		15,5	14,2	10,5	12,3	11,2	10,3	10,1	10,4	9,8	8,5			
	senility		20,9		20,6	16	15,5	14*	15*	15*	12*	11*	10,2*	9,5			
	ill def. dis.		38		38,3	32,7	11,3	13,9	13	14,2	15,2	41	14,3	9,5			
Jugoslavia	infect . dis.			19	18,3		17,4	15,3	13,5	19,1	15,4	14,2	15,4	14,6	15,3	12,5	
	senility			22,7	21,2		14,5	18,7	17,3	13,1	16*	14,5	15*	15*	10,5	18-55	
	ill def. dis.			140,2	119,7			63,7	59,4	73	76	82,4	73,1	69,3	63,6	42-79(**	
Greece	infect . dis.			14,0	11,9	8,8	8,6	8,0	7,9	8,1	7,1	8,2	15	7,1	7,5	6,0(*	
	senility			49,3	45,4	43,5	45	42,7	38,3	39,2	34,4	32*	29*	28*	25*	24(*	
	ill def. dis.			85,3	35,4	14,0	18,6	23,4	21,1	23,6	22,2	25	47	44	46	44(*	
Malta	infect . dis.							3,1	4,0	3,9	0,6	1,8		4,1		5,8	7,7
	senility							5,9	4,0	10,3	11,7	11,4		3,5		2,8	3,4
	ill def. dis.								0,9			0,6		7,7		5,8	7,5

(*) Conventional average of M and F.
(**) Values of M and F.

Table (7)

Country		1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990
Turkey	infect. dis.				18	18,9											
	senility																
	ill def. dis.				31,4	45,5											
Syria	infect. dis.				16,1		13,9	15,1									
	senility				11,2		9,6	11,4									
	ill def. dis.				194,6		no data	207,3									
Israel	infect. dis.				14,2	11,8	10,6	11,5	10,5		13,2	14	14,2	12,5	11,3		
	senility				3,1	2,1	3,4	2,6	1,7		3,0	2,5	2,0	1,5	0,7		
	ill def. dis.				45,6	36,2	42,1	44	47,4		48,5	48	42	37,8	41(*		
Egypt	infect. dis.	31,4				29,3	24,2							96,4			
	senility	183,7				164,7	168,3							150,0			
	ill def. dis.					56,7	77,							49,0			
Tunisia	infect. dis.						18,5										
	senility						no data										
	ill def. dis.						49,0										

(*) Average value of M and F.
(**) Values of M and F.

As far as mortality in the various Mediterranean countries is concerned, I wished to examine some causes of death (mortality at all ages, WHO) during the period c. 1977 - 87, to have some idea about general health conditions (infectious diseases) and the accurancy of diagnosis. This has been desumed from two causes of death, namely signs, symptoms and other ill-defined conditions and senility (Table 7) . Everybody acquainted with causes of death knows how with the lable "senility" several kinds of diseases-cronic or acute - can be united. According to WHO (1983) the underlying cause of death is defined as "the disease or injury which initiated the train of morbid events leading directly to death, or the circumstances of the accident or violence which produced the fatal injury " (p.IX).

For some Mediterranean countries we cannot adopt the definition of " global indicators " (WHO, 1983, p. vii - viii) since: safe water is not always available in the home or within 15 minutes walking - distance (table ....) infant mortality rate is > 50/1000 live - births, adult literacy does not exceed 70% and gross national product per head in the first years of the period did not exceed 500 USA $. Gross national product per head is represented in fig. 38 - 39 (in USA $) illiteracy in fig. 40 (the diametre of each circle is proportional to the percentage of illiteracy in each country). The global indicators are necessary to WHO for monitoring and evaluating the global strategy for "health for all" , i.e. integral components of a country's managerial process for health development.

Ill defined diseases are very abundant at the beginning of the considered period in Egypt (rate 185) and Syria (194). In Italy there is an elevated rate only at the beginning of the period (1977, rate 31) to show a decline already in 1978 (6,2) to remain always low. The same happens in Greece, where from a high

value in '77 (85) we reach 14 in '79 ; later on the values remain rather fluctuating. Also in Jugoslavia, Israel and Spain at the beginning the rate is much higher than that of the other diseases, pointing to a carence of diagnosis and sanitary structures where the patients are subjected to accurate controls. In Jugoslavia the remaining causes of death remain constantly at a low level. In Israel and Spain infectious diseases show similar values, whereas senility is initially elevated in Spain (> 20) and very low in Israel (3 - 2).. In Greec the two remaining diseases show high rates pointing to scarcity of medical cares or poor health conditions. In Egypt there are still higher rates, in Italy the values are similar to those found in Jugoslavia, only infectious diseases being constantly at a low rate in the former. Lastly, in Syria the two categories show very low rates, similar to those of Greece, where however deaths due to senility are more frequent. In Italy the rate of ill defined diseases is the least of all Mediterranean countries since 1978, pointing to a high level of diagnostic capacity (perhaps with an exception for a part of "senility" as cause of death).

Number of physicians per 10.000 inhabitants (Table 8). The correlation between the No of physicians and the average year income pro capite in USA $ is represented in fig. 42 . The analysis of the correlation gives us a r=0, 671, with t=3, 259, which with fd 13 gives a P between 1% and 1% , which means a strong positive correlation.

The correlation between No of physicians and population density of the various countries (No of inhabitants / km) visible in fig. 43 has been also analyzed statistically. The r=0, 644, t=2, 794, which with 11 fd gives a P between 1 and 2% . This points to a lesser significance, though acceptable:

Table (8)

No physicians x 10.000 inhabitants

Country	1950	1960	1970	1977	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987
Algeria	1,96	1,77	1,27						4,3			
Egypt	2,34	3,93	5,23		10,37	12,57				2,0		
Lybia		1,52	3,77		13,63	15,15		13,8				
Morocco	1,06	1,06	0,75			0,56						2,1
Tunisia	1,55	1,08	1,68		2,72	2,76					4,6	
Cyprus	5,98	6,82	7,83		8,89	9,43					13,5	
Israel	23,09	24,72	25,0			24,79		29				
Syria	2,04	2,16	2,6		4,32	4,47						7,7
Turkey	2,31	3,57	4,5	:	6,06	6,13				7,1	4,6	
Albania	1,06	2,76	8,97	105								
Greece	9,55	12,52	16,23		24,45	25,47			28,5			
Italy	12,23	15,89	18,07								42,4	
Malta	9,17	8,91	10,58				11,2					
Spain	10,11	11,78	13,42		23,05	25,65			31,3			
Jugoslavia	3,14	6,19	9,92		14,70	14,85					18,3	
Lebanon								15,0				

It means that the number of physicians depends on both the average income and the population density.

The No of physician / 10.000 inhabitants is very different in Europe, compared with Asia and Africa (fig. 41). Italy, Spain and Greece show the stronger increase since 1950 to 1984 - 86. The extra - European countries show a high value only in Israel (which in several phenomen behaves as an European country). Lybia, Algeria and Cyprus (?) show a clear increase, steadier in Algeria; all the other countries show a very slight increase or no increase at all (Morocco, Egypt, Turkey). For some European countries such as Italy and Malta the data are limited to afew years (4).

Population per bed

The following table represents the No of inhabitants per bed in the various Mediterranean countries:

Country	1950	1960	1970	1980	1981	1982	1983	1986	1987(*)
Algeria	448	320	342						364
Egypt		466	462	518	500				
Morocco	1035	626	688		848				
Tunisia	655	373	410	469					477
Cyprus	292	221	190	182	180			148	
Israel	177	148	171	196				158	
Lebanon	212	240	260			179			
Syria	1490	929	1005	934	904				890
Turkey	1106	601	489	445	474			432	
Greece	285	173	161	160	162			183	
Spain	284	250	194	195				202	
Jugoslavia				172				167	
Lybia				230	236				
Albania	277	196	147				175		
Italy	70	66	79	103					130
Malta	101	108	99			110			

(*) Data for 1982, 83, 86 and 87 and for Lybia 1981 from Calend. Atl. De Agostini, '91.

Table (9)

Country		Algeria	Egypt	Lybia	Tunisia	Morocco	Cyprus	Israel	Syria	Turkey	Greece	Spain	Jugoslavia
Disease Cholera	78												
	79									1299*			
	80	1075										4	
	81											2	
Typhiod fever	78		7840										
	79		6270	72			1			836	537		
	80	3497	5471	70	663		4	144	648	2955	455	3760	382
	81				630		2		573	7360	390	4638	309
Amoeba	79		64							1036*	165		
	80	6527	75	725					143		148		
	81			665					99	1420	92		
Salmonella	79			8									
	80							2606				4812*	6498
	81			39						46105		3650*	5604
Ill defined causes	79			3282			11			37647*	10700		
	80	52356		4099			3	14500**	1126	47691	10670		52464
	81			3676					55	8000*	11117		56149
Int. Protozoa	79										4340		
	80										4143		
Pulm. tbc	78		1710										
	79		1728	102			40*			33920	6130		
	80	2702	1381	556	2500		68*	193		30188	5544	4859	15524
	81			107	2316*		69*		1365	34948	2950	5488	15600

Country		Algeria	Egypt	Lybia	Tunisia	Morocco	Cyprus	Israel	Syria	Turkey	Greece	Spain	Jugoslavia
Scarlattina	78		11										
	79		20	67			13			2050			
	80	24470	50	358			22		31	1500		2843	
	81			71			34		30	1988		6369	
Tetanus	78		4220										
	79		4324	32						1050	88		
	80	86	4527	29	27			2	88	1500	47		99
	81			23	36					1080	45		112
Chickenpox	78		652								(*)		
	79		673	432			5						
	80	7340	1570	1109			36	7199	1536				
	81			1020			87		1545			197534	
Measles	78		1130										
	79		4763	2477			4			4231	7760		
	80	14666	839	1534	225			215	240	4131	13457		37440
	81				3007		3		1478	26858	1399	145825	20878
Vir. hepat.	78		20587										
	79		18026	2126						14320	2760		
	80	6256	20300	1139	1219			3924	660	13307	2400		33917
	81			1794	1588				696	14015	2770		32627
Mumps	78		1870										
	79		3770	1286							8180		
	80	4580	3030	1786				5087	1700		5685		
	81						14		2483		4438		

(*) few cases of Drexanthews tyflus..

Table (9)

Country		Algeria	Egypt	Lybia	Tunisia	Morocco	Cyprus	Israel	Syria	Turkey	Greece	Spain	Jugoslavia
Trachoma	79									254	5		
	80	2986							15	291	7		
	81								10	19595	9	10	
Influenza	78		115										
	79		58	282			12				13920		
	80	27579	59						58	15253	28260		
	81								40		18565	2165660	
Anthrax	79		2043							445			
	80								1	420	289		
	81								1			258	
Schistosomiasis	79								30	4214*	4		
	80				7				39	2969*	2		
	81			291	4	9316			65	3270*	5		
Echinoc.	79						15			1366	1090		
	80	473			305		8			1395	1080		
	81				333	21				1542	989		
Relaps. f.	80							15			5	30	
	81										2	39	
Filaria + Dracunc.	78		2										
	79									67	10		
	80								1	157	5		
	81									62	10		
Ankil. + Necator	79									555	1		
	80									172	2		
	81									160			
Total No. of diseases (ill defined causes not included)		13	12	12	7	2	7	8	13	15	15	10	5

As a whole the population / bed decreases all over Mediterranean basin, with an exception of Egypt, Lypia and Lebanon. Albania, though the information is scanty, seems to present a decrease ; Malta shows no evident variations, maintaining a good level, whereas in Italy there is a constant increase of No of population / bed (Fig. 44). For some countries further information is furnished by the ratio No of physicans / 10.000 inh.

Morbidity : infectious diseases (Table 9).

The following list includes all the countries in decreasing order of number of infectious diseases (1978 - 81) together with the population density and degree of illiteracy during the period (Cf. Fig. 40) :

Country	No of diseases	Pop. density	% of illiteracy
Turkey	16	58	25,8 ill defined causes included
Greece	16	74	6,8 ill defined causes included
Syria	14	49	40,0 ill defined causes included
Algeria	13	7	50,4 ill defined causes included
Egypt	12	700	49,4 ill defined causes included
Lybia	12	1,7	33,1 ill defined causes included
Spain	11	74	6,4 ill defined causes included
Israel	9	196	4,9 ill defined causes included
Cyprus	8	68	5,5 ill defined causes included
Tunisia	7	33	45,8 ill defined causes included
Italy	7	187	3,0 ill defined causes included
Jugoslavia	6	87	8,8 ill defined causes included
Morocco	2	42	66,9 ill defined causes included

Cholera (Fig. 45) is present in Algeria, Turkey and Spain ; typhoid fever is present in all countries, with the exception of Morocco ; Amoeba is found in Algeria, Egypt, Lybia, Syria, Turkey and Greece ; Salmonella in Lybia, Israel, Turkey, Spain and Juboslavia ; intestinal Protozoa have been found exclusively in Greece ; tbc (especially pulmonary) in all countries except for Morocco ; scarlattina only in Algeria, Egypt, Lybia, Cyprus, Syria, Turkey and Spain ; tetanus is present in Algeria, Egypt, Lybia, Tunisia, Israel, Syria, Turkey, Greece and Jugoslavia ; chickenpox in all countries except for Tunisia, Morocco, Turkey, Greece and Jugoslavia ; measles in all countries except for Morocco ; viral hepatitis in all countries except for Morocco, Cyprus and Spain ; mumps in all countries except for Tunisia, Morocco, Turkey, Spain and Jugoslavia ; Trachoma is present only in Algeria, Syria, Turkey, Greece and Spain ; influenza in all countries except for Tunisia, Morocco, Israel and Jugoslavia ; anthrax exclusively in Egypt, Syria, Turkey, Greece and Spain ; Schistosoma (Fig. 47) only in Lybia, Tunisia, Morocco, Syria, Turkey (?) and Greece ; Echonococcus present in Algeria, Tunisia, Morocco, Cyprus, Turkey and Greece ; relapsing fever (Fig. 48) is present in Israel, Greece and Spain ; Filaria + Dracunculus in Egypt, Syria, Turkey and Greece (Fig. 49 - 51) ; Ankilostoma + Necator in Turkey and Greece (Fig. 52). (The data are based exclusively on the tables of WHO 1983). (Italy is not included).

Most diseases are bound to North Africa and the two extreme parts of the Mediterranean basin, Spain and still more Greece (and in a few cases Jugoslavia, contiguous to Greece). Italy, because of its geographic position and hygienic conditions, is less affected by infectious diseases. For diseases due to animals (worms and protozoa) the climate is very effective in

their distribution limited to the warmest part of the Mediterranean basin.

A comparison between the No of infectious diseases and illiteracy shows no correlation at all ; also the comparison between No of the diseases and density of population brings to no results, due to the enormous variations in density. The epidemics of course depend (or may depend) on density of inhabitants in some few, large, cities, not on average density all through the different countries, sometimes mostly desert, as Egypt, Lybia, Tunisia, Morocco and Algeria. Also the No of physicians / 10.000 inhabitants does not fit. Into a good correlation with the No of infectious diseases in the various countries. The development of disease, its symptomatology (sometimes silent or obscure), the sudden diffusion in a given community, urban or rural, with great differences in food habits, life style, professions, etc. vary so much, that the mere No of physicians is not sufficient to fight the epidemy or even the diffusion of a given disease. Also a comparison between population x bed in the various countries shows an enormous dispersion of the points which should show a relation between No of beds and No of cases of the infectious diseases. This may depend on the scattering of town - big or small - within the different countries, and the actual possibilities for a patient to be hospitalized at the right moment.

* * *

Together with some epidemics occurred recently in the Mediterranean area, e.g. cholera in 1973 (Fig. 45), WHO

statistics analyze very accurately the diffusion in the last years of malaria. We take from these publications some graphs to illustrate the phenomenon. Furthermore, we represent here (Fig. 53) the distribution of the various species (or "vareties") of Anopheles all through the Mediterranean Basin, on the ground of the most important works. Of course, together with malaria (Fig. 54-55) the epidemiologist (or human ecologist) is strictly concerned with the various genetic traits which protect man against malaria. There is no need to mention thalassemia and sickle - cell anemia (Fig. 56). We will see only some less studied and less diffused genetic characters important in the struggle against malaria.

The relationships between malaria and the distribution of deficiency of G6PD or its variant A^+ , a relatively benign disorder (Ramot) which protects man against malaria as other genetic characters (cf. Vogel & Motulsky) has always been known.

According to Ramot (1974) the heterozygotes Gd^{A-}/Gd^{B} females seem relatively resistant against the malaria from P. falciparum. " The possibility that gene Gd^{A} protects against malaria is based mainly on geographical evidence, but an analysis of greater series of male subjects could confirm the suggestion that a selective advantage can be demonstrated directly in male subjects bearing this gene " (p. 369).

Finally a blood character, Duffy factor, is known to protect against malaria, but it is more typical of tropical and equatorial Africa than of Northern, Mediterranean Africa or Europe. Namely, the homozygotes for allele Duffy Fy^{x} (or Fy^{4}) probably resist specifically to malaria due to Plasmodium vivax (Miller et

al., 1975) instead of P. falciparum. In Africa the place of P. vivax has been taken recently by P. falciparum, which has favoured the diffusion of Hb S, which, however, brings to death most homozygotes (Mourant et al., 1978). Fig. 58 represents the diffusion of Duffy factor (allele Fy^4) which cannot be considered as typical of the Mediterranean area. Its presence in Algeria (value of genic allele 6,4) is explained with the importation through human agency (caravans coming from East or perhaps South).

Other protozoa, pathogen for man, transmitted by Diptera belong to genus Leishmania, They are rather common in the Eastern Mediterranean basin, and are transmitted by sandflies, small Nematocerous non very dissimilar from a small mosquito, belonging to the genus Phlebotomus. Fig 58 represent the diffusion of all species of this genus in the Mediterranean Basin. They transmit the two species of Leishmania, tropica, responsible of a cutaneous disease, the Aleppo button, and donovani, responsible for a visceral disease characterized by hepatomeogaly and splenomegaly, known as kals azar. In the Mediterranean area this disease is present in a rather benign form, often limited to children, whereas in tropical Asia it is often lethal.

* * *

Another genetical disease typical of the Mediterranean area is the familial Mediterranean fever, present in Lybia (Jews, q = 0,04), other North African countries (Jews, a = 0,02), Balcans and Turkey (Jews, q = 0,02), Syria and Lebanon (few cases in Hebrews and not Hebrews) and other European countries, very

rare, in both Hebrews and not Hebrews. The disease is particularly bound to Sephardi Jews (Ramot). The familial Mediterranean fever, or familial paroxysmal polyserositis, is characterized by recurrent episodes of fever. When associated to anyloidosis it can be often lethal. (Amyloidosis is an extracellular deposit of the fibrous amyloid protein, or "major fibrial protein" in one or several parts of the body).

Though it is discussed whether a true "hunger diabetes" (Neel, 1969) should be advantageous in countries where famine is comm, it is perhaps interesting noticing that in Europe the highest values of death due to diabetes mellitus have been found in the three southernmost Mediterranean countries, namely Italy, Greece and Malta (Marcuzzi, Acta VII Conger. Espain. Antrop. biol., Granada, 1991, in print). It is well known that diabetes has a genetic basis.

Finally, two infectious diseases due to a Rickettsia are present in the Mideterranean countries, the so called fievre boutonneuse, due to R. conorii (Fig. 59) scattered all through the Mediterranean coasts (included Marseille, France) and the recently imported, rare, Q fever, due to R. (Coxiella) burnettii (Fig. 60).

Morbidity (No of cases / year) of diseases for which in 1974 - 83 the Programm of immunization - vaccination has been adopted by WHO in 1984.

As the responsible of WHO says (p. 54) " the data currently available reveal that much more improvement in the surveillance of these diseases is still required ". The diseases arc : diphtheria, measles, pertussis, poliomyelitis, tetanus and tuberculosis.

Table

Country / Year		1974	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983
Algeria	diphtheria	329	350	282	169	108	73	28			
	measles	10.517	8.900	15.020	10.690	14.940	14.666				
	pertussis	965	1379	2860	666	280	480	737			
	poliomyelitis	26	317	78	40	106	40	116			
	tetanus	72	81	78	79	83	81	86			
	TBC						2360	2700			
Albania	diphtheria							3			
	pertussis							137			
	poliomyelitis							1			
	tetanus							5			
Greece	diphtheria	9	7	9	8	4	4	1			
	measles	5357	8850	7900	15.690	2170	7760	13.457	1400		
	pertussis	3910	6398	7780	2238	2437	6368	3080	1350		
	poliomyelitis			7	3		1				
	tetanus		67	114	99	72	88	47	45		
	TBC	8330	7955	8100	7980	8160	8020	5410	7330		
Italy	diphtheria	258	256	194	173	97	46	30	34		
	measles	24.710	52.030	55.490	42.110	67.360	23.270	23.827			
	pertussis	8200	10.397	19.246	8076	12.680	17.740	13.600	6646		
	poliomyelitis	9	4	9	10	2	2	1	1		
	tetanus				256	218	166	176	197		
	TBC	4300	4190		4516	4316	4100				

Table (10)

Country / Year		1974	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983
Malta	diphtheria										
	measles	784	23	38	472	3350	30	14	1530		
	pertussis	133	36	150	15	83	34	2	144		
	tetanus					8	5	8	1		
	TBC	39	53	38	28	24	42	31	24		
Morocco	diphtheria		103				59	43	38		
	measles	123366	143890	87.000	156.600	94.100	11.480	79.547	109486		
	pertussis		26.437	33:630	25.970	15.940	13.400	14.870	7.359		
	poliomyelitis		576	28	269	151	207	52	58		
	tetanus		44	44			107	81	100		
	TBC		17.770	15.315	25.900	27.910	24.795	24.880	28.637		
Spain	diphtheria	22	23	10	4	8	17	7	8	7	
	measles	147790	129640	133000	129370	129710	93.500	145320	146700	159560	
	pertussis									50460	
	poliomyelitis	195	231	41	39	82	17	17	17	21	
	tetanus							500		47	
	TBC	3558	3130	3335	3685	3640	4165	4860	5550	7960	
Turkey	diphtheria	470	265	170	140	93	297	321	249	130	
	measles	12836	24347	21740	16120	12517	11745	8618	26860	8778	
	pertussis	2850	3036	2440	1740	2267	3094	1520	2660	5060	
	poliomyelitis	348	368	500	328	250	1464	584	775	219	
	tetanus		804	1076	1109	1980	1050	1030	1080	110	
	TBC	98000	20310			100808	39927	36716	39990		

Table (10)

Country / Year		1974	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983
Jugoslavia	diphtheria	10	8	15	4		8	2			
	measles	24340		31487	27918	27667	18596	37440	20878		
	pertussis	6142	6068	6706	5829	6187	6369	6710	4590		
	poliomyelitis	36	7	6	141	20	5	4			
	tetanus			167	169	127	124	99	112		
	TBC	94065	86930	19360	19190	18817	17700	16645	16745		
Cyprus	diphtheria	1									
	measles	217		19	118	8	4	15	3	27	
	pertussis	6	23	3	8		8	12	3	1	
	TBC	54	105	89	85	62	40	69	69	86	
Egypt	diphtheria		584	699	573	418	317	333	409		
	measles		3490	2050	3780	1130	4760	839	1700		
	pertussis		141	116	55	76	52	49	29		
	poliomyelitis	1618	2090	1497	790	930	1120	2000	1600	2086	
	tetanus		3298		3745	4220	4320	4527	5690		
	TBC		1076	1360	1237	1960	1930	1637			
Israel	diphtheria		1								
	measles	870	4795	87	97	400	553	215			
	pertussis	101	101	82	31	155	144	19			
	poliomyelitis	28	13	9	9	19	37	11			
	tetanus		6	4		4	1	2			
	TBC	28	727		727	294	288	249			

Lybia	diphtheria	18	79
	measles	732	1560
	pertussis	180	27
	poliomyelitis	125	49
	tetanus	57	59
	TBC	2290	2180
Lebanon	diphtheria	6	
	poliomyelitis	65	
	tetanus		
	TBC	603	
Syria	diphtheria	561	502
	measles	1980	2050
	pertussis	1077	906
	poliomyelitis	134	110
	tetanus	193	174
	TBC	2140	1470
Tunisia	diphtheria	33	6
	measles		
	pertussis		
	poliomyelitis	8	48
	tetanus	44	20
	TBC	2210	2810

Besides the tables (Table 10) some graphs illustrate the enormous difference existing in morbidity (diseases subjected to immunization) in the various countries, different for surface, density (inhabitants / km^2) No of physicians / 10.000 inh., No of beds / population, income pro-capite and many environmental characteristics.

Whereas some diseases, thanks to immunization programmes, show a clear decline (tbc., poliomyelitis) others, such as pertussis, tetanus, measles etc., can vary in the considered period, can be almost steady or even they may increase. Diphtheria generally decreases, but in Egypt and Syria it is steady ; measles decrease in Cyprus Israel, Syria ; it is steady in many countries and it shows an increase only in Malta, Tunisia (?) and Lybia ; pertussis shows a decrease only in Morocco and Egypt (Fig. 61) . Tbc (generally bound to relatively poor economic and hygienic conditions) shows an increase in Morocco and Spain ; it shows a decrease in Jugoslavia and Lybia, (Fig. 62) a variable condition in other countries ; poliomyelitis shows a decrease in Morocco, Spain, Lybia, ~~whereas its~~ values are very variable in other countries. Also tetanus shows no benefit from immunization .

The following table illustrates the No of cases observed in an immediately successive period in countries subjected to vaccination for still unweaned children.

Country	Year	DPT	Measles	Polio	BCG
Albania	81	94	90	92	93
Greece	81	31	-	95	12
Italy	84	99	5	99	-
Malta	83	89	-	89	-
Spain	84	97	61	97	-
Jugoslavia	83	91	89	89	83
Algeria	82	33	17	30	59
Israel	84	95	95	95	95
Morocco	82	44	-	44	-
Turkey	83	58	45	62	47
Cyprus	84	91	60	91	-
Egypt	84	57	41	67	53
Lebanon	84	50	50	50	50
Lybia	84	75	30	75	95
Syria	84	41	39	41	50
Tunisia	84	61	55	61	76

The following table gives an idea of the percentage in which the health cares for births are put in practice in the various Mediterranean countries (WHO data) (Fig. 63) .

Country	Year	Local health cares (%)	Prenatal cares (%)	Delivery cares (%)	Cares during the year (%)
Italy	84	100	95	99	95
malta	84	100	99,4	97,5	100
Spain	85	95	96	96	96
Jugoslavia	83	100	-	-	-
Israel	84	100	85	99	85
Cyprus	85	100	100	100	100
Egypt	84	99	40	24	-
Lebanon	85	95	85	45	60
Lybia	83	100	76	76	-
Syria	84	80	21	37	20
Tunisia	84	91	60	60	60

One can see how in this period the cares for births were rather good in all these countries, which corresponds rather clearly to the decline of infant mortality we have already illustrated (Fig. 23, page ....).

Strictly connected with local health, prenatal and delivery cares is the maternal mortality, due to complications of pregnancy, child - birth and puerperium.

Maternal mortality from 1950 to '84 x 100.000 births is illustrated in the following table (see also fig. 65).

Country	50 / 54	55 / 59	60 / 64	66 / 69	70 / 74	76 / 79	80 / 84
Greece	--	--	61,6	40,9	28,2	18,6	13,1
Israel	--	--	--	--	--	12,6	3,1
Italy	142,4	117,2	97,1-	69	44,8	19,4	11,3
Malta	--	--	-	37,7	--	17,5	17,9
Spain	102,8	77,9	60	43,8	29,6	15,8	--
Jugoslavia	--	--	139,7	94,2	41,6	20,8	21

The values of mortality are easily understandable when we look at the table mentioned earlier, with the date about prenatal and delivery cares. The data about cares for year 0 explain the high percentage of infant mortality in many Mediterranean countries, particularly in the first part of the period.

The data obtained for the period 1972 - 1981 for most Mediterranean countries are exposed in the following table (see also fig. 65).

Year	Egypt	Israel	Syria	Greece	Italy	Malta	Spain	Jugoslavia
1972	98,2	18,6(+	-	29,8	46,0	-	32.1	37,0
1973	92,4	13,5	5,9	25,5	42,4	-	26,9	33.0
1974	92,2	7,1	14,2	18,1	29,4	17,9	26,5	32,7
1975	72,8	15,0	11,9	19,0	25,4	17,5	21,7	29,1
1976	80,9	5,3	13,0	19,8	23,3	-	20,5	18,6
1977	84,8	16,8(++	-	20,2	16,9	17,5	13,4	19,0
1978	82,3	9.7	6,7	19,8	17,1	-	12,9	14,7
1979	77,9	10,7	-	14,2	-	-	10,4	21,9
1980	-	5,4	7,2	17,6	-	-	-	17,8
1981	-	-	8,1	11,4	-	-	-	-

(+ only jew population ; (++ total population) .

In the whole considered period (1972 - 1981) there is an enormous difference within the various countries, reflecting both the hygienic conditions and the health care during the period of delivery (pre-natal, natal and post-natal). The only country

showing an elevated value of maternal mortality for the whole period is Egypt. In most European countries and Israel maternal mortality is rapidly declining (particularly in Italy) ; only in Syria it is constantly low, with a few fluctuations. For Malta we have too scanty information.

In several European countries a female supermortality was present since the generations of 1900, extended up to 1920 and later (1). According to Natale & Bernassola (p. 77 fll.) in this period the female supermortality was due to the number of women working in agriculture, which accentuated the consequences of pregnancy, delivery and puerperium. Near 1900 in Italy there was a female supermortality particularly in reproductive ages, bourd to greater risks connected with the reproductive process. (Livil Bacci, p. 153). Unfortunately we know nothing about the number of women employed in agriculture in the various Mediterranean countries, but in several of them maternal mortality is likely influenced as it was in the past in Centro-Northern Europe.

(1) Only in Greece in 1982 the standardized mortality rate relative to Europ and to the World shows a slight female supermortality (WHO). The same applies to Kuwait (1982).

As far as water supply is concerned, we may refer to two series of data (WHO), one for rural and one for urban supply in 1980 (population served x 1000).

Country	rural supply.	Urban supply	Urban popul.	Semi Urban popul.
Greece	3389	6350	58,1%	11.6%
Malta	80	239	85,4	-
Spain	2310	36.660	-	-
Turkey	15500	18.600	48,1	-
Morocco	--	6	43,9	-

The following table illustrates rural vs. urban water supply existing in the period 1970 - 83 in various Mediterranean countries.

Country	1970	1976	1980	1983	
	Rural water supply				
Cyprus	355	372	204	193	
Egypt	18.000		14.540		
Lebanon	850				
Lybia	599	1296	584		
syria	1746		2980		
Tunisia	500		470		
	Urban water supply				Urban population (%)
Cyprus	250	272	311	343	63,6
Egypt	14000		17.450		43,9
Lebanon	2100				80,8
Lybia	550	704	2596		64,5
Syria	2699		3367		50,0
Tunisia	2050	2554	3500	3708	52,8

Population (%) covered with safe water (Fig. 66).

Country	Year	Urban	Rural	Whole country	Urban population (%)
Algeria	80	100	70	77	49,0
Albania	80			92	
Israel	84			98	
Italy	81			98,8	
Malta	83			100	
Morocco	84			57	
Spain	83			95	
Turkey	80			67	
Jugoslavia	81			67,8	
Cyprus	84	100	100	100	63,6
Egypt	81	93	61	90	43,9
Lebanon	85	98	98	98	80,8
Lybia	83	100	77	90	64,5
Syria	84	77	65	71	50,0
Tunisia	85	100	100	100	52,8

It is evident that the scarce water supply in rural environment in several countries, which may explain the presence of a greater number of infectious and parasitic diseases in some countries and the objective difficulty to control these diseaes. Furthermore, the information given by WHO is too scarce, particularly about the percentage of population covered with safe water in urban vs. rural environment in many large countries.

Summary

for each country facing the Mediterranean Sea the number of inhabitants since 1975 is examined and the increase (expressed as % of the last value) is calculated, showing a clear-cut difference between European and extra-European countries. The percentage of population aged 65 or more is calculated for each country : an increase is present only in Italy, Spain and Malta. Natal rate, mortality and natural increase are examined . In Europe there is a very low natural increase ; in Italy-unique case in the Mediterranean area in the last period (1985 - 90) mortality equals the natal rate. African Mediterranean countries are characterized by high natal rates and natural increase. Infant mortality (1980 - 84) goes from 114,2 (Turkey) to 11,5 (Spain). albania behaves (as in other demographic parametres) as an Asiatic country. Within infant mortality, perinatal and post-neonatal mortality are the lowest in Italy ; perinatal is the lowest in Egypt, post-neonatal is the highest in this country, followed by Tunisia, Turkey and Jugoslavia, pointing to very precarious health conditions. As far as epidemiology is concerned, in the study of infant mortality four categories have been taken into consideration : infectious diseases (dependent mainly on environment and health conditions), congenital diseases (partly due to genetic causes, though in some countries they show a decline from 1975 to '90) and diseases determined by delivery and all conditions connected with it. Within this category, deaths due to anoxy and asphyxia are counted apart. This category is not associated to number of beds / population or to number of physicians and

midwives as % of the population As far as mortality at all ages is concerned, only three categories of deaths have been examined : infectious diseases (dependent on general health conditions), senility and ill defing causes, which both can inform us about the accuracy of diagnosis and the presence of an adequate number of physicians. This has been analyzed from 1950 to 1987. A correlation has been demonstrated between No of physicians and the average income pro capite (P between 1% and 1%) and between No of physicians and population density (P between 1% and 2%) . A clear difference in No of physicians / inhabitants is shown between Europe and extra - European countries. The number of inhabitants / bed decreases regularly in all Mediterranean countries except for Egypt, Lybia and Lebanon. Morbidity (No of cases of infectious diseases) has been anlayzed for the period 1978 - 81 showing the No of diseases and No of cases for each country. No correlation is found with illiteracy, population density and No of physicians / 10.000 inhab. Besides infectious diseases, malaria, often endemic or epidemic, and leishmaniasis are taken into consideration, together with some hemotypological factors protecting man against malaria, and their distribution within the Mediterranean area. Also a genetic disease, familial Mediterranean fever (or familial paroxysmal polyserositis) is mentioned. All the cases reported in 1984 of the diseases are bosed on the Programm of immunization adopted by WHO - also for unweavened children - are referred and commented. All health care for births (local, delivery and health care during year 0) are referred to in all Mediteeranean countries during the period 1983 - 85 and their relation with maternal mortality from 1950 to 1980 - 84 is discused. Finally, the water supply in both

rural and urban areas (1970 - 83) and the presence of "safe water" (1980 - 85) in the Mediterranean countries is illustrated.

Aknowledgements. - All the graphic part of the work and several calculations including the statistic correlations are due to Mr. Renzo Mazzaro, technician at the Department in which the research has been carried out, to whom the auther is deeply indebted.

Bibliography

Aireche H. & M. Benabadji, Rh and Duffy gene frequencies in Algeria, Gene geography, 2, 1988, 1 - 8 .

Armani G., E. Levré, G. Molinari, A. Scasso & G. Caroli, La ricomparsa della malaria and panorama nosologico dell'area pisana, Riv. Parassit., 3, 1986, 327 - 35.

Battaglia R., Africa. Gentie culture, Roma, Istitute Italiano per l'Africa, 1954.

Beaver P. C., R. C. Jung & E. W. Cupp (edit.), Clinical parasitology, Lea & Fiebiger, Philadelphia, 1984.

Bellissima P., Febbre bottonose nel Clatino nel decennio 1979 - 88 : osservazioni elinico - epidemiologiche, Riv. Parassitol, 6, 1989, 139 - 44.

Bodenheimer F. S., Animal life in Palestine, Jerusalem, L. Mayer, 1935.

Bonné - Tamir B., Y. Gross, S. Ashbel & Z. Goldwitch, Genetic polymorphisms among Ethiopian Jews in Israel, Gene Geography, 1, 1987, 1 - 8.

Brown H. W., Basic clinical parasitology, Butterworths, London & Appleton - Century - Crofts, New York, 1958.

Carosi G., A. Maccabruni, F. Castelli, P. Viale & S. Caligaris, Attualità in tema di infezione malarica, Riv. Parassitol., 1, 1984, 91 - 109.

Cheng T. C., General parasitology, 1973, Academic Press, New York & London.

Forion D., L. Pernice, E. La Tassa, G. Mento & R. Leonaldi, Diffusione di parassitosi in Messina desunte dalla consultazione delgi Archivi dell'Istituto di Parassitologia medica dell'Università di Messina negli ultimi 9 anni, Riv. Parassit., 6, 1989, 105 - 114.

Geigy R. & A. Herbig, Erreger und Überträger " tropischer Krankheiten, Verl. Recht & Gesellschaft AG., Basel, 1955.

Jürgens H. W., A typological survey of the peoples of Africa, Mankind Quart., 23, 1982, 71 - 88.

Lack D., The natural regulation of animal numbers, Oxford, Clarendon Press, 1954.

Livi Bacci M., Introduzione alla demografia, Loescher, Torino, 1990.

Macdonald G., The epidemiology and control of malaria London, Oxford Univ. Press, 1957.

Mansueto S., S. Domingo, G. Vitale, G. Tringali, S. Di Rosa & C. Occhino, Indagini siero - epidemiologiche sulla Febbre Bottonosa in Sicilia occidentale, Riv. Parassit., 1, 1984, 197 - 200.

Marcuzzi G., Note sui Culicidi dell'albania, Riv. Parassitol., 7, 1943, 155 - 167.

Martini E., Lehrbuch der medizinischen Entomologie, Jena, G. Fischer, 1940.

Mourant A. E., A. C. Kopéc & K. Domaniewska - Sobczak, The distribution of the human blood groups, Oxford University Press, London, 1976.

Mourant A. E., A. C. Kope'c & K. Domaniewska - Sobczak, Blood groups and diseases, Oxford University Press, Oxford, New York & Toronto, 1978.

Natale M. & A. Bernassola, La mortalita per causa nelle regioni Italiane, Roma, Tipolitografia Failli, 1973.

Ramot B et al. (ed.), Genetic polymorphisma and diseases in man, Academic Press, New York & London, 1974.

Roychoudhury A. K. & M. Nei, Human polymorphic genes, World distribution, Oxford University Press, New York & Oxford, 1988.

Vogel F. & A. G. Motulsky, Genetica umana, Mc Graw Hill Libri Italia srl, Milano etc., 1988.

Weyer F., Die Malaria Überträger, G. Thieme Verlag, Leipzig, 1939.

Cultural Interaction as Evidenced by Two Shipwrecks Excavated in Turkey

Douglas Haldane

It is a great honor to speak to you here today in a city whose name throughout history has been synonymous with cultural interaction. My wife, Dr. Cheryl Haldane, and I are in Egypt to establish a center for nautical archaeology in Alexandria to explore Egypt's, and eventually the Arab World's, rich maritime heritage. My research on medieval Arab ships in the Mediterranean is being funded through the Bi - National Fulbright Commission now and the American Research Center in Egypt in the Fall.

Both my wife and I are research associates with the Institute of Nautical Archaeology (INA), based at Texas A & M University. INA operations have been carried out in fifty countries on five continents worldwide. In the Mediterranean,, most INA operations have been in Turkey, where George Bass pioneered the science of nautical archaeology in the early 1960s.

The discipline of nautical archaeology differs very little from terrestrial archaeology. The same attention to detail, location, mapping, and provenance found on land excavations is exercised underwater. The only difference between a terrestrial archaeologist and a nautical archaeologist is that the latter works with SCUBA. However, one of the advantages of nautical archaeology is that many artifacts that are missing in terrestrial contexts due to recycling and re-use are preserved in underwater contexts simply because they have, until recently, been inaccessible. Excavation of a shipwreck yields a highly detailed picture of the period in which the ship sailed, and, due

to the nature of seafaring as a multi-cultural activity, gives us valuable evidence of cultural interaction.

I will be talking to you today about two wrecks excavated in Turkey by INA: the Serce Limani shipwreck dating to the early 11th Century A.D., excavated in the late 1970s, and the Late Bronze Age shipwreck at Uluburun, dating to the 14th Century B.C., in its last seasons of excavation now .

Although INA uses a variety of remote sensing equipment including sonar and magnetometers, most of our most valuable leads to shipwrecks have come from sponge divers. These men spend a great deal of time on the seabottom in search of sponges and represent a valuable resource for nautical archaeology. INA has a continuing program of education for sponge divers in both diving safety and describing what a shipwreck looks like on the bottom after centuries of decay. Both the Serce Limani and Uluburun wrecks were found by sponge divers.

The first order of operations at an INA site is the erection of temporary housing on land near the site. This housing includes sleeping, eating, photographic, mapping and conservation facilities. Meanwhile, a barge - at the Serce Limani Wreck - or INA's research vessel *Virazon* is anchored over the site. The vessel acts as a diving platform, and holds both compressors and the Institute's double - lock recompression chamber for divers suffering from decompression sickness.

On the bottom the first job is the erection of the " telephone booth", a trapped bubble of air held in place by a plexiglass dome surrounded by a steel collar and anchored to the bottom with chains and weights. Developed in the 1960s by INA, the telephone booth offers a refuge to divers in trouble and communications with the surface via intercom.

Excavation of a site is carried out by airlift, where compressed air is sent down from the surface and fed into a large diameter plastic pipe.

The rising air in the pipe and subsequent displacement of water creates suction at the mouth of the pipe and allows divers to excavate by vacuuming the site. The sand flows up the pipe and is deposited off - site.

When an artifact is discovered, it is tagged, photographed, measured, and plotted on the site plan before it is ever moved. The site plan develops from year to year as the excavation progresses and we have an accurate record of provenance that will be used in a variety of contexts in the many years of research that follow an excavation.

Two tons of cullet, or raw glass, was found on the Serce Limani Wreck along with one ton of broken glass. The broken glass, stored in baskets, represented about 20, 000 vessels that were smashed to reduce their volume. Excavators found these basket - shaped lumps of glass, picked them apart, labelled them for provenance and began the long process of sorting and piecing the original objects together again. The efforts to complete this million-piece jigsaw puzzle have rewarded us with more than one thousand objects of 200 different shapes. Including the 80 intact vessels discovered in the stern, this ship's cargo forms the largest collection of Islamic glass in the world.

In addition to the Islamic glass, archaeologists found balance-pan weights on the dirhem standard, 16.glass weights dating to the reigns of the Fatimid caliphs al-Aziz, al-Hakim and al-Zahir, and quarter-dinars dating to the reign of al-Hakim, which, coupled with 40 anonymous issue copper coins of Byzantine Emperor Basil II, dated the wreck to about A.D. 1025.

Among the reasons that this date proved significant was that it dated the Islamic *sgraffito* pottery found on board the wreck 75 years earlier than similar pottery found in land contexts. Additionally, the Islamic artifacts taken together find closer parallels to artifacts from Fatimid Syro-Palestine than in Egypt proper. This initially led the excavators to believe that the Serce Limani Wreck was an Islamic ship, but when pig bones were found among the wreck remains, Christian motifs

found on the fishnet weights, Greek inscriptions discovered on the shoulders of the amphoras, and four bullae, or seals, of a Byzantine official recovered, the wreck began to take on a more Byzantine Greek appearance. The discovery of Islamic artifacts on a Byzantine ship in Byzantine waters has international implications.

After the Fatimid Caliph al-Hakim's destruction of the Church of the Holy Sepulchre in A.D. 1015, Byzantine Emperor Basil II placed an embargo on trade with Egypt, but not Syro-Palestine. Scholars debate whether the Byzantines and Fatimids were able to reach a trade agreement in A.D. 1027, the time of the sinking of the "Glass Wreck". Apparently they did not since the trade proscription appears still in effect as evidenced by the artifacts' provenance.

Moreover, the glass cargo appears to be a medieval recycling venture as similar vessels have been found among the remains of glass foundries in Corinth. Greek glass factories preferred to import Islamic glass from the Middle East rather than expend greater heat in creating glass from raw materials. Thus, despite political conditions, medieval Christian and Muslim merchants in the Mediterranean were able to maintain supply and demand contact across intercultural lines.

The shipwreck at Uluburun dates from the late Bronze Age and was found by a sponge diver in 1983. The only other Bronze Age shipwreck found in the Mediterranean until that time, the Cape Gelidonya wreck, dated to about 1200 B.C. and was excavated by George Bass in 1960. Bass concluded that due to the predominance of Syrian artifacts on board the Cape Gelidonya wreck that Syrian merchants had a much larger role in Mediterranean trade than was previously thought. He and INA were eager to find another Late Bronze Age shipwreck to either prove or disprove this hypothesis.

Funded by the National Geographic Society, the National Science Foundation, the Institute of Aegean Prehistory, and private donors, INA has carried out excavation of the Uluburun shipwreck since 1984. The excavation has yeilded a variety of artifacts from all over the eastern Mediterranean rather than from a single culture.

The primary cargo is about three tons of copper and tin ingots, which together would create enough bronze to equip a 500 - man army. Although the tin's point of origin is still unclear, the copper came from Cyprus as did the great quantity of freshly made Cypriote pottery that was carried in one of the pithoi. These pithoi, large pottery jars seen in Egyptian tomb paintings, were once thought to have been water jars, but the Uluburun ship shows that they acted as china barrels and stored other goods as well.

Representative artifacts from other Mediterranean cultures found on board the Uluburun ship include a Mycenaean Greek merchant's seal, a personal possession that indicates the presence of at least one Greek, and a variety of Canaanite jewelry in the form of medallions and pectorals.

A gold scarab was found among a horde of scrap gold jewelry; gold scarabs are rare in themselves, but this scarab is even more special in that name of Nefertiti, the famous queen of the heretic pharaoh Akhenaton, is inscribed on the reverse. One can only speculate on how this scarab of an Egyptian queen found its way to rest among the remains of a shipwreck of the Anatolian coast, but its presence reveals the complex interrelationships of trade in the Late Bronze Age.

Other surprising finds from the Uluburun wreck are a cargo of glass ingots that have been chemically analyzed and found to be identical in composition to glass used to cast both Mycenaean Greek necklace beads and Egyptian bottles. Additionally we have found the world's oldest book or *dypich*. Until this find came to light, the oldest *dyptych* dated to the ninth century B.C.

One of the most frequent questions asked about any given shipwreck regards the location of the ship's home port. This is much more easily asked than answered, however, due to the intercultural nature of seafaring. In the case of the Serce Limani wreck, the ship appears to have been a Greek vessel carrying raw and broken glass from the Syro-Palestinian coast for recycling in the Greek world. The origin of

the Uluburun ship, on the other hand, is not as easily pinpointed. In fact, there may have not been a single point of origin as parallels for the artifacts on board come from the entire eastern Mediterranean coast. It is possible that the ship followed a circular route around the eastern, Mediterranean basin, picking up cargo at one point and dropping it off at the next port of call, continually until it came to grief off the shores of southern Anatolia.

The cultural interaction that made Alexandria famous in the ancient world is reflected in the ships that frequented her and other ports around the Mediterranean. Each shipwreck is a time capsule which when opened, through scientific excavation, presents us with a clear image of the era in which the ship sailed. The Serce Limani wreck shows us that the Muslim Middle East continued to trade with the Byzantine world to the degree it was possible within Byzantine trade restrictions. Muslim glassmakers continued to meet the Greek demand for raw glass. In the Uluburun ship, the raw materials and finished products of seven different cultures mingle to provide us with an extraordinary picture of trade and contact between Late Bronze Age Eastern Mediterranean societies. In both cases, the sea is the conduit for cultural interaction and regional exchange.

The Relationship Between Population Growth and Development in the Arab World, 1960 - 2000

Dr. Abdel Karim Alfayez The University
of Jordan, Jordan

Introduction :

According to the theory of demographic transition, economic growth was expected to lead to substantial decline in both mortality and fertilty rates. [1] In the Arab Countries, improved health facilities, better diets and increased economic welfare reduced mortality rates. However, this rapid decline in mortality was accompanied by high fertility rates . This situation resulted in high rates of population growth which are credited of being major obstacle to further economic growth .

Arab Countries achieved high rates of economic growth in the period between 1960 - 1980, For the region as a whole, the annual combine average rate of growth reached about 6.2 percent [2]. In the area undergoing one of the most rapid population growth in human history , this was not an accomplishment,It is not though a valid index of development.

Econmic development and fertility decline have upon occasion been presented as alternatives. If we emphasize development tasks, the argument goes, fertility will take care of itself. However, others suggest that the two sets of policies are not alternatives .

No proponent of lower birth rates has seriously advocated that we stop trying to improve health, extend education, form capital etc., and instead, work exclusively on controlling fertility. The basis for an effective solution of population problem is after all, socio-economic transformation, and that population policies are constituent elements of socio-

---

1. Frank W. Notestein, " Population - The Long View ", in T . W. Shultz, ed., Food for the World, University of Chicago Press, 1954 .

2. World Bank, World Development Report, Washington D. C., 1982 .

economic development policies, never substitute for them [3].

Theory and conceptual Framework :

The conditions under which Third - World countries will complete theire demographic transition represent the main issues in the study of the economics of population, and the relationship between development and fertility; i.e. , the conditions which will cause a substantial decline in fertility rates[4].

Diduced from the European historical patterns of economic growth and population trends , the theory of demographic transition predicts that increasing economic growth will lead to a substantial decline in both mortality and in fertility rates (the main element of population growth) [5].

Neo - Malthusians assume a direct relationship between levels of per capita income and fertility rates. At high low income levels, both birth and death rates are very high and population growth are nil or negative. With some increase in income, population growth tend to outstrip economic growth rates. High population growth exerts negative effects on economic growth. At high per capita income levels, population growth rates are low and demographic transition is complete[6].

---

3. Harvey A. L eibenstein, " A Theory of Economic - Demographic Development " , Princton : Princton University Press, 1954, Especially chapt. 6. See also United Nations Economic and Social Council Preperation Committee for the International Conference on Population, 1984, Document E/conf. 76/PC/10, December 2, 1983 , P. 5 .

4. Harvey A. Leibenstein, " An Interpretation of the Economic Theory of Fertility " : Promising Path or Blind Allay ?," Jurnal of Economic Literature, 12, No. 2 .

5. Frank W. Notestein, " Population - The Long View ", In T. W. Schultz, ed., Food for the World, University of Chicago Press, 1945.

6. Joseph, Spengler, " The Economist and the Population Question ", The American Economic Review, vol. LXI, No. 1 .

Among the theories and models of economic development in which population appears as an integrated variable is that developed by Leibenstein. Leibnstein argues that the quasi-stable equilibrium , characteristic of the backward subsistence economy, can only be overcome by a strong displacement or stimulus, since the income raising forces of a positive displacement (such as technological progress, emigration and, especially a fortuitus which tend to depress income (such as increased consumption, pressure on resources, institutional regidities and particularly, population growth) [7].

In this scheme, Leibenstein assigns greate importance to Population as endogenous variable. Population growth, through the relations exist between its basic determinants (fertility and mortality) and income, is regarded as a function of levels of living. Mortality is thought to be negatively related to income , the reasoning being that higher wages, better food, shelter, medical care etc.) associated with an increase in income will lower mortality . Fertility is determined by a great number of factors, but up to a certain point, motivations for larger families will predominate. After that, fertility is likely to decline with further gains in income .

the micro-economic theory stresses the micro - relationship between fertility and levels of per capita incom [8]. Emphasizing individual behavior, this theory explains fertility in terms of household decision - making process. The desire number of children is determined according to their relative benefits and costs , and household's demand for children is affected by theire income level. With higher income levels, children costs outweigh their benefits; while at lower income levels, benefits are assumed to be greater stimulating higher demand for children [9].

---

7. Harvey A . L eibenstein, " A Theory of Economic - Demographic Development, Prinston : Princton University Press, 1954 .

8. Gary Becker, " A Theory of Marriage : Part 1 ". Jurnal of Political Economy. Vol. 81, No. 4 (July / August). 1973 .

9. Gary, Becker and H. G. Lewis, " On The Interaction Between the Quantity and Quality of Children ", Jurnal of Political Economy 81, No. 2, Part 11 (Marck / April), 1973 .

Inequalities within countries delay the demographic transition and therefor incourage high fertility rates among the poor (and / or poorly educated) [10]. High rates of dependency result from high fertility and low infant mortality . Societal inequalities determine, to some emperically testable extent, the net effects and rate of the demographic transition. Gross inequalities will tend to inhibit the decline in overall mortality but also will tend to inhibit declines in fertility as well. Equality is often a prerequsite to rapid change in demographic variables. Benefits of economic growth did not trickledown to benefit the majority of the Third World Population "[11].

Methodology :

To measure development, not only economic indicators will be used. This paper however, stresses the importance of including social development because it is often, the later, that has the most far reaching implications for population change. In this research , development is measured by the following indicators :

(1) Positive increment in the means of subsistence measured by the rate of growth of Gross Domestic Product (GDP) Progress .

(2) Gross Domestic Product Per Capita (Per Capita GDP). When this indicator increased, the mean of subsistence " Outstripping population growth ; when it decline , population" outrunning " resources .

---

10. Irma Adelman, and Cynthia Morris, " Economic Growth and Social Equality in Developing Countries ", Stanford : Stanford University Press, 1973. See also, Murdock M. William, " The Poverty of Nations : The Political Economy of Hunger and Population ", The John Hopkins University Press, Baltimor : 1980 .

11. Robert Repetto, " The Interaction of Fertility and the size Distribution of Income ", Research Paper No. 8. Cambridge : Center for Population Studies at Harvard University . See also, John M . Grove, " Global Inequality : A Political and Socio - Economic Perspective. Boulder, Colorado : Westriew Press .

(3) Societal Equality measured by income distribution .

(4) Social Transformation measured by the widespread access of the population to " social goods " (such as education, health care) distributed in a society .

Fertility is measured by the crude birth rates . Both, focusing on , and comparing rates of (fertility and development indicators) and looking at their distributions within the countries will be considered. The Analysis of the interrelationships between fertility and development is based on cross - sectional data for two points in time (1960 and 1980) and on cross - cultural comparisons. Gini index is used to show the deviations from income equality. Illiteracy, education expediture, life expectancy and other measures are used to show the extent to which collective goods are widely distributed in the Arab countries .

Many hypotheses were developed to examine the interrelationships between development and fertility decline as follows :

I . Crude birth rates are negatively related to economic growth as masured by per capita income .

II . More equql distribution of income within Arab Countries is expected to associate with lower fertility rates .

III. Inducing structural change through industerialization is expected to affect fertility , At higher levels of industerialization, a more equal distribution of income is expected to associate with lower fertility rates .

The Changing Quality of Life : A Closer Look :

If the development is measured by the overall levels of economic growth, the steady improvement in the region's gross domestic product (GDP) over the years is the answer to the first question (table 1) ; The GDP of Arab States grew at very respectable rate of 7.7 percent during the 1960 - 1970 period and 6.7 percent between the years (1970 - 1982). Even when population growth is factored in, the per capita GDP expanded during the 1960 - 1982 period at an average rate of 4.1 per annum (2) .

If , However, development is understood as involving improvement in the lives of all the people of a country, rather merely in overall levels of economic performance, income distribution figures provide a more revealing index than do GDP Data. As (table 3) shows, despite the steady growth in GDP and GDP per capita that characterized 1960 - 1982 , income shares remained remarkably stagnant. Although data on income distribution were only available for a few Arab Countries , however , we can notice large inequalities in income distribution. With about 70 percent of the population receiving only about a quarter of the income and the remaining 30 percent gain nearly three quarters of the total .

Table 1

Gross Domestic Product and it ' s Percentage Change .

1960 - 1982

Calculated in Constant Terms

Country	1960 [1]	1982 [2]	% Change 1960-70	1970-82
Jordan	375	3813 , 5	4 . 2	9 . 3
Syria	890	18468 , 7	8 . 8	4 . 6
Iraq	1580	31243 , 7	6 . 1	----
Lebanon	830	2574 , 3	4 . 9	----
Saudi Arabia	1685	153112 , 5	----	9 . 8
Algeria	2740	40264 , 5	4 . 3	6 . 6
Morocco	2040	14694 , 0	4 . 4	5 . 0
Tunis	770	186614 , 5	4 . 7	7 . 0
Libya	310	32388 , 9	24 . 7	2 . 4
Egypt	3830	31750 , 5	4 . 3	8 . 4

Sources : (1) United Nations Yearbook of National Accounts Statistios, 1977 (N, 4, U. N. 1978) Vol. 2, Table IA , pp. 3 - 9

(2) Arab Economic United Reports , Alsharqa , 1984 .

Table 2

Per Capita CDP, 1960 - 1982

(In Constant Dollars of 1980)

Country	1960	% Change 1960 - 1982
Jordan	1690	6.9
Syria	1680	4.0
Iraq	3020	3.4
Lebanon	1270	2.5
Saudi Arabia	16000	5.5
Algeria	2350	3.2
Morocco	870	2.6
Tunisia	1390	4.7
Libya	8510	4.1
Egypt	690	3.6

Sources : Arab Monetary Fund , Arab Economic United Report , 1984 .

Table 3

Income Distribution : Arab World Average , 1960 - 1970

Stratum	Share (%)			
	1960		1970	
Poorest 20 %	4 . 2	26 . 7	3 . 2	27 . 6
50 % Following	22 . 5		24 . 4	
20 % Before Highest 10 %	22 . 1	73 . 3	24 . 3	72 . 4
10 % Highest	51 . 2		48 . 1	

Sources : Calculated from " Income Distribution and Economic Development in the Arab World " , by H , Khawajeh , in " Almostakbal Alarabi " 1981 . Vol , 30 , No , 8 .

Although the three indices - GDP , per Capita GDP , and income distribution provide some enlightment, they ultimately raise the question : Whose life are we talking about ?

Table 3 indicates stagnation in relative shares of income recipients between 1960 and 1970 , but in view of the consistently higher fertility of the lower - income groups, the deterioration that has occured in the percapita income of the poorer 70 percent of Arab World is clear . This erosion of income share has , of course , been reinforced by the double - and - triple digit inflation rates (Table 4) .

Other socioeconomic indicators associated with Development as well as with fertility such as illiteracy , education , dependency Ratio . etc. Sighificant reduction in illiteracy in every Arab Nation after 1960 was took place . (Table 6) confirms the very substantial achievement in all nations of the region in lowering the proportion of illiterates. However, inspite of the decline in the percentage of illiteracy in each society, one notes that in most Arab countries in the study, the absolute numbers of illiteretes is larger in the more recent period than it was in the earlier one .

Even with the very large proportion of their budgets devoted to education (Table 7) Arab Nations have been unable to reduce the absolute level of illiteracy among their citizens .

Table 4
Average Annual Rates of Inflation, 1960 - 1982

Country	1960 - 1970	1960 - 1982
Jordan	--	9. 6
Iraq	1. 7	14. 1
Libya	5. 2	16. 1
Algeria	2. 7	13. 9
Saudi Arabia	--	22. 5
Morocco	2. 0	8. 3
Tunis	3. 6	8.7
Syris	2. 6	12. 2
Egypt	2. 6	11. 9
Lebanon	1. 1	--

Source : World Bank Development Report, Washington D. C., 1984

Table 5

Illiteracy by Country and Years

Country	Year	Total Illiterate	% Illiterate	% of Pop . Over 15 Years . of age
aJordan	1960	614924	68	53
	1980	530400	30	51
Syria	1960	1,724058	70	52
	1980	2;031120	42	52
Iraq	1960	2,975706	82	54
	1980	------	--	53
Lebanon	1960	------	--	53
	1980	------	--	57
Saudi	1960	1,337941	97	57
Arabia	1980	3,975750	75	57
Egypt	1960	10,744977	74	61
	1980	14,791280	56	55
Algeria	1960	5,443200	90	54
	1980	6,879600	65	56
Morocco	1960	5,205408	86	54
	1980	8,125920	72	52
Tunis	1960	1,843733	84	60
	1980	1,309100	38	52
Libya	1960	5,576770	78	53
	1980		--	--

Sources : World Bank Development Report , Washington D. C. 1982 .

Table 6

Total Public Cducation Expenditure as percentage of Total Public Expenditure (1980)

Country	Percent
Jordan	10 . 0
Syria	9 . 0
Iraq	7 . 0
Egypt	16 . 0
Algeria	24 . 0
Lybia	13 . 0
Saudi Arabia	10 . 0
Morocco	14 . 0
Tunis	15 . 0
Lebanon	19 . 0

Sources : World Bank , World Development Report 1983 , Washington D. C. 1983 .

Capital Cenerating Capacity :

In addition to the combined unemployment and under-development levels hovering about 30 % of the labor force in many Arab countries, the creation of modern-sector employment of the scale neaded to satisfy the growth of labor force would require huge quantities of capital. Not only is capital scarcity a perennial problem in our sample of Arab Nations, as in most less developed areas, but the possibilities of generating capital are severely limited by another demographic constraint, the high dependency ratios that rapid popualtion growth has produced. The dependency ratio is simply the number of dependents in a given population per producer, the former usuelly taken to be those less than 15 and more than 65 years of age, and the latter those between these ages, that is,

$$\frac{\text{Population less than 15 and over 65}}{\text{Population between 15 and 65}} \times 100 =$$

= number of dependents per 100 potential producers .

The age structure of the Arab population is very young. Fast-growing population is the one with low median age or a high percentage below the age of 15 (Table 7) .

Table 7

Population Under 15 Years as a Percentage of Total Population by Country 1960 - 1980

Country	1960	1980
	Age 0 - 14	Age 0 - 14
Jordan	44	48
Syria	45	48
Iraq	45	47
Lebanon	42	38
Saudi Arabia	43	43
Algeria	45	46
Morocco	44	47
Tunis	45	40
Libya	46	47
Egypt	42	39

Sources : The World Bank , World Development Report 1983 , (Washington D. C ., 1983).

When dependency burdens are high (Table 8), especially in conditions of widespread unemployment and under empoloyment, much of what is produced goes for immediate consumption , with little remaining for savings and investment . Thus it becomes impossible to generate the capital that might be creating more development .

The situation is exacerbated when, because of skewed distribution of wealth, much of what is produced is exported, and significant proportions of the export earnings are either never repatriated (through false invoicing and the like) or are sent back out of the country. Moreover, This capitalflight problem, can only worsen as prospects for stability dim, even though it will itself further contribute to the underlying causes of instability (i. e , less capital available for productive investment-insufficient employment, Chances-greater disaffection with the status quo) .

Table 8

Population under 15 years and 65 years or over as a percentage of population age 15-64 yeare (Dependency Ratio), by Country, 1960 - 2000

Country	1960	1980	2000
Jordan	86. 9	104	101. 2
Iraq	90. 5	95. 9	93. 6
Syria	90. 5	104. 0	101. 4
Egypt	81. 8	75. 4	70. 7
Algeria	92. 3	100. 0	95. 6
Morocco	87. 2	95. 9	91. 2
Tunis	93. 1	78. 5	71. 3
Saudi Arabia	84. 3	85. 2	81. 8
Lebonon	88. 7	75. 5	70. 1
Lybia	88. 6	95. 9	90. 3

Source : The World Bank, World Development Report 1983 (Washington D. C. 1983) .

Tabke 9

Number of Physicians Per 10, 000 Inhabitants 1960 - 1980

Country	1960	1980
Jordan	1.7	5.8
Syria	2.2	4.4
Iraq	1.7	5.6
Lebanon	8.9	18.5
Saudi Arabia		
Algeria	1.8	3.8
Morrocco	1.1	.93
Tunisia	1.0	2.7
Libya	1.5	13.6
Egypt	3.9	10.3

Sources : Calculated from the World Bank Development Report, World Bank, 1983 (Washington D. C. 1983), Tables 23, 24 .

as well as adequate equipment and facilities for their work, are lacking in the smaller provincial cities and towns for them to consider p[racticing there. Morever, only a relatively small proportion of the patients they would have in these areas could afford to pay the standard fees for the services.Thus, whereas the number of physicians per 100,000 inhabitants may be creeping upward in many Arab Countries, this does not translate into improved health-care services for the rural and small town sectors of these societies. This reconfirms the inappropriatness of current market-oriented development models and provide a stinging indictment of the way. Arab governments have consistently favored their capitals and major cities at the expense of their hinterlands .

The most valid index of development would be life expectancy at birth, for the average length of people's lives reflects the conditions under whic the live and work, their nutrition, the, medical care availabe to them , and all other dimensions of their physical existence . This summary . Statisties has shown large steady improvement in life expectency over the years in the Arab Countries (Table 10). The region is undergoing a population explosion, oue to the success achieved , primarily thrcggh public health and sanitation measures, in reducing mortality .

Although it is very important to add years to one's probable life span the personal growth dimensions of the quality of life are even more elusive measurement than the elements we have been dealing with, but from some point of view they are of supreme relevance in any specified concept of developemt. However, what we need in the Arab World at this stage of development is the adequate satisfaction of such prior necessities as food, clothing, housing, health care, and basic education. What we have thought of as development might be considered as the first stage of a process which consists of three stages : the Initial one concerned with the general well-being of the poulation by laying the basis for providing them, the intermediate one of creating cultural and political mechanisms that will permit human groups to maintain themselves in harmony with the natural systems that sustain them (water purity, soil fertility, etc,), and ultimately the one that will actively promote and facilitate the sort of personal growth and fullfilment just alluded to for the central thrust of social purpose around which a political system orients itself.

Tabke 10

Life expectancy , 1960 - 1982

Country	1960	1980
Jordan	51	61
Syria	51	65
Iraq	48	56
Lebanon	59	66
Saudi Arabia	44	54
Algeria	48	56
Morrocco	48	56
Tunisia	49	60
Libya	48	56
Egypt	47	57

Sources : World Bank Development Report, 1984 (Washington D. C. 1984) .

Beyond the certainty of continued high dependeny ratios, and the likelihood of increased capital flight, another aspect of Arab's economic financial profile auger ill for the capital generating capacity of the region between now and the year 2000. The huge proportion of the region's export earning being siphoned off by debt servicing requirements [15] . This exessive burdening of future generations especially in view of the few benefits they will receive (given the corruption, ineffeciency, and poor planning that have accompanied the allocation of these massive funds), Provides still more evidence of the failure of the currently accepted models of development in the Arab World .

The Quality of Life : The Bottom Line :

Two socio-economic indicators represent the quality of life in Arab Countries merit brief discussion : health care and life expectancy. If health care is measured by the number of in habitants per phsician, Then the figgures in table / 9 indicate a gradual. Upwared Trend in most of the ten countries during 1960-1980, although in Morrocco the figure declined. Although not discernible from these data, the skewness of the distribution of physicians presents an even more serious problem for Arab World health-care coverage than does the inadequate number of physicians per 100,000 inhabitants. for entirely understantable reasons , the vast majority of Arab physicians are concentrated in the region's major cities. For most of these doctors, living conditions for their children,

---

15. F. Froeble etal., " The New International Division of Labour ". (English Translation available from Cambridge University press, Cambridge : 1980) See also, Payer Cheryl, : The Debt Trap : The IMF and the Third World " (Monthly Review Press, New york 1975).

The foregoing discussion made clear that reducing Population growth is an essential element in the first stage of development . Arab countries are hypothetically facing a demographic transition. However, improved health facilities, better nutrition and economic welfare reduced mortality rates while fertility rates remained very high and the gap between the two rates resulted in high rates of population growth. The main issuse in the economics of population concernes the conditions under which Thire-World countries will complete their demographic transition .

The Prerequisites of poulation growth reduction :

Only if poplation growth rates are slower than economic growth rates, underdeveloped countries have the chance for greater accumulation of capital and sustained growth. At high level of per capita income levels, fertility (The main element of high population growth rates) rates are low and the demographic transition is completed [16] .

At very low income levels, both birth and death rates are very high and population growth is nil or negative. With some increase in per capita income, population growth rates tend to outstrip economic growth rates . High population growth exerts negative effects on economic growth and the economy relapses at low level of economic growth [17] .

Among the theories and models of economic development in which population appears as an integrated variable is that developed by Leibenstein. Leibenstein argues that the quasi-stable equilibrium , characteristic of the backward subsistence economy, can only be overcome by a strong displacement or stimulus, since the income raising forces of a positive displacement (such as technological progress , emigration and, especially, a fortuitus increase in capital set in motion other forces which tend to depress income (such as

16. Joseph, Spengler; " The Economist and the Population Question " . The Americon Economic Reviwe, Vol, Lxl - 1 .

16. Harvey, Leibenstein; An Interpretation of the Economic Theory of fertility, Promising path or Blind Alley ?, " Journal of Economic Literature, R, No. 2 " .

increased consumption , pressure on resources, institutional rigidities and particularly, poplation growth). In this scheme leibenstein assigns great importance to population as endogenous variable . Population growth , through, the relations exist between its basic determinants (fertility and mortality) and income, is regarded as a function of levels of living. Mortality is thought to be negatively related to income, the reasoning being that higher wages, better food, shelter, medical care etc., associated with an increase in income will lower montality. Fertility is determined by a great number of factors , but up to a certain point motivations for larger famillies will predominate . After that , fertility is likely to decline with further gains in income [18] .

Many of the under-developed countries are caught in the low - level equilibrium trap characterized by a stable equilibrium level of per capita income or close to Subsistence requirements [19]. Capital formation is low and if the capital stock is accumulating, population is rising equally fast, and preclude the possibility of increases in the amount of capital per worker.

Assuming production to be a function of capital stock; including land and population, Nelson (1956) shows that, ceteris paribus, average income per head can increase only if the rate of capital formation exceeds that of population growth.

On the empirrical level, the relationship between economic growth, as measured by per capita income, and fertility rates is weak and not definite as the theory or macro emperical research implies (Table 11). For example, Srilanka with a per capita income of $ 275 has a lower birth rate in 1980 (28 per thousand) than countries like Brazil, Venzuela, and Mexico, Whose per capita income ranges from $ 3630 for Venzuela to $ 2090 for Mexico [20] .

---

18. Leibenstein , " Theory of Population and modern economic analysis " .
19. Nelson, " A Theory of the Low-Level Eguilibrium Trap .. " .
20. Nadia, Farah , Population Growth and Socio-Economic Inequalities in the Arab world, Paper presented. At the pegional Population Conference in the Arab world, Amman. 1984 .

Table 11

Per Capita Income and Crude Birth rates , 1960 - 1980

Country	Per Capita Inc-me in Dollars (1980)	Crude Birth rates (1000)		Crude Rate 1960	Ceath (1000) 1980
		(1960)	(1980)		
Jordan	1, 420	47	44	20	10
Syria	1, 340	47	45	18	8
Iraq	3, 020	49	45	20	12
Lebanon	---	43	30	14	8
S. Arabia	11, 260	49	44	23	14
Algeria	2, 050	50	46	23	13
Morocco	900	52	44	23	13
Tunisia	1, 310	49	35	21	9
Libya	8, 640	49	45	19	12
Egypt	580	44	38	19	12
Sri Lanka	270	36	28		
Mexico	2, 090	45	37		
Brazil	2,050	43	30		
Argentina	2, 390	24	21		
Venezuela	3, 630	46	35		

Sources : World Bank Development Report, Washington D. C., 1982 .

Per capita income would be a good predictor of fertility rates if the benefits of economic growth are evenly distributed . Third World countries which made an effort at redistributing income (through transfers or radistribution of wealth-assets especially land in the rural areas) achieved a substantial decline in their fertility rates. Redused fertility on the other hand Support an accelerated economic growth thereby. reinforcing development [21].

According to this view, increased income for the poor reduces the need for child labor (especially in the rural areas) and increases the children's costs in terms of proper costs (such as education) or opportunity costs (such as mother's forgone income from work outside the household). Reduced Fertility through a more equitable income distribution decreases counsumption and increases savings and investments . Higher development levels, especially for the rural poor will reinforce the trend toward lower fertility. Such a process will sustain development .

Data on income distribution and fertiltiy patterns confirm the relationship between high fertility and high income inequalities (Table 12) However, certain inconsistencies exist. For example , Brazil with one of the most unequal distributions of income (9. 5), has a fertility rate which is lower than most Arab countries. Furthermore, Sri Lanka which has one of the most equal income distribution measures (2,2) has only slightly lower fertility rate than that of Brazil .

---

21. Robert, Rapetto, Economic Equality and Fertility in Developing countries. Baltimor : Johns Hopkins University Press .

Table 12

Country	Curde Birth Rate Per 1000 (1980)	Income Share of Upper 20% of The Population / Income Share of Lower 40% of The Population	
Arab Countries			
Egypt	40	3, 34	(1965)
Morrocco	44	4, 49	(1965)
Tunis	35	3, 23	(1970)
Third World			
Brazil	30	9, 5	(1972)
Argentina	21	3, 56	(1970)
Venzuella	35	5, 24	(1970)
Sri Lanka	28	2, 26	(1970)
south Korea	24	2, 60	(1976)
Costa Rica	29	4, 56	(1971)
India	36	3, 9	(1975)
Advanced Countries			
United Kingdom	14	1, 98	(1979)
U. S. A.	16	2, 80	(1972)
Nethalands	13	1, 69	(1977)
France	14	2, 79	(1975)
Denmark	13	1, 86	(1979)
Japan	14	1, 95	(1969)

Sources : Population Crowth and Socio-Economic Inequlalities in Arab World, Paper Presented at The Regional Population Conference in the Arab World, Amman - Jordan, 1984 .

Countries at the same level of industrialization such as Argentina and south Korea ,but with more equal distribution of income , have lower fertility rates . If level of industrialization is measured by percentage of CNP derived from manufacturing sector , the data shows that at higher industrialization levels , a more equal income distribution seems to reinforce the tendency for lower fertility rate . This is true in the case of Egypt , but very clear in the case of Brazil , Argentina , and south korea which have income distribution meansures of (9. 5, 3. 5, 2. 6) and fertility rates of (30, 21, and 24) respectively (Tables 12, 13) .

Data suggest that fertility rates tend to decline rapidly in the context of development policies inducing substantial structural changes through industrialization .

It is obvious that effective programs of population growth limitation in Arab countries cannot be implemented on either a coercive or an exclusive family planning basis . Not even a medical model foucussing on reducing infant mortality rates and providing maternal and child health assistance will suffice , although it is a very good way to begin . The people , whose reproductive behavior is largely propelling the population explosion , are primarly people live in poverty and ignorance , the product of exploitation and injustic , people who never know whether they will find work , or , if they do , whether it will pay a living wage , those without any access to any kind of insurance or social security , people with no one else to rely on beyond their own extended family . These are people for whom it is entirely rational to hane as many children as possible in the hope that several will survive to take care of their parents when they can no longer fend for themselves . Until the injustice and exploitation - that characterized the political economy of the Arab countries cease and the opverty and ingnorance and insecurity of the masses are eradicated , it will continue to be rational for these couples to have large families . Only when the unjust , exploitive , and repressive structures of Arab societies are altered in the direction of greater fairness in the distribution of social services , wealth , and opportunity , can family planning programs be expected to bring population growth down to replacement level . These programs can help get the process startedeven in the absence of the necessary structural changes . However , Sweeping structural changes are needed to induce enough couples to desire to limit their family size to only one or two children .

Table 13

Distribution of Gross Domestic Products for Arab Some Semi-Industrialized countries (1980) [13]

Country	CBR * Per 1000	% of CDP Derived from Agriculture	% of CDP Derived from Industry	% of CDP Derived from Manufacture	% of CDP Derived fro Services
Arab Countries					
Jordan	44	8	32	16	60
Syria	45	20	27	21	53
Iraq	45	7	73	6	19
Lebanon	30	12(1960)	20(1960)	13(1960)	68(1960)
Saudi A.	44	1	78	4	21
Algeria	46	6	57	14	37
Morrocco	44	18	32	17	50
Tunisia	35	17	35	13	48
Libya	45	2	72	4	26
Egypt	39	23	35	28	42
Semi-Industrialized Countries					
Brazil	30	10	37	26	53
Argentina	21	6 (1960)	38(1960)	32(1960)	46(1960)
South Korea	24	16	41	28	43

ources : World Bank Development Report ., Washington , D. C ., 1982 . 22 . Ibid .

* CBR - Crude Birth Rate .

Conclusion :

The data analyzed in this paper demonstrate that a wide varity of development indicators point to a fairly steady and over time . Substantial improvement in the quality of life for Ababs . Despite the positive values that have been registered in many categories of socioeconomic progress , the benefits of this progress have seldom trikled down to the worst - off 70% of the Arab World Population .

High fertility rates in most Arab countries in the study indicate that demographic interia will continue to produce high growth rates and young population in the region for many decades to come , thus continuing to complicate the development process in various ways as was revealed in the present analysis for 1960 - 2000 .

Fertility rates are a fuction of levels of development when approximated by a consistent and comperhensive change in socioeconomic structures which increased productivity through industrial and technical progress while spreading its fruits by Satisfying the majority 's increasing social needs .

Given the unjust and exploitative structures of some Arab societies , the deeply entrenched cultural values and institutions that sustain these structures , there does not seem to be great likelihood of the sort of radical and sweeping changes necessarry to bring about significant betterment of the life chances and living conditions of the majority of Arabs . The out look , therefor , is for spreading outbreaks of social unrest , Spiraling levels of official repression and organized opposition , much of violence against existing systems .

References :

- **Adelman , Irma and Cynthia Taft Morris**

 1973 Economic Growth and Social Equality in Developing Countries

 Stanford : Stanford University Press .

- **Becker , Gray and H . G . Lewis**

 1973 On the Interaction Between the Quanity and Quality of Children , Jurnal of Polifical Economy 2 (II).

- **Beacker , Gray**

 1974 A Theory of Marriage : Part II , Journal of Political Economy , Vol . 82 - 2 .

- **Fleix , Darid**

 1983 " Income distribution and the quality of life in Latin America : Patterns , Irends and Policy implications " . Latin American Research Review 18 (2) : 3 - 11 .

- **Crove , John**

 1979 Global Inequality : A Political and Socio - Economic Perspective . Boulder , Colorado : Westriew Press .

- **Kuznets , Simon**

 1955 " Economic Crowth and Income Inequality " . American Economic Review 45 : 1 - 28 .

- **Leibenstein , Harvey**

 1954 A Theory of Economic - Demographic Development. Prinston : Princton Uniersity Press .

- **Leibenstein , Harvey ,**

 1974 " An Interpretation of the Economic Theory of Fertility : Promisint Path or Bline Alley ? , " Journal of Economic Literature , 12 , No . 2 .

- **Myrdal , Gunner**

1957 Economic Theory and Underdeveloped Regions . London : Duckwirth .

- **Notestein , Frank W .**

" Population - The Long View " , in T . W . Shultz , ed . Food for the World , University of Chicago Press , 1954 .

- **Repetto , Robert**

1974 " The interaction of Fertility and the size Distribution of Income " , Research paper No . 8. Cambridge : Center for Population Studies at Harrard University .

- **Repetto , Robert**

1979 Economic Equality and Fertility in Developing Countries . Baltiomor : John Hopkins University Press .

- **Simon , Julian**

1979 " Income , Wealth , and their Distributiom as Policy Tools in Fertility Control , " In Ronald Ridker , Population and Development . Published for Resources for the future . Baltiomore : The John Hopkins Univ . Press .

- **Spengler , Joseph**

1966 " The Economist and the Population Question , " The American Economic Reviwe , Vol , LXI - 1 .

- **World Bank**

1982 World Development Report 1982 . Washington , D.C.

- **Internstial Monetary Fund**

1984 International Supplement on output Statistics , Supplament Series 8 , Washington D. C. IMF .

LE PERIPLE ISLAMIQUE DE GERARD DE NERVAL

Article Présenté par Docteur
Nafissa Abdel Fattah Schasch
Professeur au Département de Langue
et Littérature Françaises

Si le moyen âge offre une période d' assombrissement et de décadence pour l' occident, par contre il est pour l'orient à l'image d'un rayonnement intellectuel et d'un progrés scienfifique indéniables. Cependant, dés ces premiers temps les tableaux tracés de l'Islam et transmis à l' Europe ne manquent point de falsifications.

Né au VIIéme siècle dans la péninsule arabique, cette religion ou mode de vie fut repoussée par les occidentaux avec dédain et méfiance.

Les chansons de gestes cherchent à avilir sa propre réalité en la taxant de blasphèmes et de sacrilèges. Les chroniqueurs comme Joinville et Villehardouin veillent à intervenir l'ordre des choses en suggérant des avis très souvent erronés.

Même le XVIéme siécle, avec les humanistes comme Montaigne, ne consacre point des recherches aux dimensions valables à ce concept religieux qui reste travesti. Si cet écrivain implore dans ses Essais quelque admiration à l'égard de la vaillance des musulmans, il n'hésitera point à rebuter les fondements même de leur religion.

Au XVII siécle Pascal effleure l'Islam en établissant une comparaison entre Jésus, Prophète du Christianisme et Mohammad, Prophète de l'Islam.

Plusieurs travaux se succèdent à savoir ceux de : Galland, Boulainvillier, J. J. Rousseau, Voltaire, Montesquieu, Diderot et autres, pour donner libre cours à l'orientalisme qui prend son essor de 1770 à 1780. Mais un certain antagonisme demeure latent jusqu'au XIXéme siécle, siécle où l'Islam commencera à être regardé de plus prés par des écrivans comme Chateaubriand, Alfred de Vigny, Victor Hugo etc...

Sa véritable image s'éclaire sous la plume de Gérard De Nerval lorsqu'il lui accorde une étude plus aménagée que ces prédecesseurs. Ses idées seront déployées dans différents ouvrages comme : **Voyage en Orient, Les Filles Du Feu, Les Chimères.**

De son périple à travers l'Islam, Nerval semble n'avoir jamais reçu de choc. Par contre, il découvre dans cette religion pratiquée en Egypte des sublimités et " des grandeurs qui frappent l'esprit le plus sceptique [1] ".

Le sérail réservé aux femmes musulmanes, sur le pont du navire, attire particulièrement son attention. Avec une bonhomie parfaite, les hommes rendent tous les petits soins à leurs épouses. Leur cherchant de l'eau pour les ablutions, les soutenant dans les moments de défaillance et les nausées du mal de mer, ils sont aux yeux de l'écrivain d'une courtoisie singulière. Avec un empressement particulier, ils les préservent du contact des "infidèles" qui rôdent autour des tentes. Ces derniers sont à l'affût des femmes; "beautés mystérieuses" qui, se croyant hors de vue se permettent de temps en temps de baisser leurs "yachmacks" [2] .

Imprégné de cette atmosphère Islamique, le poète plane à travers une imagination mystique où s'épanouissent mythes et légendes lus dans les livres sacrés. Du pont du navire, dès que son regard tombe sur le minaret d'une mosquée à "un point de la

côte . tout un monde de réminiscences livresques s'éveille et prend corps dans son esprit.

Un missionnaire anglais embarqué avec lui pour Acre, lui explique que Jonas rejeté du ventre de la baleine où il vécut des années, a jadis posé le pied, lors de sa renaissance, sur cet endroit sacré; la "petite mosquée indique la piété des musulmans pour cette tradition biblique ...... [3] ". Nerval contemple dans une extase admirable les matelots égyptiens qui se réunissent à bord, dés qu'ils entendent l'appel à la prière, cet appel mystique du "muezzin" qui rythme leur vie quotidienne :

> " ... chaque matin, au moment où le soleil sortait de la mer, chaque soir à l'instant où son disque, envahi par la ligne sombre des eaux, s'éclipsait en une minute, laissant à l'horizon cette teinte rosée qui se fond délicieusement dans l'azur ; les matelots, se réunissaient sur un seul rang, tournés vers la Mecque lointaine [4]".

Le Voyage en Orient de Nerval témoigne d'allusions infinies à l'Islam, à ses usages, à ses coutumes qui baignent dans une atmosphère mythique. Ce sens de vie des foules musulmanes incrusté à la fois de mythe anciens et modernes ne se retrouve ni chez Chateaubriand, ni chez Lamartine.

L'Egypte paraît aux yeux de Gérard de Nerval toute chargée d'une mystique héréditaire provenant des époques passées. Il s'arrêtait surtout aux sectes mystiques. Les Ismaéliens [5] l'attirent comme l'affirme Jean Richer [6] . Ceux-ci lui rappellent probablement une personnalité portant le même nom: Ismaïl, fils de Ibrahim [7] dont l'histoire devait le passionner[8].

Vagabondant à travers les épisodes des diverses sectes Islamiques, Nerval s'entretient avec un "fidèle musulman sunnite[9]" auquel il s'oppose les sectateurs d'Ali Ibn Abi Talib

"imam" des "shiites [10] ". Il s'intéresse aux " ansariés " , ou "Al Ansars", habitants de la Medine, qui, secondant le prophète Mohammad, émigrèrent de la Mecque pour fuir les spéculations des incroyants. Il affirme que " l'Islam reprend les rêveries du platonisme antique " [11] . Cette religion garde un respect extraordinaire envers toutes les autres, ce qui explique le comportement des déserteurs de l'armée de Bonaparte, et celui des anciens soldats passés au service de l'Egypte qui devinrent musulmans.

Aux malédictions et injures que Moïse et **Le Talmud** jettent à la femme, Gérard de Nerval oppose les bénédictions et les éloges de Mohammad et du **Coran** :

> " **Le Talmud,** note l'écrivain, excluait les femmes des cérémonies religieuses et leur défendait l'entrée du temple. Mohamet au contraire, déclare que la femme est la gloire de l'homme ; il lui permet l'entrée des mosquées et lui donne pour modéles, Asia, femme de Pharaon, Marie, mère du Christ et sa propre fille Fatima [12] ".

A cette dernière, l'Islam accorde un privilège exceptionnel. Etant " le reine du paradis féminin " , l'illustre Fatima y recevra les âmes des musulmanes pieuses qui seront rajeunies et verront leur " idéal se réaliser dans le ciel [13] " .

Nerval fait par la suite des rapprochements continus entre l'Islam et le Christianisme. Aussi constate - t - il que la secte d'Ali est pour ainsi dire " la tradition catholique d'Orient [14] ", que les musulmans ralliés à la secte d'Omar [15] représentent "une sorte de protestantisme, qu'ils ont imposé en soumettant les populations méridionales [16] " .

Aspirant à unifié les croyances, poursuivant la chimère d'une secte intermédiaire, l'écrivain découvre que **Le Coran** "miroir de sagesse et fontaine de vérités [17] ", pour reprendre ses

termes, n'est en effet, qu'un " résumé de l'ancien et du nouveau Testament [18] ". L'Islam honore le Christ comme prophète et révère la " Kadra Myriam (La Vierge Marie) ". Cette religion de paix reconnait anges, prophètes et saints des Chrétiens. Aussi Nerval exprime - t - il la certitude qu'un jour toutes les croyances finiront par fusionner les unes avec les autres formant une sorte de " Christianisme oriental (....) ou d'Islamisme angilican [18] ". " Véritable entreprise métaphysique et morale " , ces phantasmes permettent à l'écrivain de méditer sur tout ce qu'il a appris dans les livres.

Son " fatalisme quasi-musulman [20] ", le rapproche de la doctrine des Druses dont il étudiera les détails dans Sylvestre de Saci [21] et dans Herbelot.

Les raisons sentimentales viennent corroborer les raisons philosophiques et mythiques. Elles conduisent ainsi Nerval à s'intéresser plus particulièrement à cette tradition.

En plaçant son esclave Egyptienne " le belle Zeinab " dans une pension française de Beyrouth, l'écrivain y rencontre Saléma blonde et de beauté séduisante, cette dernière dont le père est un savant "Cheik El Gebel " (ou vieillard de la montagne) appartient à la doctrine Druse. Cette religion est formée semble - t - il par un syncrétisme de croyances et de philosophies de tous les temps et n'admet point de néophytes. Si on n'est pas né Druse, on ne peut jamais le devenir. Sa loi est la suivante : " La plume est brisée, l'encre est sèche, le livre est fermé [22] " .

Autour de ces données, l'imagination mythique de l'écrivain brodera l'histoire du Calife Hakem. Personnage réel de l'histoire de l'Egypte, Hakem ou Al Hakim Biamrillah fut le fils de El Aziz Billah et petit-fils de Al Moëz Bidinillah Al Fatimi dont les origines remontent à Fatima, Fille du Prophète de l'Islam. Hakem, d'après la légende, est le fondateur de la religion des Druses. Au Caire, Nerval se passionne pour son histoire. Paru

vers l'an 1000, c'est - à - dire 400 ans environ après Mahomed, Hakem est par conséquent Selon Nerval :

> " Le véritable messie ou bien l'Antéchrist annoncé par les écritures pour paraître mille ans après Jésus[23]".

Les Druses assurent encore que cet être saint s'est déjà manifesté au monde sous des apparences multiplés..

Les récits du **Coran** fournissent à sa nouvelle : **L'Histoire de la reine de Saba et de Soliman Prince des génies** des éléments d'une importance primordiale. L'énigme "supra humaine" de la reine du "hud-hud" ; les connaissances inouies de Soliman qui gouverne son royaume muni de puissances inimaginable ; la salle couverte d'une nappe d'eau ; tous les détails laissent supposer que Nerval s'est encore référé au livre sacré de l'Islam utilisant ces matériaux, l'écrivain en titre des idées qui viennent directement de la XXVIIe sourate intitulée "Les Fourmis" et de la XXXIVe sourate qui porte le nom de "Saba". Ces récits évoquent la rencontrent et les puissances de la Sabéenne et de Soliman Ibn Daoud [24].

Tandis que les écritures montrent Balkis amoureuse et aimée de Soliman, la version Maçonnique ridiculise ce dernier, en le présentant comme le serviteur obtu d'Adonaï, ce que Nerval essaye de souligner lui aussi dans sa nouvelle en variant souvent les données. L'auteur prête au sage et puissant Soliman le rôle de dupe et de fourbe. Aussi la reine de Saba lui préfère -t-elle Adoniram, maître des forges et serviteur du roi.

Mais Balkis "préfère" au "plus grand prince de la terre", plus noble rejeton de la race de Sem [25] ", l'ouvrier Adoniram

c'est parce que ce dernier est de sa race, la race des élus la race du feu.

A ce syncrétisme des croyances anciennes vient s'ajouter un "Islamisme" caractéristiques. Dans **Les Chimères,** Nerval exprime une impression singulière. Il a essayé semble - t - il de concevoir ces poèmes d'après la méthode d'explication du **coran** par les " Imams du Shi'isme". Ces poèmes énigmatiques comprennent des paliers apparents :

> " .... L'expression énoncée ; la portée allusive ; les sens occultes, relatifs au monde supra - sensible ; les hautes doctrines spirituelles (26) " .

Ces quatre degrés peuvent se rapprocher des quatre groupes de l'Islam formés par le commun des fidèles, l'élite, les amis de Dieu et les prophètes ou "anbiya". Ils correspondent encore aux sens rituels du verset où se déclare : l'ésotérique, l'exotérique, la limite et le projet divin. Ces notions s'apparentent au **Coran** qui possède selon Henry Corbin :

> " Une apparence extérieure et une profondeur cachée, un sens exotérique (zâhir) (27) et un sens ésotérique (bâtin) (28) où chaque profondeur a une profondeur, à l'image des shpères célestes emboîtées les unes dans les autres (29) " .

Evoquant l'ange Gabriel dans son poème intitulé "A madama Ida Dumas", Nerval pénétre dans l'univers spirituel de l'Islam. Gabriel représente pour le prophète Mohammad, l'esprit de Dieu ou le Saint - Esprit. Intermédiaire de Dieu auprès du prophète de l'Islam, cet archange ne participe pas aux colloques

mystérieux qui eurent lieu entre "Allah" et "Mohammad" Convoqué par son Dieu, le prophète s'avance en compagnie de Gabriel. Ils franchissent les sept cieux mais à leurs frontières, là où s'élève "Sidrat Al Muntaha", " l'Immense cédrat aux fruits plus doux qu'un mélange de lait et de miel (30) ", l'ange Gabriel s'arrête, il n'a plus le droit d'avancer "je brûlerai si j'avance, tu franchiras si tu continues (31) ", dit - il au prophète.

S'attribuant le rôle de Raphaël, Gérard de Nerval se fait ainsi le frère de Gabriel.

> " Trois voix avaient crié vengeance au bord du ciel,
> Il appela d'en haut mon frère Gabriel (32) ".

Ce "bord du ciel" revêt l'image de la "limite de l'horizon(33)", là où se dresse l'arbre sacré marquant la frontière des trois archanges, Gabriel, Michaël et Raphaël. Un grâce particulière vient se déclarer chez "Nerval - Raphaël" qui exprime sa joie :

> " j'étais assis chantant aux pieds de Michaël (34)".

Ainsi les livres sacrés sont pour l'écrivain un idéal dont il essaye d'imiter les spéculation les plus curieuses. Dans le **Coran** le mot est révélateurs de choses, il est très souvent enveloppé d'un voile mystique qui cache l'apparence, comme l'allégorie cache l'idée pure : " le mot n'est qu'u mirage mental interposé (35) ". Ainsi, la portée allusive et le spirituel des **Chimères** manifestent de cet ensemble inouï de philosophie mystique.

A travers ce périple islamique, il s'est avéré que Gérard De Nerval fut à la recherche de l'image évanouïe d'une mère perdue dés son plus jeune âge. Bienqu'il forma un temoignage véridique à l'égard de certains aspects de l'Islam, Nerval, pour des raisons d'ordre psychologique, demeure tiraillé entre deux âmes qui le partagent :

> " Deux âmes hélas ! se partagent mon sein, s'écrie t'il dans **Pandora**, et chacune d'elles veut se séparer de l'autre " (36) .

" Ténébreux " , " inconsolé " , se faisant " le prince d'Aquitaine à la tour abolie " , c'est lui encore " El Desdichado " ou le désérité : le veuf de sa mère à la poursuite d'une réalité fictive introuvable.

Cherchant la voie du salut, cet écrivain semble par moment la trouver :

> " O vous qui allez dormir, dira - t - il dans les femmes du Caire, recommandez vos âmes à celui qui ne dort jamais (37) " .

Mais il ne faut pas trop se fier aux apparences, car ce même poéte s'empresse d'écrire :

> " Abîme, abîme, Abîme.
>
> Le dieu manque à l'autel où je suis la victime .
>
> Dieu n'est pas ! Dieu n'est plus (38) " .

Jamais Nerval ne parviendra à choisir entre la connaissance et le salut. Réalisant que son mental et son moral restent à tout jamais divisés ". il lutte contre la sincérité de sa volonté du salut. Eperdu entre le châtiment et le pardon, il mainfeste les effets d'une nostalgie profonde du salut. Se sentant face à un litige continu avec son " moi " , il n'arrive pas à croire en Dieu et jamais la foi véritable ne s'est réellement propagé dans son âme.

Mal informé, ce génie littéraire essaye de détecter au fond de la nuit la plus obscure, une source de lumière. Hélas, le droit chemin fui sous ses pas ... La lumière s'évanouïe .... Il s'égare, trébuche, perd l'équilibre et succombe dans le gouffre de la folie et du suicide.

Manquant à la foi, Gérard De Nerval manque à " la lumiére véritable qui en venant dans le monde éclaire tout homme " [39] . Selon l'Evangile.

Dieu ou " Allah est la lumière des cieux et de la terre " [40] enseigne le Coran. " C'est Lui qui prie sur vous ainsi que ses anges, afin qu'il vous fasse sortir des tènèbres à la lumière...."[41].

NOTES

(1) **Voyage en Orient,** " Les femmes du Caire " VII " Une maison dangereuse " , P. 140 .

(2) Le " Yachmack " est une sorte de voile que mettaient autrefois les Egyptiennes sur la partie inférieure du visage, ne découvrant ainsi que les yex.

(3) **Voyage en Orient,** " Druses et Maronites " I, " Le paquebot", P. 445. Racontée dans la 37e Sourate du **Coran** et dans le livre de Jonas de **La Bible,** l'histoire de Jonas excite l'imagination nervalienne avide de Mythes et de légendes.

(4) **Voyage en Orient,** " Les Femmes du Caire " IV, " andare Sul Mare " , P. 294.

(5) Artisan du jeune " Imam " Ismaïl investi par son père Ja'Far Sadiq. " Imam " désigne couramment celui qui se tient en avant et guide les prières à la mosquée.

(6) Jean Richer, **Gérard de Nerval et les doctrines ésotériques,** P. 143.

(7) Ibrahim ou Abraham est surnommé " le père des prophètes" "Abou Al Anbiya".

(8) Atteignant l'âge de la vieillesse et n'ayant pas eu d'enfants, Ibrahim suit le conseil de sa femme Sarah et épouse sa servante Hagar. Celle-ci lui donne un fils Ismaïl. Ordonné par une voix celeste, Ibrahim chasse la servante et le fils dans le désert. Assoiffé, l'enfant pleure et la mère court éperdue entre " Al Safa " et " Al Maroua " essayant de lui trouver de l'eau. Une source jaillit soudain sous les pieds du petit. C'est le puit de " Zamzam " dont l'eau bénite dénite désaltère les pélerins de l'Islam. Ibrahim reçoit un second

fils Isaac de sa vielle épouse Sarah. Tous les prophètes descendront d'Isaac, seul Mohamed descendra d'Ismaïl.

(9) **Voyage en Orient,** " Les nuits de Ramazan " V, " Le Pacha de Scutari " , P. 553.

(10) Cousin et gendre du prohète Mohammad par sa fille Fatima, Ali Ibn Abou Talib est l' " Imam " de l'Islam et inaugure le cycle des " Walâyat " (ou " Awlya ") succédant à celui de la prophétie. D'après Henri Corbin, **op. cit.,** P. 50.

(11) Jean Gaulmier, **Gérard de Nerval et les filles du feu,** P.103.

(12) **Voyage en Orient,** " Appendices " I, " De la condition des femmes " , PP. 701 - 702.

(13) **Ibid.,** " Les femmes du Caire " IV, " Les inconvénient de célibat " , P. 127.

(14) **Ibid.,** " Histoire de la reine du matin et de Soliman prince des génies " , XII, " Makbénach " , P. 677.

(15) Omar Ibn Al Khatab est le second Khalife Rachidite, succédant à Abou Bakr Al Sadik.

(16) **Voyage en Orient,** " Histoire de la reine du matin et de Soliman le prince des génies " , XII, " Makbénach " , P.627.

(17) **Ibid.,** P. 446.

(18) **Ibid.,** " Druses et Maronites " , I , " Le Paquebot " , PP. 445-446.

(19) **Ibid.,** P. 446.

(20) Gérard Shaeffer, **op. cit.,** P. 339.

(21) D'après Pierre Audiat, **op. cit.,** P. 61 ; Nerval a lu " la religion des druses " de Silvestre de Scy, publiée en 1839.

Notons à propos, l'orthographe des noms " druzes " et "druses" et " druses " , Saci et Sacy.

(22) **Voyage en Orient,** " Druses et Maronites " IV, " Les Akklas", L'Anti-Liban, VI. Correspondance (fragements), P.475.

(23) **Ibid.,** II, " Le prisonnier " IV, " Le cheik druse " , P.394.

(24) Voilà ce que nous lisons à propose de Soliman dans la XXVIIe sourate du **Coran** " Soliman hérite Daoud et déclare : le langage des oiseaux me fut appris et toute chose fut à ma disposition ce qui représente des avantages inouïs. Soliman eut des armées composées d'humains, d'esprits et d'oiseaux en quantité " .

(25) **Voyage en Orient,** " Histoire de la reine de Saba et de Soliman prince des génies " VIII, " Le lavoir de Siloe " , P.636. Notons que Sem est l'un des trois fils de Noé : Sem, Hem, et jafith. Ce dernier fut emporté par les eaux de déluge tandis que Sem survécu et fonda la race des Sémiarites ou Sémites de l'Orient et les peuples de l'Occident provinrent de son frére Hem.

(26) André LEBOIS, op. cit., P. 192.

(27) Henry Corbin, **Histoire de la philosophie Islamique,** Paris, Collection Idée, Ed. Gallimard, 1968, P. 44.

(28) **Ibid.,** P. 44.

(29) **Ibid.,** P. 21.

(30) Ornella Volta, **Guide de l'Au-delà,** Paris, Ballard, 1962, P.145.

(31) Al Bokhari.

(32) **Autres Chimères,** " A Madame Ida Dumas " , V. 6-7, P.719.

(33) Robert Faurisson, op. cit., P. 79

(34) **Autres Chimères,** " A Madame Ida Dumas " , V. 4, P. 719. (C'est nous qui soulignons).

(35) Gabriel Bounlour, Marelles sur le Parvis. Essais de critique poétique, Paris, Plon, 1958, P. 5.

(36) **Pandora,** P. 734.

(37) **Voyage en Orient,** " Les femmes du Caire ", P. 122.

(38) **Les Chimères,** " Le Christ aux Oliviers " , V. 12 à 14, P.705.

(39) **L'Evangile,** La Sainte Bible - Nouveau Testament : Evangile selon Jean : 1 : 9 - P. 1060.

(40) **Le Coran,** Sourate 24 " Al Nour " (la lumiére), verset 35.

(41) **Ibid,** Sourate 33 " Al Ahzab " (les coalises), verset 43.

BIBLIOGRAPHIE

Gérard De Nerval

- **Voyage En Orient** - 2 tomes -, Paris, Garnier, 1958.
- **Pandora** - Oeuvres I - Paris, Garnier, 1973.
- **Les filles du Feu** - Oeuvres I -, Paris, Garnier, 1973.
- **Les Chimères** - Oeuvres I -, Paris, Garnier, 1973.
- **Aurélia** - Oeuvres I -, Paris, Garnier, 1973.
- **Autres Chimères**, Paris, Gallimard, 1974.

Ouvrages Généraux

- Pierre AUDIAT **L'Aurélia De Gérard De Nerval**, Paris, Champion, 1926.
- Gabriel BOU NOUR **Marcelles sur le Parvis**, Essais de critique poétiques, Paris, Plou, 1958.
- Henri CORBIN **Histoire de la Philosophie Islamique**, Paris, Collection idée, Ed. Gallimard, 1968.
- Robert FAURISSON **La Clé Des Chimères Et Autres Chimères**, Paris, Société Nouvelle des éditions I.I. Pauvret, 1977.
- Jean GLAUMIER **Gérard De Nerval et les filles du Feu**, Paris, Nizet, 1956.
- André LEBOIS **Fabuleux Nerval**, Paris, Denoïl, 1972.
- Jean RICHER **Gérard De Nerval Et les Doctrines Esotériques**, Paris, Edition du Griffon d'or, 1947.

- Gérard SHAEFFER **Le voyage en Orient de Nerval,** Etude de structure, Suisse, édition de la Baconnière, 1967.

- Schasch, NAFISSA A. F. **Gérard de Nerval et la mythologie égyptienne,** Alexandrie - thèse dactylographiée 1978. L.

- " La civilisation égyptienne une des premières civilisations de la méditerranée " Faune, Flore et Couleur " un **Actes du colloque international de la méditerranée** - Lisbonne, Portugal - November 1991.

- TAHA HUSSEIN, Moënes - **Le Romantisme français et l'Islam.**

- WISSA - WASSEF - **L'Egypte** - Les livres de France - Hatier 1985.

- C. R. L. H. - C. I. R. A. O. I. - **Visages de la Féménité** - St. Denis - Revue 1^er^ Trimestre 1984.

- **L'Activité féminine in Cahier du centre d'études de l'emploi** - Presse Universitaire de France 2^eme^ Trimestre 1977.

- **Women in the World** - edited by Lois Beck and Nikki keddie - Harvard University Press - London, England, 1982.

Livres en Langue Arabe :

- AHMAD FARAG, El Sayed - **Complot contre la femme,** AlWAFAA, Le Caire 1984.

- AHMAD El MOKKADEM, Mohamad, **Le Retour du voile,** Tiba, Le Caire 1985.

- MOHAMAD Ibn Omar al Gharoui - **Les droits de la femme dans le mariage, Al Eëtissam, Le Caire 1989.**
- SAKAR Attéya - Encyclpédie - **Les droits de la femme dans le mariage, Al Eëtissam, Le Caire 1989.**

Table des matières

جيرار دي نرڤال ورحلته في الإسلام

لقد كان ازدهار الشرق وإنهيار الغرب فى القرون الوسطى من الحقائق المعروفة، وكثيراً ما كانت المفاهيم الزائفة المشوبة بالأباطيل والأخطاء تنطلق على لسان الغرب عن بلاد الشرق وخاصة عن الإسلام ، ونقلت معظمها عن طريق المؤلفات الأدبية كالملحمة Les chansons de gestes والمؤرخين أمثال ڤيلهاردوان Villehardouin وجوانڤيل Joinville وغيرهم .

وفى القرن السادس عشر تحدث الكاتب الفرنسى مونتانى Montaigne عن الإسلام بصورة سطحية معتمداً فيها على ما قيل من قبله رغم أنه أفصح فى كتابه لى إيسيه Les Essais عن إعجابه الشديد بما رآه من قيم ومبادئ وبسالة وشجاعة لدى الجنود المسلمين .

أما فى القرن السابع عشر فنلاحظ أن بعض الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين أمثال باسكال Pascal لم يتعمقوا أيضاً فى مفهوم الإسلام فقد اكتفى هذا الكاتب بوضع مقارنة بها ثغرات ليست بضئيلة فى مذكراته "Les memoires" بين عيسى (عليه السلام) وخاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم).

وفى القرن الثامن عشر بدأ بعض الرحالة أمثال آرڤيو Le chevalier d'Arveux وبعض الدراسات التى قام بها الباحثين أمثال مارتينو لتوضيح الرؤى عن طبيعة المسلمين من سماحة وحفاوة وترحاب وعدم تعصب . وتعتبر مذكرات آرڤيو من الكتب النادرة التى لفتت الأنظار وجذبت إهتمام الكثيرين للإسلام .

وتوالت المؤلفات لكتاب كثيرين من بينهم بولافيلييه Boulainvillier وجالان Galland ومونتسكيو Montesquieu وڤولتير Voltaire وجون جاك روسو Jean

Jacques Rousseau وديدرو Diderot وغيرهم . ونشأت حركة الإستشراق L'Orientalisme فى الفترة مابين ١٧٧٠ و ١٧٨٠ ويسترسل الإسلام رحلته فى بلاد الغرب فى القرن التاسع عشر أى فى العصر الرومانسى .

ويقبل عليه جهابزة هذا العصر أمثال شاتوبريون Chateaubriand والفرد دى فينى Alfred de Vigny وفكتور هيجو Victor Hugo وغيرهم وكان الاهتمام منهم بالجانب الفكرى والعلمى من الإسلام وليس بروح الإسلام وطبيعته .

أما جيرار دى نرڤال فقد أخذ فى محاولة تعمق وتفهم معانيه السامية ونرى ذلك فى بعض مؤلفاته مثل Voyage en Orient (رحلة إلى الشرق) و Les Chimères الأمانى الواهية وغيرها .

ويعد جيرار دى نرڤال من أقطاب الأدب الفرنسى فى العصر الرومانسى بالقرن التاسع عشر . ولد هذا الشاعر القصصى الروائى المسرحى فى مدينة باريس عام ١٨٠٨ وكانت نهايته أو بالأحرى إنتحاره فى أحد شوارعها ليلة ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥.

ولهذا الكاتب قصة حياة مثيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بما تحتويه الأساطير المصرية من ألغاز وأسرار وهنا تتراءى لنا العلاقات المتبادلة بين شعوب البحر المتوسط وبالأخص بين مصر وفرنسا عبر التاريخ .

فالعديد من مؤلفات جيرار دى نرڤال كان لها أعمق الأثر على عدد كبير من الكتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أمثال فيكتور هيجو Victor Hugo وشارل بودلير Charles Baudelaire وجييوم أبولينير Guillaume Appolinaire وأندريه بروتون André Breton ومارسيل بروت Marcel Proust وچون جيرودو Jean Giraudou وأنتونان آرتو Antonin Artaud وبليز سندرار Blaise

Cendrar وغيرهم من الشعراء والمفكرين والأدباء وعندما أثر برفال على كل هؤلاء العباقرة والفنانين الفرنسيين كان هو نفسه قد تأثر بأرض عريقة وشامخة ، دولة مجيدة وخالدة ، ألا وهى مصر العربية المنبعثة من حوض البحر المتوسط بكل ماتحمل من حضارات فرعونية ويونانية ورومانية ومسيحية وإسلامية .

وفى يوم الجمعة الموافق ٢٣ ديسمبر من عام ١٨٤٣ بدأ الكاتب الفرنسى الرومانسى رحلته إلى الشرق – لقد كان چيرار دى نرڤال رائداً من رواد السيريالية ومؤسساً لها فقد كان أول من ابتكر هذا الاتجاه الأدبى وأطلق عليه اسم Supernaturalisme والذى تحول فيما بعد وبقلم أندريه برتون Andre Breton وفيليب سوبو Philippe Soupault إلى كلمة Surrealisme أو السريالية. ومات هذا الفنان الموهوب منتحراً ، هرباً من آلام الجوع والفقر والمرض ولم تكتشف عبقريته الفذة إلا فى القرن العشرين عندما قال چون چيرودو Jean Giraudoux عنه فى تصريح له :

« إنى أعتبر جيرار دى نرڤال أخاً لى » .

ومنذ تلك اللحظة والباحثون أخذوا فى التنقيب عنه وبدأت الدراسات العديدة تكشف عما أخفاه الآخرون .

وكان هذا الكاتب رحالة بطبيعته وظل طوال حياته فى السفر فعاش عمره كله ليرحل من واد إلى واد ومن بلد إلى بلد ومن فكر إلى فكر ، ومات لكى يرحل من عالم إلى عالم آخر معتقداً أنه عالمه الحقيقى .

ومن بين رحلاته العديدة كانت رحلته إلى الشرق ومن بين هذه البلدان رحلته إلى مصر وأحاسيسه الدافئة تجاه ما رآه عند غروب الشمس وذلك وقت أن وقف البحارة جميعاً صفاً واحداً متجهين إلى الله سبحانه وتعالى لأداء صلاة المغرب فى سماحة وخشوع.

وكان من بين رحلاته أيضاً رحلته فى الإسلام التى لم يجد فيه جيرار دى نرڤال مايعوق التقدم والحرية كما قال البعض ، بل على عكس ذلك فقد وجد فى هذا الدين القيم كل عظمة وإجلال مما يبهر العقل فى أى زمان أو مكان فيقول :

« الإسلام لا يستبعد أى شعور من المشاعر النبيلة التى تنسب عادة للمجتمع المسيحى » (رحلة إلى الشرق - الحالة الاجتماعية للنساء - ص ٢٣٢) .

وتتوالى الأحداث فى كتابه « **رحلة إلى الشرق** » فى إعجاب جعله يعرض بكل اهتمام موقف الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخوض بفكره فى تعاليم الطوائف المختلفة كالسنية والشيعة كما اهتم بالإسماعيلية ومنشأها عن إسماعيل وروايته لقصته المعروفة فى الإسلام - وخرج من هذه الدراسة بأن هذا الدين يكن كل إحترام لجميع الأديان الأخرى .

ويقوم جيرار دى نرڤال بعرض بعض المقارنات بين الأديان السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام : فبين أن الدين الإسلامى دين يحترم غيره من الأديان ويشير هذا الكاتب إلى اهتمام الدين الإسلامى بالمرأة فأعطاها مكانتها وكرمها ويقول فى فصل بعنوان : « الحالة الاجتماعية للنساء » .

« ظل الناس لمدة طويلة يعتقدون أن الإسلام يضع المرأة فى مكانة أقل بكثير من مكانة الرجل ويجعل منها على حد القول جارية لزوجها - وتلك الفكرة لاتلبث أن تنهار أمام الدراسة الدقيقة للأخلاق فى الشرق وكان الأحرى أن يقال أن محمد (صلى الله عليه وسلم) قد جعل المرأة تتبوأ مكانة أعلى بكثير مما كانت عليه من قبل» (ص ٢٢٩ - الجزء الثالث « رحلة إلى الشرق ») .

ويستطرد قائلاً :

« كان موسى يرى أن المرأة التى تلد بنتاً تجلب للعالم فرصة أخرى للخطيئة

تظل غير طاهرة أطول من تلك التى تضع طفلاً ذكراً . وكان التلمود يستبعد النساء من الطقوس الدينية ويحرم عليهم دخول المعبد - أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أعلن على العكس من ذلك أن المرأة فخر للرجال وأباح لها دخول المساجد وضرب لها من الأمثلة التى تحتذيها آسيا امرأة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة» (ص ٢٢٩ - الجزء الثالث « رحلة إلى الشرق ») .

ويسترسل جيرار دى نرڤال لمسات الإعجاب بهذا الدين فى قصة :

« بلقيس ملكة الصباح وسليمان أمير الجان Balkis La Reine de Saba et Soliman Prince des Génies» فيؤكد أن الإسلام يشيد بالمسيح ابن مريم ويوقره هو ووالدته السيدة مريم العذراء فهو دين السلام الذى يحترم كل الملائكة والأنبياء والقديسين ليس فى المسيحية بل وفى جميع الأديان الأخرى ويطلق على القرآن الكريم هذه العبارة التى تشع الإعجاب فيقول :

« إن القرآن هو مرآة الحكمة ونور الحق Miroir de Sagesse et Fontaine de Verité ويلجأ لما جاء فى القرآن الكريم وخاصة فى سورة سبأ وسورة النمل لينقل لنا بعض المواقف التى أدرجها فى قصته عن سليمان (عليه السلام) عن أصله وجذوره التى تمتد إلى سلالة سام أحد الأبناء الثلاثة لنوح (عليه السلام) : سام وحام ويافث . كانت النجاة لسام وحام فى سفينة نوح أبيهما .

فمن سام جاءت السامية وتمركزت فى بلاد الشرق ومن حام جاءت الحامية وتمركزت فى الغرب أما يافث فقد عصى أباه ورفض الخضوع لإرشاداته وقال «سوف أبحث عن جبل يعصمنى» فابتلعته مياه الطوفان ونال جزاء عصيانه .

وينقلنا نرڤال إلى عمل آخر يظهر فى طياته اهتمامه بالإسلام وربما يحمل من معانى ومعجزات أخاذة وذلك فى قصائد شعرية بعنون " Les Chimères " الأمانى

الواهية ونجد من بينها العديد من الموضوعات والتركيبات المتعلقة بالدين الإسلامى ففى قصيدة " A Madame Ida Dumas " « إلى السيدة إيدادوما » ينوه الشاعر برحلة الإسراء والمعراج هذه الرحلة المباركة التى أسرى فيها الله سبحانه وتعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم أعرج به إلى السموات السبع حتى وصل إلى سدرة المنتهى تلك الشجرة النورانية التى تحمل فاكهة أعذب من مزيج العسل واللبن وعند هذا الحد توقف جبريل قائلاً لرسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) :

إذا تقدمت (أنا) احترقت ..

وإذا تقدمت (أنت) اخترقت .

ويقول نرڤال فى هذا الصدر :

« ثلاثة أصوات هللت منادية عند حافة السماء ونودى من فوق على أخى جبريل» . و «حافة السماء» عبر بها الكاتب عن تلك البقعة المباركة التى ارتفعت فيها سدرة المنتهى شامخة عالية .

ومن خلال رحلاته العديدة كان جيرار دى نرڤال فى حقيقة الأمر يبحث عما يجيش فى نفسه من حرمان وفقدان للحنان : حنان الأم التى رحلت عنه منذ طفولته وظل دائم البحث عنها فى كل مكان وفى كل أوان وبكل المعانى – وصرخ صرخة مدوية من الأعماق فى كتابه بندوره Pandora قائلاً :

« واه حصرتاه روحين تمزقان قلبى وكل واحدة تريد الإنفصال عن الأخرى»[1] .

---

(١) جيرار دى نرڤال : بندوره : ص ٣٤ .

وبالفعل ظل هذا الكاتب يتخبط بين طريقين طريق الإيمان وطريق الإلحاد. ولم يتردد فى القول :

« أنتم يامن سوف تخضعون للثبات أسلموا أرواحكم لمن لا تأخذه سنة ولا نوم» .[١]

ولكنه سرعان ما قال أيضاً :

يا للهاوية .... يا للهاوية ... يا للهاوية ...

الرب غائب عن المحراب حيث أصبحت الضحية ...

الرب غير موجود ... الرب لن يكون أبداً موجود » ... [٢]

هكذا ، رغم كل ما عرفه نرفال من حقائق عن الإسلام ورغم كل ما أشاد به من معان سامية ومواقف خلابة إلا أنه لم يستطيع الإلمام بمحتوياته الحقيقية وضل الطريق وتلاشت خطاه وضاع فى طى الظلمات واليأس والجنون ثم الإنتحار ...

لقد بحث طويلاً عن النور واختلط عليه الأمر فتمسك بنور زائف وافتقد نور الإيمان نور الهدى نور الحق الذى يبعث فى كل إنسان مؤمن كما جاء فى الإنجيل.[٣] والقرآن « الله نور السماوات والأرض » .

---

(١) جيرار دى نرفال : رحلة إلى الشرق . نساء القاهرة ، ص ١٢٢ .

(٢) جيرار دى نرفال : الأمانى الواهية « المسيح صاحب شجر الزيتون » ٧٠٥.

(٣) الإنجيل : العهد الجديد ١ - ٩ ص ١٠٦٠ .

ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« يهدى الله لنوره من يشاء والله بكل شئ عليم »[1]

ويقول وهو أصدق القائلين :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما » [2]

صدق الله العظيم

---

(١) القرآن الكريم - سورة النور - الآية ٣٥ .

(٢) القرآن الكريم - سورة الأحزاب - الآية ٤٣ .